FIFA WORLD CUP RUSSIA 2018

رواية

جوزيبِّه تومّازي دي لامبيدوزا

الفهد

ترجمها عن الإيطالية: **عيسى الناعوري**

أشرف وزاد عليها حسب الطبعة الأخيرة

معاوية عبد المجيد

المتوسط

جوزيِّه توماّزي دي لامبيدوزا

الفهد

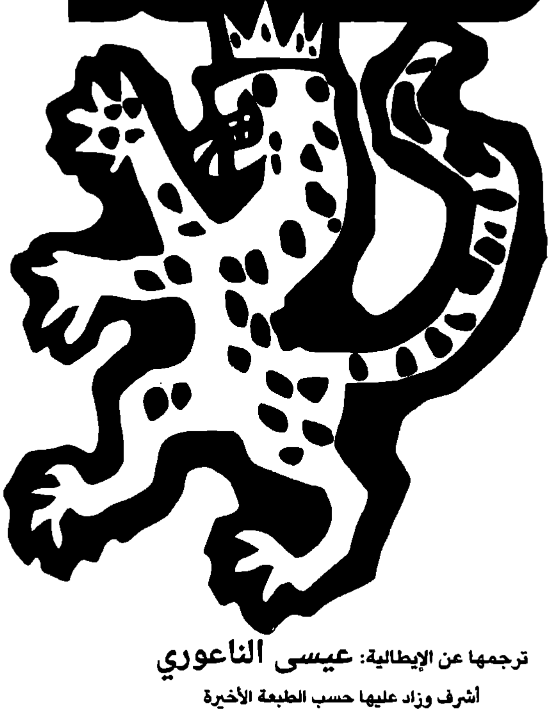

ترجمها عن الإيطالية: **عيسى الناعوري**

أشرف وزاد عليها حسب الطبعة الأخيرة

معاوية عبد المجيد

المتوسط

الفهد

حقوق الترجمة والنسخ © ٢٠١٧ **منشورات المتوسط** - إيطاليا.

جميـع الحقـوق محفوظـة. لا يُسـمح بنسـخ أو اسـتعمال أو إعـادة إصـدار أي جـزء مـن هـذا الكتـاب سـواء ورقيـاً أو إلكترونيـاً أو تخزينـه في نطـاق اسـتعادة المعلومـات أو نقلـه بأي شـكل مـن الأشـكال، دون إذن خطـي مـن النـاشر. ويجـوز اسـتخدامه لأغـراض تعليميـة أو لإصـدار كتـب موجهّـة إلى ضعيفـي البـصر أو فاقديـه شريطـة إعـلام الـدار. تسـتثنى أيضـاً الاقتباسـات القصـيرة المسـتخدمة في عـرض الكتـاب.

Il Gattopardo *by* "Giuseppe Tomasi di Lampedusa"
Copyright © Giangiacomo Feltrinelli Editore, Milano, 1969, 2002 - All rights reserved
First published by Giangiacomo Feltrinelli Editore in 1968
Arabic translation copyright © 2017 by **Almutawassit Books**.

عنوان الكتاب: الفهد
المؤلف: جوزيبّه تومّازي دي لامبيدوزا / المترجم: عيسى الناعوري
أشرف وزاد عليها حسب الطبعة الأخيرة: معاوية عبد المجيد
الطبعة الأولى: ٢٠١٧.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-85771-04-8

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

ملاحظات الناشر

في عام ٢٠١٢، أصدرت دار النشر فيلترينلّي الطبعة الثامنة والتسعين من هذه الرواية. وقد أشرف على تقديمها جواكّينو لانتسا دي أسّارو؛ وهو من أقارب الأمير لامبيدوزا، وكان من أكثر المقرّبين له في أيامه الأخيرة، حتّى أن الأمير (لامبيدوزا)، والذي لم يُرزَق بأولاد، تبنّاه.

وفي هذه الطبعة الخاصّة، يستطرد جواكّينو في الحديث عن المراحل المتعدّدة لنشر هذه الرواية. فكما رأينا في تقديم المستعرب ريتستانو، صدرت الطبعة الأولى بعد وفاة المؤلّف، أي إنّه لم يستطع أن يُقيّمها. وكان من قبل قد أرسل مخطوطَيْن إلى دارَيْ نشر مُعتبرَتَيْن في إيطاليا، فرُفضا. بل كانت مخطوطاته تتراوح بين الدفاتر بخطّ اليد والأوراق المُنضّدة على الآلة الكاتبة، وما بينهما من شطب وإدخالٍ من الكاتب نفسه. حتّى إنّ طبعة فلترينلّي الأولى، تولّى إصدارها الأديب الكبير جورجو باسّاني، وقد أجرى عليها تصحيحات وتعديلات طفيفة. إلى أن قُوِّضت الفوضى بصدور طبعة العام ٢٠١٢، والتي وافت الشروط المنطقيّة كلّها لإرادة الكاتب بما كتب.

وبالفعل، يكشف جواكّينو – كونه الوريث الشرعيّ – عن المقاطع التي عُثر عليها بين أوراق لامبيدوزا، ولم يتسنّ للأخير وقتٌ كافٍ للعمل عليها، وضمّها إلى الرواية، أو إلى طبعتها القادمة لو أنّه بقي على قيد الحياة.

ونحن هنا، ومن أهمية هذه الرواية وقيمتها في الأدب الإيطالي المعاصر، وقيمة ترجمة الناعوري البارعة والمتقنة للرواية، والتي صاغها المترجم على أفضل ما تكون عليه الترجمة، يسعدنا أن نعيد للقارئ العربيّ إصدار هذه الرواية متتبعين كل تلك الإضافات والتطورات التي لحقت بها، خاصة أن طبعاتها في اللغة الأصلية جاوزت المائة حتى الآن. تلك الإضافات، التي أُدخِلَت إلى معظم الترجمات الأوروبيّة والآسيوية أيضاً، نمررها هنا تماماً كما في الطبعة الأصلية الأخيرة للكتاب، منها ماهو مهمش داخل النص (الإضافات الصغيرة والتعديلات)، ومنها (الإضافات الكبيرة) ملحقة في آخر الكتاب. كما أضفنا هنا مقدمة الكاتب الإيطالي الكبير والمحرر المعلم جورجو باسّاني والذي يعود الفضل له في نشر هذه الرواية، ولمقدمته في انتشارها.

مقدّمة الكاتب الإيطاليّ الكبير
جورجو باسّاني للطبعة الأولى عام ١٩٥٨

كان اللقاء الأوّل والأخير الذي جمعني بجوزيبي تومازي، أمير لامبيدوزا، في صيف العام ١٩٥٤، في سان بيليغرينو تيرمه، بمناسبة مؤتمر أدبيّ، أُقيم في فيلا دو الصغيرة، في مقاطعة لومبارديا، بمبادرة من جوزيبي رافينياني والبلديّة المحليّة. وكانت الغاية من المؤتمر، التي تداعت لنقله وسائل الإعلام، وثلّة من الصحفيّيْن المصوّرين، كالتالي: عشرة من بين أرفع الأدباء الإيطاليّين المعاصرين سيقدّمون للجمهور (القليل) عدداً لا بأس به من "الآمال" المتعلّقة بآخر الإصدارات الأدبيّة.

ليس لنا هنا أن نخوض بالتفصيل في كيفيّة سَيْر المؤتمر، وتحليل نتائجه، رغم تأخّر الوقت. إذ كان المؤتمر مفيداً من جهة أخرى، فهناك في سان بيليغرينو، أذاع علينا الشاعر يوجينيو مونتالي النبأ الأوّل عن وجود شاعر أصيل وجديد: البارون لوتشو بيكولو، من كابو دورلاندو (ميسينا). وقد صدرت قصائد بيكولو، مسبوقةً بالمكتوب نفسه الذي تلاه مونتالي على مسامعنا حينئذ، في أحد أبواب دار موندادوري للنشر، وأعلم أنيّ لن أضيف شيئاً استثنائيّاً للتأكيد على أنّ هذه القصائد تمثّل أفضل ما نُشر من شِعْرٍ نقيّ في إيطاليا خلال الأعوام الأخيرة. وماذا أيضاً؟ أثبت بيكولو أنّه الاكتشاف الحقيقيّ لذلك المؤتمر. رجلٌ تجاوز الخمسين من عمره، شاردٌ وخجول للغاية كأنّه شابّ صغير، فاجأ جميع الحاضرين وأدهشهم، شيوخاً وشبّاناً. ملامحه تدلّ على سيّدٍ عظيم، لا يميل إلى الاستعراض مطلقاً،

بل وحتّى أناقة هندامه تعود لزمانٍ آخر، بملابس غامقة اللون، تمتاز بها صِقلية. جاء من صِقِلية بالقطار: رافقه ابن عمّه، الذي يكبره سنّاً، إضافةٍ إلى أحد الخَدَم. وهذا ما يكفي لإثارة قبيلة من المثقّفين الآتين بما يشبه الإجازة! الحاصل أنّ بيكولو وابن عمّه وخادمه (ثلاثيٌّ فريد من نوعه، لا ينفصل أحدهم عن الآخر: الخادم الأسمر والمكتنز كحامل الألوية، لم تحد عيناه عن سيّده وقريبه لحظةً واحدة ...) خلال يومٍ ونصف اليوم من إقامتنا في سان بيليغرينو، حصلوا على فضول الجميع واستلطافهم وإعجابهم.

وكان لوتشو بيكولو بنفسه مَنْ صرّح عن اسم ابن عمّه ولقبه: جوزيبي تومازي، أمير لامبيدوزا. كان سيّداً طويل القامة، مكتنز البنية، متحفّظاً في صمته، شاحب الوجه، جنوبيّ الملامح، وغامق البشرة. من سترته الراقية، مربوطة الأزرار بعناية فائقة؛ من وضعيّة القبّعة المائلة على عينَيْه؛ من العكّاز المعشّق التي يتّكئ عليها بشدّة في سَيْره؛ قد يحسبه الناظر إليه جنرالاً في نقاهة، أو ما هو من هذا القبيل. كان يتمشّى بجانب ابن عمّه في الدروب المحيطة بصالة الكورسال، أو يحضر اجتماعات المؤتمر المنعقد في الصالة الداخليّة؛ متستّراً بالصمت دوماً، يزمّ شَفَتَيْه بمرارة على الدوام. وحين قدّموني إليه، اكتفى بانحناءة وجيزة من دون أن يقول كلمة واحدة.

ثمّ مرّت خمسة أعوام، دون أن أعرف أيّ شيء عن أمير لامبيدوزا. حتّى إذا شاع خبر تحضيراتي لنشر سلسلةِ كُتُبيّة جديدة، في الصيف الماضي، خطرت فكرةٌ رائعة في ذهن صديقة عزيزة من نابولي. اتّصلت بي قائلةً بأنّ لديها شيئاً ما لي: "رواية". كان قد أرسلها إليها أحد معارفها في صِقِلية منذ وقتٍ مضى. وقد قرأتْها، وبدت لها في غاية الأهمّيّة. وبما أنّها عرفتْ بنشاطي النشريّ الجديد، كانت مسرورةً لوضع الرواية تحت

تصرّفي. - "مَنْ ألّفها؟" سألتُها. "لا أعرف بصراحة. لكنّي أعتقد أنّه ليس من الصعب معرفة اسم المؤلّف". وبعد فترة، كان المخطوط بين يَدَيّ. لم يكن عليه أيّ إمضاء. ومع هذا، سرعان ما جزمتُ بأنّي بصدد قراءة عملٍ مهمّ، لكاتبٍ حقيقيّ، منذ أن قرأتُ الجملة الأولى الرائعة. كان هذا كافياً. قرأتُ الرواية كاملةً في غضون وقت قصير، ولم أزدد إلّا يقيناً من صِدْق انطباعاتي الأولى. اتّصلتُ بمدينة باليرمو مباشرة. وهكذا عرفتُ أنّ كاتب الرواية هو جوزيبي تومازي، دوق بالما وأمير لامبيدوزا: أجل، إنّه هو، ابن عمّ الشاعر لوتشو بيكولو، من كابو دورلاندو - أكّدوا لي. إلّا أنّ الأمير، مع الأسف، أصابه مرضٌ خطير منذ عام تقريباً، وتوفيّ في روما، ربيع العام ١٩٥٧، حيث ذهب للبحث عن فرصة مستعجلة للعلاج في يوليو من العام نفسه.

من المعلوم أنّ الحياة موسيقيّة. لا تحبّ تأجيل مواضيعها الأساسيّة وأنغامها المكثّفة. تكتفي بأن تمنحكَ إيّاها على حين غرّة، أو أن تنوّه بها قبل لحظات ...

ذهبتُ إلى باليرمو، إذنْ، أواخر ربيع هذا العام. وكانت الرحلة مثمرة، رغم كلّ شيء: لأنّ المخطوط الأصليّ للرواية - دفتر ضخم مخطّط، مملوء كلّه تقريباً بخطّ الكاتب الرفيع - نتج بعد الاختبار أنّه أكثر اكتمالاً ودقّة من النسخة التي وصلتني. وأسعدني في باليرمو التّعرّف على زوجة الكاتب، باحثة بارزة في الاضطرابات النَّفْسية (وهي نائب رئيس الجمعيّة الإيطاليّة للتحليل النَّفْسيّ). وحصلتُ منها على معلومات كثيرة عن جوزيبي تومازي دي لامبيدوزا. أكثرها إدهاشاً بالنسبة إليّ كانت هذه المعلومة: أنّ رواية "الفهد" كُتبتْ من أوّلها إلى آخرها بين العام ١٩٥٥ وعام ١٩٥٦. عمليّاً،

جرت الأمور على الشكل التالي: بعد عودته من سان بيليغرينو، شرع الأمير المسكين بالعمل على الرواية، وأُنجز الكتاب في غضون شهور قصيرة، فصلاً تلو الآخر. وما لبث يُعيد نسخه حتّى بادرتْه أوائل أعراض المرض، فغيّبه الموت بعد عدّة أسابيع. "باح لي منذ خمسة وعشرين عاماً بنيّته كتابة رواية تاريخيّة، تدور في صِقِلية إبّان رسوّ غاريبالدي في مارسالا، مركّزةً على شخصيّة والد جدّه من أبيه، جوليو دي لامبيدوزا، الفلكيّ" – قالت لي زوجته – "كان يفكّر في الأمر باستمرار، لكنّه لم يقرّر الشروع في الكتابة أبداً". وفي النهاية، ما إن كتب السطور الأولى، حتّى انساب العمل متدفّقاً. كان يقصد منتدى بيليني، ليكتب فيه. يخرج من البيت في الصباح الباكر، ولا يعود قبل الثالثة ظهراً.

في باليرمو، حصلتُ على أوراق أخرى مبعثرة: أربع قصص، عدّة أبحاث حول الرواية الفرنسيّة في القرن التاسع عشر (ستاندال، ميرميه، فلوبير). من الممكن فعلاً الاعتماد على جميع هذه الموادّ، لتكوين فكرة أدقّ عن شخصيّة هذا الكاتب، سواءً أكانت من الناحية الفكريّة أم من الناحية الأخلاقيّة. لأنّه كان رجلاً مثقّفاً للغاية. كان لديه اطّلاعٌ عميق على كلّ الآداب الأساسيّة، بلغاتها الأصليّة. وفي أواخر عمره، ضمّ إليه مجموعة من الشّبّان المتميّزين، وقام على تدريسهم الأدب ونقده.

والآن يسعدني أن ألفت الانتباه إلى هذه الرواية الوحيدة التي تركها لنا لامبيدوزا. رواية مكتملة بفصولها كلها. شمول رؤيةٍ تاريخيّة ممزوجةً بنظرةٍ ثاقبة للواقع الاجتماعيّ والسياسيّ في إيطاليا المعاصرة، وفي أيّامنا هذه. موهبةٌ حميدةٌ في السخرية. طاقةٌ شعريّة هائلة وأصيلة. إخراجٌ تعبيريّ متكامل وساحر. كلّ ما في هذه الرواية، في رأيي، يجعل منها عملاً

أدبيّاً استثنائيّاً. روايةٌ من تلك الروايات التي تستغرق حياةً كاملة للعمل عليها. ومثلما في "نوّاب الملك" لفيديريكو دي روبيرتو، ففي "الفهد" أيضاً، نحن أمام عائلةٍ من أعلى الطبقات الأرستقراطيّة التي تعيش في جزيرة، عائلة بصيرة باللحظة التاريخيّة التي تشهد تحوّل النظام الحاكم، وتبدّل العصور، وانقلاب الأحوال. لا وجود لأيّ تفاصيل توثيقيّة تنهك متن الرواية، لا وجود لسماتٍ طبعانيّة موضوعيّة. ترتكز الرواية كُلّيّاً على شخصيّة واحدة، الأمير فابريتسيو سالينا، الذي قد يحمل تلميحات إلى والد جدّ الكاتب، لكنّه يمثّل لوحةً ذاتيّة للكاتب نفسه أيضاً، لوحةً شاعريّة وأسطوريّة. وهذا ما يجعلنا نراه أقرب إلى كاتبٍ معاصر أكثر من دي روبيرتو. فلنقل برانكاتي مثلاً، أو أحد أدباء بريطانيا في أوائل القرن العشرين، فورستر على سبيل المثال.

يبدو لي أنيّ قلتُ الضروريّ في هذه الحالة. سنطلب من النّقّاد لاحقاً أن يضعوا كاتبنا في المكان الذي يليق به، في تاريخ الأدب الإيطاليّ للقرن العشرين.

بالنسبة إليّ، أكرّر، أفضّل ألّا أضيف شيئاً آخر. إنيّ على قناعة بأنّ الشِّعْر، إذا كان موجوداً – وفي هذه الرواية لا شكّ في وجوده – يستحقّ أن يُؤخَذ بعين الاعتبار من أجل كونه شِعْراً وحسب، حتّى هذه اللحظة على الأقلّ، من أجل لعبته الغريبة التي يتكوّن منها، من أجل أساسيّة هبة الإيهام والحقيقة والموسيقى التي يرغب في منحنا إيّاها.

فلتُقرأ هذه الرواية من أوّلها إلى آخرها، بكلّ التسليم الذي يتطلّبه الشِّعْر الحقيقيّ. خلال ذلك الوقت، سيُغرَم جمهورُ القرّاء – كما كان يحدث في الماضي – بشخصيّات هذه الحكاية، التي أغلق الكاتب على نفسه

فيها – تماماً كما كان الشعراء يفعلون في الماضي. سيُغرَمون بالأمير – الدون فابريتسيو سالينا، أقصد – وتانكريدي فالكونيري، وأنجيليكا سيدارا، وكونشيتا، والآخرين جميعاً: بما فيهم الكلب المسكين بنديكو.

سبتمبر ١٩٥٨

(ترجمة معاوية عبد المجيد)

الفهد

ترجمة: **عيسى الناعوري**

تقديم
للمستعرب الإيطالي أومبرتو ريتستانو

جوزيبّي تومازي، أمير لامبيدوزا (جزيرة في البحر المتوسّط على مسافة مائتي وخمسة كيلومترات عن ساحل مارينا دي بالما الصقليّ الأوسط، و١١ كيلومتراً عن الشواطئ التونسية). وُلد عام ١٨٩٦. واشترك في الحرب العالمية الأولى برتبة ضابط، وبقي في الجيش حتّى عام ١٩٢٥. ثمّ عاد إلى حياته الخاصّة، وقام برحلات وإقامات طويلة في الخارج بعد أن تخرّج في الحقوق من جامعة تورينو. وفي أحد أسفاره العديدة، تعرّف في إنكلترا على البارونة البلطيكية الشّابّة أليسّندرا وولف ستومرسي، التي أصبحت زوجته لاحقاً. وهي اليوم من ألمع المشتغلين بالتحليل النَّفْسي.

أُصيب تومازي بمرضٍ خطير في ربيع عام ١٩٥٧، وتوفّي في روما، حيث ذهب في محاولة قصوى للعلاج، في شهر تمّوز من العام نفسه.

من الناحية الجسدية، كان الأمير رجلاً مديد القامة، بديناً، تعلو وجهه صفرة الشحوب، كما يقول الذين عرفوه. وكان نظره حادّاً، كثير التدقيق والتّأمّل معاً. وكان في طبعه متحفّظاً صموتاً، قليل الكلام، ودائماً في عَظَمَة النبلاء. وكان معروفاً بثقافته الواسعة جدّاً، والتي لم يصل إليها بسهولة. إذ كان يعرف خمس لغات: فهو يتكلّم الفرنسية، والإنجليزية، والألمانية بإتقان تامّ؛ ويقرأ الروسية والإسبانية. وكان يطالع الأعمال الأدبية بلغاتها الأصلية، والروسية من بينها. والفضل في ذلك لزوجته التي علّمته

لغة تولستوي. وكان اهتمامه بالثقافة يجد صداه في شَغَفه بالكُتُب التي شرع يشتريها منذ طفولته: فكان يجمع منها الكثير جدّاً، ويشرف بنفسه على تجليدها. ومن المؤلّفين الإيطاليين المفضّلين لديه نجد: كروتشه، مانزوني، فيرغا، ومن الأجانب (وهم أكثر عدداً): غوته، وستاندال، وفلوبير، وميريه، وشكسبير، وبروست، وديكنز، وراسين، و تولستوي، وويلز. وكان قليل الأصدقاء، فظلّ بينهم كثير العزلة.

ومن عام ١٩٥٣ إلى عام ١٩٥٥، أنشأ في منزلِه الخاصّ حلقة للمحادثات والدروس لعدد من الشّبّان. ولهؤلاء الشّبّان كَتَبَ عدداً من المقالات حول القصّة في القرن التاسع عشر، وبعض الأقاصيص التي لم يدفع بها إلى النشر. حتّى رواية (الفهد) خلّفها غير منشورة كذلك؛ وكان قد كَتَبَهَا قبل وفاته بقليل، ولكنه كان يتهيّأ لكتابتها منذ زمان طويل. وهذه الرواية التي نُشرت فيما بعد (١٩٥٨) نالت من النجاح اللافت في إيطاليا والخارج ما يجعلها من الخوارق الأدبية الفريدة جدّاً في الأعوام الأخيرة.

لم يستطع تومازي، إذنْ، أن يقطف نجاح روايته الوحيدة أو يتذوّقه؛ ولا استطاع، من الجهة الأخرى، أن يعتزّ بهذا النجاح، وهو المعروف ببساطته. ولعلّ من الممكن جدّاً، لو نُشرت (الفهد) في حياة المؤلّف، أن يكون حظّها من النجاح أقلّ ممّا نالت.

إن السِّحْر التلقائي والخيالي الذي أثارتْه الرواية الوحيدة، والمنشورة لاحقاً، لمؤلّف غير محترف، كان له أهمّيّته دون ريب. غير أن سِحْر الرواية الحقيقي ينبع من شخصية القاصّ وطبعه، فهو ينحت شخوصه بيد ثابتة وواثقة؛ وتنبع كذلك من لغة شعرية متدفّقة، وبشكل خاصّ، من عالم مليء بالمشاعر.

لقد كان النجاح لافتاً جدّاً وسريعاً، سواء من جانب الجمهور أم من جانب النقد، وإن يكن قد ظهر شيء من التّحفّظ. ولم يعد من الممكن إحصاء عدد النسخ التي بيعت من الرواية في العالم كله: وقد تُرجمت حتّى الآن إلى الفرنسية، والإنجليزية، والألمانية (بمساعدة أرملة المؤلّف) والدنمركية، والنرويجية، والسويدية، والفنلندية، والروسية ... واليوم إلى العربية أيضاً، لحسن الحظّ.

وفي آذار ١٩٥٩، نالت دار (تيتانوس) السينمائية حقّ إنتاجها (وكما هو معروف، كان بين ممثّلي الفلم: بيرت لانكستر (فابريتسيو سالينا)، وكلارا كارديناله (أنجيليكا سيدارا). وفي آب ١٩٥٩ فازت الرواية بجائزة (ستريغا).

***

إن هذا الكتاب الذي يدور على البيئة الصقليّة في عهد النهضة الإيطالية، وبشكل أدقّ، في عهد نزول غاريبالدي ورفاقه الألف في مارسالا (١٨٦٠)، وعند تبدّل النظام الحاكم، يرتبط بالقصّة الصقليّة التي بدأت من عند كابوانا، وفيرغا، وعلى الأخصّ، دي روبرتو. وهو في الظاهر رواية تاريخية، تدور حول المجتمع الصقلي في عهد ما بين دخول جيوش غاريبالدي إلى الجزيرة، ونهاية القرن التاسع عشر، ويتركّز على أحداث البطل: السّيّد فابريتسيو أمير سالينا، وهو أرستقراطي مستنير (وفي صورته، استرجع تومازي صورة جَدّه لأبيه، وصوّر بشكل خاصّ صورة نفسه في أشدّ خصوصياته خفاء). وكذلك يتركّز الكتاب على ابن أخته (تانكريدي)، الشّابّ النبيل الذي حارب في صفوف غاريبالدي ضدّ البوربون، ثمّ انضمّ بعدئذ إلى النظام البورجوازي الجديد. وبهذه الرواية، شاء تومازي دي لامبيدوزا أن يُبرز بشكل روائي "الخيبة التاريخية" للحرب العالمية الثانية،

بتصويره نهاية النهضة، وبداية الوحدة الإيطالية، معرباً عن عدم ثقة أليم ومحزن في التاريخ، وفي إمكانيّاته للنجاة والتّقدّم.

وهكذا لم تكن (الفهد)، كما قلتُ، رواية تاريخية، وإنما هي اعتراف وسيرة ذاتية في قالب تاريخي، ورؤية مريرة للحقيقة السياسية والاجتماعية في صِقلية، وللحياة المعاصرة، بصورة عامّة. وليس الدافع الموحي للرواية هو سقوط أسرة اجتماعية وبيت عريق (أسرة سالينا)، لتحلّ محلّها طبقات وفئات جديدة على إثر الحركات الانقلابية، بل هو السقوط المحتوم للناس وللأشياء أمام الطبيعة اللامبالية. إنه الشعور باندفاع الحياة المستمرّ دون توقّف نحو الموت.

من هنا كانت كثافة التآلف النقدي والنَّفسي والأخلاقي التي ترافق الرواية، وتلاحُقُ ذلك – رغم وحدته الغنائية - في فصول متقطّعة ما بين الابتداع والاستحضار، وبين الحقيقة والخرافة، وبين القصص بمعناه الحقيقي والمقال: فإلى جانب صورة الأمير فابريتسيو، يتحرّك أشخاص آخرون: الزوجة ماريّا ستيلا بأزماتها الهستيرية، والأب بيرّونه (كاهن يسوعي) وأنجيليكا خطيبة تانكريدي، ابن أخت الأمير وفتاه الحبيب الذي يُفضّله على ابنه باولو، لطَبْعه الأقلّ بلادة، والأكثر حيوية، ولشخصيّته الأشدّ بروزاً وتميّزاً. وهناك أشخاص آخرون عديدون، ولكنْ، ليس فيهم مَنْ نجا من الرؤية الأليمة التي يحملها المؤلّف للحياة التي يُصوّرها ملأى بالآلام والسآمة والمرارات والأمراض. حتّى أنجيليكا، مثلاً، وهي المرأة اللامعة التي دُعيت، لتبعث القوّة من جديد في سلالة سالينا المنهارة، والتي تمتاز بالجمال الباهر؛ تصبح منذ أوّل ظهورها مخلوقة بين أناس، هزمتْهم الحياة والأقدار: دون حبّ، ودون حقيقة، ودون جمال حميم؛ وبطلة لبعض أعمال الفسق الباهتة وسهرات العَرْض.

ثمّ إن تاريخ أسرة لامبيدوزا – الحافل بالأضواء والظلال وبالمجد والرماد–

حيّ وماثل في ذهن تومازي، ويبدو أنه يُثقل قلب آخر الفهود، سليل البيت العريق، وابن الأجيال الماضية. لقد حُرم الأمير المؤلّف من الأبوّة وفرحتها مثلما حُرم الأمير سالينا من قبل من "الفخر بإضافة غصن صغير إلى شجرة بيت سالينا". ثمّ إن الله بعيد عن السّيّد فابريتسيو؛ ولعله كان أبعد من النجوم التي كان الأمير سالينا يداعبها في الفضاء اللامتناهي. في تلك النجوم وحدها يجد الفهد الانسجام والنقاء وعدم الفساد والأزلية: وهذه كلها أشياء لا وجود لها في العالم الأرضي. إنه يجد في علم الفلك تلك التعزية التي لم يستطع الدِّين أن يمنحه إيّاها. ولكنْ، أيّة تعزية أخرى تبقى؟ ليس سوى التعزية التي تقدّمها الحقيقة الأخيرة: الموت.

إن الرواية نفسها يمكن أن تبدو، إلى حدّ بعيد - كما ذكرنا من قبل - تنويعة من هذا الموضوع، المحوري حيناً، والبعيد حيناً آخر، ولكنه دائماً حاضر ومنظور: كل شكوك الحياة ليست سوى سباق نحو يقين الموت. أمّا ما يهمّني الآن، فهو أن ألفت انتباه القرّاء إلى الرواية التي خلّفها لنا أمير لامبيدوزا، وأن أستمدّ منها حُكماً ختامياً: إن الاتّساع في الرؤية التاريخية، مضافاً إلى الإدراك الدقيق جدّاً لحقيقة إيطاليا الاجتماعية والسياسية في ذلك الحين، وفي الوقت الحاضر، والروح المرحة اللذيذة، والقوّة الغنائية الأصيلة، الكاملة دائماً، والساحرة أحياناً، والإخراج المعبّر: ذلك كله يجعل من هذا الكتاب عملاً نادراً مثاله.

فليُقرأ الكتاب، إذنْ، من أوّله إلى آخره، بكلّ ما يتطلّبه الشعر الحقيقي من انجذاب. فسيجد الجهور الأكبر من القرّاء أنفسهم منساقين إلى محبّة أشخاص الرواية، وأعني بهم: الأمير فابريتسيو سالينا، وتانكريدي فالكونيري، وأنجيليكا سيدارا، وكونشيتا، والآخرين جميعهم، حتّى الكلب المسكين بنديكو.

ولكنني قبل الختام أجد من الواجب عليّ، ومن دواعي غبطتي، أن أقول كلمة حول المترجم والترجمة. وهذا جهد صغير، في الحقيقة، كان يمكن أن أستغني عنه، لأن من نافلة القول أن أقدّم عيسى الناعوري إلى العالم العربي الذي يعرفه جيّداً. فهذا المترجم، والناثر، والشاعر، والأديب، والبحّاثة المبدع، معروف معرفة جيّدة لدى جمع أبناء أمّته العرب، سواء بغزارة إنتاجه، أم بنوعية هذا الإنتاج الراقية. غير أنني أودّ ههنا أن أقدّم بنوع خاصّ عيسى الناعوري المترجم، وصاحب الترجمات الدقيقة دائماً والأنيقة، لجوزيبّي تشيزاره أبّا، وجوفانيّ موسكا، وألفريدو بانتسيني، وألبرتو مورافيا، ولويجي بيرانديللو، الذين نعدّهم أعظم ممثّلي الأدب الإيطالي في القرنَيْن التاسع عشر والعشرين؛ وأن أقدّم كذلك عيسى الناعوري مترجم (فونتمارا) لاياتسيو سيلونه (بيروت ١٩٦٣). وتُضاف الآن إلى هذه الترجمات كلها رواية (الفهد) التي حاولتُ أن أعرّف القرّاء الكرام بها ههنا. هذه الترجمة تضاف إلى الترجمات الأخرى – وكلّها ذات فضل، وينبغي أن أقول إنه فضل كبير – في جعل العالم العربي المثقّف على صلة مباشرة بالإنتاج القصصي والروائي الإيطالي المعاصر.

إن إيطاليا ومستعربيها لا يسعهم إلا أن يقدّروا فضله. وإن صديقه ريتسيتانو ليتمنّى شخصياً أن يستمرّ نشاطه هذا طويلاً، ليُتاح له إدخال الثقافة الإيطالية إلى العالم العربي. وهذا ما أكافح أنا أيضاً من أجله منذ أعوام كثيرة.

أومبرتو ريتسيتانو

عميد معهد الدراسات الشرقية / باليرمو- إيطاليا

١. الأمير في أسرته وإقطاعه

(مايو، ١٨٦٠)

"الآن، وفي ساعة موتنا، آمين!"(*)

كانت التلاوة اليومية لصلاة المسبحة قد انتهت ... في مدى نصف ساعة، كان صوت الأمير الرخيم قد تلا أسرار المجد، وفي مدى نصف ساعة، كانت دمدمة أصوات أخرى مختلطة، تعلو وتنخفض، وكأنّ الألفاظ غير العاديّة التي تردّدها أزهار ذهبيّة، تنفصل عن عروقها: الحبّ، العذريّة، الموت. وخلال تلك الدمدمة تبدو القاعة الرحيبة وقد تبدّل شكلها. حتّى الببغاوات الباسطة أجنحتها الملوّنة على الحرير كانت تبدو متهيّبة، وحتّى المجدلية المنتصب تمثالها بين النافذَتَيْن لم تعد تلك الفتاة الشقراء الغارقة في أحلام، لا يدري أحد كنهها، كما كانت تبدو دائماً، بل غدت كأنّها امرأة تائبة.

الآن وقد صمت الصوت، أخذ كل شيء يعود إلى النظام والفوضى المألوفَيْن. ومن الباب الذي خرج منه الخَدَم دخل الكلب (بنديكو)، وراح يهزّ ذيله، مُبدياً استياءه لاستثنائه من المشاركة في الصلاة. ونهضت النساء متثاقلات، ومضت أذيال ثيابهنّ، تكشف شيئاً فشيئاً في أثناء سيرهنّ عن الرسوم الأسطورية العارية المرسومة على البلاط. ولم يبقَ شيء تحت غطاءٍ

*) القسم الأخير من صلاة كاثوليكية، تُدعى (السلام الملائكي) تُتلى في تحيّة السّيّدة العذراء. ويجد القارئ بعد ذلك ألفاظاً وتعابير أخرى مثل (أسرار المجد وأسرار الألم). وغيرها من التعابير الدِّينية الكاثوليكية، وهي تدخل في صلاة "المسبحة الوردية". (المترجم).

غيرُ صورة أسطورية، لم ينحسر عنها رداء الأب بيّرونه، الذي تأخّر في تلاوة صلواته النوافل، فتأخّرت بذلك رؤية (بيرسيو) الفضيّ يطير فوق الأمواج مسرعاً لنجدة (أندروميدا)، وتقبيلها.

وفي رسوم السقف الزيتية، تستيقظ الآلهة، وصفوف التريتونيين والدرياديين تتدافع من الجبال والبحار، بين الغيوم والعوسج وبخور مريم، نحو المحارة الذهبية التي تبَدّل شكلها، لكي يشيدوا بمجد أسرة سالينا، وتبدو لأوّل وهلة متهللة إلى حد تناسي أبسط القواعد في رسم المرئيات. والآلهة الكبرى، أو الأمراء من الآلهة، كجوبتير الصاعق، ومارس العبوس، وفينوس الناحلة، يتقدّمون صفوف الآلهة الصغار، ويشتركون راضين في رَفْع الدرع الزرقاء التي تحمل الفهد. لقد كانوا يعرفون الآن أنهم يتولّون السيادة على أملاك الأمير منذ ثلاث وعشرين ساعة ونصف الساعة. وعادت القرود على الجدران، تسخر من الببغاوات.

ومن تحت ذلك الأولمب الباليرمي، كان حتّى أبناء أسرة سالينا الفانون يهبطون على عجل من أفلاكهم الصوفية: فالفتيات يُصلحنَ من طيّات ثيابهنّ، ويبادلنَ النظرات بعيونهنّ الزرق، ويتبادلنَ الكلمات بلهجة مذهّبة. منذ أكثر من شهر، أو منذ يوم حوادث الشغب، في الرابع من نيسان، كانوا قد أعادوهنّ من الدَّيْر خشية عليهنّ. فكنّ يأسفنَ على فراق الأسرّة ذات الجوانب المرتفعة المُظلّلة، وعلى صلتهنّ الحميمة هناك بالمخلّص. وكان الأولاد يتجاذبون شَعر بعضهم البعض لأجل الحصول على صورة للقدّيس فرنسيس دي باولا. وكان الابن البكْر، وريث الدوق باولو، يودّ أن يُدخّن، ولكنه خشية من أن يفعل ذلك بحضرة أبوَيْه، أدخل يده في جيبه، وراح يعبث بالسجائر المنضَّدة داخل العلبة، وفي وجهه الهزيل كآبة

ميتافيزيقية. لقد كان يومه ذاك سيّئاً: فالحصان الأيرلندي (غويسكاردو) يبدو هزيلاً جدّاً، و(فانيّ) لم تستطع (أو لعلّها لم تشأ) أن تجعله يحصل على بطاقتها المألوفة البنفسجية اللون. لماذا، إذنْ، نزل المسيح الفادي إلى الأرض في جسد إنسان؟

أما الأميرة، فإنّ هيبتها القلقة قد جعلت مسبحتها تسقط بانزعاج ظاهر داخل حقيبة يدها المعدنية المزركشة، بينما تُراقب عيناها الجميلتان والغبيتان أبناءَها، وخَدَمَها، وزوجها الطاغية الذي كان جسدها الضئيل يتلهّف عَبَثاً إلى الخضوع لسلطان حبّه. وفي أثناء ذلك، ينهض الأمير، فتهتزّ أرض القاعة تحت ثقل جسده الجبّار، وفي عينَيْه شديدَتيَ الصفاء ينعكس، في لحظة خاطفة، زهو عابر لتوكيد سلطانه وسيطرته على الناس والأشياء. ها هو يضع كتاب الصلاة الأحمر الضخم على المنضدة التي كانت أمامه في أثناء تلاوته للمسبحة، ويُعيد إلى جيبه المنديل الذي كان راكعاً فوقه، ويتجهّم وجهه امتعاضاً، إذ تقع عيناه من جديد على بقعة من القهوة، سقطت منذ الصباح على صدريّته، فشوّهت بياضها الرحيب.

لم يكن بديناً، لكنّه كان مديداً وجبّاراً فقط. كان رأسه - حين يدخل البيوت التي يسكنها الأناس العاديون الزائلون- يلامس الطرف الأسفل لمصباح السقف، وكانت أصابعه تستطيع أن تمسح قطعة نقد معدنية كأنها ورقة. وبين قصر سالينا ودكّان أحد الصاغة هناك، كانت حركة ذهاب وإياب دائبة لأجل إصلاح الملاعق والشوك التي كان في حدّته على المائدة، يثنيها ويلويها حتّى يحيلها إلى حلقة. ومن جهة أخرى، كانت تلك الأصابع تعرف أيضاً كيف تكون رقيقة الملمس في المداعبة والملاطفة. إن

زوجته ماريا ستيلا تذكر ذلك بألم، وتعرفه كذلك اللوالب والأطواق والأزرار الملمّعة في المجاهر والنواظير، وفي "كاشفات الكواكب"، التي كانت تجثم هناك في أعلى القصر، وتملأ فراغ مرقبه الخاصّ، وتظلّ كأنها غير ملموسة تحت لمساته الخفيفة. وكانت أشعّة الشمس المتضائلة، والتي ما تزال مرتفعة في ذلك الأصيل من أيّار، تلهب وجه الأمير المتورّد، وجلده العسلي اللون، اللذَيْن ينمّان عن أصل أمّه الألمانية الأميرة كارولينا التي كان صلفه وتعاظمها سبباً في تجميد بلاط الصقليَّتَيْن قبل ثلاثين عاماً. غير أن دمه كانت تعتلج فيه عناصر جرمانية أشدّ إزعاجاً لذلك الصقليّ الأرستقراطي، في عام ١٨٦٠، أكثر ممّا يمكن أن يعطيه من الجاذبية جلده ناصع البياض، وشعره الأشقر في تلك البيئة من ذوي الوجوه الحنطية والسمراء. كان ذا طبيعة تحكّمية مستبدّة، وعلى جانب من التّصلّب الخلقي؛ وكان يميل إلى الأفكار المُجردّة التي أخذت تتسرّب إلى البيئة الخلقية اللّيّنة في مجتمع باليرمو، وتتحوّل نسبياً إلى تحكيم طائش، ونزوات خلقية مستمرّة، واحتقار لأقاربه وأصدقائه الذين يبدو له أنهم يطفون على وجه التّيّار في التواءات نهر النفعية الصقليّ البطيء.

إن الأمير سليل أسرة، لم يظهر فيها منذ أجيال مَنْ يعرف كيف يجمع حتّى حساب نفقاته الخاصّة، أو يطرح حساب ديونه. فهو أوّل (وآخر) شخص فيها يملك ميلاً حقيقياً شديداً إلى الرياضيات، وقد كرّس موهبته هذه للفلك، وتوصّل من ذلك إلى فوائد عامّة كبيرة، وإلى غبطة شخصية عظيمة. ويكفي أن يُقال إنّ الزهور والتحليل الرياضي قد اجتمعا فيه إلى حدّ أنهما صوّرا له أن النجوم تخضع لحساباته (كما يبدو ذلك فعلاً) وأن النجمَيْن السّيّارَيْن اللذَيْن توصّل إلى اكتشافها (وقد أُدعيا: سالينا، وسفيلتو، باسم إقطاعه وكلب صيد له، لم ينسه) كانا يذيعان شهرة بيته

في الأجواء القاحلة ما بين كوكَبَي المرّيخ والمشتري، وأن رسوم الجدران الزيتية كذلك في قصره كانت أقرب إلى النبوءة منها إلى الوَهْم.

ونتيجة للزُّهُو والاعتزاز والموهبة الفكرية التي ورثها عن أمّه، من جهة، وكذلك للحساسية والسطحية الموروثَتَيْن عن والده، من جهة أخرى، كان الأمير المسكين فابريتسيو يعيش في كآبة دائمة، على الرغم من أنه تحت نَظَر (زيوس)، وكان يتأمّل كيف يُسرع الخراب إلى طبقته الاجتماعية، وإلى أملاكه دون أن يُبدي أدنى نشاط، أو أقلّ رغبة في إصلاح الأمر.

وكان نصف الساعة الذي ينقضي بين صلاة المسبحة والعشاء من أقلّ لحظات النهار إثارة وإزعاجاً، ولذلك كان يتذوّقها قبل أن يصل إلى الطمأنينة (غير المؤكّدة) بساعات.

***

وهبط الأمير السّلّم القصيرة المؤدّية إلى الحديقة، يسبقه كلبه بنديكو الشديد الهياج. وكانت الحديقة محاطة من ثلاث جوانب بالجدران، وبالقصر من الجانب الرابع، ممّا يجعلها تبدو أشبه بمقبرة، تُحدّد معالمها المتوازية المحاذية لقنوات الرّيّ، والتي تُشبه قبوراً عملاقة ضامرة. وعلى الآجرّ الأحمر تنمو النباتات في فوضى كئيبة: فالأزهار تنمو حيث يشاء لها الله أن تبرز، وأسيجة الريحان تبدو كأنما وُضعت في أماكنها لمنع الخطى، لا لإرشادها. وفي الصدر تمثال لإلهة الزهر مبقّع بالنباتات المتسلّقة، لونه أصفر ضارب إلى السواد، يعرض باستسلام تلك المفاتن التي تمادى عليها الزمن. وعلى الجوانب، مقعدان مستطيلان، عليهما مساند مزركشة ملفوفة، وهما كذلك من المرمر الرمادي، وفي أحد الأركان، كانت شجرة

طلح (أكاسيا) تبدو مذهّبة، تفيض بالغبطة في غير أوانها. كل ما هنالك يوحي برغبة في الجمال سرعان ما يحطّمها الخمول.

غير أن الحديقة، على الرغم من أنها محصورة وممزّقة بتلك الحواجز، كانت تفوح منها روائح عطرة، شهوانية، وإلى حدّ ما، قذرة، كالسوائل العطرة المستخرَجَة من ذخائر بعض القدّيسات، وكانت أزهار القَرَنْفُل الصغيرة تضمّ رائحتها الفلفلية إلى عبير الورود التقليدي، وعطر المنوليا الدهني، فتصبح كثيفة ثقيلة. ومن تحت هذه الروائح جميعاً تتسرّب رائحة النعناع ممزوجة بطفولة رائحة الأكاسيا، وحلاوة أريج الريحان. ومن وراء السور كانت حدائق الحمضيات تملأ المخادع بالأريج المنتشر من بواكير أزهار البرتقال.

كانت الحديقة تصلح للعميان، فقد كان النظر القريب إليها إهانة، أما روائحها، فقد كان يمكن أن تبعث على السرور والرضى، على الرغم من أنها لم تكن طيّبة تماماً. وكانت ورود (بول نيرون) التي كان الأمير نفسه قد ابتاعها من باريس، فقد فسدت عمّا كانت في الأصل؛ لقد قويت في البداية، ثمّ أنهكتْها عصارات الأرض الصِّقِليّة القوية والباردة، وأحرقها تعاقُب الحَرّ اللافح في آب، فتحوّلتْ إلى نوع من القَرْنَبِيْط في مثل لون اللحم، يبعث على القَرَف إلا أنه يعبق برائحة كثيفة أو فاضحة تقريباً، ممّا لم يجرؤ قطّ أن يتوقّعه أيّ فرنسي ممّنْ يعملون في تربية الورد. وتناول الأمير واحدة، فوضعها تحت أنفه، فخُيّل إليه أنه يشمّ فخذ إحدى راقصات الأوبرا، حتّى بنديكو حينما قُدّمت إليه تراجع متقزّزاً، وأسرع يبحث في الزّبْل وبين الحشرات الميّتة عن رائحة أنقى وأسلم للصّحّة.

غير أن تلك الحديقة المختلفة الروائح كانت مع ذلك للأمير مصدراً لتآلف الأفكار العميقة. "هنا الآن أريج طيّب، أما قبل شهر!...".

وتذكّر الاشمئزاز العنيف الذي أشاعته دفعات الرائحة الكريهة العفنة في القصر كله قبل أن يُزال مبعثها: كان ذلك جثّة شابّ جنديّ من فيلق الرماة الخامس، وقد جُرح في معركة سان لورنسو مع قوّات الثورة، فجاء ليموت تحت شجرة ليمون. وقد عثروا عليه مقلوباً على وجهه عند جذع الشجرة، ووجهه غارق في الدماء والقيء، وأظفاره ناشبة بالتراب، وقد غطّاه النمل، ومن تحت حمّالة سلاحه تبدو أمعاؤه البنفسجية في شبه مستنقع. وكان روسو، مدير المنزل، هو الذي اكتشف تلك الجثّة المشوّهة، فقلبها على ظهرها، وغطّى وجهها بمنديله الكبير الأحمر، واستعان بغصن شجرة على إعادة الأحشاء داخل البطن، ثمّ غطّى الشّقّ بردَّتيَ المعطف الأزرق. فعل ذلك كله ببراعة فائقة وهو يبصق متقزّزاً من دون انقطاع، ليس على الجيفة تماماً، بل على مقربة منها، وكان يقول: "إن رائحة هذه الجيف الكريهة لا تنعدم حتّى بالموت". هذا كل ما استطاع أن يتفوّه به أمام تلك الميتة المهملة.

وحينما حمل رفاقُ السلاح الجثّة باكين، وذهبوا بها – وقد جرّوها ممسكين بها من الكتفَيْن حتّى بلغوا بها إلى العربة، ممّا جعل الأمعاء تخرج منها من جديد – أُضيفت إلى صلاة المسبحة المسائية صلاة "من الأعماق" لراحة نفس المجهول، ثمّ لم يعد أحد يذكره، لأن ضمائر النساء في القصر شعرت بالرضى عمّا فعلنَهُ.

ومضى الأمير ليزيل عن قَدَمَيْ إلهة الزهر بعض النباتات المتسلّقة، ثمّ راح يسير جيئة وذهاباً، وكانت الشمس المنخفضة تُلقي بظلالها دون هوادة على الأحواض الجنائزية.

وفي الواقع، لم يعد أحد إلى ذِكْر الميّت. وعلى كل حال، لقد وُجد

الجنود لكي يموتوا دفاعاً عن الملك. ومع ذلك، فإن صورة الجسد الخارجة أمعاؤه كانت تعود إلى الذاكرة من حين إلى آخر، وكأنما تطلب إلى الأمير أن يهب نفسه السلام بالوسيلة الوحيدة الممكنة، وهي أن يقهر آلامه بأن يعدّها حاجة عامّة غير مقصورة عليه وحده. وكانت تحيط به أطياف أخرى إلا أنها أقلّ من ذلك إثارة لاهتمامه. أن يموت المرء لأجل إنسان أو لأجل شيء، أمر لا بأس به تقتضيه شريعة الحياة، إلا أن من الحقّ أن يعرف المرءُ الشخصَ أو الشيءَ الذي يموت من أجله. ذلك ما كان يتساءل عنه ذلك الوجه المشوّه القذر؛ وهنا في الواقع يبدأ الضباب.

ولو أنه سأل صهره مالفيكو هذا السؤال، لأجابه ذلك قائلاً: "لكنّه مات من أجل الملك، يا عزيزي فابريتسيو. هذا واضح". ومالفيكو هذا كانت شلّة الأصدقاء قد اختارته ناطقاً باسمها. ولعلّه يضيف قائلاً: "لأجل الملك الذي يمثّل النظام، والاستمرار والوقار، والحقّ، والشرف؛ لأجل الملك الذي يحمي الكنيسة وحده، وهو وحده الذي يحول دون تبديل حقوق الأملاك الخاصّة، وهي الغاية الأخيرة للجماعة". ألفاظ جميلة جدّاً تعني كل ما كان عزيزاً لدى الأمير في أعمق جذور قلبه. غير أن هناك أشياء ما تزال تحول دون الاطمئنان: الملك؟ حسن جدّاً. إنه يعرفه جيّداً - على الأقلّ، الملك الذي توفيّ حديثاً، أما الملك الحالي، فقد كان أشبه بتلميذ مدرسة دينية، يرتدي ثياب جنرال ... إنه في الواقع، قليل النفع. ولعلّ مالفيكو كان سيقول عندئذ: "ولكن هذا ليس نقاشاً منطقياً، يا فابريتسيو، فالسلطان بشخصه قد لا يكون في المستوى المطلوب، إلا أن الفكرة المَلَكية تظلّ مع ذلك هي نفسها". وهذا أيضاً صحيح، غير أن الملوك الذين يجسّدون فكرة ما، لا يجوز لهم، وليس في وسعهم، أن ينحدروا، أو تنحدر أجيال منهم، إلى ما دون مستوى معيّن، وإلا فإن الفكرة نفسها تتأثّر بهذا الهبوط، يا صهري العزيز.

وجلس على مقعد مستطيل، وراح يتأمّل دون حراك ما كان يقوم به بنديكو من تخريب في أحواض الزهر. كان الكلب بين الحين والحين يشيح نحوه عينَيْن بريئتَيْن، كأنما يستدرّ ثناءه على ما أنجزه من عمل: فقد فتّت أربع عشرة قَرَنْفُلَة، وحفر نصف سياج، وسدّ قناة ماء. كان يبدو مسيحياً مؤمناً حقّاً. فيقول له الأمير: "هلمّ إليّ، أيّها الكلب الطّيّب". فيُهرع إليه الحيوان، ويضع قوائمه الغائصة في الطين على يده متشوّقاً إلى أن يعلن له الصفح عمّا أتاه حين قطع عليه ذلك العمل الذي كان يُنجزه.

***

المقابلات، المقابلات العديدة التي أتاحها له الملك فرديناندو في كازيرتا، وفي كابودي مونتيه، وفي بورتيشي، وفي نابولي، وفي بيت الشيطان ...

كان يسير إلى جانب الحاجب المناوب الذي يقوده وهما يتبادلان الحديث، وقبّعته تحت ذراعه، وعلى شَفَتَيْه أشرس التعابير السوقيّة النابوليتانية؛ فيجتازان غرفاً، لا حصر لها ذات هندسة فخمة، وأثاث كريه (تماماً كالأسرة المَلَكية البربونية)، ثمّ يمضيان في دهاليز قذرة وسلالم غير مُعتنى بها؛ ثمّ يفضي بهما المطاف إلى غرفة انتظار، تعجّ بأناس ينتظرون: وجوه رجال شرطة مقطّبة، ووجوه طالبي إحسان موصى بهم. وكان الحاجب يعتذر، ويتجاوز مشهد أولئك الآدميين التعساء، فيمضي برفيقه نحو غرفة انتظار أخرى مخصّصة لرجال الحاشية؛ وهي عبارة عن مكان صغير أزرق وفضيّ من عهد شارل الثالث. وبعد انتظار قصير، يدقّ خادم على الباب، فيدخل المنتظرون إلى الحضرة السَّنِيَّة.

كانت غرفة المكتب الخاصّ صغيرة بسيطة الصناعة: على الجدران المَطليّة باللون الأبيض صورة للأمير فرنسيس الأوّل، وأخرى للملكة الحالية،

تبدو فيها حادّة غاضبة، وفي أعلى المدخّنة صورة للعذراء من صُنع (أندريا ديل سارتو) تبدو كأنما يُدهشها أن ترى نفسها محاطة بصور حجرية ملوّنة، تمثّل قدّيسين من الطبقة الثالثة، ومعابد نابوليتانية، وعلى أحد الرفوف تمثال ليسوع الطفل من الشمع، أمامه قنديل زيتي مضاء، وعلى طاولة المكتب المتواضعة أوراق بيض وأوراق صفر وأوراق زرق؛ جميع إدارة المملكة بلغت الآن مرحلتها النهائية، مرحلة توقيع جلالته (د. ج.).

ومن خلف هذا الحاجز من الأوراق، يقف الملك. وهو يقف على قَدَمَيْه منتظراً لئلا يضطرّ إلى أن يظهر للزائر أنه إنما ينهض لأجله عند دخوله. والملك ذو وجه ضخم شاحب بين شاربَيْه الأشقَرَيْن، ويرتدي جبّة عسكرية خشنة القماش، يتراخى بنطاله البنفسجيّ من تحتها كالشلال المهرول. يتقدّم الملك خطوة إلى الإمام مادّاً يده منحنية للتقبيل، ثمّ لا يلبث أن يسحبها منعاً لتقبيلها، ويقول باللهجة النابوليتانية العلمية: "كلا، يا سالينا، طوبى للعيون التي تراك": ولهجته النابوليتانية هذه أرقى وألذّ من لهجة الحاجب كثيراً. ويجيب الأمير: "أرجو جلالتكم المَلَكية أن تعذروني لعدم ارتدائي لباس البلاط، فأنا عابر طريق فقط في نابولي، لكنّي لم أشأ أن تفوتني فرصةُ المجيء لتقديم احترامي لشخصكم"، فيقول الملك: "سالينا، أنتَ تقول كلاماً، لا معنى له، فأنتَ تعرف أنكَ في كازيرتا كأنكَ في منزلكَ". ثمّ يضيف: في منزلكَ بكل تأكيد. يقول ذلك وهو يهمّ بالجلوس خلف مكتبه متمهّلاً، ليجلس الضيف كذلك.

ثمّ يسأل الملك: "والفتيات ماذا يعملنَ"؟ وعند ذلك، يدرك الأمير أنه عند هذه النقطة عليه أن يردّ عليه بجواب، يحمل معنى الإثارة الشهوانية ومعنى النفاق في آن واحد، فيقول: "الفتيات، يا صاحب الجلالة؟ وفي

هذه السّنّ، وأنا مرتبط بعقد الزواج المقدّس"؟ فيضحك فم الملك، بينما تمضي يداه في إعادة ترتيب الأوراق بحزم وقسوة، ويجيب قائلاً: "ما كنتُ لأسمح قطّ لنفسي بمثل هذا السؤال، يا سالينا؛ إنما سألتُكَ عن فتياتكَ أنتَ، عن الأميرات. كونشيتا، ابنتنا العزيزة، لا بد أنها قد كبرت الآن، وأصبحت آنسة ناضجة".

ومن حيث الأسرة، يعبران إلى حديث العلم، فيقول: "أنتَ يا سالينا، لستَ فخراً لنفسكَ فحسب، بل للمملكة بأسرها. إن العلم شيء عظيم وجميل، حينما لا يسمح المرء لنفسه بمهاجمة الدِّين". ثمّ لا يلبث قناع "الصديق" أن يُوضَع جانباً، ليحلّ محلّه قناع السلطان القاسي، فيقول الملك: "قل لي، يا سالينا، ماذا يقولون في صِقِلية عن كاستيل تشيكالا؟" ولم يكن سالينا قد سمع شيئاً، لا من أنصار المَلَكية، ولا من التّحرّريّيْن وغير أنه لا يشاء أن يخون صديقه، فيتحاشى ذلك بأن يظلّ في حديث الأمور العامّة. فيمتعض الملك، لأن سالينا لم يكن يريد أن يكون واشياً تماماً، فهو لا نفع منه، إذنْ. ويتّكئ الملك بيَدَيْه على المكتب متهيّئاً للنهوض، إشعاراً بالانصراف، ويقول: "إن لديّ عملاً كثيراً: المملكة كلها تستريح على هاتَيْن الكتفَيْن". ويأتي دور وضع قليل من السُّكّر، فيبرز قناع الصداقة من الصندوق مرّة أخرى، فيقول: "عند ما تمرّ بنابولي مرّة أخرى، هات معك كونشيتا، لكي تراها الملكة. أنا أعرف أنها أصغر من أن تظهر في البلاط، غير أنه لا يمكن أن يحول أحد دون تكريمها بغداء خاصّ: وأشياء جميلة أخرى، كما يقال. تحيّاتي يا سالينا، وابقَ بخير".

إلا أنه في إحدى المرّات كانت إجازة الانصراف سيّئة. كان الأمير قد أدّى الانحناءة الثانية وهو يتراجع إلى الخلف، حينما عاد الملك يناديه

قائلاً: "سالينا، قفْ، واستمعْ إليّ. لقد قيل لي إنّ لكَ في باليرمو اتّصالات شرّيرة. هذا ابن أختكَ فالكونيري ... لماذا لا يستردّ صوابه"؟

- ولكن تانكريدي، يا صاحب الجلالة، لا هَمّ له غير النساء والورق!

فنفد صبر الملك، وقال: "سالينا، سالينا، أنتَ مجنون! أنتَ المسؤول عنه، لأنكَ مربّيه ووَليّ أمره. قل له أن يحافظ على عنقه. تحياتي".

وفيما راح يتابع برنامجه المتوسّط الفخامة، ليمضي للتوقيع في سجلّ الملكة، كان التخاذل بادياً عليه. لقد تأثّرتْ نفسه بما رآه من طيبة الشعب، كما تأثّرت بما لمسه من سخرية رجال البوليس. هنيئاً لأصدقائه الذين يطيب لهم أن يروا في المجاملة صداقة، وفي التهديد سلطة مَلَكية ... أما هو، فليس في وسعه أن يرى رأيهم. وبينما راح يتبادل الحديث التافه مع الحاجب، الذي لم يكن له ذنب في الأمر، أخذ يتساءل في نفسه عمّن سيخلف هذه الأسرة الحاكمة التي تحمل علامات الموت على سيمائها: أهو البييمونتي الذي يدعونه بالرجل الطّيّب والذي ترك دوياً كبيراً في عاصمته الصغيرة البعيدة عن يده؟ وهل سيختلف الأمر عندئذ؟ ستحلّ لهجة أهل تورينو محلّ لهجة نابولي ... هذا كلّ ما في الأمر.

كان قد وصل إلى السجلّ، فوقّع: (فابريتسيو كوربيرا، أمير سالينا).

... أم هي جمهورية دون ببينو ماتزيني؟

- شُكراً. أودّ أن أصبح عندئذ (السّيّد كوربيرا).

ولم تكفِ طريق العودة الطويلة لتهدئته، ولا استطاع حتّى موعده مع كورا دانولو أن يُدخِل الرضى إلى نفسه. ما دام الأمر كذلك، فماذا بقي أن نعمل؟

أترضى بأن ننكش على ما لدينا دون أن تحاول القفز في الظلام؟ إذنْ، لا بد من العودة إلى أصوات الطلقات النارية الجافّة، كما كانت قد عادت منذ مدّة في إحدى ساحات باليرمو العابسة. ولكنْ، ماذا تفيد الطلقات النارية أيضاً؟ ليس من الممكن الوصول إلى شيء، بواسطة أصوات بُمْ! بُمْ!... أليس كذلك، يا بنديكو؟ ويجيبه صوت الجرس الصغير: " دن، دن، دن" مُعلناً موعد العشاء، فيُسرع بنديكو متحلّباً ريقه إلى الطعام الشهي. ويقول سالينا في نفسه وهو يرتقي السلام: "بييمونتي كما هو".

***

كان العشاء في قصر سالينا يُقدَّم بالطريقة الفخمة التي كانت طابع مملكة الصقليَّتَيْن. وكان عدد الآكلين (وهم أربعة عشرة ما بين أصحاب المنزل، وأبنائهم، والقائمين على أعمال الإدارة وتعليم الأبناء) كافياً وحده، ليخلع المهابة والجلال على المائدة. وكان يغطّي المائدةَ شرشفٌ ثمينٌ مزركشٌ، يلمع تحت ضوء مصباح ساطع مُعلّق تعليقاً آنياً تحت صورة حورية البحر، تحت شمعدان المورانو الثمين. ومن النوافذ، كان لا يزال يدخل نور كثير. غير أن الأشكال البيضاء التي تشبه النقش البارز في الأجزاء العليا من الأبواب في الداخل كانت تغيب في العتمة. وكانت الأدوات الفضّيّة كثيرة جدّاً، والأقداح لامعة، ينعكس بريقها على الأيقونة الكبيرة الملساء، فيُبرز من بين الطيلسانات البوهيمية الحرفَيْن (F.D) – وهما الحرفان الأوّلان من عبارة لاتينية، تعني: (هدية من فرديناندوس – Ferdinandus Dedit) تذكاراً للسخاء المَلَكي. أما الصحون، فيحمل كلّ منها أوّل حرف من اسم شهير، لم يكن غير خرافة عن موقعة، قام بها رجال البحر، وقد جاءت عن طريق خدمات مختلفة. وكانت الصحون الكبيرة ذات الحواشي

الخضراء اللوزية، والتي تحمل علامة السهام المذهّبة، يقتصر استعمالها على الأمير نفسه الذي كان يطيب له أن يجمع حوله كل شيء في نظام تدريجي، ما عدا الزوجة.

حينما دخل إلى قاعة الطعام كان الكلّ مجتمعين. وكانت الأميرة وحدها جالسة، أما الباقون، فما يزالون وقوفاً خلف مقاعدهم، وأمام مقعده يجثم وعاء الحساء الضخم، بجوانبه الواسعة، بين أعمدة من الحصون، وعليه غطاء، يعلوه شعار "الفهد الراقص". وراح الأمير يغرف الحساء بنفسه؛ وهذا جهد مجاني يؤدّيه رمزاً للرعاية التي على ربّ الأسرة أن يؤدّيها للآخرين. غير أنه في ذلك المساء كان صوت المغرفة في جوانب وعاء الحساء، على خلاف عادته منذ زمن، يبدو نذراً بسوء، دليلاً على عنف يختلج في داخل الأمير. وكان ذلك من أشدّ الأصوات رهبة، كما قال بعد أربعين سنة أحدُ أبنائه الذين عاشوا إلى ذلك الحين. كان ذلك لأن الأمير لاحظ أن ابنه فرنشيسكو باولو - وعمره ستّ عشرة سنة - لم يكن في مكانه من المائدة. ثمّ دخل الولد حالاً، وجلس وهو يقول: "معذرة، يا أبي"! ولم ينلْ تأنيباً على ذلك، غير أن الأب بيرّونه الذي كانت مهمّته، إلى حدّ ما، أشبه بمهمّة كلب القطيع، حنى رأسه، وأسلم أمره إلى الله. أن القنبلة لم تنفجر، غير أن الهواء الذي أثاره مرورها أصاب المائدة بالجمود، فأفسد العشاء، كما لو أن القنبلة انفجرت. وبينما كان الأكل يتمّ بصمت، كانت عينا الأمير الزرقاوان الضّيّقتان ما بين أهدابه شبه المغضنة تتفرّسان بأبنائه واحداً واحداً، فتعقلان ألسنتهم من شدّة الخوف.

غير أنه كان يقول في نفسه: "إنها لأسرة جميلة". فلقد كانت الإناث ممتلئات الأجسام، مشرقات بالعافية، بغمازاتهنّ الخبيثة، وعيونهنّ التي

تحمل بين الجبين والأنف طابع آل سالينا الجادّ. أما الذكور، فناحلو الأجسام إلا أنهم أشدّاء، وبكآبة الموضة التي كانت تبدو على وجوههم كانوا يستخدمون أدوات المائدة بعنف مشوب بالرقابة الحذرة. لقد كان أحدهم غائباً منذ عامَيْن، وهو يوحنّا: الابن الثاني الذي يحبّه أكثر من الآخرين رغم أنه أكثرهم تبرّماً. لقد اختفى ذات يوم من البيت، ثمّ انقطعت أخباره طيلة شهرَيْن، وأخيراً وصلت منه رسالة من لندن باردة مليئة بعبارات الاحترام، يعتذر فيها عمّا سبّب به غيابه من قلق لأسرته، ويطمئنهم إلى صحّته، ويؤكّد لهم بشكل غريب أنه يُفضّل الحياة البسيطة في مستودع للفحم على الحياة شديدة العناية - يريد أن يقول "المقيّدة"- بين أهل باليرمو. غير أن الذكريات، والقلق على الفتى الضارب في ضباب الدخان في تلك المدينة الملحدة، كانت تختلج في قلب الأمير بقسوة، وتعذّبه؛ فاشتدّ لذلك غمّه.

وازدادت كآبته كثيراً. وكانت الأميرة جالسة بجانبه، فمدّت يدها الصغيرة، وراحت تداعب بها يده الضخمة المستريحة على غطاء المائدة. فأثارت فيه هذه الحركة المباغتة سلسلة من المشاعر: منها الغضب لأنه أصبح يستوجب عطف الآخرين، والشهوة الجنسية التي استيقظت، ولكنها لم تكن مُوجّهة إلى المرأة التي أيقظتْها. وفي لمحة خاطفة، لاحت للأمير صورة ماريالينّا، برأسها الغارق في المخدّة. فرفع صوته منادياً أحد الخَدَم: "دومينيكو! اذهبْ، وقل للسّيّد أنتونيو أن يشدّ الخيل إلى العربة، لأنني سأنزل إلى باليرمو حالاً بعد العشاء". ونظر إلى عينَي زوجته اللتَيْن تحوّلتا إلى مثل الزجاج، فشعر بالندم للأمر الذي أصدره، غير أن الرجوع عمّا أمر به أصبح غير ممكن، ولهذا ظلّ في موقفه؛ بل لقد أضاف إلى القسوة شيئاً من التهريج الساخر، إذ قال:

"تعال معي، يا أب بيرّونه، وسنعود في نحو الساعة الحادية عشرة؛ وبهذا يمكنكَ أن تقضي ساعَتَيْن في الدَّيْر مع أصدقائكَ".

كان الذهاب إلى باليرمو مساءً، ولاسيما في ذلك العهد من الاضطرابات، ضرباً من العبث الذي لا هدف له إلا أن يكون الهدف هو القيام بمغامرة من طراز منحطّ؛ وأما اصطحاب كاهن الدار، فقد كان ضرباً من التّحكّم المهين. ذلك على الأقلّ، ما أحسّ به الأب بيرّونه. ولذلك شعر بالإهانة، ولكنه، بطبيعة الحال، أذعن طائعاً.

وما كادت الخيل تنتهي من ازدراد آخر زعرورة أمامها حتّى سمع صوت عجلات العربة تدرج في المشي، بينما كان أحد الخَدَم في القاعة يعدّ للأمير والكاهن قبّعتَيْهما. وعَبَثاً حاولت الأميرة، والدموع في عينَيْها، أن تثني الأمير عن عزمه، فقالت: "ولكنْ، يا فابريتسيو في هذا الوقت ... والطُرُق تعجّ بالجنود واللصوص ... قد يقع لكَ ما يسوء"! فأجاب ساخراً: "حماقات، يا ستيلا، حماقات! وماذا تريدين أن يقع؟ إنهم كلّهم يعرفونني: فالرجال ذوو القامات العالية كالقصبة قلائل جدّاً في باليرمو... وداعاً". ثمّ قبّل بسرعة جبينها الذي ما يزال ناعماً، والذي كان دون مستوى ذقنه. ولكنْ، سواء أكانت رائحة جسد الأميرة قد أثارت في نفسه ذكريات غضّة، أم أن خطوات الأب بيرّونه المُشعِرة بالندم من خلفه قد أثارت فيه مشاعر التقوى، فإنه حينما وصل إلى جانب العربة وجد نفسه يكاد يلغي الرحلة. وفي تلك اللحظة، بينما كان يهمّ بفتح فمه، ليأمر بإعادة العربة إلى الأسطبل، وصل إلى سَمْعه صوت ينادي: "فابريتسيو! يا زوجي فابريتسيو"! كان الصوت آتياً من فوق من النافذة؛ وتبعه زعيق حادّ جدّاً. لقد أُصيبت الأميرة بإحدى نوباتها الهستيرية. فقال للحوذي الذي كان جالساً في

مقدّمة العربة، والسوط على بطنه في مثل خطّ الزاوية: "هيّا بنا ... هيّا بنا ... امضِ إلى باليرمو ... لنترك الأب بيرّونه في الدَّيْر". ثمّ أطبق باب العربة قبل أن تصل إليه يد الحوذي لإغلاقه.

***

لم يكن الليل قد حلّ بعد، والطريق المحصورة داخل الأسوار العالية تمتدّ طويلة بيضاء. وما إن خرجوا من حدود أملاك أسرة سالينا حتّى لاح لهم، إلى الجهة اليسرى، قصر آل فالكونيري شبه المتهدّم. وهو ملك لابن أخته القاصر تانكريدي. كان والده، زوج أخت الأمير، رجلاً مبذّراً، بدّد ماله كله، ثمّ مات. لقد كان ما حل به دماراً كُلّيّاً، من النوع الذي يضطرّ معه صاحبه إلى أن يبدّد حتّى خيوط الفضّة التي قد تكون على كسائه. وحينما توفّيت زوجته، عهد الملك بابنها إلى خاله سالينا، لكي يكون وصياً عليه، وكان عمره آنئذ أربعة عشر ربيعاً. وبعد أن كان الولد مجهولاً تقريباً من قبل، لم يلبث أن أصبح عزيزاً جدّاً على خاله السريع الهياج، والذي كان يتوسّم فيه مرحاً يخالطه ميل إلى المشاكسة، وطبعاً تافهاً في بعض الأحيان، تتخلّله نوبات مفاجئة من الجدّ. ومن غير أن يعترف الأمير حتّى لنفسه كان يتمنّى لو كان تانكريدي هو ابنه البكْر بدلاً من تلك الدمية الساذجة التي هي ابنه باولو. والآن في سنّ الحادية والعشرين أصبح تانكريدي يتمتّع بالنقود التي لم يكن الوصي يمنعها عنه، و كثيراً ما يضيف إليها من جيبه الخاصّ، فيُنفقها على اللهو واللّذّة.

وتَذَكَّره الأمير فيما كان يمرّ على مقربة من قصر فالكونيري، الذي تتدلّى على سوره النبتة الجهنمية الكبيرة كشلالات من الحرير الذي يستعمل في صنع ملابس الأساقفة، فتخلع على القصر في وسط الظلام مظهراً

خادعاً من العَظَمَة والفخامة. فقال الأمير في نفسه: "هذا الصبي، ترى ماذا يُهيّئ الآن من أمر"؟!

"ترى ماذا كان يُهيّئ من أمر"؟!

إن الملك فردِيناند حينما تكلّم عن اتّصالات الفتى الشّرّيرة قد أساء في قوله ذاك، لكنّه أيضاً كان على حقّ فيه: فلقد كان فالكونيري واقعاً في حبائل جماعة من الأصدقاء المقامرين، والصديقات السّيّئات السيرة، كما يقال، استهوتهنّ جاذبيّته الرشيقة، فبلغ منه الأمر أن أصبح يميل إلى "الجماعة الخارجة"، وصارت له صلات (بالجمعية الوطنية) السّرّيّة. ولعلّه كان ينال منها بعض المال كذلك، كما كان ينال المال، من جهة أخرى، من خزينة الملك. ولابد للمرء من الجميل والطّيّب، كان لا بد من زيارات يقوم بها إلى كاستيلشيكالا المريبة، وإلى مانيسكالكو الطّيّبة التي لم يكن في وسعها أن تُجنّب الفتى السوء بعد أحداث اليوم الرابع من نيسان. لم يكن ذلك كله جميلاً، ومن ناحية أخرى، لم يكن يمكن أن يسيء تانكريدي إلى خاله. إذنْ، لقد كان الذنبُ ذنبَ الزمن: ذنب تلك الأيّام التي لا انتهاء لها، والتي في خلالها لا يستطيع فتى من أبناء الأسر الطّيّبة أن يكون حُرّاً في الانحياز إلى فرعون دون أن ينغمس في صداقات مشبوهة. أزمنة سيّئة!

وجاءه صوت الأب بيرّونه يرنّ كأنه صدى لأفكاره، ويقول: "أزمنة سيّئة، يا صاحب السعادة"! كان اليسوعي محشوراً في زاوية ضيّقة من العربة، يضايقه جسم الأمير الضخم، وتسيطر عليه هبته الصارمة؛ فكان لذلك يتألم جسده وضميره معاً. ولأنه لم يكن رجلاً وسطاً، فقد كان يحمل آلامه الخاصّة إلى عالم التاريخ الباقي. وقال الكاهن: "انظرْ، يا صاحب السعادة"؛ وأشار بإصبعه إلى الجبال المهشّمة في أرض (المحارة الذهبية)، والتي ما تزال

واضحة في أواخر الغسق، وعلى حوافيها وفوق قممها تتوقّد عشرات من النيران، نيران الحرائق التي تُشعلها كتائب الثوّار كل ليلة كتهديد صامت للمدينة المَلَكية الكثيرة الأديرة، وكأنها الأضواء التي تُرى في غرف المرضى المشرفين على الموت في لياليهم الأخيرة.

"إنني أراها، يا أبت، إنني أراها". وينصرف ذهنه إلى تانكريدي، فقد يكون حول إحدى تلك النيران الشّرّيرة؛ ولعلّه يوقد بيَدَيْه الأرستقراطيَّتَيْن الجذوة التي تشتعل، لكي تخفض قيمة أيدي تلك الطبقة من الناس. ويقول الأمير في نفسه: "حقّاً، إنني وصيٌّ رائع على ذلك القاصر الذي يفعل كل ما يخطر في باله من حماقات"! كانت الطريق الآن تنحدر انحداراً خفيفاً، وكانت مدينة باليرمو القريبة جدّاً تبدو غارقة في الظلام بأكملها. إن بيوتها المنخفضة المغلقة مرصوصة إلى جانب الأديرة الضخمة الجبّارة. وكان هناك عشرات من هذه الأديرة، وجميعها هائلة، ويتجمّع في الغالب كل اثنَيْن أو ثلاثة منها معاً. أديرة للرجال، ومثلها للنساء، وأديرة للعامّة، ومثلها للنبلاء، وأديرة ليسوعيّيْن، وللبنيديكتيّيْن، وللفرنسسكان، وللكبوشيّيْن، وللكرمليّيْن، والليغوريّيْن والأغوسطينيّيْن ... وقباب هزيلة غير بادية الانحناء تمضي من فوقها صعداً كأنها أثداء مُفرَغة من الحليب. ومع ذلك، فقد كانت تلك الأديار عينها هي التي تضفي على المدينة سمتها الكئيبة، وطابعها، وعزّتها؛ ومعها أيضاً معنى الموت الذي لم يكن حتّى النور الصقلّي المترجرج قادراً على إزالته.

في تلك الساعة والظلام مخيّم كانا وحدهما يستمتعان بالمشهد كله، وكانت نيران الجبال مقابلة لهما في الواقع، ومن حولهما يصطلي رجال، لا يختلفون في شيء عن أولئك الذين يعيشون في الأديرة: فهم مثلهم

متعصّبون، ومثلهم مقيَّدون، ومثلهم شرهون إلى السلطة، أو - كما هي العادة - إلى الخمول ...

هكذا كان الأمير يفكّر، بينما تمضي خطى الخيل تنقر المنحدر. وهي أفكار تحالف ما اعتاده من الصِّدْق، ولكنها ناشئة عن قلقه على الطبقة التي ينتمي إليها تانكريدي، وعن الأسلوب الشهواني الذي يحدوه إلى التّمرّد على التضييقات والقيود التي تجسّدها الأديرة.

الطريق الآن تجتاز بيّارات البرتقال المنوّر، والأريجُ الذي يبثّه نوّار البرتقال يطغى على كل شيء، كما يطغى البدر بنوره على مشهد طبيعي، فيستوعبه بأكمله: لقد تلاشت رائحة الجياد المبلّلة بالعَرَق، ورائحة الجِلد الذي يغطّي العربة، ورائحة الأمير، ورائحة اليسوعي، أمام ذلك العطر الإسلامي(*) الذي يُناجي أرواح حوريات وبشر من العالم الآخر.

ولقد تأثّر الأب بيرّونه كذلك، فقال: "ما أجمل هذا البلد، يا صاحب السعادة! لو..." فأكمل الأمير العبارة في سرّه قائلاً: "لو لم يكن فيه كثير من اليسوعيّينْ!..." وكان صوت الكاهن قد قطع عليه أحلاماً مستبشرة، وسرعان ما شعر بالدم على الإساءة التي لم يَفُه بها، فراح يربّت بيده الضخمة على قبّعة الصديق القديم المثلّثة الزوايا.

عند مدخل ضاحية المدينة، في فيلا آيرولدي، تصدّت جماعة عسكرية للعربة، فأوقفتْها. أصوات تتكلّم بلهجة (بوليا)، وأخرى بلهجة نابولي، أصدرت أمر الوقوف. وفي نور مصباح خابٍ، لمعت حراب مختلفة الأحجام. إلا أن واحداً من الضبّاط سرعان ما عرف الأمير الذي كان يضع

*) إشارة إلى أن المسلمين هم الذين أدخلوا زراعة الحضميات إلى جزيرة صقلية. (المترجم).

قبّعته على ركبَتَيْه، فبادر إلى الاعتذار قائلاً: "معذرة، يا صاحب السعادة! امضوا في سبيلكم". بل لقد أصعد أحد الجنود إلى مقدّمة العربة، لئلا تسبب المراكز الأمامية إزعاجاً للأمير. ومضت العربة ببطء بعد أن زاد حملها، فمرّت بقرب فيلا (رانكيبيله)، وتجاوزت (توربروسته) وحدائق (فيلا فرانكا)، ثمّ دخلت إلى المدينة من بوّابة (مكويدا). كان ضبّاط الحَرَس في مقهى روميروس يضحكون وهم يغنّون (أغاني الريف الأربع)، ويمتصّون قطعاً ضخمة من المثلّجات، الجيلاتو، وكان ذلك الدليل الوحيد على أن في المدينة حياة: لقد كانت الطُّرُق مهجورة، لا يتردّد فيها غير وقع خُطى الحُرّاس الذين تلمع حمّالات سلاحهم البيضاء المشبوكة كالصلبان على صدورهم، وعلى الجوانب، تتلاحق الأديرة بلا انقطاع، كدير الجبل، ودَيْر جراح المسيح، ودَيْر رهبان الصليب، ودَيْر التياتيّيْن؛ وكلها قلاع صفيقة سوداء بلون الخوخ غارقة في نوم شبيه بالعَدَم.

- بعد ساعَتَيْن، سأمرّ لآخذكَ، يا أبت. أتمنّى لكَ صلوات سعيدة!

ومضى الأب بيرّونه، فدقَّ على باب الدَّيْر مرتبكاً، بينما راحت العربة تبتعد داخل أزقّة المدينة القديمة. ثمّ ترك الأمير العربة في القصر، ومضى على قَدَمَيْه إلى حيث يقصد. كانت الطريق قصيرة، إلا أن الحيّ كان سيّئ السمعة. وكان هناك جنود بكامل عدَّتهم، ممّا يعني لأوّل وهلة أنهم تسلّلوا من أماكن حراستهم المنتشرة في الساحات. وكانوا يغادرون منازل الحي المنخفضة التي تعلو شرفاتها رياحين، تفسّر السهولة التي دخلوا بها إلى تلك المنازل، وشبّان عرابيد ذوو سراويل فضفاضة، يتشاتمون بألفاظ وعبارات بذيئة، ممّا يستعمله الصقليون في غضبهم. ومن بعيد، تُسمع أصوات طلقات نارية، يُطلقها العسس في ثورة أعصابهم. وبعد أن اجتاز

هذه المنطقة، أخذت الطريق تحاذي الميناء. وفي ذلك المرفأ القديم الذي يُستخدم لصيد الأسماك، كانت القوارب تتهادى عتيقة شبه بالية، تُشبه في مظهرها الكلاب الجرباء.

"أنا خاطئ ... إنني أعلم ذلك، بل إن إثمي مضاعف أمام الشريعة الإلهية، وأمام عاطفة ستيلا الإنسانية. هذا لا شكّ فيه، وسأعترف به غداً للأب بيرّونه". وابتسم في داخله لاعتقاده بأن هذا سيكون ضرباً من العَبَث، إذ لا بد أن يكون اليسوعي عالماً علمَ اليقين بما عمله في يومه هذا. ولكنه راح يُموّه على نفسه بقوله: "إنني أرتكب الإثم. هذا صحيح، ولكنني أرتكبه لئلا أضطرّ إلى ارتكاب ذنوب أخرى أسوأ منه؛ لئلا أمضي في ثوراتي النَّفْسية، بل لأنتزع من نفسي هذه الشوكة الجسدية، لئلا تقودني إلى شرور أعظم. إن الله يعلم هذا". وطغى عليه شعور بالعطف على نفسه. وبينما كانت خطاه الثقيلة تدوس الأقذار المتراكمة في الطريق كان يفكّر في نفسه: "إنني إنسان ضعيف ... إنني ضعيف، ولا أجد مَنْ يعينني ... ستيلا؟! هذا ما يتبادر إلى الذهن حالاً ... إن الله يعلم إن كنتُ قطّ قد أحببتُها. لقد تزوّجنا في سنّ العشرين، ولكنها الآن تغالي في استخدام سلطتها، كما أنها قد أصبحت الآن عجوزاً". وزال عنه شعور الضعف، فاستمرّ يفكّر: "أنا لا أزال رجلاً شديد القوّة، فكيف أقنع بمضاجعة امرأة، لا تفتأ ترسم إشارة الصليب قبل كل عناق، وفي لحظات النشوة الكبرى لا تعرف أن تقول غير: يا يسوع ومريم!... حينما تزوّجنا، وكان عمرها ستّ عشر سنة، كان ذلك كله يسمو بروحي، أما الآن ... لقد أنجبتْ لي سبعة أبناء ... سبعة، ومع ذلك، لم أستطع حتّى اليوم أن أرى أسرتها ... فهل هذا من الحقّ في شيء؟" وكان يصرخ في داخله مغتاظاً من فرط غمّه: "أحقّ هذا؟ إنني أسألكم جميعاً!" ثمّ مال إلى بوّابة السلسلة وهو يجيب نفسه بقوله: "المذنبة هي، لا أنا!..".

وشعر بالتعزية لهذا الاكتشاف المهدّئ، فدقّ باب ماريانّينا بلا تردّد.

بعد ساعَتَيْن، كان في العربة من جديد في طريق عودته مع الأب بيرّونه، وكان هذا بادي الانفعال: لقد أطلعه الرهبان إخوانه على آخر أنباء الحالة السياسية التي كانت أسوأ بكثير ممّا يترامى إلى قصر سالينا الهادئ المنعزل. لقد كان يخشى نزول البيمونتيّينْ جنوبي الجزيرة من جهة (شياكّا)، وقد لاحظت السلطات الحاكمة في الشعب ترقبّاً مبهماً: فالغوغائية في المدينة تتحين أوّل إشارة تدلُّ على تخاذل السلطة الحاكمة، لكي تنقضّ على المدينة، فتعيث فيها فساداً ونهباً وهتكاً للأعراض. إن الآباء مستعدّون للطوارئ، وقد أرسلوا الطاعنين في السّنّ منهم، وعددهم ثلاثة، إلى نابولي مع شحنة المساء وهم يحملون أوراق الدَّيْر. "فليحمنا الله، ويحفظ لنا هذه المملكة المقدّسة!".

كان الأمير لا يكاد يسمعه، فقد كان يشيع في نفسه الصفاء والرضى مشوبين بشيء من الاشمئزاز. كانت ماريانّينا قد نظرت إليه بعينَيْها القرويَّتَيْن الكبيرَتَيْن، ولم تمنع عنه شيئاً، بل أبدت له كل خضوع وطاعة. إنه نوع من بنديكو يرتدي فستاناً حريرياً. وفي لحظة من لحظات النشوة والغيبوبة هتفت تقول له: "يا أميري الكبير!" فابتسم لذلك مسروراً. إن هذا النداء لأفضل من "يا قِطّي!" أو "يا قردي الأشقر!" كما كانت تدعوه في مثل هذه اللحظات الفتاة الأخرى سارة، الداعرة الباريسية التي كان قد عاشرها قبل ثلاث سنوات حينما دُعي إلى المؤتمر الفَلَكي الذي عُقد في السوربون، وتسلّم فيه الوسام الذهبي. إنه أفضل من "يا قطّي!" دون ريب، وأفضل كثيراً من "يا يسوع ومريم!"، فليس فيه تدنيس للمقدّسات على الأقلّ. لقد كانت ماريانّينا فتاة طيّبة؛ وإذا ما عاد إليها مرّة أخرى، فسيحمل لها ثلاث قطع من الحرير.

ولكن ما أشدّ ألمه في الوقت نفسه! ذلك الجسد الفتيّ المبالغ في الاهتمام به، وذلك العهر المستسلم ... وهو نفسه ... ماذا كان؟ لقد كان خنزيراً، ولا شيء غير هذا ... وعاد إلى ذهنه شِعرٌ كان قد قرأه عفواً في إحدى مكتبات باريس، بينما كان يقلّب كتاباً لمؤلّف، لم يعد يذكر اسمه، من أولئك الشعراء الذين تُنجبهم فرنسا، ثمّ تنساهم كل أسبوع. وكذلك تراءى لخياله العمود الأصفر الليموني من النسخ الكاسدة، والصفحة ذات الرَّقْم المفرد. وعاد يسمع المقاطع التي كانت ختاماً لقصيدة فرنسية حمقاء، وهي:

"يا ربُّ أعطني المقدرة والشجاعة

لكي أتأمّل قلبي وجسدي دون اشمئزاز".

وفيما كان الأب بيرّونه مشغولاً بإنسان اسمه (لافارينا)، وآخر اسمه (كريسبي) نام "الأمير الكبير" في شبه خدر يائس، يُهَدْهِدُهُ وَقْع حوافر الجياد التي كانت مصابيح العربة الخافتة تُلقي النور على أكفالها الضخمة. واستيقظ عند المنعطف أمام فيلا فالكونيري، فقال في نفسه، إذ تذكّر ابن شقيقته: "وهذا أيضاً ... إنه لا يزال يوقد الحطب الذي سيلتهمه!".

حينما وجد نفسه في غرفة الزوجية، تأثّر لرؤية ستيلا المسكينة نائمة وشَعرها مرتّب بعناية تحت قمطة خفيفة، وهي تتنهّد في سريرها الضخم المصنوع من النحاس. وقال في نفسه بحنان: "سبعة أبناء أعطتْني، وكانت دائماً لي وحدي!"... وفي الغرفة، كانت تفوح رائحة الفاليريانا، وهي آخر أثر من آثار نوبة الهستيريا. وفيا كان يصعد إلى السرير، قال في نفسه مشفقاً: "مسكينة، يا زوجتي ستيلا!". وراحت الساعات تمرّ وهو لا يستطيع النوم،

فإن الله بيده القوية قد أشعل في أفكاره ثلاثة نيران: نار مداعبات ماريانيّنا، ونار الأبيات الفرنسية، والنار الناقمة المشتعلة فوق الجبال.

عند الفجر، استيقظت الأميرة، واستطاعت أن ترسم إشارة الصليب.

***

في صباح اليوم التالي، أشرقت الشمس على الأمير وقد استعاد نشاطه. وكان قد تناول القهوة وهو في ملابس المنزل الحمراء، وعليها أزهار سوداء، ومضى يحلق وجهه أمام المرآة. وكان بنديكو يضع رأسه الضخم على الخفّ الذي يلبسه في قَدَمَيْه. وبينما كان يحلق خدَّه الأيمن، رأى في المرآة خلف رأسه وجه فتى. كان الوجه نحيلاً، متميّزاً، ينطق بتعابير خجولة مضحكة. فلم يستدر إليه، بل استرسل في حلاقته وهو يقول: "تانكريدي! ماذا كنتَ تدبّر الليلة الماضية؟"

- صباح الخير، يا خالي. ماذا كنتُ أدبّر؟ لا شيء مطلقاً. لقد كنتُ مع الأصدقاء، وكانت ليلة مقدّسة طاهرة، لا كما فعل بعض مَنْ أعرف ممّنْ كانوا يبحثون عن اللّذّة في باليرمو!.. ومضى الأمير يحلق بعناية المنطقة الصعبة بين الشَّفَة والذقن، وكان صوت ربيبه ذو الغنّة الأنفية الخفيفة يحمل في طيّاته شحنة من نشوة الشباب، تجعل الغضب منه مستحيلاً، أما الدهشة، فقد تكون ممكنة مع ذلك. فاستدار الأمير والمنشفة تحت ذقنه، ونظر إلى ابن أخته. كان ارتدى لباس الصيد: سترة مطرّزة وبنطال مرتفع. وسأله الأمير: "ومَنْ كان أولئك المعارف، يا ترى؟ أتراني أعرفهم؟"، فأجاب الفتى: "أنتَ، يا خالي. أنتَ!.. لقد رأيتُكَ بعينَيّ هاتَيْن عند مركز فيلا آيرولدي وأنتَ تخاطب الشاويش. شيء جميل جدّاً في مثل سنّكَ ... وبصحبة كاهن محترم جدّاً!... الخشان المتهتّكون!..."

لقد كان وقحاً جدّاً في الواقع. كان يظنّ أن في وسعه أن يبيح لنفسه ما يشاء. ومن خلف أجفانه، كانت عيناه الزرقاوان العكرتان، عينا والدته أو عيناه هو نفسه، تحدّقان فيه ضاحكتَيْن. شعر الأمير بالإهانة. إن هذا الفتى لا يعرف عند أيّ حدّ يجب أن يقف. غير أن الأمير لا يجد في نفسه ما يدعو إلى تأنيبه. وعلى كل حال، كان الفتى على حقّ. فقال له الأمير: "ولكنْ، لماذا تلبس هكذا؟ ماذا هنالك؟ أهنالك حفلة رقص تنكّري؟". فاتّخذ الفتى سمت الجدّ: لقد تلبّس وجهه المثلّث الزوايا تعبير الرجولة على غير انتظار، وقال: "إنني مسافر، يا خالي؛ مسافر خلال ساعة واحدة، وقد جئتُ لأودّعكَ". فشعر سالينا المسكين بشيء يضغط على قلبه، وسأل: "مبارزة؟" فأجاب الفتى: "مبارزة كبيرة، يا خال، مبارزة مع فرانشيسكييلّو دي غواردي، إنني ذاهب إلى الجبال في فيكوتسا. لا تُخبرْ أحداً بذلك، ولاسيما باولو. إن أموراً خطيرة يجري إعدادها الآن، يا خالي، ولا أريد أن أبقى في المنزل، وإلا قبضوا عليّ حالاً". وطافت بخيال الأمير إحدى رؤاه المعتادة التي تجيء مفاجئة: مشهد حرب عنيفة جائرة، وأعيرة نارية في الغابات، وربيبه تانكريدي مجدّل على الأرض مندلقة أحشاؤه كذلك الجندي التعس!... فقال له:

- "أنتَ معتوه، يا ولدي في انضمامكَ إلى أولئك الناس. إنهم جميعاً سفّاحون خادعون. ابن فالكونيري ينبغي أن يكون معنا، للملك". ثمّ عادت عيناه تضحكان من جديد.

- للملك، صحيح؛ ولكنْ، أيّ ملك؟

وظهر بمظهر من الصراحة والجدّ اللذَيْن يجعلانه إنساناً عسير الفَهْم وعزيزاً في الوقت نفسه. وتابع كلامه قائلاً: "إذا لم نُثبت وجودنا نحن أيضاً،

فإن أولئك سيقيمون الجمهورية. إذا أردنا أن يبقى كلّ شيءٍ على حاله، فينبغي أن يتغيَّر كلّ شيء. هل كلامي واضح؟". ثمّ عانق خاله بتأثّر ظاهر، وقال: "إلى اللقاء قريباً. سأعود ومعي العَلَم المثلّث الألوان".

لقد استطاعت بلاغة الأصدقاء أن تبدّل من طباع ابن أخته. ولكنْ، لا؛ إن في غنّته الأنفية نبرة، تُكذِّب ذلك الإقناع. يا له من فتى! فيه الحماقة وما ينفي الحماقة في آن واحد ... وابنه باولو ... لقد كان في تلك اللحظة يراقب كيف يلتهم حصانهُ غويسكاردو طعامه! وباولو هذا هو ابنه الحقيقي.

نهض الأمير مسرعاً، ونزع المنشفة عن عنقه، وفتح صندوقاً، وقال: "تانكريدي، تانكريدي! انتظرْ". وجرى خلف ابن أخته، ووضع في جيبه صرّة مملوءة بالذهب، وربت على كتفه. فضحك الآخر، وقال: "إنكَ الآن تُؤازر الثورة ... شُكراً، يا خالي. إلى اللقاء قريباً، وقبلاتي العديدة للخالة". ومضى يهبط الدرج مسرعاً.

ونُودي الكلب الذي راح يجري في إثر الصديق، ويملأ الفيلا بالنباح البهيج. وانتهت الحلاقة، وغسل الأمير وجهه. وجاء الخادم يساعد الأمير في خَلْع ملابسه وارتداء غيرها.

"العَلَم المثلّث الألوان! برافو! العَلَم المثلّث الألوان ... إنهم يتشدّقون بهذه الألفاظ، أولئك العفاريت!! وماذا ترى يعني ذلك الشعار الهندسي الذي يُقلّدون به الفرنسيّيْن كالقرود، وهو قبيح إذا ما قيس برايتنا الناصعة، وفي وسطها الشعار الذهبي المرصّع بالزنبق؟ وماذا يجديهم أنْ يترقّبوا هذا الزخم من الألوان الصارخة؟".

وجاء دور شدّ ربطة العنق الكبيرة الفخمة حول عنقه، وهي من الحرير الأسود. وهذه عملية عسيرة، توقّف لها تيّار أفكاره السياسية. لفّة أولى، وثانية، وثالثة، والأصابع الضخمة الرقيقة تمهّد الطّيّات، وتُسوِّي الانتفاشات، وتغرس في الحرير رأساً صغيراً لحورية ذات عينَيْن من الياقوت.

- صدرية نظيفة. ألا ترى أن هذه ملطّخة؟

ونهض الخادم على رأس قَدَمَيْه، ليلبسه الردنغوت الكستنائي اللون، ووضع له المنديل، وعليه ثلاث قطرات من عطر البرغاموتو. أما المفاتيح، والساعة ذات السلسلة، والنقود، فقد وضعها الأمير نفسه في جيبه، ونظر إلى نفسه في المرآة: لم يكن ثمَّة ما يُقال. إنه ما يزال جميل الطلعة. "الخشن المتهتّك!" "إنه يمزح مزاحاً ثقيلاً ذلك التانكريدي ... أودّ لو أراه في مثل سني هذا الأربع العظمات المتماسكة!....".

وراحت الخطى الثقيلة العنيفة ترجّ زجاج النوافذ في القاعة التي يعبرها. كان المنزل صافياً، مغموراً بالنور والزينة. وهو قبل كل شيء منزله الخاصّ. وفي نزوله السّلّم، أدرك ما عناه تانكريدي حين قال: إذا أردنا أن يبقى كلّ شيء على حاله..."، لقد كان تانكريدي رجلاً عظيماً: ذلك كان دائماً رأيه فيه.

***

كانت غرفة الإدارة ما تزال خالية، تُنيرها الشمس بصمت من خلف درفات النوافذ المغلقة. وعلى الرغم من أن هذا المكان من القصر هو الذي كان يتمّ فيه أكبر الأعمال التافهة، فإن مظهره كان ذا قسوة هادئة. ومن الجدران الكلسية كانت تنعكس على الأرض المشمّعة اللوحات الضخمة

التي تمثّل أملاك بيت سالينا وعقاراته؛ وبألوان زاهية داخل إطارات سوداء وذهبية كانت تبدو سالينا، الجزيرة ذات الجبال التوائم المحاطة ببحر منمّق كله بكشاكش الزبد، وتملأ جوانبه السفن التي تتعالى فوقها الرايات؛ وقرية كويرتشيتا ببيوتها المنخفضة المحيطة بالكنيسة الرئيسة الكبيرة، وعدد كبير من السّيّاح، زرق الألوان، يسيرون نحوها؛ ومنطقة راغاتيسي المحصورة بين فجوات الجبال؛ وآرجيفوكالي الصغيرة جدّاً في وسط سهول الحنطة المترامية، التي تعجّ بالفلاحين العاملين، ودونّا فوغاتا، وقصرها الباروكي الطراز، محجّة العربات القرمزية، والعربات الخضر، والعربات المذهّبة المحملة، كما يبدو، بالنساء والقناني وآلات الطرب؛ وأماكن أخرى عديدة، تحميها كلها السماء النقية الصافية التي تبعث على الاطمئنان، ويحميها الفهد الذي يضحك من بين شواربه الطويلة. الجميع فرحون وكلهم راغب في أن يبرز - مُرائياً أم صادقاً - هذه الإمبراطورية المشرقة لأسرة سالينا. إن تلك الرسوم لوحات أصيلة من الأعمال الفنّيّة الساذجة في القرن الماضي، إلا أنها لا تكفي لرَسْم الحدود، وبيان المناطق والأملاك بالضبط، فهذه أشياء كانت مجهولة في الواقع، وقد تحوّل غناها خلال الأجيال العديدة التي مرّت على وجودها إلى زينة أو ترف أو بعض اللذاذات، ولا شيء غير ذلك. إن إلغاء الحقوق الإقطاعية قد أسقط الواجبات والامتيازات على السواء. والثروة كنبيذ معتّق، تسقط في قعر الزجاجة رواسب الطمع والحرص، ورواسب الحكمة أيضاً، لكي تحفظ الحرارة واللون فقط، ممّا يفضي بها إلى أن تُلاشي نفسها بنفسها. هذه الثروة التي حقّقت نهايتها كانت تتألّف من زيوت عطرية فقط، وكالزيوت العطرية كانت تتبخّر حالاً. وهكذا فإن عدداً من تلك الإقطاعيات المشرقة في لوحاتها كان قد طار، ولم يعد له وجود إلا على القماش المتعدّد الألوان، وإلا بالأسماء فقط. وكان

عدد آخر منها أشبه بطيور السنونو في أيلول: ما تزال حية إلا أنها متجمّعة تتصايح على الأشجار استعداداً للرحيل، ولكنها كانت من الكثرة، بحيث يخيّل للمرء أنها لا يمكن أن تنتهي.

على الرغم من ذلك كله، فإن شعور الأمير عند دخوله إلى مكتبه الخاصّ لم يكن، كعادته في كل مرّة، شعور بالرضى. في وسط الغرفة كانت طاولة ضخمة كالبرج فيها عشرات من الأدراج والفتحات، ومن التجاويف والمخابئ والقطع المتحرّكة؛ وكان هيكلها المصنوع من الخشب الأصفر والمرقّش بنقوش سود مليئاً بالفخاخ، والمنبسطات، والمخابئ السّرّيّة التي لا يمكن أن يهتدي إلى تحريكها غير اللصوص. كانت مغطّاة بالأوراق، ومع أن الأمير، احتياطاً منه، كان قد عنى بأن يكون قسم كبير من هذه الأوراق خاصّاً بالشؤون الفَلَكية، فإن ما يتراكم هناك كان كافياً ليملأ قلب الأمير بعدم الرضى. وعادت إلى ذهنه فجأة مكتبة الملك فرديناند في كازيرتا، وقد كانت هي أيضاً تغصّ بالمعاملات والقرارات الواجب اتّخاذها، والتي كان يمكن التّوهّم بأنها تؤثّر في مجرى المصائر والحظوظ، بينما تجري هذه المصائر في واد آخر.

وتذكّر سالينا دواء قد اكتُشف منذ مدّة قريبة في الولايات المتحدة الأميركية يمنع من الشعور بالألم في أثناء العمليات الجراحية الشديدة الخطورة، ويمنح الصفاء حتّى في وسط العذاب، وقد أُطلق اسم (المورفين) على ذلك البديل الكيمائي السمج للفلسفة الرواقية القديمة، وللإذعان المسيحي لإرادة الله. وكانت الإدارة الوَهْمية بالنسبة إلى ذلك الملك المسكين هي ذلك المورفين، أما هو، سالينا، فقد كان لديه مركب آخر أفضل منه، وهو: الفَلَك.

وطرد الأمير من رأسه صورة (راغاتيّسي) الضائعة، و(آرجيفوكالي) التي توشك على الضياع، وغرق في تصفّح العدد الجديد من (جريدة العلماء): "آخر الملاحظات من مرصد غرينتش يثير اهتماماً خاصّاً ...".

وكان لا بد له، مع ذلك، من أن يبتعد حالاً عن صقيع تلك الممالك الفَلَكية، فقد دخل عليه دون شيشيو فيرّارا المحاسب. وكان هذا رجلاً ضئيل الجسم، جافّاً، يخفي نفس تحرّرية واهمة وضارية خلف نظّارات توحي بالثقة والاطمئنان، وربطة عنق، لا عيب فيها. كان في ذلك الصباح ذا حيوية غير مألوفة، فقد بدا واضحاً أن الأنباء التي انقبضت لها نَفْس الأب بيرّونه كانت ذات وقع محبّب لديه. وبعد التحيات المعتادة قال: "أزمنة سيّئة، يا صاحب السعادة ..."، ثمّ أضاف: "إن ويلاتٍ رهيبةً توشك أن تقع، غير أن كل شيء سيسير على أحسن حال بعد قليل من البلبلة والأعيرة النارية، وستعرف جزيرتنا أزمنة مجيدة؛ ولولا أن أبناء أمّهات عديدات سيُقتلون، لما استطعنا إلا أن نغتبط لذلك".

وهمهم الأمير دون أن يُبدي رأياً. وبعد قليل قال: "دون شيشيو؛ ينبغي أن تضع شيئاً من النظام في تحصيل غلّة كويرشيتا، فقد مضى عامان دون أن نرى منها فلساً واحداً". فكانت الإجابة السِّحْرية: "الحسابات صحيحة، يا صاحب السعادة، وما علينا إلا أن نكتب إلى دون أنجلو ماتزا لتنفيذ التعليمات. سأهيّئ الرسالة لتوقيعكم هذا النهار نفسه". ثمّ مضى ليغرق بين السجلات الضخمة. وفي هذه السجلات كان يدوّن بحروف دقيقة جدّاً – بتأخير عامَيْن كاملَيْن- كل حسابات أسرة سالينا، ما عدا الحسابات ذات الأهمّيّة الحقيقية!...

ولمّا أصبح الأمير وحيداً، أرجأ نفث فورة غضبه في السديميات. لقد كان ثائر النَّفْس، لا على الأحداث في حدّ ذاتها، بل على بلادة دون شيشيو الذي

أبصر فيه حالاً الطبقة التي ستتسلّم مقاليد القيادة. إن ما يقوله هذا الرجل الطّيّب هو عكس الحقيقة تماماً؛ إنه يرثي لأبناء الأمّهات الذين سيموتون؛ وهؤلاء سيكونون قلائل جدّاً، لو كان يعرف طبائع الفريقَيْن المتنازعَيْن، فمن المؤكّد أنه لن يموت واحد أكثر من العدد الذي يكفي تحقيق وثيقة النصر، في نابولي أو تورينو – فلا فرق بين المدينَتَيْن- غير أنني مؤمن "بالأزمنة المجيدة لجزيرتنا صقلّية" - على حدّ تعبيره- وهو ما كنّا نُوعَد به في كل غزوة، منذ غزوة "نيشيا" إلى اليوم، ولكنه لم يتحقّق بعد. وعلى كل حال، لماذا كان يجب أن يتحقّق؟ وماذا يحدث عندئذ؟ آه! إجراءات ترافق عيارات نارية، لا تعقب أذى، ثمّ يعود كل شيء إلى حاله، في حين يتغيّر كل شيء. وعادت إلى ذهنه كلمات تانكريدي الغامضة، وقد أدرك الآن معناها على حقيقته، فعاوده الهدوء، ومضى يقلّب أوراق الصحيفة، وينظر إلى جوانب جبل بلليغرينو الجافّة المحفَّرة والخالدة التعاسة.

بعد قليل، جاء روسو، الرجل الذي كان الأمير يراه أكثر تعبيراً عن الواقع من سواه بين أتباعه: فهو نشيط، يرتدي بشيء من الأناقة سترة من المخمل المخطّط، وله عينان نهمتان تحت جبين لا يعرف الندامة. كان بالنسبة إليه تعبيراً كاملاً عن طبقة اجتماعية صاعدة. وفيما عدا ذلك، فهو كثير التبجيل والمجاملات، ويكاد يكون صادقاً في إخلاصه مع أنه كان ينفّذ سرقاته مقتنعاً بأنه في ذلك يمارس حقّاً من حقوقه. "إنني لأتصوّر كم ستتألمون سعادتكم لفراق الصغير تانكريدي، غير أن غيابه لن يطول كثيراً؛ أنا واثق من هذا، وسينتهي كل شيء حسناً".

مرّة أخرى، وجد الأمير نفسه أمام الألغاز الصِّقِلّيّة. في هذه الجزيرة الغامضة، حيث البيوت مسدودة بالحواجز، والقرويون يزعمون أنهم

يجهلون طريق المدينة التي يقيمون فيها مع أنها هناك على التّلّ أمام عيونهم، وعلى مسافة خمس دقائق فقط؛ في هذه الجزيرة، وعلى الرغم من الغموض الذي تفاخر به، يظلّ تحفّظها أسطورة من الأساطير.

وأومأ إلى روسو بالجلوس، وحدّق في عينَيْه مليّاً، ثمّ قال: "لنتحدّث حديث رجل إلى رجل، يا بييترو. أأنتَ أيضاً أقحمتَ نفسكَ في هذه الأمور؟" فكان جوابه أنه غير منغمس فيها، فهو ربّ أسرة، وهذه المغامرات عمل شبّان من أمثال السّيّد تانكريدي الصغير: "تصوّر إن كنتُ أخفي عنكَ شيئاً، يا صاحب السعادة، وأنتَ مثل والدي!" (وكان منذ ثلاثة أشهر قد خبّأ في مخزنه ثلاثمائة سلّة من ليمون الأمير؛ وكان يعرف أن الأمير على علْم بأمره!) ثمّ أضاف: "ولكنْ، يجب أن أعترف بأن قلبي معهم؛ مع الفتيان المغاوير". ونهض ليفتح الباب لبنديكو الذي كان يدفع الباب بعزم، فيرجُّه رجّاً. ثمّ عاد إلى الجلوس، واستأنف كلامه قائلاً: "أنتم تعرفون ذلك، يا صاحب السعادة. لم نعد نطيق هذه الحالة: تفتيش، استجوابات، مداهمات للبيوت، لأقلّ سبب، حواجز عند زاوية كل بيت ... لم يعد الإنسان الكريم يستطيع أن ينصرف إلى شأنه. أما بعد، فإننا سننعم بالحُرّيّة، والأمن، وتخفيف الضرائب، وسهولة العمل، وحُرّيّة التجارة. كلنا ستتحسّن أحوالنا؛ والكَهَنَة وحدهم سيخسرون؛ فالله يحمي المساكين أمثالي، لا الكَهَنَة".

وابتسم الأمير، فقد كان يعلم أن روسو هذا كان قد وسَّط أحد الأشخاص، ليشتري له ضيعة آرجيفوكالي. وتابع روسو كلامه، فقال: "ستأتي أيّام، يكثر فيها إطلاق الرصاص والبلبلة، غير أن قصر سالينا سيظلّ آمناً ثابتاً كالصخر. إنكَ، يا صاحب السعادة أبونا، وأنا كثير الأصحاب هنا، ولن

يدخل البيمونتيون إلا وقبّعاتهم في أيديهم لتحية سعادتكم. وأنتم فوق ذلك كله خال السّيّد تانكريدي، ومربّيه ... ".

فأحسّ الأمير بالمهانة ... إنه ليحسّ بأنه قد انحدر إلى حيث أصبح تحت حماية أصحاب روسو، وكل مزيته - كما يبدو - أنه خال لذلك المسخوط الذي اسمه تانكريدي. وقال في نفسه: "في خلال أسبوع، سأنتهي إلى وضع، لا أنجو فيه بحياتي إلا لأنني أقتني بنديكو في بيتي!.." ثمّ يفرك أذن الكلب بين أصابعه بقوّة، فينبح الكلب معتزاً بالمداعبة، دون شكّ، ولكنْ، بألم. وبعد قليل، أضاف روسو كلاماً بعث في نَفْس الأمير بعض التعزية والتشجيع، إذ قال: "كل شيء سيصبح خيراً ممّا هو. صدِّقني، يا صاحب السعادة. والناس الشرفاء سيصبحون قادرين على شق طريقهم قُدُماً، أما الباقون، فسيظلّون كما كانوا من قبل" ... هؤلاء الناس، هؤلاء القرويون الليبراليون كانوا يبحثون فقط عن وسائل الثراء العاجل التي يمكن أن يستغلّوها بسهولة، وكفى. أن يكون في وسع الخطاطيف أن تسبقَ سواها في سرعة الطيران، هذا كل شيء، وإن يكن ما يزال الكثير منها في العشّ ...

- ربمّا كنت على حقّ ... مَنْ يدري؟!

لقد تغلغل الآن إلى أعماق الأحاسيس والمعاني الخفية: إن كلمات تانكريدي الملأى بالألغاز، وكلمات فايرارا البليغة، وألفاظ روسو الباطلة والمعبّرة معاً، قد تركتْ في نفسه سرّها المهدّئ. قد تقع أمور كثيرة، إلا أنه ربمّا كان كل شيء رواية هزلية؛ رواية صاخبة خيالية، ترافقها قطرات من الدم على الملابس التهريجية ... لقد كان هذا بلد التسويات: فلم يكن فيه العنف الفرنسي. ولكنْ، حتّى في فرنسا، إذا استثنينا حزيران من عام ١٨٤٨، فمتى وقع فيها أمر جدّيّ؟ لقد كان يودّ أن يقول لروسو – لولا

أن منعته من ذلك دماثته الغريزية -: "لقد فهمت جيّداً: إنكم لا تريدون أن تدمّرونا نحن "آباءكم"... وإنما تريدون فقط أن تأخذوا مكاننا باللطف والأخلاق الكريمة ... وقد تضعون في جيوبنا بضعة آلاف من قِطَع النقد (الدوكات)؛ أليس كذلك؟ إن ابن أخيكَ، يا عزيزي روسو، سيعتقد مخلصاً بأنه بارون، وستصبح أنتَ – ما يدريني؟- متحدّراً من صلب غراندوق من موسكو بسبب اسمكَ(*)، لا ابن فلاح أحمر الجلد، كما يعني اسمكَ في الواقع ... وابنتكَ ستكون قد تزوّجت قبل ذلك واحداً منّا؛ وقد يكون تانكريدي نفسه، بعينَيْه الزرقاوَيْن، ويَدَيْه الصغيرتَيْن المعروقَتَيْن ... إنها على كل حال جميلة، وحسبها أن تتعلّم كيف تغتسل ... لكي يظلّ كل شيء على حاله ... على حاله طبعاً، مع شيء غير ملحوظ من تبدّل الطبقات. ومفاتيحي المذهَّبة، كسيّد نبيل من رجال المجلس، وشريط سان جنَّارو الكرزي، يجب أن تظلّ في صندوقها، ثمّ تنتهي إلى خزانة زجاجية لدى ابني باولو. أما أسرة سالينا، فستبقى أسرة سالينا، وربّما أُتيح لأفرادها أن ينالوا بعض المكافأة، أو التعويض، من مثل مجلس سردينيا، وشريط سان ماوريتسيو الفستقي. إن هذه كلها ألاعيب، وتلك أيضاً ألاعيب مثلها ...".

ونهض قائلاً: "بيترو! قلْ لأصحابكَ إن هنا فتيات عديدات، فيجب أن لا يرعبوهنّ". فأجاب الآخر: "لقد كنتُ واثقاً من هذا، يا صاحب السعادة، وقد أخبرتُهم فعلاً. إن قصر سالينا سيظلّ آمناً كالدَّيْر". وابتسم ابتسامة تجمع بين الطّيبة والسخرية.

وخرج دون فابريتسيو يتبعه بنديكو. لقد أراد أن يصعد للبحث عن الأب بيرّونه، غير أن نظرة الكلب المستعطفة جعلتْه يخرج إلى الحديقة. لقد كان بنديكو في الواقع يحمل ذكريات فرحة للعمل الذي قام به الليلة الماضية،

*) اسمه (Russo) يعني (روسي)، في اللغة الإيطاليّة، نسبة إلى روسيا. (المترجم).

ويريد أن يُتمّه على أجمل ما تقتضيه قواعد الفنّ. وكانت الحديقة أروع عطراً ممّا كانت أمس، وتحت شمس الصباح كان زهر الأكاسيا الذهبي أقلّ نشازاً. "ولكنْ، ما مصير حكّامنا؟ والشرعية، ما مصيرها؟". وأزعجه التفكير قليلاً. إن المخادعة ليست ممكنة. وظلّ لحظة مثل مالفيكا ... هؤلاء الذين يُدعون (فرانشيسكو) و(فردیناندو) المحتقرون، بدوا له كالإخوة الكبار، ممتلئين ثقة، وحبّاً، وعدالة. إنهم ملوك حقيقيون. ولكن قوات الدفاع الخاصّة بالأمن الداخلي، الساهرة على حماية الأمير، كانت تُسرع إلى نجدته مسلّحة ببنادق القانون، وبمدفعية التاريخ ... "وفرنسا؟ أليس نابليون الثالث غير شَرْعي؟ ألا يعيش الفرنسيون سعداء تحت حُكم ذلك الإمبراطور المستنير الذي سيقودهم، دون ريب، إلى أعلى المصائر؟ ثمّ، لنتفاهم جيّداً: هل كان وضع كارلو الثالث صحيحاً تماماً؟ حتّى معركة بيتونتو كانت من نوع معركة بيزاكوينو أو كورليوني أو ما لا أعرفه من المعارك التي سيأخذ فيها البييمونتيون رجالنا على غرّة. إنها إحدى المعارك التي تجري، لكي يبقى كل شيء على حاله. وعلى كل حال، لم يكن الإله الأكبر جوبتير ملك الأولمب الشرعي!"

كان واضحاً أن انقلاب الإله جوبتير على الإله ساتورن لا بد أن يعود بذهنه إلى النجوم.

***

وترك بنديكو منهمكاً بحركاته الديناميكية، وصعد السّلّم، فعبر القاعات التي كانت الفتيات يتحادثنَ فيها عن صديقاتهنّ في دَيْر المخلّص (عند مروره، ثار حفيف الحرير من ثياب الفتيات وهنّ ينهضنَ له)، وصعد درجاً طويلاً، ثمّ أفضى إلى الضوء الأزرق الكبير في المرقب. هناك كان الأب

بيرّونه يجلس بين عملياته الجبرية، ووجهه يفيض بصفاء الكاهن الذي صلّى صلاة القدّاس، وتناول القهوة الثقيلة مع البسكوت المصنوع في مونريالي.

وكان المجهران والمناظير الثلاثة التي أعمَتْها الشمس تربض وديعة، وأغطيتها السوداء تحجب عيونها، كحيوانات طيّبة مدرّبة، تعرف أن الطعام لا يقدّم إليها إلا في المساء.

وقفزت عينا الأمير عن الكاهن وحساباته، إذ عادت إلى ذهنه الصورة البشعة التي كانت مساء أمس. ونهض الكاهن، فحيا باحترام كثير، ولكنه لم يستطع إلا أن يقول: "هل جئتُم لكي تعترفوا، يا صاحب السعادة؟"، فدُهش الأمير الذي كان قد أنساه النوم وأحاديث الصباح الحادثة الليلية، وأجاب: "أعترف؟ ولكن اليوم ليس السبت"! ثمّ تذكّر، فابتسم وقال: "حقّاً، يا أبتي، ليس ثمّة من حاجة إلى ذلك، فأنتم تعرفون كل شيء ...". فغضب اليسوعي لهذا الإصرار على إشراكه في الإثم زوراً، وقال: "إنّ فِعْلَ الاعتراف لا يكمن في سَرْد الأفعال، إنمّا في التوبة عمّا ارتكب المرء من إثم، وإذا لم تفعلوا ذلك على مشهد منّي، فستظلّون تحت عبء الخطيئة المميتة سواء أكنتُ أعلم أفعالكَ أم أجهلها". وفي رهبة، نفخ عن كمّه خيطاً صغيراً، ثمّ عاد، فانكبّ على عمله العقلي.

ذلك كان الهدوء الذي أشاعتْه في نَفْس الأمير اكتشافات الصباح السياسية، فإنه لم يفعل أكثر من أنه ابتسم لما كان من قبل يعدّه إهانة. وفتح إحدى نوافذ البرج الصغير، وكان المشهد يعرض كل ما فيه من جمال. وتحت توهّج الشمس، كان كل شيء يبدو مُجرّداً من الثقل، وكان البحر عن بُعد يبدو بقعة من اللون الصافي، والجبال التي كانت تبدو في الليل ملأى بالمخاوف والأهوال بدت كتلاً من البخار في درجة الذوبان،

ومدينة باليرمو العابسة نفسها كانت تترامى هادئة حول الأديرة كقطيع أغنام عند أقدام الرعاة. وفي المرفأ، كانت السفن الأجنبية راسية، وقد أُرسلَتْ توجُّساً من وقوع اضطرابات، ولكنها لم تُفلح في إشاعة معنى من معاني الخوف في الهدوء الشامل المسيطر. والشمس التي كانت ما تزال بعيدة عن عنفوان حرارتها في ذلك الصباح من يوم ١٢ مايو كانت تبدو كأنها هي السلطان الحقيقي لجزيرة صِقِلية: الشمس العنيفة الوقحة، أو حتّى المخدّرة التي تُبدّد الإرادات الفردية، وتترك كل شيء في خمول راضخ تُهَدْهِدُهُ أحلام عنيفة، وعنف يساهم في الأحلام الاعتباطية.

- إننا في حاجة إلى أكثر من فكتور عمانويل واحد، لكي يُغيِّر هذا الدواء العجيب الذي يُصَبّ لنا.

ونهض الأب بيرّونه، وأصلح من وضع حزامه، وتقدّم من الأمير ويده ممدودة نحوه وهو يقول: لقد كنتُ شديد الخشونة، يا صاحب السعادة؛ فأرجو حلمكم. لكنْ، وافقوني واعترفوا!"

وتحطّم الجليد، واستطاع الأمير أن يخبر بيرّونه بأحاسيسه السياسية. غير أن اليسوعي ظل بعيداً عن مشاركته شعور الرضى، بل قد أصبح مزعجاً، إذ أجاب: أنتم السادة تكفي كلمات قليلة، لكي تجعلكم تتّفقون مع الليبراليين - لا أعني المتحرّرين، بل الماسونيّيْن - على حسابنا؛ على حساب الكنيسة. فمن الواضح أن خيراتنا، هذه الخيرات التي هي وقف على الفقراء، ستصبح نهباً موزّعاً على أوقح الزعماء الغوغائيّيْن، ومَن الذي سيشبع بعدئذ جماهير الأشقياء البائسين الذين ما تزال الكنيسة إلى اليوم ترعاهم وتقود خطاهم؟".

فَصَمَتَ الأمير، وتابع الكاهن كلامه: "وكيف نعمل عندئذ، لتطمئنّ تلك

الجماعات اليائسة؟ سأقوله لكم حالاً، يا صاحب السعادة: سيقذفون لهم في الوجبة الأولى جزءاً من أراضيكم، ثمّ جزءاً آخر، وأخيراً البقية كلها، وهكذا سيحقّق الله عدالته ولو على أيدي الماسونيّيْن. لقد كان الله يشفي عميان الجسد، أما عميان الروح، فماذا يكون مصيرهم؟".

كانت أنفاس الأب التعس قوية ضخمة، فقد كان يعاني ألماً صادقاً لما يتوقّعه من نهب أموال الكنيسة، مضافاً إليها تأنيب الضمير، لأنه جعل من نفسه من جديد امرءاً سهل الانقياد، خشية أن يسيء إلى الأمير الذي يحبّه، والذي كان يعرف حدّة غضبه، ويعرف كذلك طيبة نفسه اللامبالية. فجلس حذراً، وراح ينظر إلى فابريتسيو الذي كان يمسك بفرشاة صغيرة، ينظّف بها أجزاء أحد المناظير، ويبدو مستغرقاً في عمله الممل. وبعد قليل، نهض وأخذ ينظّف يَدَيْه بخرقة صغيرة ووجهه خال من أيّ تعبير، وعيناه الصافيتان تبدوان منصرفَتَيْن فقط إلى البحث عن بقعة من الدهن، قد تكون عالقة تحت أحد أظفاره. وحول القصر، كان الصمت المشرق عميقاً شاملاً، لا يقطعه سوى عواء من بنديكو، ينبح على كلب البستاني في بيّارة الليمون، وسوى وقع السكّين الرتيب الأصمّ في داخل المطبخ، يُقطَع به اللحم للغداء القريب؛ وكانت الشمس الكبيرة قد أزالت قلق الآدميّيْن، كما أزالت مرارة الأرض. ثمّ اقترب الأمير من طاولة الكاهن في احتدام غضبه. كان يبدو جادّاً، ولكنه سرعان ما بدّد غضب الأب بيرّونه بصفائه النَّفْسي.

وقال الأمير: "لسنا عمياناً، أيّها الأب العزيز، وإنما نحن آدميون فحسب: نعيش حقيقة مائعة، نحاول أن نتكيّف معها، كما تنحني حشائش البحر تحت اندفاعاته. إن الكنيسة المقدّسة موعودة وعداً

صريحاً بالخلود، أما نحن، كطبقة اجتماعية، فلا. إن أي مسكّن يمنحنا الحياة مئة سنة يعادل عندنا الأبدية. وقد نستطيع أن نهتمّ بأبنائنا، وربّما بأحفادنا أيضاً، ولكن واجباتنا لا تتعدّى إلى أبعد ممّا نرجو لأيدينا هذه أن تداعبه. وأنا لا يسعني أن أهتمّ بما سيؤول إليه نسلي في عام ١٩٦٠، أما الكنيسة، فينبغي عليها أن تفعل ذلك، لأنه مُقدَّر لها أن لا تموت؛ وفي أوقات يأسها، يظلّ العزاء ميسوراً لها. وهل تظنّون أنها لو استطاعت الآن، أو في المستقبل، أن تُنقذ نفسها بالتضحية بنا، ستتأخّر عن ذلك؟ إنها لتفعله بكل تأكيد ... وحسناً تفعل".

وغمرت الأب بيرّونه فرحة عظيمة، لأنه لم يُغضب الأمير، ولذلك لم يغضب هو أيضاً. إن عبارة "يأس الكنيسة" لا تُغتفَر، غير أن خبرة الكاهن المُعرِّف الطويلة جعلته قادراً على تقدير مظهر دون فابريتسيو الواقعي. ومع ذلك، فهو لا يريد أن يدع مخاطبه أن ينتصر عليه، ولذلك قال: "عليكم خطيئتان، لا بد من أن تعترفوا لي بها يوم السبت، يا صاحب السعادة: إحداهما خطيئة الجسد التي اقترفتُمُوها أمس، والثانية خطيئة الروح التي ارتكبتُمُوها اليوم. تذكّروهما جيّداً".

وعاد كلاهما إلى الصفاء، فأخذا يبحثان في تقرير، كان يجب إرساله إلى مرقب أجنبي، هو مرقب (آرشيتري)، وكانت النجوم - غير المَرئية حينذاك، ولكنها حاضرة - محدّدة المعالم، تقودها الأرقام، وهي تدور في مسالكها المحدّدة في الفضاء، والكواكب الأمينة في مواعيدها كانت قد اعتادت أن تحضر في اللحظة عينها أمام مَنْ يراقبها. ولم تكن رُسُل كوارث، كما كانت تعتقد ستيلا، بل كان ظهورها المرتَقَب انتصاراً للعقل البشري الذي كان يندفع، ويشارك السموات في أعمالها السامية. "لندع الكلاب هنا

أمثال بنديكو، تطارد الفرائس البرّيّة، وسكّين الطاهي يمزّق لحم الحيوانات البريئة؛ أما هنا في هذا المرقب العالي، فإن نباح الكلب، ودم اللحوم المقطّعة يتلاقيان في انسجام هادئ، والمشكلة الحقيقية هي أن نستطيع الاستمرار في أن نعيش حياة الروح هذه في لحظاتها الأكثر تسامياً، والأشبه بالموت". كذلك كان الأمير يفكّر ناسياً تطيّره الدائم ونوازعه الجسدية في الأمس. ولعلّه بهذه اللحظات من التّجرّد الفكري قد ازدادت صلته بالوجود أكثر ممّا كانت ببركه الأب بيرّونه. وفي ذلك الصباح، فرض الصمت من جديد نحو نصف ساعة على آلهة السطح، وعلى القرود المعلّقة للزينة؛ ولكنْ، لم يفطن لذلك أحد في قاعة الجلوس.

***

عندما دعاهما من تحت جرس الغداء، عاد كلاهما على أتمّ ما يكون الصفاء، من حيث الاتّفاق في النظر إلى الأحداث السياسية، ومن حيث التّغلّب على الخلاف بينهما. وخيّم على الفيلا كلها جوّ من الانشراح غير المعتاد. كانت وجبة الظهر هي الوجبة الرئيسة خلال اليوم كله، وقد مضت والحمد لله على أحسن حال. تصوّر أن الابنة كارولينا، ذات العشرين عاماً، قد انحلّت إحدى البُكَل التي تشدّ شَعرها في شبه إطار حول وجهها، لأن الدّبّوس الذي يمسكها لم يكن مُحكَماً كما يبدو، فسقطت في صحنها. غير أن الحادث، الذي، في يوم غير هذا، كان يمكن أن يكون سيّئ العاقبة، لم يُثر هذه المرّة غير السرور. وحينما أمسك شقيق الفتاة، وكان يجلس بجانبها، بخصلة شَعرها وشبكها على عنقها، فتدلّت على كتفها كالقُبع، لم يسع الأمير نفسه إلا أن يبتسم. وكان رحيل تانكريدي وغايته وأهدافه معروفة لدى الجميع، وكان الكل ليتحدّثوا عنها إلا باولو،

فقد استمرّ يأكل صامتاً. ولم يكن أحدٌ يأبه لذلك غير الأمير الذي كان، مع ذلك، يكتم شيئاً من القلق في أعماقه، وغير كونشيتا التي حملت وحدها ظلاً من القلق على ذلك الجبين الجميل. "لا بد أن الفتاة تحمل شعوراً حبيباً نحو ذلك العفريت. إنهما معاً ليؤلّفان زوجَيْن لطيفَيْن، لو صحّ الحكم؛ غير أنني أخشى أن يضطرّ تانكريدي إلى رفع نظره إلى أعلى ... أقصد: إلى أسفل!..".

واليوم، ما دام الصفاء السياسي قد عاد، فبدّد الضباب الذي كان يغشيه عادة، فقد عادت طيبة قلب الأمير الأساسية تطفو على السطح من جديد. ولكي تطمئنّ الفتاة راح يشرح لها عدم جدوى البنادق في أيدي الجيش المَلَكي؛ وحدّثها عن عدم استقامة قصبات تلك البنادق الضخمة، وقلة نفاذ القذائف التي تُطلق منها. شروح تقنية، لا لزوم لها، لأنه لا يفهمها إلا القليلون. ومع أنها لم تُقنع أحداً، فقد كانت مصدر تعزية للجميع، ومنهم كونشيتا؛ فهذه الشروح تجعل من الحرب تخطيطاً هندسياً نظيفاً بين خطوط القوى المتصارعة خلال تلك الفوضى الشاملة القذرة.

في ختام الغداء، أقدمت الجيلاتينا المصنوعة مع الروم. وكانت هذه الحلوة المفضّلة لدى الأمير، وكانت الأميرة قد أمرت بصُنعها منذ الصباح الباكر، تقديراً منها للترضيات التي نالتْها. وقدّمت الحلوى بحجم هائل على شكل برج ضخم قائم على جدران، وخنادق، وجوانب ملساء، يستحيل ارتقاؤها. كان لونها أحمر وأخضر من الكرز والفستق اللذَيْن رُصّعت بهما، ولكنها كانت شفّافة مترجرجة، تغرق فيها الملعقة بسهولة عجيبة. وحينما وصل البرج الفاخر إلى فرانشيسكو باولو – وعمره ستّ عشرة سنة - في آخر المطاف، لم يكن قد بقي منه سوى بقايا جدران، هدّمتْها المدفعية، وكُتَل

ضخمة مدمّرة. وبفعل نكهة الرَّمْ الطّيّبة، وطعم الحلوى الملوّنة اللذيذ، أحسّ الأمير بلذّة فائقة وهو يرى كيف كانت تتهدّم تلك الصخرة الدكناء تحت وطأة الهجوم الخاطف الذي شنّتْه عليها شهية الآكلين. وكان أحد أقداحه قد بقي ممتلئاً إلى نصفه من نبيذ مارسالا، فرفعه بيده، ونظر إلى أفراد الأسرة حوله، مطيلاً التحديق قليلاً بعينَي ابنته كونشيتا الزرقاوَيْن، وقال: "على صحّة فتانا تانكريدي". وشرب النبيذ جرعة واحدة؛ والحرفان (F.D.) اللذان كانا ظاهرَيْن بوضوح في لون الكأس الذهبي وهي ممتلئة، لم يعودا يبدوان للعيان بعد فراغها.

***

بعد الغداء، عاد الأمير، فنزل إلى الإدارة؛ وكان النور يدخل إليه هذه المرّة من الجهة المعاكسة، فلم يعد الأمير يشعر بالتأنيب من صور أملاكه المعلّقة على الجدران، والتي أصبح يغطّيها الظّلّ. ودمدم باستوريللو ولونجيرو يقولان: أيّها السّيّد المبارك!". وكان هذان مستأجري ضيعة راغاتيسي، وقد جاءا يحملان إليه اللحوم؛ وهي جزء من حقّه، كان يسدّد له على طبيعته. وكانا يقفان مستقيمَيْن، وعيونهما مبهوتة، ووجهاهما محلوقان تماماً ومصوّحان بحرارة الشمس. وكانت تفوح منهما رائحة الماشية. فخاطبها الأمير خطاباً ودّياً بأسلوبه الرفيع جدّاً، وسألها عن أسرتَيْهما، وعن مواشيهما، وعن غلّة الموسم المرتقبة. ثمّ سأل: "هل جئتُما تحملان شيئاً؟" وبينما كانا يجيبان بنعم، وبأن ما أحضراه موجود في الغرفة المجاورة، أحسّ الأمير بشيء من الخجل، إذ فطن إلى أن هذا الحوار كان إعادة لمقابلاته للملك فردیناندو. فقال: "انتظرا خمس دقائق، وسيعطيكما فيرارا الإيصالات"، ثمّ وضع في يد كل منهما قطعتَي نقد، لعلّ قيمتها أكثر من ثمن ما أحضراه معهما، وقال: "اشربا كأساً على

صحّتنا"، ومضى ليرى الهدية: كان على الأرض أربع قطع من الجبن، تزن كل واحدة منها عشرة كيلو غرامات. وقد نظر إليها الأمير دون مبالاة، فقد كان يكره هذا النوع من الجبن. وكان هناك أيضاً ستّة حملان، هي آخر مواليد العام، مدلاة رؤوسها بشكل مؤثّر عند مكان الذَّبْح العريض الذي خرجت منه حياتها منذ سويعات، وكانت أحشاؤها أيضاً قد شُقَّت، وتدلّت الأمعاء منها. فتذكّر الأمير الجندي الممزّقة أمعاؤه قبل شهر، فقال في نفسه: "رحمة الله عليه!" وكانت هناك أيضاً أربعة أزواج من الدجاج مربوطة سيقانها، وهي تتعذّب من الخوف تحت خطم بنديكو الذي يبدو وكأنه يتساءل. وقال الأمير في نفسه: "وهذا أيضاً مثال من أمثلة الخوف الذي لا فائدة منه. إن الكلب لا يمثّل لها أيّ خطر، فهو لن يأكل منها عَظْمَة واحدة، لأنها تضرّ بمعدته".

إلا أن مرأى الدم والرعب لم يرقْه، فقال: أنتَ، يا باستوريللو، احمل الدجاجات إلى القنّ، فلسنا في حاجة إليها الآن، والحملان عليكَ في المرّة القادمة أن تحملها إلى المطبخ رأساً، لأنها هنا توسّخ المكان. وأنتَ، يا لونجيرو، اذهبْ وقلْ لسلفاتوره أن يأتي لتنظيف المكان، وليأخذ الجبن من هنا؛ وافتح النافذة كي تخرج الرائحة".

ثمّ دخل فيرارا، وسلَّم الإيصالات.

***

وحينما صعد الأمير من جديد، التقى بباولو، ابنه البكْر، أمير كويرشيتا، الذي كان ينتظره في المكتب الذي اعتاد أن يستريح بعد الغداء على ديوانه الأحمر. وكان الفتى قد جمع كل عزمه لأجل محادثته. كان قصير القامة، نحيلاً، زيتونيّ اللون، حتّى ليبدو أكبر سنّاً من أبيه. وقال: لقد أردتُ أن

أسألكَ، يا أبي، كيف نتصرّف مع تانكريدي حينما نراه عند عودته؟" فأدرك الأمير حالاً، وبدأ يغضب، وقال: "ماذا تعني؟ ما الذي تغيَّر؟".

- ولكنكَ، يا أبي، لن تستطيع، بكلّ تأكيد، أن تؤيّده ... لقد ذهب لينضمّ إلى أولئك الرعاع الذين يُشيعون الفوضى في صِقِلية؛ وهذه أمور لا يجوز الإقدام عليها".

الغيرة الشخصية، وشعور الرياء نحو ابن العمّة الذي يعيش في عالم الواقع، وبلادة الذهن أمام الفتى المملوء بالحيوية؛ هذه كلها لبست ثياب المنطق السياسي. فغضب الأمير، بحيث لم يدع ابنه يجلس، وقال له: "إنه لخير أن يفعل المرء الحماقات من أن يظلّ النهار كله يتفرّج على روث الخيل!.. إن تانكريدي أعزّ عليَّ الآن ممّا كان قبلاً. ثمّ إن ما يفعله ليس حماقات، فإذا كنتَ أنتَ تستطيع أن تصنع لكَ بطاقات زيارة، تحمل عبارة "دوق كويرشيتا"، وإذا كنتَ من بعدي، سترث شيئاً من المال، فستكون بذلك مديناً لتانكريدي وغيره من أمثاله.. اغربْ عنّي، فلن أسمح لكَ بعد الآن بأن تُحدِّثني عنه! أنا وحدي أحكم هنا..." ثمّ هدّأ من نبراته، وأحلَّ السخرية محلّ الغضب، وقال: "اذهبْ، يا ولدي، فإنني أريد أن أنام. اذهبْ، وتحادثْ مع حصانكَ غويسكاردو في السياسة، فأنتما تتفاهمان معاً جيّداً!..".

وبينما كان باولو يُغلق الباب متعثّراً وجلاً، خلع الأمير الردنغوت والجزمة، وهبط بثقله على الديوان الذي راح يئنّ تحته، ونام مستريحاً.

***

حينما استيقظ الأمير، دخل الخادم، يحمل عليه جريدة وبطاقة، لقد جاءت هاتان من باليرمو، من صهره مالفيكا، وقد جاء خادم على جواد

منذ قليل. وفتح الأمير الرسالة وما يزال متثاقلاً من أثر قيلولته العصرية تلك، فقرأ فيها: ("عزيزي فابريتسيو؛ أكتب إليكَ وأنا في حالة من الوهن، لا حدود لها. اقرأ الأنباء الرهيبة في الجريدة. لقد نزل البييمونتيون على الشاطئ. لقد ضعنا كلنا ... وفي المساء، سأكون أنا والأسرة كلها على ظهر السفن الإنكليزية. ولستُ أشكّ في أنكَ تفعل مثلي. فإن كنتَ ترغب في هذا، فسأحجز لكَ بعض الأماكن فلينقذ اللهُ مليكَنا المحبوبَ! أعانقكَ". المخلص: شيشيو").

طوى الرسالة، ووضعها في جيبه، وجعل يضحك عالياً. لقد كان مالفيكا دائماً أشبه بالأرنب. لم يكن يفهم قطّ شيئاً، وهو الآن يرتجف، ويترك القصر في أيدي الخَدَم؛ وهذه المرّة سيعود، ليجده فارغاً. وقال: "على فكرة .. يجب أن يذهب باولو، ليقيم في باليرمو، لأن المنازل في هذه الأيّام هي منازل مفقودة. سأقول له ذلك على العشاء".

وفتح الجريدة: "لقد وقع عمل صاعق من أعمال القرصنة في ١١ أيّار بنزول رجال مسلّحين على ساحل مارسالا. وقد أوضحت تقارير لاحقة أن عدد العصابة التي نزلت على الشاطئ ثمانمائة رجل تحت قيادة غاريبالدي؛ وما كاد المغامرون يصلون إلى الأرض حتّى راحوا يتجنّبون بكل جهدهم الاصطدام بالقوات المَلَكية، متوجّهين بمَنْ يسقط منهم من الجرحى إلى كاستلفترانو وهم يتوعّدون المَدَنيّيْن المسالمين، ولا يعفّون عن النهب والتخريب و... و...".

وأزعجه اسم غاريبالدي بعض الشيء. ذلك المغامر الذي كله شَعْر ولحية كان ماتزينياً(*) صرفاً، و قد دبّر لنا الويلات، ولكنْ، إذا كان الرجل

*) نسبة إلى ماتزيني، السياسي والناثر الإيطالي الشهير، ومن الذين حقّقوا الوحدة الإيطالية. (المترجم).

الشهم قد بعث به إلى هنا، فمعنى ذلك أنه يثق به. إنهم سيخدعونه".

وعاد إليه الاطمئنان، فمشط شَعْره، وجعل الخادم يلبسه الحذاء والردنغوت، ووضع الجريدة في أحد الأدراج. وكان موعد صلاة المسبحة قد اقترب، ولكن الصالون ما يزال خالياً. فجلس على ديوانه، وفيما هو ينتظر، لاحظ أن رسم البركان في السقف يشبه كثيراً الطبعات الحجرية لغاريبالدي التي كان قد رآها من قبل في تورينو. فابتسم، وقال في سرّه: "ديّوث!"

وأخذت الأسرة تتجمّع، ويتصاعد حفيف الفساتين الحريرية. وكان أصغر أبناء الأسرة يتضاحكون فيما بينهم؛ ومن خلف الباب، كان يسمع صوت المعاكسات المألوفة بين الخَدَم وبنديكو الذي يريد أن يشارك الأسرة بأيّ ثمن. وكان شعاع من الشمس مشحون بذرّات الغبار ينير القرود الخبيثة. وجثا الأمير، وأخذ يصلّي باللاتينية:

"السلام عليكِ، يا سلطانة، يا أمّ الرحمة ...".

٢. الرحلة إلى دوّنا فوغاتا

(أغسطس ١٨٦٠)

"الأشجار! ها هي الأشجار!"

كان الصوت صادراً عن العربة الأولى المتراجعة إلى الخلف نحو صفّ العربات الأربع الأخريات التي كادت تختفي داخل سحابة الغبار البيضاء، وخلف باب كل منها وجوه تتصبّب بالعَرَق، وتنمّ عن رضى منهوك.

والحقيقة أنه لم يكن هنالك أكثر من ثلاث من أشجار الكينا، هي أشدّ أبناء "الطبيعة الأمّ" اعوجاجاً، غير أنها كانت أوّل ما وقعت عليه العيون من أشجار منذ الساعة السادسة صباحاً، حين غادرت أسرة سالينا ضيعة (بيزاكوينو)، وقد بلغت الساعة الآن الحادية عشرة، وخلال تلك الساعات الخمس لم تقع العيون على غير مجموعات من الهضاب الكسلى غارقة في الصفرة تحت أشعّة الشمس. وكان خبب الجياد في السهول ينقلب من حين إلى آخر إلى تصعيد بطيء طويل في تسلّق المرتفعات، أو إلى خطى ثقيلة رزينة في المنحدرات، يتخلّل ذلك رنين أجراس الجياد الذي لم يعد يفهم منه إلا أنه مظاهرة رنّانة في ذلك الجوّ المتلظّي. ولقد اجتازوا قرى وأماكن مصبوغة باللون الأزرق الطّريّ، تبدو خالية من السّكّان؛ وعند بعض الجسور الفخمة كانت عبارات نهرية جافّة جفافاً تامّاً، وأحياناً كانوا يمرّون على مقربة من وهاد سحيقة مريعة. لم تقع عيونهم على شجرة واحدة خلال المسير، ولا على قطرة ماء واحدة: الشمس والغبار الكثيف رافقا الرحلة

كلها. وفي داخل العربات، التي كانت مغلقة عمداً لمنع الشمس والغبار الكثيف، بلغت درجة الحرارة الخمسين، دون ريب، وكانت تلك الأشجار العطشى التي ترفع أذرعها نحو السماء تُنبئ بأمور كثيرة: منها أنهم صاروا على مسافة أقلّ من ساعَتَيْن من نهاية الرحلة، وأنهم دخلوا في أراضي أسرة سالينا، وأن في وسعهم أن يتناولوا الغداء، وربّما استطاعوا أيضاً أن يغسلوا وجوههم بمياه البئر المليئة بالديدان.

وبعد عشر دقائق، وصلوا إلى معمل (رامبنتزيري)، وهو بناء ضخم، يقيم فيه شهراً واحداً كل سنة بعض العمّال والبغال، وبعض البهائم الأخرى التي تجتمع هناك لأجل الغلّة. وعلى الباب – المتين جدّاً ولكنه غير راسخ - يرقص فهد حجري، على الرغم من أن ضربة حجر كانت قد أطارت ساقَيْه فعلاً. وإلى جانب البناء بئر عميقة، تسهر عليها أشجار الكينات الثلاث، وهي تقدّم صامتة الخدمات التي يمكنها أن تؤدّيها: فهي تصلح لأن تكون بركة للسباحة، وحوضاً للشرب، وسجناً، ومقبرة؛ إنها تروي العطاش، وتنشر التيفوس، وتؤوي المسيحيين المَنفيّيْن، وتسهر على جيف الحيوانات والآدميين إلى أن تصبح هياكل عظمية صقيلة جدّاً، ومجهولة الهوية.

ونزلت أسرة سالينا بأسرها من العربات: الأمير المستبشر بقرب الوصول إلى ضيعة (دونّا فوغاتا) العزيزة، والأميرة الحانقة الخاملة الحركة معاً، لولا أن إشراقة وجه زوجها تمنحها بعض العزاء؛ والفتيات المتعبات، والأولاد الصغار المغتبطون بالنقلة، والذين لم يستطع الحَرّ أن يؤثّر فيهم؛ ومدموازيل دومبري، المربّية الفرنسية، المتضايقة جدّاً، والتي لم تنسَ الأعوام التي قضتْها في الجزائر لدى أسرة المارشال بوجو، وقد أخذت تبكي وتقول بالفرنسية: "يا إلهي، يا إلهي! إن هذا يبدو أسوأ من إفريقيا"، بينما تنشّف أنفها الصغير المرتفع؛ والأب بيرّونه الذي كان شروعه في تلاوة فرضه الدِّيني

قد سلّط عليه النعاس، ممّا جعل الرحلة تبدو له قصيرة، ومع ذلك، فقد كان يبدو أكثر الجميع حيوية ونشاطاً؛ وخادمة معها خادمان آخران، وأناس من المدينة غاضبون من مشاهد البرّيّة غير المألوفة؛ وبنديكو الذي هُرع خارجاً من العربة الأخيرة، وراح ينبح الغربان التي تنعب نعيباً جنائزياً وهي تطير منخفضة في النور.

كان الجميع بيضاً من كثرة الغبار، حتّى رموش عيونهم، وشفاههم، وكذلك أذناب الدوابّ، وأخذت ترتفع سحائب بيضاء حول الأشخاص الذين راحوا ينفضون الغبار بعضهم عن بعض، بعد وصولهم إلى المحطّة.

وكان هندام تانكريدي الأنيق يلمع نظيفاً في وسط ذلك الغبار والقذارة، فلقد سافر هو على جواد، فوصل إلى المعمل قبل القافلة بنصف ساعة، وأمكنه خلال هذه المدّة أن ينفض عنه الغبار، وينظّف نفسه، ويغيّر ربطة العنق البيضاء. ثمّ أخذ ينشل الماء من البئر بجهد كبير، ونظر إلى وجهه في مرآة الدلو، فرأى أنه كان نظيفاً كما يجب، مع تلك العصابة السوداء على عينه اليمنى التي لا تزال تذكره بالجرح الذي أُصيب به منذ ثلاثة أشهر في معارك باليرمو؛ وتلك العين الأخرى الزرقاء الداكنة، التي كان يبدو أنها قد أخذت على عاتقها أن تُعبّر عن الخبث الذي اعتراه كسوف مؤقّت في أختها؛ ومع ذلك الخيط الدقيق القرمزي فوق ربطة العنق التي تتدلّى بأناقة على القميص الأحمر الذي يرتديه.

وأعان الأميرة على النزول من العربة، وأزال الغبار بكمّه عن قبّعة الأمير، ووزّع حبّات حلوى على بنات خاله وأبنائه، وانحنى حتّى كاد يجثو أمام اليسوعي، وبادل بنديكو مشاعر الود، وعزّى مدموازيل دومبري، ومازح الجميع، حتّى فتنهم كلهم بمرحه ودعابته.

وراح الحوذيّون يدورون بالجياد ببطء، ليخفّفوا من حرارة أجسامها قبل أن يسقوها الماء، والخَدَم يمدّون الشراشف على القشّ الناتج عن دراسة الحبوب، في الظلال المثلّثة الزوايا الممتدّة إلى جانب المعمل. ومُدّ الغداء بسرعة إلى جانب البئر. ومن حولهم، تترامى البرّيّة الصامتة صمت الجنازة، والملأى بالقصل الأصفر، وبالبقايا السوداء المحروقة. وكان صرير الجناب يملأ السماء، أشبه بحشرجة صِقِلية المتوقّدة بالحَرّ في أواخر آب وهي تترقّب المطر عَبَثاً.

***

بعد ساعة، كانوا جميعاً يستأنفون المسير متهلّلين. وعلى الرغم من أن الجياد المتعَبَة كانت تسير ببطء شديد، فإن المسافة الباقية كانت تبدو لهم قصيرة؛ ولم تعد المناظر غريبة عليهم، بل صار أثرها في نفوسهم ألطف وأهون. لقد أخذوا يرون أماكن يعرفونها، ومحلات لطالما قصدوها للنزهة، ولتناول الطعام في السنين الماضية: منها مضيق (دراغونارا)، ومفترق طُرُق (ميسيبيسي). بعد فترة غير طويلة، سيصلون إلى (سيّدة النعم) التي كانت أبعد مكان للنزهة، ينطلقون إليه من دونا فوغاتا على الأقدام. وكانت الأميرة قد نامت، والأمير، وهو وحده الذي معها في العربة الواسعة، يشعر بالغبطة. إنه لم يشعر قطّ بغبطة في أن يذهب لقضاء ثلاثة أشهر في دونا فوغاتا كهذه الغبطة التي يشعر بها الآن، في نهاية هذا الشهر: آب ١٨٦٠؛ وليكن ذلك لأنه يحبّ في دونا فوغاتا المنزل، والناس، ولا لما يحسّه من الشعور بامتلاك الأقطاع فيها فحسب، بل لأنه، على عكس المرّات السابقة، لم يعد يحسّ بالأسف على الأمسيّات الهادئة في المرقب، ولا على الزيارات الطارئة لماريانينا كذلك. ولكي

نصدق مع أنفسنا لا بد من أن نقول إن المشهد الذي قدّمته باليرمو في الأشهر الثلاثة الأخيرة قد أغشى نفسه. كان يودّ أن يُزهى بأن يكون الشخص الوحيد الذي أدرك حقيقة الوضع، والذي استطاع أن يسخر من "البعبع" ذي القميص الأحمر، غير أنه كان لا بد له من أن يعلم أن الفراسة ليست وقفاً على آل سالينا. لقد كان جميع أهل باليرمو يبدون سعداء: كلهم ما عدا حفنة من الحمقى من أمثال صهره مالفيكا الذي أوقع نفسه في قبضة شرطة الدكتاتور، وبقي عشرة أيّام في سجن ضيّق مظلم؟ وابنه باولو الذي لا يقلّ عن مالفيكا استياء، ولكنه أكثر منه حكمة، وقد خلفه في باليرمو يلهو بأمور صبيانية لا يدري ما هي. أما الآخرون جميعهم، فقد كانوا يعلنون سرورهم، ويُزيّنون ياقاتهم بورود، تحمل ألوان العَلَم الجديد الثلاثة، ويقيمون المواكب الحافلة من الصباح إلى المساء، فيتحدّثون، ويخطبون، ويهتفون. ولئن كانت هذه الضوضاء في الأيّام الأولى حوافز من الهتافات التي تُحيّي الجماهير الجرحى القلائل وهم يمرّون في الشوارع الرئيسة، ومن تعذيب "الفئران" الباقية من الشرطة البربونية في الطُّرُقات، فإن هذه المهرجانات الآن، بعد أن شُفي الجرحى، وأُعيد تنظيم "الفئران" في الشرطة الجديدة، على الرغم من أنه يعترف بالحاجة الماسة إليها، يراها حماقات وتفاهات. وهو، مع ذلك، يعتقد بأن كل ذلك ليس سوى مظاهر سطحية لسوء التربية. أما حقيقة الأمور، والمعاملات الاقتصادية والاجتماعية، فكانت مرضية، كما كان يتوقّعها تماماً.

ولقد برّ روسو بوعوده، فلم تُسمَع حول قصر سالينا ولو طلقة واحدة؛ ولئن كان قد سُرق من قصر باليرمو الشيء الكثير من الأواني الصينية، فقد كان ذلك نتيجة طيش باولو الذي كان قد جمعها في سَلَّتَيْن، ثمّ تركهما فيما بعد في الحوش في أثناء انطلاق قذائف المدفعية، فكأنما كان ذلك

دعوة حقيقية خاصّة للخَدَم أنفسهم، ليحملوا هذه الأواني في السَّلَّتَيْن ويمضوا بها، ويُخفوها عن الأنظار.

أما البييمونتيون (كذلك ظلّ الأمير يدعوهم، ليُطمئن نفسه، مثلما كان آخرون يدعوهم "الغاريبالديّيْن" تمجيداً لهم، ويُحقّرهم آخرون بأن يدعوهم بأسماء أخرى)، أما البييمونتيون، فقد كانوا يُقدَّمون إليه وقبّعاتهم بأيديهم فعلاً، كما كان قد قال روسُّو، أو على الأقلّ وأيديهم على رفوف قبّعاتهم الحمراء "المجعلكة" التي لم تكن في مثل نظافة قبّعات الضّبّاط البربونيّيْن.

وفي نحو العشرين من حزيران جاء للزيارة جنرال يرتدي سترة حمراء ضيّقة ذات قياطين سوداء، وكان تانكريدي قد نبّه إلى زيارته قبل موعدها بأربع وعشرين ساعة. ومن خلف الجنرال، دخل أيضاً مساعده في الميدان، وقد طلب بملء التهذيب أن تُتاح له مشاهدة الصور الزيتية المرسومة على السقوف، فأُجيب إلى طلبه دون تردّد، وكانت الفترة بين إشعار تانكريدي والزيارة كافية لإبعاد صورة الملك فرديناندو الثاني، وهو في الملابس المَلَكية، من إحدى القاعات، ووضع صورة أخرى حيادية، هي "حوض للسباحة"، وهي عملية تجمع بين الرغبة الجمالية والسياسية معاً.

كان الجنرال شاباً توسكانياً شديد الرشاقة والحيوية، في نحو الثلاثين من عمره، ثرثاراً متعاظماً، وفيما عدا ذلك كان مهذّباً ومحبّباً إلى النَّفْس، وقد تصرّف بكل ما يجب من الاحترام، حتّى لقد كان يخاطب الأمير بعبارة "صاحب السعادة"، وهذه مخالفة صريحة لواحد من أهمّ الأوامر التي أصدرها الدكتاتور. أما المساعد، فقد كان فتى مغندراً، عمره تسعة عشر عاماً، وكان "كونتاً" من ميلانو، وقد فُتنت الفتيات بجزمته اللامعة، ولثغته بحرف "الراء". وكان الجنرال ومساعده قد جاءا بصحبة تانكريدي، الذي

كان قد رُقّي - أو على الأصحّ خُلِق - لرتبة رئيس في الميدان: كان قد عانى بعض الآلام من جرّاء الجرح الذي أصيب به، وها هو الآن يرتدي الثياب الحمراء؛ ويزهو بإظهار مشاعره الودّية نحو الظافرين، هذه المشاعر التي يدلّ عليها ارتفاع التكاليف بينهم، وتبادلهم ألفاظ: "أنتَ" أو "صديقي الباسل" التي يتبادلها عادة أبناء البرّ الإيطالي بحرارة صبيانية، وكان تانكريدي ردّ عليها بعبارات مثلها، بغنّته الأنفية، ولكن الأمير يراها مليئة بالتّهكّم الخفي الصامت.

ولقد استقبلهم الأمير بأعلى ما يملكه من اللطف المنيع الذي لا يُقهَر، ولكنه، في الحقيقة، سُرّ بهم، واطمأنّ إليهم، وكان من ذلك أن "البييمونتيّيْن" دُعيا، بعد ثلاثة أيّام، إلى العشاء، وكان جميلاً أن تُرى كارولينا جالسة أمام البيانو ترافق غناء الجنرال، الذي راح يغنّي تحية لصِقِلية: "إنني أعرفكِ، أيّتها الأماكن الفتّانة"، في حين راح تانكريدي يقلّب، كئيباً مغموماً، صفحات الأغنيّة الموسيقية، كأن عصا الإشارة الموسيقية لا وجود لها في الدنيا. أما الكونت الميلاني الصغير، فقد كان يجلس منحنياً على كنبة، ويحدِّث كونشيتا عن أريج البرتقال وعن حقيقة وجود (آلياردو آلياردي)، وكانت تتظاهر بالإصغاء إليه، ولكنها، في الحقيقة، كانت تتألم لشحوب ابن عمّتها، الذي كان يبدو في ضوء الشموع الموقدة على البيانو أشدّ نحولاً ممّا هو في الحقيقة.

كانت الأمسيّة بأكملها رائعة، ثمّ تَلَتْها أُمسيّات أُخر، كانت مثلها مشبعة بالمودّة والأنس، وفي خلال واحدة منهنّ، طُلب إلى الجنرال أن يتولّى بنفسه أمر عدم تنفيذ الأمر الصادر بنَفْي اليسوعيّيْن في الأب بيرّونه، الذي بدا كأنما هو مُثقَل بأعباء السنين والمصائب. وكان الجنرال قد أخذ يحسّ

نحو الكاهن الممتاز بشعور ودّي، فتظاهر بأنه مقتنع بحالته البائسة، فسعى لدى أصدقائه السياسيّين، حتّى ضمن للأب بيرّونه البقاء؛ وقد زاد ذلك من اقتناع الأمير بصحّة آرائه وتوقّعاته المسبقة.

حتّى في قضية جوازات المرور، التي كانت ضرورية جدّاً في تلك الأيّام المضطربة لمَنْ يرغب في الانتقال من مكان إلى آخر، كان الجنرال عظيم النفع، وكان الفضل الأكبر يعود إليه في أن أسرة سالينا استطاعت، في ذلك العام من أيّام الثورة، أن تستمتع بالاصطياف في مصائفها الخاصّة. ونال الكابتن (الرئيس) الشّابّ إجازة شهر، رافق فيها خاله وأسرته للاصطياف. وإذا استُثني جواز المرور، فإن معاملات سفر آل سالينا والإعداد له كانت طويلة ومعقّدة، فقد كان في الواقع لا بد من مفاوضات وطواف كثير في المكاتب الإدارية، "مع أشخاص ذوي نفوذ" من أهل (جيرجنتي)(*)، وهي مفاوضات كانت تنتهي بابتسامات، ومصافحات غامرة، ورنين نقود. وبهذه الطريقة، أمكن الحصول على جواز مرور آخر أطول مدّة من الأوّل، ولكن ذلك لم يكن بالأمر الجديد. لقد كان يجب تكديس جبال من الأمتعة والحاجات اللازمة، وإرسال قسم من الطُّهاة والخَدَم قبل الرحيل بثلاثة أيّام، وحزم مجهر (تلسكوب) صغير. وقد أقنعوا باولو بالبقاء في باليرمو؛ وبعد ذلك كله، أمكنهم الرحيل. وجاء الجنرال والملازم الصغير يحملان الأزهار وتحيّات الوداع، وحينما تحرّكت العربات من فيلا سالينا، تحرّكت ذراعان حمراوان تلوّحان في الفضاء طويلاً، وأطلّت قبّعة الأمير السوداء من باب العربة، أما اليد الصغيرة ذات القفّاز المطرّز الأسود، والتي كان الكونت الصغير يودّ أن يراها، فظلّت مختفية في حضن كونشيتا.

---

*) اسمها الآن (اغريجنتو)، وهي تقع في جنوب صقلية، وفيها وُلد الأديب الإيطالي الشهير لويجي بيرانديللو. (المترجم).

واستغرقت الرحلة أكثر من ثلاثة أيّام، وكانت رهيبة. فالطُّرُق، الطُّرُق الصِّقليّة الشهيرة التي فقد أمير ساتريانو ولايته بسببها، كانت عبارة عن خطوط غامضة ملأى بالحفر والثقوب والغبار. وكانت الليلة الأولى في (مارينيو) في منزل صديق، يعمل مسجّلاً عامّاً، ممكناً احتمالها، أما الثانية في لوكاندة (بريتسي) الحقيرة، فقد كانت مُضنية جدّاً، إذ قضوها متمدّدين كل ثلاثة أشخاص على سرير واحد، مروّعين بخيالات الجنّ الرهيبة. وكانت الليلة الثالثة في (بيزاكوينو)؛ وهناك لم يكن قمل، ولكن الأمير وجد بدلاً من القمل ثلاثة عشرة ناموسة داخل كأس الجيلاتو المشكّلة. وكانت رائحة غائط خفيفة تفوح من الطُّرُق القريبة ومن الغرف المجاورة التي فيها أواني التبويل، ممّا أثار لدى الأمير أحلاماً مزعجة جدّاً. وحينما استيقظ في ساعات الفجر الأولى غارقاً في العَرَق والروائح النتنة، لم يسعه إلا أن يقارن بين هذه الرحلة المقرفة وحياته الخاصّة، التي بدأت في مثل السهول الضاحكة، ثمّ تعريشت على جبال محدّدة الرؤوس، ثمّ خرج إلى مضائق رهيبة، ليغرق بعدئذ في تموّجات، لا تنتهي، وكلها ذات لون واحد. وكانت هذه التّخيّلات والهواجس في هذه الساعة المبكرة من الفجر أسوأ ما يمكن أن يقع لرجل في منتصف العمر. ومع أن الأمير كان يعلم أنها ستتلاشى حينما يبدأ نشاط في النهار، غير أنه عانى منها مرارة كثيرة، لأنه كان ذا خبرة كافية، ليدرك أنها تترك في أعماق النَّفْس أثراً مفجعاً، إذا تراكم يوماً بعد يوم أدّى في النهاية إلى الموت.

هذه الأشباح المرعبة لم تلبث، مع طلوع الشمس، أن اختفت في طوايا اللاوعي. وكانت دونا فوغاتا قد أصبحت قريبة، بالقصر الذي فيها، وبمياهها المتدفّقة، وبما فيها من ذكريات أسلافه القدّيسين، وبما توحي به من خلود الطفولة. والناس أيضاً طيّبون فيها، مخلصون وبسطاء. ولكنْ، عند

هذا الحدّ باغتتْه فكرة: مَنْ يدري إذا كان الناس بعد "الأحداث" الجديدة ما يزالون أمناء مخلصين، كما كانوا من قبل؟ "سنرى".

الآن أصبحوا حقّاً على وشك الوصول. وبدا وجه تانكريدي الطلق المرح متقوّساً من خلف المائدة الصغيرة. "استعدّوا، يا خالي، فسنصل في خلال خمس دقائق". لقد كان تانكريدي شديد الحرص على أن يتقدّم الأمير في البلدة. فعجل خطى جواده، وتقدّم، وجعل يسير جادّاً رزيناً إلى جانب العربة الأولى.

***

على الجهة الأخرى من الجسر القصير المؤدّي إلى البلدة كانت السلطات تنتظر، ومن حولها عشرات من القرويّيْن. وما كادت الجياد تدخل إلى الجسر حتّى شرعت موسيقى البلدية تعزف "نحن الغجريات"، وهو أمر أوّلي شاذّ، ولكنه تحيّة عزيزة، تؤديها دونا فوغاتا لأميرها منذ سنين؛ وبعد ذلك حالاً، أخذت الأجراس تُقرع في الكنيسة الكبرى وفي دَيْر الروح القُدُس، بعد أن أعطاها الإشارة فتى ماكر، كان يرقب وصول الموكب، فامتلأ الفضاء من أصدائها بجلبة بهيجة. فقال الأمير في نفسه وهو يهبط من العربة "الحمد لله، يبدو لي أن كل شيء لا يزال كما كان من قبل". وكان هناك دون كالوجيرو سيرارا، رئيس البلدية، وهو يشدّ حقوَيْه بربطة مثلّثة الألوان، جديدة وهّاجة مثل وظيفته العالية؛ والمونسنيور تروتولينو، رئيس الكَهَنَة، بوجهه الضخم الجافّ؛ ودون شيشيو جينيسترا، المسجّل العامّ، الذي كان قد جاء يرتدي ملابس المهرجان، وعلى رأسه ريش، في هيئة رئيس للحَرَس الوطني. وكان هناك أيضاً السّيّد (توتو جامبونو) الطبيب، والصغيرة (نونتسيا جاريتا) التي قدّمت إلى الأميرة باقة من

الأزهار المتنوّعة، كانت قد قُطفت قبل نصف ساعة من حديقة القصر. وكان هناك كذلك (شيشيو توميو) عازف الأرغن في الكنيسة الكبرى، الذي لم تسمح القوانين بأن ينال رتبة لائقة، لينضمّ إلى السلطة الحاكمة، ولكنه، مع ذلك، جاء مع الآخرين، لكونه صديقاً ورفيق صيد للأمير، وقد أحسن إذ فكّر بأن يُحضر معه - إرضاء للأمير- الكلبة السلوقية تيريزْنا، ذات العلامَتَيْن فوق عينَيْها بلون الجوز، وقد كُوفئ على جرأته بابتسامة خاصّة من دون فابريتسيو. ولقد كان هذا بادي الانشراح، صادق البشاشة، وكان قد نزل من العربة هو وامرأته معاً، ليشكرا المستقبلين، وعلى أنغام موسيقى فيردي الصادحة، ورنين أجراس الكنائس، عانق رئيس البلدية، وشدّ على أيدي الآخرين جميعهم. وكان جمهور الفلاحين صامتاً، ولكن عيونهم الثابتة كانت تشفّ عن فضول غير عدائي، لأن القرويّيْن في دونا فوغاتا كانوا يحملون حقّاً في جوانحهم حبّاً لسيّدهم الحليم، الذي كثيراً ما كان ينسى أن يطبّق عليهم القوانين، ويطالبهم بالأجور الضئيلة، ثمّ لقد اعتادوا على رؤية الفهد ذي الشاربَيْن قائماً على واجهة القصر، وعلى حائط الكنيسة، وفي أعلى الينابيع الباروكية، وعلى البلاط القيشاني الصغير في البيوت، وكانوا الآن مغتبطين برؤية الفهد الحقيقي في بنطاله الضّيّق، يوزّع خطى ودّية نحو الجميع، ويبتسم بوجهه السمح اللطيف. "ليس هناك ما يمكن أن يقال. كل شيء باق كما كان، بل أحسن ما كان قبلاً". وتانكريدي أيضاً كان موضع فضول كبير. لقد كان الجميع يعرفونه منذ زمن، غير أنه الآن يبدو في صورة جديدة، فلم يعد يُرى فيه الفتى الخالي من الهموم والمشاكل، بل الأرستقراطي الحُرّ، رفيق (روزولينو بيلو)، والعظيم الذكي جُرح في معارك باليرمو. وكان هو يسبح في وسط ذلك الإعجاب الحاشد كسمكة في الماء: إن مرأى أولئك المعجبين ذوي المظهر الخشن لمدعاة

للانشراح. وكان يخاطبهم باللهجة العامّيّة، ويمزح ويضحك حتّى على نفسه وعلى جرحه، ولكنه حين كان يقول "الجنرال غاريبالدي" كان صوته يخرج كالنغم، ويقف باحترام كإكليركي صغير أمام شعاع القربان المقدّس. وقال بصوت رنّان لكالوجيرو سيدارا، وكان قد فهم، دون وضوح، أنه كان قد أُسند إليه عمل كثير في أيّام التحرير: "لقد حدّثني عنكم السّيّد كريسبي حديثاً طيّباً، يا سيّد كالوجيرو". وبعد ذلك، قدّم ذراعه إلى ابنة خاله كونشيتا، ومضى تاركاً الجميع في مكان الاستقبال.

***

ومضت العربات مع الخَدَم، والأطفال، وبنديكو إلى القصر؛ أما الآخرون، فإنهم، جرياً على العادة المألوفة منذ زمن قديم جدّاً، قبل أن يضعوا أقدامهم في منزلهم، كان عليهم أن يستمعوا إلى ترنيمة "اللهمّ، نمدحكَ" في الكنيسة، وكانت الكنيسة قريبة جدّاً، وقد مضوا إليها في موكب: القادمون مغبَّرون، ولكنهم مهيبون، والسلطات في ملابس برّاقة، ولكنهم خاشعون أمام هيبة الأمير وأسرته. وكان يتقدّم الجميع دون شيشيو جينيسترا، الذي كان بهيبة برّته العسكرية يوسّع الطريق للعابرين، ويتلوه الأمير متأبّطاً ذراع الأميرة، ويبدو في مظهره كأنه أسد راض وديع، ومن خلفهما تانكريدي، وعن يمينه كونشيتا، وكان سيرها إلى الكنيسة إلى جانب ابن عمّتها يثير فيها اضطراباً ورغبة حلوة في البكاء: وهو موقف نَفْسي لم يكن منشأه الضغط الشديد على ذراعها من قِبَل الشّابّ (وكان الضغط لغاية واحدة، مع الأسف، هي حرصه على أن يجنّبها الحُفر والثقوب التي تملأْ الطريق). وخلفهم أيضاً يسير جميع الآخرين دون نظام. وكان عازف الأرغن قد طار مسرعاً، ليتسنّى له وقت كاف لإيداع الكلبة تريزينا في منزله، ثمّ

يعود، ليكون مكانه من الأرغن في اللحظة التي يصل فيها الموكب إلى مدخل الكنيسة. ولم تنقطع الأجراس عن الرنين بقوّة وحماسة، وعبارات "يعيش غاريبالدي" و"يعيش الملك فكتور" و"الموت للملك البربوني" التي كانت قد خطّتْها على جدران المنازل ريشة غير بارعة منذ شهرَيْن، كانت تبدو كالحة اللون، وكأنما هي تحاول النفاذ والاختباء داخل الجدران. وأخذت المدافع تُطلق طلقاتها حينما كان الأمير يرتقي درجات الكنيسة، فلمّا دخل الموكب إلى الكنيسة كان دون شيشيو توميو قد وصل لاهثاً في الوقت المناسب، فانطلق يعزف بشدّة "أحببني، يا ألفريدو".

كانت باحة الكنيسة غاصّة بأناس فضوليّيْن، ينتشرون بين أعمدتها المرمرية الحمراء الضخمة. وجلست أسرة سالينا في وسط جوقة المرتّلين، وفي أثناء الحفلة الدِّينية القصيرة، وقف فابريتسيو باهر الطلعة، لكي يُقدِّم نفسه للجمهور؛ وكادت الأميرة أن تتضاءل لشدّة الحَرّ والتعب، وتظاهر تانكريدي بمحاولة ذبّ الذباب، فراح يحسّس على شَعْر كونشيتا الأشقر. كان كل شيء منظّماً، وبعد أن ألقى المونسنيور تروتولينو كلمة ترحيب حارّة، انحنى الجميع أمام المذبح، ثمّ استداروا نحن باب الكنيسة، وخرجوا إلى الساحة التي تغمرها الشمس.

وعند أسفل درجات الكنيسة، أخذ رجال الأمن ينصرفون بعد انتهاء مهمّتهم، وكانت الأميرة قد تلقّنت همساً، وهي في الكنيسة، التّصرّفات التي عليها أن تتصرّفها، ولذلك دعت رئيس البلدية إلى العشاء في تلك الليلة نفسها، وكذلك رئيس الكَهَنَة والمسجّل العامّ. وكان رئيس الكَهَنَة، أعزب بحكم عمله الدِّيني، وأما المسجّل، فأعزب، لأن هذا نصيبه، وهكذا لم تكن قضية اصطحاب الزوجات ذات شأن بالنسبة إليهما. ولكن الدعوة

وُجّهت بفتور كثير إلى رئيس البلدية، لكي يُحضر معه زوجته. وكانت زوجته هذه قروية جميلة جدّاً، ولكنها حتّى في رأي زوجها لا تستحقّ التقديم في الحفلات العامّة، لأكثر من سبب واحد، ولهذا لم يُعجب أحد حينما قال إنها لن تتمكّن من الحضور، ولكن العجب كان عظيماً حينما أضاف قائلاً: "إذا أذن لي سعادتكم، فسآتي مع ابنتي، مع أنجيليكا، فهي مذ شهر، لا حديث لها إلا عن غبطتها بأن يُتاح لها أن تعرفوها وهي كبيرة". وطبعاً جاءت الموافقة على ذلك. ورأى الأمير أن توميو يمدّ رأسه من خلف أكتاف الآخرين، فقال له بصوت مرتفع: "وأنتم أيضاً، مفهوم، يا دون شيشيو، تعالوا مع تريزينا"، ثمّ التفت إلى الآخرين جميعهم، وأضاف قائلاً: "وبعد العشاء، في الساعة التاسعة، سيُسعدنا أن نتمكّن من رؤية الأصدقاء جميعهم". وظلّت هذه العبارة الأخيرة مثار التعليقات في دونا فوغاتا مدّة طويلة، والأمير الذي وجد دونا فوغاتا لم تتبدّل، كان في نَظَر الجميع متبدّلاً هو نفسه، فليكن قطب من عادته أن يستعمل أسلوباً ودّيّاً طيّباً كهذا في كلامه. ومن تلك اللحظة، كانت هيبته تتقلّص بشكل غير ملحوظ.

***

كان قصر سالينا محاذياً للكنيسة الكبرى، وكانت واجهته القصيرة ذات النوافذ السبع المطلّة على الساحة العامّة لا تعطي أدنى فكرة عن اتّساعه العظيم، إذ كان يمتدّ إلى الخلف مئتَي متر. وكان مؤلّفاً من أبنية ذات طرازات متعدّدة، إلا أنها تجتمع كلها في انسجام جميل حول ثلاث ساحات رحيبة جدّاً، وتنتهي بحديقة واسعة. وعند المدخل الرئيس على الساحة العامّة، توقّف الزوار أمام مظاهرات ترحيبية أخرى جديدة. ولم يكن دون (أونوفريو روتولو)، المدير المحليّ، قد اشترك في الاستقبالات الرسمية

عند مدخل البلدة. لقد تعلّم في مدرسة الأميرة كارولينا الشديدة الصرامة، لذلك كان يَعدّ "العامّة" شيئاً لا كيان له، ويظلّ الأمير في نظره مقيماً في الخارج حتّى يراه يضع قَدَمَيْه على عتبة قصره. وهكذا كان يظلّ هناك على مسافة خطوَتَيْن خارج بوّابة القصر، ضئيل الجسم، عجوزاً، ذا لحية كثّة، وإلى جانبه زوجته القوية النشيطة التي تصغره كثيراً، ومن خلفه الخَدَم، وعمّال الحقل الثمانية، وعلى قبّعاتهم الفهد الذهبي، وفي أيديهم ثماني بنادق. ويستقبل القادمين مرحّباً: "إنني سعيد بأن أرحّب بسعادتكم في منزلكم، وأن أسلّم القصر إليكم على الحالة عينها التي غادرتُموه عليها".

لقد كان دون أونوفريو روتولو أحد الأشخاص الذي يتمتّعون باحترام الأمير، ولعلّه الوحيد الذي لم يخنْه قطّ. وكانت أمانته تقرب من البلاهة، حتّى لقد كانوا يروون عنها شتّى الحكايات المضحكة، ومن ذلك حكاية كأس العنبري التي تركتْها الأميرة مرّة نصف ملآنة عند إحدى رحلاتها، ثمّ وُجدت بعد سنة في مكانها عينه، وقد تبخّرت محتوياتها، واستحالت حثالة من السُّكَّر، دون أن تمسّها يد، "لأن هذا جزء من حقوق الأمير، لا يجوز التهاون فيه".

كانت الأميرة في أثناء قيامها بالمجاملات المألوفة للسّيّد أونوفريو والسّيّدة ماريا، تقف بقوّة أعصابها وحدها، فما إن انتهت المجاملات حتّى أسرعت إلى السرير متهالكة إعياء؛ وأسرعت الفتيات وتانكريدي نحو ظلال الحديقة الفاترة، بينما قام الأمير ومدير القصر بالطواف في أرجاء الشّقّة الكبيرة. كان كل شيء على أتمّ ما يرام من النظم: فاللوحات في أُطرها الثقيلة منفوض عنها الغبار، والطلاء الذهبي على الأغلفة القديمة يتوهّج كالنار الهادئة، والشمس المرتفعة تجعل المرمر الرمادي اللون يتألّق

حول كل باب. كل شيء كان على الحالة التي كان عليها منذ خمسين عاماً. لقد أحسّ فابريتسيو، بعد أن خرج من دوّامة الخصومات المَدَنية المزعجة، بأنه قد انتعش، وأصبح ممتلئاً بالاطمئنان الصافي، ولقد نظر بشيء من الحنان والرّقّة إلى دون اونوفريو الذي كان يتنقّل إلى جانبه قَفْزاً، وقال: "يا سيّد أونوفريو، إنكم حقّاً لمن الرجال الذين يُؤتمَنون على حراسة الكنوز، والعرفان الذي نكنّه لكَ عظيم". ولعلّ من الممكن أن مثل هذا الإحساس كان دائماً أصيلاً لديه في غير هذا العام، ولكن مثل هذه الألفاظ ما كان يمكن أن يجد سبيلاً إلى شَفَتَيْه من قبل. وينظر إليه دون أونوفريو شاكراً دهشاً، ويجيب: "هذا واجب، يا صاحب السعادة، واجب"، ولكي يخفي انفعاله يأخذ في حكّ أذنه بظفر بنصره الأيسر الطويل جدّاً.

ثمّ جاء دور عذاب المدير في احتساء الشاي، فقد أمر دون فابريتسيو بإحضار قَدَحَيْن منه، واضطرّ دون أونوفريو إلى احتساء أحدهما وهو يحسّ بمثل دبيب الموت في قلبه. وبعد ذلك، شرع يروي أحداث دونا فوغاتا: منذ أسبوعَيْن، جُدّد تأجير إقطاع أكويلا بشروط أسوأ قليلاً من قبل، وكان عليه أن يواجه نفقات باهظة لإصلاح سطوح منزل الضيافة؛ ولكنْ، في الصندوق الآن، تحت تصرّف سعادته، ثلاثة آلاف ومئتَاْن وخمسة وسبعون ريالاً، هي مبلغ صاف، لا يدخل فيه أي نفقة أو ضريبة أو حتّى راتب المدير نفسه.

ثمّ جاءت الأخبار الخاصّة التي تتعلّق بالحادث الكبير الذي وقع ذلك العام، كالصعود السريع الذي أصابه السّيّد كالوجيرو سيدارا: فمنذ ستّة أشهر، استحقّ الدَّين الذي كان له على البارون تومينو، فاستولى على أرضه؛ وبدلاً من الألف ريال التي كان قد أقرضه إيّاها، أصبح الآن يملك

عقاراً، يدرّ له خمسمائة ريال كل عام؛ وكان في شهر نيسان قد استطاع أن يشتري قطعة أرض بكسرة خبز، وفي تلك القطعة، عثر على حجارة نادرة مطلوبة جدّاً، فعكف على استغلالها؛ وفي فترة الفوضى والجدب التي تلت غزوة غاريبالدي، استطاع أن يربح من المبيعات التي أنجزها أرباحاً ضخمة، لم يكن له بمثلها عهد.

وامتلأ صوت السّيّد أونوفريو بالحقد وهو يتابع: "لقد قمتُ بإحصاء على أطراف أصابعي، خرجتُ منه بأن عائدات دون كالوجيرو ستصبح بعد قليل مساوية لعائدات سعادتكم هنا في دونافوغاتا". وإلى جانب الثروة، كان ينمو كذلك نفوذه السياسي، فلقد أصبح زعيم الأحرار في البلدة وفي ضواحيها القريبة كذلك؛ وإذا ما جرت الانتخابات، فهو واثق من أنه سيصبح نائباً، ويرسل إلى تورينو "وبأيّ مظهر سيظهرون عندئذ، ليس هو نفسه - فهو ذكي حذر- ولأن ابنته مثلاً، التي عادت أخيراً من الكُلّيّة في فلورنسا، والتي تتجوّل في البلدة بفستانها المنتفخ، وضفيرة المخمل التي تتدلّى من قبّعتها".

وصمت الأمير: الابنة، نعم، أنجيليكا التي ستحضر للعشاء هذا المساء، لقد ثار فضوله لرؤية تلك الراعية الصغيرة في ملابسها الجديدة. ليس صحيحاً أنه لم يتبدّل شيء؛ فلقد أصبح دون كالوجيرو في مثل غناه! ولكن هذه الأمور كانت متوقّعة؛ إنها الثمن الذي لا بد من دفعه.

وتضايق دون أونوفريو من صمت السّيّد؛ لقد خُيّل إليه أنه أغضب الأمير بما رواه له من تفاهات القرويّيْن، فقال: "لقد فكّرتُ، يا صاحب السعادة، في تهيئة حمّام لكم، ولا بد أنه جاهز الآن". وفطن الأمير عندئذ إلى أنه يحسّ بالتعب. كانت الساعة إذ ذاك الثالثة، وكان قد مضى

عليه تسع ساعات وهو يتجوّل تحت الشمس المحرقة، بعد تلك الليلة الرهيبة السابقة! وأحسّ بجسده مليئاً بالغبار حتّى في أبعد طيّة من طياته. فقال: "شُكراً، يا دون أونوفريو لفكرتكَ هذه، ولكل ما فعلتَهُ. سنلتقي هذا المساء على العشاء".

***

وصعد الدرج الداخلي، ومرّ بقاعة الأقمشة، الأزرق منها والأصفر، وكان النور يتسرّب من أباجورات النوافذ المخفوضة؛ وفي غرفة مكتبه، كان بندول ساعة الحائط يلوح بهدوء وإذعان. "يا إلهي، ما أجمل السلام! وما أحلى الهدوء!"، ثمّ دخل إلى غرفة الحمّام، إنها غرفة صغيرة، مطروحة بالشيد، وأرضيّتها من البلاط الخشن، وفي وسطها فتحة مصرف الماء. وكان الحوض أشبه بمغلّف بيضوي الشكل، كبر الحجم، دائرة مُلمّع بالفرنيش، أصفر من الخارج، ورمادي من الداخل، يقوم على أربعة قوائم ثابتة قوية من الخشب. وعلى مسمار في الحائط رداء للحمّام، وملابس الغيار على كرسي من الحبال، وعلى كرسي آخر ثوب، لا يزال مطوياً، كما أُخرج من صندوق الملابس. وإلى جانب الحمّام، قطعة صابون كبيرة وردية اللون، وفرشاة كبيرة، ومنديل معقود، يحتوي على مادّة، إذا غُمست في الماء، أخرجت لبناً معطّراً وإسفنجة ضخمة من تلك التي كان يرسلها مدير قصر سالينا. وكانت الشمس تدخل من النافذة التي لا غطاء لها بشكل لا يُطاق.(*)

---

*) مقطع مضاف إلى المخطوط الأصليّ، بخطّ يد الكاتب: ثمّة مئزرٌ معلّقٌ على مسمار في الحائط؛ والثياب الداخليّة النظيفة على أحد الكراسي المصنوعة من الحبال، وعلى كرسيٍّ آخر، ثمّة لباسٌ ما يزال مطوياً، كما كان في الصندوق. بجانب الحوض، هناك قطعةٌ ضخمة من الصابون الزهريّ، وفرشاة تنظيف، ومنديلٌ معقود يحتوي على بعض الحبوب، التي ما إن تبتلّ بالماء حتّى يتدفّق منها حليبٌ زكيّ الرائحة؛ وإسفنجةٌ ضخمة، من تلك التي كان مدير سالينا يرسلها إلى الأمير.

نادى الأمير، فدخل خادمان، يحمل كل منهما سطلَيْن، أحدهما مملوء ماءً بارداً، والآخر ماءً مغلياً. وأخذا يروحان ويجيئان مراراً، إلى أن امتلأ الحوض. فجسّ حرارة الماء بيده، فوجده كما يحبّ. فأخرج الخادمَيْن، وخلع ثيابه، وغطس. وبفعل جثّته الضخمة، اندفق الماء من الحوض قليلاً. فاغتسل بالصابون، وفرك جسمه بالإسفنجة، وانتعش بحرارة الماء الدافئة، فاسترخى، وشعر بالراحة. وكاد أن يستسلم إلى النوم، فإذا بالباب يُقرَع؛ ودخل "ميمي" الخادم متهيّباً وجلاً، يقول: "الأب بيرّونه يطلب أن يقابل سعادتكم حالاً. إنه سينتظر هنا قريباً خروج سعادتكم من الحمّام". ففُوجئ الأمير؛ إن كان قد وقع شَرّ، فمن الخير أن يعرفه حالاً، فأجاب: "أبداً، بل دعه أن يدخل حالاً".

لقد أوجس الأمير خيفة من شرّ محيق، من شدّة اهتمام الأب بيرّونه بمقابلته حالاً؛ وبفعل هذا التّوجّس من جهة، واحتراماً للثوب الكَهَنوتي من جهة أخرى، أسرع في الخروج من الحمّام: كان يحسب أنه سيتمكّن من ارتداء جلباب الحمّام قبل دخول اليسوعي، ولكنه لم يتسنّ له ذلك، بل دخل الأب بيرّونه في اللحظة عينها التي خرج فيها من المياه الصابونية، ولم يتمكّن بعد من ارتداء أيّ لباس آنياً. كان يقف عارياً تماماً أشبه بهرقل الفرنيسيّ، وفوق ذلك، يتصاعد البخار من جسمه، بينما يجري الماء سريعاً من عنقه، وذراعَيْه، وبطنه، وفخذَيْه، كما يتدفّق الروادن، والرين، والدانوب، والبترول، لتسقي جبال الألب. ولم يكن منظر الأمير، وهو في مثل حالة آدم الأولى، مألوفاً لدى الأب بيرّونه؛ فقد عوّده سرّ التوبة المقدّس على عُري النفوس، أما عُري الأجسام، فهو أقلّ اعتياداً عليه. وإذا كان لا يطرف له جفن، إذا ما استمع من وراء كرسي الاعتراف، مثلاً، إلى أي كلام داعر فاسق، فلقد اضطرب لرؤية ذلك العُري البريء الجبّار. فغمغم بعذر متلجلج، وهَمّ بالتراجع، غير أن دون فابريتسيو، وقد أغضبه أنه لم يتمكّن

من ارتداء لباس، يغطّي جسده في الوقت المناسب، أبدى له غيظه الشديد، وقال له: "لا تكنْ أحمقَ، يا أبت، بل ناولني الرداء، وإذا كان لا يزعجكَ، فعاونيّ على تجفيف جسمي". وعادت إلى ذهنه حالاً منازعة قديمة، فقال: "واسمعْ منّي، يا أبت وهيًّا استحمّ أنتَ أيضاً". وسرَّه أن يقدّم نصيحة صحيحة للرجل الذي اعتاد أن يعطيه نصائح روحية عديدة؛ فعاوده الصفاء لذلك، وبالطرف الأعلى من الدراء، الذي استطاع أخيراً أن يصل إليه، راح ينشّف شَعره، وشاربَيْه، وعنقه، بينما راح الأب بيرّونه، بخجل شديد، ينشّف قَدَمَيْه بالطرف الأسفل من الرداء.

وحينما جفّفت قمّة الجبل وسفحه، قال: "اجلس الآن، يا أبت، وقل لي لماذا كنتَ تريد أن تكلّمني على عجل". وبينما جلس اليسوعي، أخذ هو ينشّف وحده الأماكن الخاصّة جدّاً من جسده، وقال الكاهن: "الأمر، يا صاحب السعادة، هو أنني مكلّف بمهمّة دقيقة جدّاً: إنسان عزيز جدّاً عليكم أراد أن يفتح لي قلبه، ويعهد إليَّ بمهمّة إيصال أحاسيسه إلى علمكم، واثقاً – ولعلّه مخطئ في ثقته - من أن التقدير الذي تشرّفونني به..." ومضى يتلكّأ ويتلعثم بالكلام دون نهاية، حتّى فَقَدَ دون فابريتسيو صبره، فقال: "والخلاصة، يا أبتِ، مَن الذي تعنيه؟ الأميرة؟" ورفع ذراعه بشكل يُخيَّل معه أنه يتوعّده، ولكنه، في الحقيقة، كان ينشّف ما تحت إبطه.

"الأميرة متعبة ونائمة، ولم أرَها. إنني أعني الآنسة كونشيتا". وتوقّف قليلاً، ثمّ قال: "إنها تحبّ". إن الرجل في سنّ الأربعين يستطيع أن يعتقد أنه ما يزال شابّاً، حتّى اللحظة التي يفطن فيها إلى أن لديه أبناء في سنّ الحبّ. وشعر الأمير بأنه قد هرم دفعة واحدة، فنسي الأميال التي يقطعها وهو يطارد الصيد، ولهاثات "يا يسوع ومريم" التي كان يعرف

كيف يستثيرها، وتجدّد نشاطه الحالي على إثر رحلة طويلة مضنية. ودفعة واحدة رأى نفسه كشيخ هرم يرافق ثلّة من الأحفاد على جواد، ليتفرجوا على الغنم في فيلا جوليا.

"تلك الحمقاء، لماذا ذهبت تروي لكم مثل هذه الأمور؟ ولمَ لم تأتِ إليَّ؟" ولم يسأل حتّى مَنْ كان الشخص الآخر، فلم تكن به حاجة إلى ذلك. وأجاب الكاهن: "أنتم، يا صاحب السعادة، تغالون في إخفاء قلبكم الأبوي تحت قناع سلطة السّيّد، فمن الطبيعي، إذنْ، أن تخاف تلك الابنة المسكينة، وتُهرع إلى رجل الكنيسة الأمين في الدار". وراح دون فابريتسيو يرتدي بنطاله الكبير الطويل جدّاً، وهو ينفخ بشدّة كالحصان المتعب: لقد أصبح يتوقّع أحاديث طويلة، ودموعاً، ومضايقات لا حدود لها. لقد أفسدت عليه تلك الفتاة المغناج يومه الأوّل في دونا فوغاتا.

"أنا أفهم ذلك، يا أبتِ، أنا أفهم. ليس ههنا مَنْ يفهمني، وهذه هي مصيبتي"، وظلّ جالساً على أسكملة، وقطرات الماء تتلألأ على جزّة الشَّعْر الأشقر الكثيفة على صدره، وجداول ضئيلة من الماء تنساب على البلاط، والغرفة مفعمة برائحة اللبن المعطّر، ورائحة الصابون اللوزية. "وإذنْ، ماذا عليّ أن أقول، حسب رأيكَ؟". وكان اليسوعي يتصبّب عَرَقاً في الغرفة الصغيرة التي تشبه المدفأة بحرارتها، وهو يشعر بأنه قد انتهى الآن من تأدية الأمانة، ويودّ لو يستطيع أن ينصرف، لولا أن شعور المسؤولية ما يزال يمسّ به. فقال وكأنه لم يسمع كلام الأمير: "إن الرغبة في إنشاء أسرة مسيحية لهي رغبة محبّبة في نظر الكنيسة. وحضور المسيح في عرس قانا ..." فقاطعه الأمير: "لا حاجة بنا إلى شطحات الخيال، فأنا أقصد الكلام في هذا الزواج، لا الزواج بشكل عامّ. فهل عرض تانكريدي ذلك حقّاً؟ ومتى؟".

كان الأب بيرّونه من قبل قد حاول مدّة خمس سنوات أن يُعلّم الفتى اللاتينية، ولمدّة سبع سنوات، ظلّ الفتى يداعبه، ويسخر منه، ولكنه ككل الآخرين كان يشعر بسِحْره ولُطفه، غير أن ميول تانكريدي السياسية الجديدة قد ساءَتْه كثيراً، وها هو يتصارع في داخله الشعور الودي القديم مع الألم الجديد، ممّا أصبح معه لا يدري الآن ما يقوله. "عرض حقيقي خاصّ، كلا لم يعرضه، غير أن الآنسة كونشيتا لا يساورها أيّ شكّ؛ فاهتمامه بها، نظراته وأنصاف كلماته، كلها أمور تتكرّر منه، وقد اقتنعت بها تلك النَّفْس القدّيسة، وأيقنت معها أنه يحبّها؛ ولكنها كابنة مطيعة تحترم إرادتكم، شاءت أن تسألكم عن طريقي بماذا تجيب إذا ما تقدّم إليها تانكريدي، يطلب الزواج، وهي تحسّ بأن ذلك وشيك".

فشعر الأمير بشيء من الاطمئنان: من أين لهذه الفتاة أن تتأكّد من مقدرتها على أن ترى بوضوح مقاصد شابّ ما، ولاسيما مثل تانكريدي؟ أليس من المستبعَد أن يكون الأمر مُجرّد أوهام، أو أحد تلك "الأحلام الذهبية"، التي تلفّ مخدّات فتيات الأديرة؟ إن الخطر لم يكن وشيكاً.

خطر؟ لقد رنّت هذه الكلمة في ذهنه بوضوح شديد حتّى إنها أدهشتْه. خطر؟ لكن الخطر على مَنْ؟ لقد كان يحبّ كونشيتا كثيراً: كان يحبّ فيها الطاعة الدائمة، والدماثة التي تنحني بها أمام كل مظهر من مظاهر الإرادة الأبوية؛ طاعة ودماثة لهما عنده أعظم التقدير. ولكن ميله الطبيعي إلى استبعاد كل ما يهدّد اطمئنانه وهدوءه جعله ينسى ملاحظة الانبهار الشديد الذي كان ينتاب عينَي الفتاة، كلّما كانت الأمور المستهجنة التي تخضع لها أشدّ قسوة في الحقيقة. لقد كان الأمير يحبّ ابنته هذه حبّاً شديداً، غير أنه كان يحبّ ابن أخته أكثر منها. كان يحبّ في الفتى

طرافة عاطفيّته المخلصة، وهو في الآونة الأخيرة قد أخذ يُعجب أيضاً بذكائه: ذلك التّكيّف السريع، وذلك الاندماج في المجتمع، وذلك الفنّ الفطري الذي يمنحه المقدرة على سهولة التّكلّم بلغة الأحزاب الثوروية، التي أصبحت موضة، تاركاً في الوقت نفسه لشركائه في الحزب الثوروي أن يفهموا أن ذلك لم يكن سوى تسلية، يتسلّى بها هو، الأمير فالكونيري مدّة من الزمن، هذه الأمور كلها كانت مدعاة لسروره؛ والمقدرة على التسلية والسرور لمَنْ هم في مثل طباع فابريتسيو وطبقته الاجتماعية تؤلّف أربعة أخماس عاطفتهم. فهو يرى أن أمام تانكريدي مستقبلاً عظيماً؛ ففي وسعه أن يحمل لواء أيّة حملة مضادّة، في حركة منظّمة يقوم بها النبلاء ضدّ الوضع الاجتماعي الجديد. ولكي يفعل هذا لا يعوزه إلا شيء واحد، هو المال؛ وتانكريدي لا يملك من المال شيئاً؛ ولكي يستمرّ في تقدُّمه السياسي لا بد له من المال الكثير بعد أن أصبح الاسم أقلّ أهمّيّة ممّا كان: المال لشراء الأصوات ولتكريم الناخبين؛ والمال لمنزل يُبهر الأنظار. منزل ... وكونشيتا، بل فضائلها السلبية، أتراها تصلح لمساعدة زوج طموح بارز على الصعود في سلّم المجتمع الجديد الملساء، وهي كالعهد بها هيَّابة، متحفّظة؟ إنها ستبقى دائماً فتاة الدَّيْر الجميلة، كما هي الآن، أو كرة من الرصاص عند قَدَمَي الزوج.

- أيمكنكم، يا أبتِ، أن تتصوّروا كونشيتا سفيرة في فيينا أو بطرسبرج؟

فعاد الأب بيرّونه برأسه إلى الوراء من جرّاء هذا السؤال، وأجاب: "وما شأن هذا؟ لستُ أفهم!". ولم يُعنَ دون فابريتسيو بالإيضاح، بل عاد يلوذ بأفكاره الصامتة. المال؟ إن كونشيتا ستنال مَهراً؛ هذا صحيح. ولكن أملاك أسرة سالينا يجب أن تُقسَّم إلى سبعة أقسام، أو حصص غير متساوية،

أقلّها حصص البنات. وإذنْ، إن تانكريدي يحتاج إلى أفضل منها: إلى (ماريا سانتا باو) مثلاً، بالأراضي الأربع التي تملكها، وبما لها من أعمام وأخوال كَهَنَة ذوي مال مُدّخر؛ أو إلى إحدى بنات (سوتيرا)، فإنهنّ، برغم الدمامة الكثيرة، على ثراء كبير. الحبّ. طبعاً الحبّ: نار ولهيب لسنة واحدة، ورماد لثلاثين سنة بعدها. إنه ليعرف جيّداً ما هو الحبّ ... ثمّ إن تانكريدي ترتمي النساء على قَدَمَيْه كالكمثرى المسلوقة.

وفجأة شعر بالبرد. لقد تبخّر الماء الذي كان على جسده، وأصبح جلد ذراعَيْه بارداً كالثلج، وتكمّشت أطراف أصابعه، وما يزال أمامه حديث طويل. عليه أن يتجنّب الاسترسال... "عليَّ الآن أن أنصرف لأرتدي ملابسي، يا أبت، فأرجوكم أن تقولوا لكونشيتا إنني لم أنزعج مطلقاً، ولكننا سنتحدّث بهذا كله حينما نطمئنّ إلى أن الأمر ليس مُجرّد أوهام فتاة خيالية. إلى اللقاء عاجلاً، يا أبت".

ثمّ نهض، ومرّ بغرفة التواليت، وكانت أجراس الكنيسة الكبرى تدقّ دقّات حزن لإحدى الجنائز. لقد مات أحد الناس في دونتا فوغاتا، أحد الأجسام المتعبة التي لم تستطع أن تصمد في معركة الصيف الصقلي، وكانت تعوزها القوّة لانتظار الأمطار. "هنيئاً له". ذلك ما قاله الأمير في نفسه وهو يضع الكولونيا على شاربيه ... "هنيئاً له، فقد استراح الآن من البنات، والمهر، والمهمّات السياسية". وكان هذا التحديد العابر لحقيقة المتوفّى المجهول كُلّيّاً، ليعيد إلى نفسه الهدوء. "ما دام هنالك موت، فهناك رجاء". قال ذلك في نفسه، ثمّ وجد أن من المضحك أن يرى نفسه في مثل تلك الحال من الضيق، لأن إحدى بناته تريد أن تتزوّج، فقال بالفرنسية لنفسه: "على كل حال، هذه الأمور هي من شأنهنّ"؛ وكان

من عادته أن يخاطب نفسه بالفرنسية عندما تحتدم أفكاره. وجلس على مقعد وثير، واستسلم إلى النوم.

***

بعد ساعة، استيقظ متجدّداً نشاطه، نزل إلى الحديقة. وكانت الشمس بدأت تنحدر، ومضت أشعّتها ترسل نوراً لطيفاً - بعد أن فقدت قوّة حرارتها - على أشجار البرتقال والصنوبر وعلى أشجار السنديان الجبّارة التي تضفي الجلال على المكان. ومن صدر الشارع الرئيس الذي ينحدر ببطء بين أسيجة من شجر الغار، تحيط بتماثيل نصفية لآلهة مجهولة، لا أنوف لها، كان يُسمَع صوت المياه التي تتساقط من النوافير في قلب ينبوع الإلهة (أنفيتريتي). فمضى إليها مسرعاً نشيطاً، متشوّقاً إلى رؤيتها من جديد. وكانت المياه تتدفّق في خيوط رفيعة من محارات غيلان البحر، ومن أصداف جنّيّات الماء، ومن أنوف حيوات بَحْرِيّة خرافية، فتسقط متلاحقة على وجه الحوض الضارب لونه إلى الخضرة، فتثير فيه قفزاً، وزَبَداً، ورغوة، وتموّجات، ورعشة، وبطبطة ضاحكة؛ ومن الينبوع بأكمله، من المياه الدافئة، ومن الحجارة المكتسية بالطحلب المخملي، ينبثق وعد بلذّة لا يمكن أن تستحيل إلى ألم. وعلى جزيرة صغيرة في وسط الحوض المستدير تمثال للإله (نبتون) منحوت بإزميل غير بارع، ولكنه حسّاس، يختطف ضاحكاً إلهة (أنفيتريتي) شبقة، وسُرّتها المبلولة برشّاش الماء، تلمع في الشمس، لتصبح بعد قليل عشّاً لقبلات متوارية في الظلال تحت الماء. فتوقّف دون فابريتسيو، وجعل ينظر، ويستعيد الذكريات، ويشعر بالأسف ... وبقي هناك طويلاً.

"-تعال، يا خالي، وانظر الدّرّاق الغريب، فلقد صارت حبّاته طيّبة جدّاً،

ودعكَ من هذه الأمور الخجلة التي لم تُخلَق للرجال الذين في مثل سنّكَ". انتشله صوت تانكريدي، الذي يجتمع فيه الخبث والطيبة معاً من اضطرابه الشهواني؛ وليكن قد أحسّ بوصوله: لقد كان كالقطّ. ولأوّل وهلة، خُيِّل إليه أن شعوراً مريراً قد انتابه لرؤية الفتى. ذلك المتأنّق ذو الخصر النحيل تحت الثياب الزرقاء الداكنة، كان هو السبب الذي جعله يفكّر بالموت، بكثير من المرارة، منذ ساعَتَيْن. ثمّ تبيّن له أنه لم يكن هناك شعور بالألم أو المرارة، وكل ما هنالك خوف مبطّن، كان يخشى أن يُحدّثه عن كونشيتا، غير أن هيأة ابن أخته، ولهجته، لم تكونا تدلان على أنه يتهيّأ للإفضاء بأية أسرار غرامية إلى رجل مثله. فهدأ روعه: فقد كان ابن أخته ينظر إليه بعين المحبّة الساخرة التي ينظر بها الشّبّان إلى الأشخاص المتقدّمين في السّنّ. "في وسعهم أن يَعِدوا بأن يعاملونا بشيء من اللطف، ما داموا واثقين من أنهم سيصبحون أحراراً منذ اليوم التالي لدفننا". ومضى مع تانكريدي ليرى "الدّرّاقات الغريبات". إن تطعيمها بالأزرار الألمانية، الذي جرى منذ عامَيْن، قد نجح نجاحاً تامّاً: لقد كانت الثمار قليلة، دزّينة فقط على الشَّجرَتَيْن المطعَّمَتَيْن، ولكنها كبيرة الحجم مخملية القشرة، طيّبة الرائحة، يضرب لونها إلى الصفرة مع تورّد ملتهب على خدودها، أشبه برؤوس فتيات صينيات خجولات. فجسّها الأمير بالنعومة المشهورة في رؤوس أصابعه المكتنزة باللحم. "يبدو أنها ناضجة حقّاً. ولكنْ، من المؤسف أنها أقلّ عدداً من أن يمكن تقديمها على المائدة هذا المساء. وسنقطفها غداً لنرى كيف ستكون". "إنكَ تعجبني هكذا، يا خالي، هكذا في جانب "الزارع الوفيّ" مثل الذي يُقدّر ثمار عمله الخاصّ، ويتذوّقها، وليس في الجانب الآخر منكَ، كما رأيتكَ قبل قليل حينما كنتَ تتأمّل العُري الفاضح". "حتّى هذه الدّرّاقات، يا تانكريدي، هي نتيجة أعمال غرام، ونتيجة تلاقح".

"صحيح، ولكنها غرامات شرعية، وافقتَ عليها أنتَ، صاحب البستان، ونينو البستاني كمسجّل زواج. غراميات مدروسة، مثمرة. أما تلك الأخرى!"، قال ذلك، وأشار إلى الينبوع الذي كان يتصاعد خريره من خلف حاجز من أشجار السنديان "فهل تظنّ حقّاً أنها مرّت أمام الكاهن؟" وبدأ الحديث يتّسم بالخطورة، فأسرع دون فابريتسيو إلى تغييره، وفيما كان يصعدان نحو المنزل، مضى تانكريدي يروي ما وصل إلى معرفته من أخبار النساء في دونا فوغاتا: مينيكا، ابنة البستاني سافيريو، استسلمت إلى خطيبها، فأصبحت حبلى، ولذلك لا بد من إتمام الزواج بسرعة الآن. و(كاليكيّو) هرب بجلده بعد أن أطلق عليه الرصاص أحد الأزواج الساخطين.

- ولكنْ، كيف استطعتَ أن تعرف هذه الأمور؟

- إنني أعرفها، يا خالي، أعرفها. إنهم يَروون لي كل شيء، فهم يعرفون أنني أشعر معهم.

وحينما بلغا قمّة السّلّم المؤدّية من الحديقة إلى القصر، في تعرّجات ليّنة، واستراحات طويلة على بسطات السلالم، أبصرا الأفق المسائي خلف الأشجار، ومن جهة البحر كانت غيوم هائلة بلون الحبر، ترتقي معارج السماء. فهل ترى شبع غضب الله، وانتهت لعنة صِقِلية السنوية؟ في تلك اللحظة كانت ألوف المحاجر ترمق الغيوم المحمّلة بالغوث، وفي حضن الثرى، تتشوّف إليها مليارات من البذور. "نرجو أن يكون الصيف قد انتهى، وأن يجيء المطر أخيراً". قال فابريتسيو ذلك، وأما النبيل الآخر، الذي ربّما كان المطر لا يوحي إليه بغير المَلَل والضيق، فإنه بمثل هذه الكلمات كان يتظاهر بأنه أخ لجماعته من الفلاحين الخشنين.

***

كان الأمير حريصاً دائماً على أن يتميّز العشاء الأوّل في دونا فوغاتا بالفخامة والعَظَمَة، فيستثني ممّنْ هم دون الخامسة عشرة من الجلوس إلى المائدة، وتُقدَّم لهم الخمور الفرنسية، فهناك شراب (البونشو) على الطريقة الرومانية قبل اللحم المحمّر. شيء واحد كان يتساوى فيه الجميع: وهو أنه لم يكن ينبغي ارتداء ملابس السهرة، لئلا يُحرج الضيوف الذين لا يملكونها. وفي تلك الليلة، كانت أسرة سالينا تنتظر أواخر الضيوف في الصالون المَدعو (صالون ليوبولدي). وكان النور الأصفر الساطع ينتشر من قنديل الكاز المغطّاة بنسيج مطرّز، والإطارات الهائلة الأحجام المعلّقة على الجدران، لأفراد أسرة سالينا الراحلين، لم تكن سوى صور جبّارة مبهمة كتذكاراتها. وكان دون أونوفريو قد وصل مع زوجته، وكذلك رئيس الكَهَنَة الذي كان يرتدي معطفاً من القماش الخفيف جدّاً، تتدلّى ثنيته عن كتفَيْه، وكان يحادث الأميرة عن طالبات معهد مريم. وكان قد وصل كذلك دون شيشيو عازف الأرغن (وكانت الكلبة تريزينا إذ ذاك مربوطة إلى ساق إحدى الطاولات في مكان آخر)، وراح يتذاكر هو والأمير حكايات عن طلقات ناجحة في الصيد، أطلقاها في شعاب دراغونارا. كان كل شيء هادئاً وعادياً، إلى أن صدرت عن فرانشيسكو باولو، الابن ذي السّتّة عشر عاماً، صرخة استغراب مخزية في القاعة، إذ قال: "بابا، ها هو دون كالوجيرو يصعد السّلّم. إنه يرتدي الفراك!"

وقدّر تانكريدي أهمّيّة هذا النبأ قبل الآخرين بلحظة؛ كان قد صمّم على أن يفتن زوجة دون أونوفريو، غير أنه حينما سمع الكلمة المشؤومة، لم يستطع أن يتمالك نفسه، فانفجر في ضحكة عصبية. ولم يضحك الأمير، على الرغم من أنه كان للنبأ عليه - والحقّ يقال - تأثير أعظم من نبأ نزول غاريبالدي في مارسالا، فقد كان نزول هذا حَدَثاً متوقّعاً، وليس هذا فقط، بل إنه وقع

بعيداً، ولم يره الأمير؛ أما الآن، وهو الشديد الإحساس بالفأل وبالرموز، فقد وقف يتأمّل الثورة في ربطة العنق الصغيرة البيضاء تلك، وفي ذينك الذيلَيْن الأسودَيْن اللذَيْن يصعدان سلّم منزله. لم يكن هو وحده، الأمير، الذي لم يعد المالك الأعظم لدونا فوغاتا، بل لقد أصبح مُرغَماً على أن يستقبل، وهو في ملابس ما بعد الظهر، مَدعوّاً، يتقدّم إليه في ملابس السهرة.

وعظم شعوره بالحنين، وظلّ هذا الشعور يرافقه حتّى وهو يتقدّم بحركة آلية نحو الباب لاستقبال الضيف. ولكنه لم يلبث أن أحسّ بألمه يزول بعض الشيء حينما رآه. وعلى الرغم من أن فراك دون كالوجيرو كان يتناسب تماماً مع المظاهرة السياسية، فيمكن التأكيد بأنه، من حيث الخياطة، كان مصيبة كبيرة. كان القماش دقيقاً جدّاً، والطراز حديثاً، غير أن التفصيل كان، بكل بساطة، فظيعاً. لقد تجسّدت اللفظة اللندنية (فراك) أسوأ تجسّد في صانع "خياط"، من أهل "جيرجنتي"، انعكس عليه بُخل دون كالوجيرو المطبق، فلقد كان طرفا الفراك الأسفلان ينتصبان نحو السماء في ضراعة خرساء، وكانت الياقة الواسعة لا شكل لها، ولا بد من القول - مهما يكن القول مؤلماً - أن رئيس البلدية كان يلبس في قَدَمَيْه جزمة ذات أزرار.

وراح دون كالوجيرو يتقدّم مادّاً يده وهي في القفاز، نحو الأميرة وهو يقول: "إن ابنتي تعتذر، فلم تكن مستعدّة البتّة. وأنتِ، يا صاحبة السعادة، تعرفين كيف تكون النساء في مثل هذه المناسبات". ثمّ أضاف موضحاً بعبارة، تكاد تكون بلدية فكرةً ذات خفّة باريسية: "غير أنها ستكون هنا في خلال لحظة قصيرة، فبيتنا على مسافة خطوَتَيْن، كما تعرفين".

واستغرقت اللحظة القصيرة خمس دقائق، ثمّ انفتح الباب، ودخلت أنجيلكا. كان التأثير الأوّل مفاجأة باهرة. لقد وقفت أنفاس آل سالينا في

حلوقهم، وأحسّ تانكريدي كأنما نُزعت أعصابه من صدغَيْه. وبلغ من تأثير الصدمة التي أصابت الرجال من شدّة جمالها، أنهم ظلّوا عاجزين عن أن يلاحظوا ما في ذلك الجمال من هنات. ولا بد أن كثيرين قد ظلّوا عاجزين حياتهم كلها عن ذلك العمل النقدي. لقد كانت عالية القامة، حسنة التكوين، على أعلى المعايير الجمالية. ولا بد أن لبشرتها مثل طَعْم الكريما الطازجة التي تشبهها، ولفمها الطفل مثل طعم التوت. وتحت جمة شَعْرها الذي يشبه لون الليل، والمصفّف في تموّجات عذبة، كانت عيناها الخضراوان تُشرقان ثابتَتَيْن كعيون التماثيل، وفي شيء من قسوتها كذلك. وراحت تتقدّم ببطء، وتجعل جويلتها الفضفاضة البيضاء تلفّ من حولها، وتشيع في شخصها الهدوء، وزهو المرأة الواثقة من جمالها. ولم يُعرَف إلا بعد أشهر عديدة أنها في تلك اللحظة التي دخلت فيها دخولها الظافر إلى قصر سالينا كانت توشك أن يُغمى عليها من شدّة تشوّقها لبلوغ هذا الهدف.

ولم تأبه للأمير الذي هُرع نحوها، وتجاوزت تانكريدي الذي كان يبتسم لها ابتسامة حالمة، وأمام المقعد الوثير الذي تجلس عليه الأميرة رسم عجزها المدهش انحناءة خفيفة، وهذا الأسلوب في التحية، الذي لم تألفه صِقِلية، خلع عليها السِّحْر الأجنبي، إلى جانب ما تتحلّى به من الجمال البلدي. "يا أنجيليكتي العزيزة! منذ كم من الزمن لم أركِ! لقد تغيّرتِ كثيراً؛ ولكنْ، ليس إلى الأسوأ". لم تكن الأميرة تصدّق عينَيْها: كانت تتذكّر ابنة الثلاثة عشر عاماً، المهمَلَة إلا من بعض العناية، والتي كانت على جانب من الدمامة قبل أربع سنوات، ولم تُفلح في المقارنة بين صورتها آنذاك وصورة المراهقة الشهية التي تقف الآن أمامها. أما الأمير، فلم تكن لديه ذكريات، يُعيد تركيبها، وإنما كان لديه نظريات، يقلّبها رأساً على عقب،

فالضربة التي أصابت كبرياءه من فراك الأب، تتكرّر الآن في مظهر البنت، ولكن الأمر لا يتناول الآن قماشاً أسود، بل يعني الجسد المجنون في لون الحليب والتفصيل الرائع، أيّ روعة! ذلك الجواد المحارب العتيق، لقد ألفاه صهيل الجمال الأنثوي مستعدّاً، فقد التفت إلى الفتاة بكل ما يعرفه من رقّة التحية التي كان يمكن أن يؤدّيها لو كان حديثه مع دوقة بوفينو أو أميرة لامبيدوزا، وقال: "ما أسعد حظّنا، يا آنسة أنجيليكا، أن نستقبل زهرة بكلّ هذا الجمال في بيتنا، وأرجو أن يُتاح لنا أن نرى هذا الجمال كثيراً".
"شُكراً، أيّها الأمير، أرى أن طيبتكَ معي تساوي الطيبة التي كنتَ دائماً تُظهرها لوالدي العزيز".

كان صوتها جميلاً، منخفض النبرة، وربّما كان الحذر فيه مفرطاً؛ وقد محا المعهد الفلورنسي جرّة اللهجة البلدية الجرجنتية، ولم يبقَ لها من اللهجة الصِّقِليّة غير مزازة الحروف الصوتية، ولكنها كانت تتناغم جيّداً مع نضارتها وظرفها الواضح. وفي فلورنسا، كانوا قد علّموها أيضاً أن لا تستعمل لفظة "صاحب السعادة".

ومن المؤسف أن لا نستطيع أن نقول الكثير عن تانكريدي، فبعد أن جعل دون كالوجيرو يقدّمه، وبعد أن راح يدير منارة عينه الزرقاء، وبعد أن قاوم قليلاً رغبته في تقبيل يد أنجيليكا، عاد إلى الثرثرة مع السّيّدة روتولو، دون أن يفهم شيئاً ممّا يسمعه.

وكان الأب بيرّونه في زاوية معتمة، يتأمّل ويصلّي، ويفكّر في الكتاب المقدّس، وكان موضوع تأمّله في ذلك المساء (دليلة، ويهوديت، وإستير).

وانفتح الباب الأوسط في القاعة، وراح مدير المنزل يقرع جرساً في

يده، ويعلن بأنغامه العجيبة أن العشاء مُعَدّ، فمضت المجموعة المختلطة الأجناس متّجهة نحو غرفة الطعام.

***

كان الأمير خبيراً جدّاً بتقديم العشاء للضيوف الصقليّيْن في مدينة داخلية، مُبتدِئاً بالحساء، وكان يُسهّل عليه كثيراً أن يكسر قواعد المطبخ الراقي تجاوباً مع الأذواق الخاصّة. غير أن المعلومات عن العادة الهمجية الأجنبية في تقديم المرق كصحن أوّل، كانت قد بلغت إلى وجهاء دونا فوغاتا بكثير من الإصرار، لئلا تُخالجهم بقية خوف عند ابتداء مثل تلك الولائم الفخمة. ولذلك عندما دخل ثلاثة من الخَدَم في ملابس خضراء مذهّبة، وكل منهم يحمل طبقاً فضّياً هائلاً، فيه برج ضخم من المعكرونة، لم يبقَ سوى أربعة من بين العشرين شخصاً من المَدعوّين لم يُظهروا دهشتهم الفرحة، وهم: الأمير والأميرة، لأنها كانا ينتظران ذلك، وأنجيليكا تصنّعاً، وكونشيتا لفقدانها الشهية. أما الباقون جميعهم (ويؤسفنا أن نقول إن تانكريدي من بينهم)، فقد أبدوا ارتياحهم بوسائل متباينة، تتراوح بين الصفير المبهور، كما فعل المسجّل العامّ، والزعيق الحادّ، كما فعل فرانشيسكو باولو. إلا أن نظرات ربّ البيت، التي كانت تحمل نذر التهديد للجميع، قطعت حالاً تلك المظاهرات المنافية للآداب كلها.

العادات الحسنة والحشمة أمور، لا بد منها، غير أن منظر تلك العجائن التذكارية كان جديراً أن يُثير همهمات الإعجاب، فالذهب المصقول في أعلى الأبراج، ورائحة السُّكَّر والقرفة العابقة، لم يكونا غير بداية الإحساس باللّذّة الحبيسة في الداخل حينما يشقّ السّكّين القشرة العليا، ويمضي نحو الأعماق. ومن قبل ذلك، يتصاعد البخار عابقاً بالروائح الشهية، ثمّ

لا تلبث أن تبدو أكباد الفراخ، والبيض الجامد، وقطع الجمبون، والفراخ، والكمأ في تلك الكتل الدسمة الحارّة من المعكرونة القصيرة، التي تخلع عليها خلاصة اللحوم لون الظباء الثمين.

وبدأ تناوُل الطعام هادئاً، كما هي عادة الأقاليم، فرسم رئيس الكَهَنَة إشارة الصليب، ومضى يأكل مُطأطئ الرأس دون أن ينبس بكلمة، وراح عازف الأرغن يزدرد الطعام مغمض العينَيْن: كان يحمد الله، لأن براعته في اصطياد الأرانب والطيور كانت تُتيح له أن ينعم أحياناً بمثل هذه المتعة الباهرة، ويفكّر في أنه يستطيع أن يعيش هو وكلبته تريزينا شهراً كاملاً على واحد من مثل هذه المناسف الهائلة. أما أنجيليكا، أنجيليكا الجميلة، فقد نسيت المقانق الفلورنسية، ونسيت كذلك آدابها الطيّبة، وراحت تلتهم الطعام بكل شهية أعوامها السبعة عشر، وبكل قوّة الشوكة التي تمسك بها من وسطها. ويحاول تانكريدي أن يجمع بين الفروسية وشهوة الطعام، فيُجرّب أن يتذوّق طَعْم قبلات أنجيليكا، جارته، في طيّب ما تحمله الشوكة إلى فمه من طعام عابق بالرائحة الشهية، غير أنه فطن حالاً إلى أن التجربة لم تكن لذيذة، فأرجأ استثارة هذه الأوهام إلى موعد تناوُل الحلوى. وعلى الرغم من أن الأمر كان مستغرقاً في تأمّله لأنجيليكا التي كانت قبالته، كان الوحيد الذي استطاع أن يلاحظ أن صلصة الـ"Demi- glace" كانت أكثر امتلاء ممّا يجب، وقد آلى على نفسه أن يقول ذلك للطاهي غداً. وأما الآخرون، فقد راحوا يأكلون دون أن يفكّروا في شيء، ولم يكونوا يعرفون أن الطعام كان يبدو لهم شهياً إلى هذا الحدّ، بسبب نسمة "الشهوة" التي دخلت إلى المنزل مع أنجيليكا.

كان الجميع هادئين مسرورين، كلهم ما عدا كونشيتا. لقد عانقت

أنجيليكا، وقبّلتْها حقّاً، ورفضت أن تخاطبها تلك بـ (حضرتكِ) مفضّلة أن تُخاطبها بـ (أنتِ) التي كانت تتبادلانها في الطفولة، غير أن هناك تحت الجسم الضئيل الأزرق الشاحب، كان قلبها منقبضاً بشدّة. لقد استيقظ دم آل سالينا العنيف فيها، وتحت جبينها الناعم كانت تُحاك أوهام وخيالات مسموعة، وكان تانكريدي يجلس بينها وبين أنجيليكا، وكان يُوزّع نظراته ومجاملاته ونكاته على جارتَيْه بالتساوي، في تظرُّف متعجرف، كَمَنْ يشعر بالذنب، إلا أن كونشيتا كانت تشعر شعوراً حيوانياً بتيّار الشهوة الذي ينساب من ابن عمّتها نحو الفتاة الدخيلة، وكانت أهداب عينَيْها تبدو قاسية ما بين جبينها وأنفها، لقد كانت تودّ أن تَقتُل وتموت. وبحسّ المرأة، راحت تتشبّث بالأمور الخاصّة، فلاحظت الجمال العامّيّ في خنصر أنجيليكا الأيمن المرفوع إلى فوق في اليد الممسكة بالكأس، ولاحظت شامة حمراء في عنقها، ورأتها تحاول أن تنزع بيدها فضلة طعام كانت باقية بين أسنانها الشديدة البياض، ولاحظت كذلك شيئاً من الصلابة في روحها. بمثل هذه الأمور الصغيرة الخاصّة، وهي في الحقيقة لا تعني شيئاً، لأنها احترقت في الفتنة الحسّيّة، راحت تتشبّث في ثقة ويأس معاً، كما يتشبّث البنّاء الساقط من أعلى البناء بمزراب من رصاص، كانت تأمل أن يلاحظ تانكريدي أيضاً كل ذلك، وأن ينفر منها بسبب هذه العلائم البارزة من اختلاف التربية. وكان تانكريدي قد لاحظها كلها، ولكنْ، دون نتيجة، مع الأسف! فلقد انساق وراء سِحْر الإغراء الجسدي الذي كانت تُثيره تلك الفتاة الرائعة الجمال بشبابها الناري، ونستطيع أن نقول كذلك، وراء الإغراء الذي تُثيره الفتاة الغنية في دماغ الرجل الطموح الفقير.

في نهاية العشاء، كان الحديث عامّاً، فكان دون كالوجيرو يروي بلغة سيّئة جدّاً، ولكنْ، بنظر ثاقب، بعض خفايا استيلاء غاريبالدي على تلك

المقاطعة؛ وكان المسجّل العامّ يتحدّث إلى الأميرة عن الضاحية التي كان يجري بناؤها "خارج المدينة"، وأما أنجيليكا، فقد هاجت مشاعرها الأنوار، والطعام، وما تراه من إعجاب الذكور المحيطين جميعهم بالمائدة بجمالها، فطلبت إلى تانكريدي أن يروي لها أشياء عن "الأعمال الحربية المجيدة" في باليرمو. وكانت قد أسندت مرفقها إلى المائدة، وركّزت وجهها على راحتها؛ وقد خضّب الدم الحارّ وجنَتَيْهَا، ممّا جعل النظر إليها شهياً وخطراً معاً. وكانت الوشوم الزخرفية المنقوشة على ذراعها، وكوعها، وأصابعها، وعلى قفّازها الأبيض المتدلّي، تبدو لتانكريدي عذبة جميلة، أما لكونشيتا، فتبدو مُنفِّرَة مُزعِجَة.

وفيما استمرّ الشّابّ يتأمّلها معجباً، راح يروي لها عن الحرب، متعمّداً أن يهوّن لها من شأن كل ما يرويه: الزحف الليلي على (جبيلروسا)، والموقعة المضحكة بين (بيكسيو) و(لاماسا)، والهجوم على بوّابة (ترميني)، وقال: "لقد استمتعتُ كلّ الاستمتاع، يا آنستي. صدِّقيني. وأعظم الضحكات ضحكناها في مساء ٢٨ أيّار. كان الجنرال في حاجة إلى مكان مشرف في أعلى دَيْر (أوريليونه). وراح يدقّ ويدقّ على الباب، ويشتم، ولكنْ، لم يفتح الباب: وكان الدَّيْر محظوراً دخوله على الرجال. فرحنا أنا، وتاسّوني، وألدريجيتي وبعض الآخرين نحاول أن نُحطّم الباب بكعاب بنادقنا، ولكنْ، دون جدوى. فأسرعنا وجئنا بقرمية خشب كبيرة من منزل قريب مُهدّم بفعل القنابل، وأخيراً بعد ضجّة جهنمية، سقط الباب، ودخلنا: كان كل شيء مقفراً، ولكن أصواتاً قانطة تناهت إلينا من أحد أركان الممرّ: كانت هناك فئة من الراهبات قد لجأنَ إلى الكنيسة، وتجمّعنَ حول الهيكل. مَنْ يدري ما الذي كنّ يخ... شيء...نه من تلك الشرذمة من الشّبّان المغتاظين. كانت رؤيتهنّ تبعث على الضحك، فهنّ عجائز دميمات، غارقات في

ثياب الرهبنة السوداء، وعيونهنّ زائغات، وهنّ مستعدّات وحاضرات ... للاستشهاد !.. وكنّ ينبحنَ كالكلبات، فصاح بهنّ ناسّوني: "لا بأس عليكنّ، أيّها الراهبات، فلدينا شؤون أخرى نهتمّ بها، ولكننا سنعود متى علمنا منكنّ بوجود الراهبات المبتدئات" فضحكنا جميعاً حتّى كدنا نقع على الأرض، وتركناهنّ هناك جافّة أفواههنّ من الرعب، لنمضي ونشعل النار ضدّ المَلَكيين فوق السطوح. وبعد عشر دقائق، أُصبتُ بجراح".

وكانت أنجيليكا تضحك وهي ما تزال متّكئة على المائدة، وقد بدت ج أسنانها الناصعة جميعها. كان المزاح يبدو لها لذيذاً، ولكن إمكان اغتصاب الراهبات أزعجها. وخفقت حنجرتها الجميلة وهي تقول: "ما كان أجمل منظركم حينذاك! لكم أودّ لو كنتُ هناك معكم!" فبدا تانكريدي في شكل غير شكله العادي: لقد تجمّعت حماسة الحكاية، وقوّة التذكار، إلى ما أثارتْه في نفسه تلك النسمة الشهوانية في الفتاة، فبدّلتْه لحظة من شابّ هادئ، كما في الواقع، إلى جنديّ وقح. فقال: "لو كنتِ أنتِ هناك، يا آنسة، لما احتجْنا إلى انتظار الراهبات المبتدئات!".

لقد اعتادت أنجيليكا أن تسمع في بيتها ألفاظاً نابية كثيرة، غير أن هذه كانت المرّة الأولى (وليست الأخيرة) التي تجد فيها نفسها موضوعاً لاتّجاه شهواني مُزدوَج؛ ولقد راقها هذا الأمر الجديد، فأطلقت ضحكة رنّانة عالية.

في تلك اللحظة، كان الجميع ينهضون عن المائدة، وانحنى تانكريدي ليتناول مروحة الريش التي أسقطتْها أنجيليكا، وفيما هو ينهض من جديد، التقت عيناه بعينَي كونشيتا، فرأى فيهما دمعتَين صغيرتَين على أطراف جفونها، وسمعها تقول له: "يا تانكريدي؛ هذه أمور يجب أن ترويها للكاهن

في كرسيّ الاعتراف، ولا يجوز أن تُروَى للآنسات على المائدة، على الأقلّ، في حضوري". ثمّ أولتْ له ظهرها.

***

قبل أن يذهب دون فابريتسيو إلى السرير، توقّف قليلاً على شرفة غرفة الملابس. كانت الحديقة تنام مستغرقة في العتمة من تحته، والأشجار تبدو في الهواء الخافت كأنها من رصاص مسبوك. ومن الجرسية الموكلة بالحراسة يتناهى إليه صفير البوم أشبه بأصوات الجنيات. وكانت السماء مُلبّدة بالغيوم: الغيوم التي حيَّت في المساء، ذهبت إلى حيث لا يعلم أحد، نحو بلاد أقلّ إثماً، يشاء غضب الله أن يُوقعها حكماً أهون وأخفّ وقعاً. والنجوم تبدو معتكرة، تجاهد أشعّتها بعناء شديد، لكي تنفذ في الغطاء الهوائي الخفيف.

وانطلقت نَفْس الأمير نحوها، نحو ما كان منها غير ملموس، وصعب البلوغ إليه، تلك النجوم التي تمنح الغبطة دون أن تنتظر شيئاً مقابل عطائها. وكما اعتاد أن يفعل في مرّات أخرى عديدة، راح يتخيّل أنه سيكون في وسعه يوماً أن يصل إلى تلك الأبعاد الباردة، عقلاً خالصاً مزوداً بكرّاسة للحسابات، الحسابات العسيرة جدّاً، ولكنها مصيبة دائماً: "إنهنّ وحدهنّ الخالصات الصافيات، والمخلوقات الوحيدة النقية". وفكّر في عملياته الحسابية الدنيوية. "مَنْ ترى يفكّر في مهر "الثريا"، أو في مهمّة "الشّعرى" السياسية، أو يشغل باله في ما يمارسه كوكب "النَّسر الساقط" في مخدعه؟".

لقد كان ذلك اليوم سيّئاً. إنه يشعر الآن بذلك، ليس بسبب ما يحسّه من ضغط على فم معدته فحسب، بل إن النجوم نفسها لتقول

له ذلك أيضاً: فبدلاً من أن يراها في أشكالها ورسومها المعتادة، كان كلّما رفع عينَيْه نحوها، يجدها في وضع هندسي واحد: نجمتان من فوق كأنهما العينان، وواحدة من تحت كأنها طرف الذقن: ذلك الشكل المثير للسخرية، شكل الوجه المثلّث الزوايا الذي ترشقه نفسه في الأبراج الفلكية حينما تكون مُشوّشة. "فراك" السّيّد كالوجيرو، وغراميات كونشيتا، وافتتان تانكريدي الواضح، والجبن الذي يعانيه هو نفسه؛ وحتّى جمال أنجيليكا الخطِر، كل هذه أمور قبيحة، أو هي حصى في الطريق، تشير إلى قرب الهاوية. وذلك الفتى تانكريدي! إننا لمتّفقون على أنه على حقّ، وقد يكون في وسعه أن يساعده أيضاً، ولكنْ، لا يمكن أن ننكر أنه جاهل بعض الجهل. ولكنْ، لقد كان هو نفسه فيما مضى مثل تانكريدي. "حسبنا هذا، ولنمضِ لننامَ!".

كان بنديكو في الظلام يحكّ رأسه الكبير في ركبة الأمير. "انظر: أنتَ، يا بنديكو، مثلها إلى حدّ ما، مثل النجوم: مغبوط بأنه لا يفهمكَ أحدٌ، وليس في وسعكَ أن تعرف الهموم". ورفع رأس الكلب الذي يكاد لا يُرى في وسط الليل، وأضاف قائلاً: "ثمّ إنكَ بعينَيْكَ هاتَيْن اللتَيْن على مستوى أنفكَ، وبغياب ذهنكَ، من المستحيل أن يثير رأسكَ في السماء أشباحاً شرّيرة".

***

كانت عادات العصر تقضي بأن تذهب أسرة سالينا في اليوم التالي لوصولها إلى دَيْر الروح القُدُس، لتصلّي على قبر القدّيسة (كوربيرا)، جدّة الأمير، التي كانت قد أسّست الدَّيْر، وأنفقت عليه بسخاء وقداسة، وعاشت فيه، وماتت ميتة القدّيسين.

وكان دَيْر الروح القُدُس يخضع لقانون جامد صارم، يمنع دخول الرجال

إليه. ولهذا السبب خاصّة، كان الأمير يغتبط بزيارته، لأن المنع لا يصيبه ما دام متحدّراً من أصلاب أسرة المؤسّسة مباشرة، وكان غيوراً ومَزهوّاً بهذا الامتياز الخاصّ الذي كان يشاركه فيه ملك نابولي وحده.

هذا الحقّ من السلطة القانونية كان السبب الأهمّ، وليس الأوحد، لتعلّقه بالروح القُدُس. ففي ذلك المكان، كان يعجبه كل شيء، ابتداء من غرفة الاستقبال المتواضعة الخشنة المظهر، بقنطرتها التي يتوسّطها شعار الفهد، وشبّاك نوافذها الضّيّقة المزدوجة التي يجري الكلام من خلفها، ودولابها الخشبي الذي يدور حاملاً الرسائل إلى الداخل والخارج، وبابها المراقب مراقبة حسنة، والذي لا يلجه من الذُّكُور في الدنيا كلها سواه وسوى الملك. كان يروق له مرأى الراهبات بأرديتهنّ الفضفاضة المصنوعة من الكتّان الناصع البياض، ذات الكسرات الدقيقة، التي يرتدينها فوق الثياب السوداء الخشنة. وكان يشعر بالتقوى والقداسة لدى سماعه ما ترويه رئيسة الدَّيْر، للمرّة العشرين، عن المعجزات الحقيقية الثابتة التي صنعتْها القدّيسة، ولرؤيته إيّاها تشير إلى ركن من الحديقة الكئيبة، وتذكر كيف أوقفت القدّيسة هناك في الهواء حجراً ضخماً، كان الشيطان قد قذفها به غيظاً من تصلّبها في العبادة. وكان يدهش دائماً كلّما رأى على حائط إحدى الصوامع إطارَيْن في داخلهما الرسالتان الشهيرتان غير المؤرَّخَتَيْن، اللتان تبادلتْهما القدّيسة مع الشيطان، إذ حاولت هي نصحه وهدايته إلى الخير، وردّ هو معرباً، فيما يبدو، عن أسفه لعدم تمكّنه من إطاعتها. وكان يلذّ له معجون اللوز الذي تصنعه الراهبات بموجب وصفات لا يقلّ عمرها عن مئة عام. ويطيب له سماع الصلاة من الجوقة؛ وكان يغتبط كذلك حتّى حين يمنح تلك الرهبنة قسماً لا بأس به من دخله الخاصّ، كما كان يقضي بذلك نظام تأسيس الدَّيْر.

في ذلك الصباح، إذنْ، لم يكن في العربَتَيْن المتّجهتَيْن نحو الدَّيْر، في طرف المدينة، سوى أناس مغتبطين. في العربة الأولى كان الأمير مع الأميرة وابنَتَيْهما كارولينا وكونشيتا؛ وفي الثانية الابنة كاترينا، وتانكريدي، والأب بيرّونه، الذين كانوا قد اتّفقوا على أن يبقوا خارج السور، وأن ينتظروا في غرفة الاستقبال في أثناء الزيارة، قانعين بمعجون اللوز الذي لا بد أن يصل إليهم بواسطة الدولاب الدوّار. وكانت كونشيتا تبدو ذاهلة بعض الذهول إلا أنها صافية؛ وكان الأمير يرجو أن يكون هذيان الأمس قد زال أثره من نفسها.

إن الدخول إلى دَيْر محظور على الرجال ليس بالأمر اليسير، حتّى لمَنْ يملك أقدس الحقوق، فالراهبات يحرصنَ على أن يتظاهرنَ بشيء من التّمنّع، وهو تمنّع شكلي إلا أنه طويل، وهو، على كل حال، يجعل لهذا الإذن بالدخول طعماً، مع أنه نوع من وفاء الديون. وعلى الرغم من أن الزيارة متّفق عليها من قبل، فقد كان لا بد من الانتظار بعض الوقت في قاعة الاستقبال. وفي نحو نهاية هذا الانتظار، قال تانكريدي بنفاد صبر للأمير: "خالي، ألا يمكنكَ أن تُدخلني أنا أيضاً؟ إنني "نصف سالينا" على كل حال، ولم يسبق أن جئتُ إلى هنا من قبل". وسُرَّ الأمير في داخله لهذا الطلب، غير أنه هزّ رأسه، وأجاب: "ولكنكَ، يا ولدي، تعرف الحقيقة: أنا وحدي يُؤذَن لي بالدخول هنا، أما الآخرون، فيستحيل أن يُؤذَن لهم". غير أنه لم يكن من السهل التّغلّب على تانكريدي، فقد قال: "معذرة، يا خالي، لقد علمتُ أمس أن قوانين الدَّيْر تنصّ على (أنه يمكن أن يدخل أمير سالينا وبصحبته رجلان نبيلان من أتباعه، إذا أذنت رئيسة الدَّيْر بذلك). وسأكون أنا أحد النبيلَيْن التابعَيْن لكَ، سأكون ياورك، وسأعمل ما تريد، فاطلبْ لي الإذن من الرئيسة، أرجوكَ". لقد كان يتكلّم بحرارة غير مألوفة، لعلّه كان يريد أن يُنسي شخصاً من الحاضرين أحاديث الليلة الماضية غير المستحبّة،

فانخدع الأمير بكلامه، وقال: إذا كان الأمر يهمّك كثيراً، يا عزيزي، فسأرى..." غير أن كونشيتا التفتت إلى ابن عمّتها وعلى ثغرها أحلى ابتسامة من ابتساماتها، وقالت: "تانكريدي، لقد رأينا ونحن قادمون قرمية مُلقاة على الأرض، أمام بيت جينيسترا. فاذهبْ، وخذْها، وستدخل بها سريعاً إلى الدَّيْر"! فأظلمت عين تانكريدي الزرقاء، واحمرّ وجهه كالخشخاش حياء أو غضباً، لا أحد يدري أيّهما. كان يريد أن يقول شيئاً للأمير الذي بوغت بالهجوم، غير أن كونشيتا تدخّلت من جديد بصوت شرّير هذه المرّة، ومن دون ابتسام: "دعكَ منه، يا أبي، فإنه يهزل: لقد دخل ديراً قبل هذه المرّة على الأقلّ، وهذا حسبه؛ أما في ديرنا هذا، فليس من العدل أن يدخل".

وسُمعت خشخشة مفاتيح حادّة، ثمّ انفتح الباب؛ فنفذت إلى غرفة الاستقبال طراوة هواء الرواق، مختلطة مع أصوات الراهبات المصطفّات. ولم يعد هناك وقت للاستمرار في النزاع، فراح تانكريدي يتمشّى أمام الدَّيْر تحت السماء المضطرمة.

وتمّت زيارة الروح القُدُس على أحسن وجه. ورغبة في السلام لم يشأ دون فابريتسيو أن يسأل ابنته عن معنى كلامها: لابد أن يكون في الأمر شيء من العَبَث الصبياني المألوف بين أبناء العمومة. وعلى كل حال، فإن الخصومة بين الاثنَيْن توفّر مضايقات ومحادثات، واتّخاذ قرارات، فهي، إذنْ، أمر يستحقّ الترحيب. وعلى هذه النيّة، كرّم الجميع قبر القدّيسة كوربيرا بالندامة على آثامهم، ثمّ شربوا قهوة الراهبات الخفيفة على مضض، وتناولوا معجون اللوز الوردي والأخضر بشهية ورضى. وقامت الأميرة بتفتيش خزانة الملابس، وتحدّثت كونشيتا إلى الراهبات بطيبتها واحترامها المألوفَيْن، وترك هو، الأمير، على مائدة الطعام الأوقيّات العشر

التي اعتاد أن يقدّمها في كل مرّة. وصحيح أنهم وجدوا الأب بيرّونه وحده عند الباب الخارجي، ولكنه قال إن تانكريدي ذهب ماشياً، إذ تذكّر رسالة هامّة، عليه أن يكتبها، ولكنْ، ليس هناك ما يدعو إلى الاهتمام.

***

حينما عاد الأمير إلى القصر، صعد إلى المكتبة، وكانت هذه في وسط الواجهة تماماً، تحت الساعة وممتصّ الصواعق. ومن الشرفة الكبيرة المغلقة لمنع تسرّب الهواء الحارّ، كانت ترى مساحة دونا فوغاتا رحيبة، تُظلّلها أشجار الدلب المحمّلة بالغبار. والبيوت المقابلة تزهو ببعض الواجهات التي تحمل نقوشاً طريفة من صنع نحّات بلدي: غيلان فظّة في حجر طريّ، صقلتْها السُّنُون، ترتكز عليها الشرفات الصغيرة جدّاً؛ وهناك بيوت أخرى، بينها بيت دون كالوجيرو وسيدارا، كانت تتوارى خلف واجهات خجلى من الطراز الإمبراطوري.

وراح دون فابريتسيو يتمشّى جيئة وذهاباً في الغرفة الفسيحة؛ ومن حين إلى آخر، يُلقي نظرة إلى الساحة: على أحد المقاعد التي وهبها هو نفسه للبلدية كان يجلس ثلاثة شيوخ يتقلّون تحت الشمس، وهناك أربعة بغال مربوطة إلى شجرة، وتحسو عشرة أولاد يجرون بعضهم وراء بعض، وهم يصيحون ويتضاربون بسيوف من خشب. في وقدة الشمس هذه وهي في برج الأسد، لا يمكن أن يكون المشهد قروياً أكثر ممّا هو.

غير أنه في إحدى اللحظات، وقع نظره، وهو أمام النافذة، على صورة مدنية خالصة، منتصبة، نحيلة، حسنة الهندام. فأنعم النظر: كان ذلك تانكريدي، وقد عرفه، على الرغم من بُعده عنه، من كتفَيْه الهابطَيْن، ومن

خصره الضامر المشدود بالردنغوت. لقد غيَّر ملابسه، فلم يعد يرتدي اللون الكستنائي، كما كان في دَيْر الروح القُدُس، بل يرتدي الأزرق البروسي، "لون الغواية" كما كان يقول هو نفسه. وكان يحمل في يده عصا ذات رأس مزخرف (لا بد أنه عصا "الكركدنّ"، رمز أسرة فالكونيري، الذي يحمل شعارها وهو باللاتينية "Semper purus")(*) وكان يسير خفيفاً كالقطّ، أو كَمَنْ يحرص على أن لا يُغبِّر حذاءه. وعلى بُعد نحو عشر خطوات إلى الخلف، يتبعه خادم، يحمل سلّة مُزيَّنة، تحتوي على عشر درّاقات صفر، خدودها حمراء. فنحّى من طريقه أحد الأولاد اللاعبين بالسيوف الخشبية، وتجنّب باهتمام قاذورة بغل، وبلغ إلى باب منزل سيدارا.

---

*) أي "دائم النقاء". (المترجم).

٣. رحلة صيد

(اكتوبر ١٨٦٠)

جاء المطر، ثمّ ذهب، وعادت الشمس ترتقي عرشها كملك مُطلق، أُقصي أسبوعاً واحداً عن متاريس رعيته، ثمّ عاد، ليملك حانقاً، ولكن الأوراق الدستورية تكبح من جماح سخطه. كان الحَرّ ينصبّ دون أن يحرق، وكان النور قوياً، ولكنه كان يسمح للألوان بالبقاء؛ ومن الأرض، عادت تبرز نجيمات الحندقوق وعروق النعنع حيّية مُتهيّبة، وعلى الوجوه المتشكّكة، أشرق الرجاء.

وكان دون فابريتسيو، ومعه الكلبة تريزينا والكلب آرغوتو وبرفقته تابعه دون شيشيو تومي، يقضي في الصيد ساعات طوالاً من الفجر إلى العصر. ولم تكن نتيجة جهوده لتعدل شيئاً من التعب الذي يعانيه، فليس من السهل حتّى على أمهر الرماة أن يصيبوا هدفاً، قد لا يوجد أبداً، وكان كثيراً أن يتمكّن الأمير من أن يحمل معه إلى المطبخ فرخَي حجل عند عودته، كما أن دون شيشيو كان يعدّ نفسه محظوظاً، إذا استطاع أن يطرح على الطاولة أرنباً برّيّاً عند المساء؛ وهو عندئذ يُعلي من شأن أرنبه هذا حتّى ليجعل منه صيدة عظيمة الأهمّيّة، كما هي العادة عندنا.

ومن جهة أخرى، لم تكن وفرة الغنائم لدى الأمير إلا وسيلة انشراح ثانوية؛ فقد كانت متعة أيّام الصيد في أمور أخرى مُوزّعة على حوادث صغيرة: فلقد كان يستهلّ يومه بحلاقة ذقنه في غرفته، وهي ما تزال معتمة، على

ضوء شمعة، يعكس حركاته مجسّمة على السقف ذي النقوش المدهونة؛ وكان يجدّد نشاطه بأن يعبر القاعات النائمة، وأن يزيح الموائد تحت النور المترجرج، بما عليها من أوراق لعب مبعثرة بين الفيَش والأقداح الفارغة، وأن يرى عليها ورقة (الولد السباتي) الذي كان يرى فيه فألاً حسناً؛ وبأن يجتاز الحديقة الساكنة تحت النور الرمادي، والعصافير المبكرة تتململ لتنفض قطرات الندى عن ريشها، وأن يخرج من الباب الصغير الذي يحجبه شجر اللبلاب؛ والخلاصة كان يجد متعة في أن يهرب؛ فإذا ما وصل إلى الطريق، التي ما تزال بكْراً، تتفتّح على بواكير الفجر، ألفى هناك شيشيو يتسم من بين شاربَيْه المصفرَّيْن دون أن يتوقّف عن قَذْف الكلبَيْن بشتائمه الحارّة، والكلبان واقفان في الانتظار، وعضلاتهما ترتعد تحت الوبر المخملي الذي يكسوهما. والإلهة فينوس(*) تشعّ كعنقود عنب رطب شفّاف، ولكنْ، يخيّل إلى المرء أنه يسمع قعقعة عربتها الشمسية تمضي صعداً في المرتفع تحت الأفق. وتلتقي قريباً جدّاً بأوائل القطعان التي تتقدّم متثاقلة كَمَدّ البحر وجَزْره، أمام الحصى التي يحصبها بها الرعاة الذين يلبسون الجلود في أرجلهم، وقد غدا صوفها ناعماً وردياً في وهج الأشعّة الأولى، ثمّ لا بد من فَضِّ المعارك التي تنشب بين كلاب الرعاة وكلاب الصيد المتغطرسة من أجل السبق؛ وبعد هذا التّدخّل الذي يصمّ الآذان يمضي في هبوط منحدر، يفضي إلى صمت صِقِلية الرعوي الذي لا ينسى. وحالاً يشعر المرء بالبُعد عن كل شيء، سواء من حيث المدى، ومن حيث الزمان كذلك. إن دونا فوغاتا، وقصرها، وأثرياءها الجدد، لم تكن تبعد أكثر من ميلَيْن، غير أنها تبدو باهتة اللون في الذكريات، كالمناظر التي تُرى أحياناً عند المدخل البعيد لأحد أنفاق السّكّة الحديدية، وتبدو شواغلها وبذخها

(*) يرمز بها إلى نجمة الصبح، أو الزهرة. (المترجم).

أقلّ معنى أو إثارة ممّا لو كانت من عهود الماضي، لأنها إذا قيست بهذه البقعة البعيدة عن العمران، وغير المتبدّلة، بدت جزءاً من المستقبل، غير مَبنية بالحجارة، أو مأهولة باللحم البشري، بل مصنوعة من قماش مستقبل، ما يزال حلماً من الأحلام، مُنتزَع من "مدنية فاضلة"، يصبو إليها "أفلاطون". ساذج غشيم، وقد يستطيع أقلّ حادث أن يُبدلها إلى أشكال أخرى، تختلف عن هذا الشكل كل الاختلاف، أو أن يزيلها من الوجود، ويجعلها مُجرّدة حتّى من شحنة الحيوية التي يظلّ يحتفظ بها كل ما هو ماض، فلا تعود قادرة على أن تُسبّب لأحد إزعاجاً أو مضايقة.

***

المزعجات عرف منها دون فابريتسيو الشيءَ الكثير في هذَيْن الشهرَيْن الأخيرَيْن: لقد برزت له من الجهات جميعها، كأنها النمل على جيفة حرذون؛ وقد برز بعضها من شعاب الحالة السياسية، وانقضّ غيرها عليه من آلام الآخرين، وغيرها أيضاً - وهي أشدّها ألماً - نبتت في محيطه الداخلي، أي ممّا تركتْه السياسة ونزوات الآخرين في نفسه من آثار صامتة ("نزوات" - هكذا كان يدعو في فورة غضبه ما يعود، فيُسمّيه "ميولاً" في أوقات هدوئه). وهذه المزعجات كان يستعرضها أمام ناظرَيْه في كل يوم، ويجعلها تتحرّك، وتقف صفّاً واحداً، أو تنتشر في ساحة التدريب الخاصّة في وجدانه، لعلّه يلمح في تبدّل مشاهدها أيّ معنى يوحي بنهاية قريبة، تبعث في نفسه الطمأنينة، ولكنه لم يفلح في ذلك. في العام الماضي، كانت المنغّصات أقلّ عدداً، وكانت فترة الإقامة في دونّا فوغاتا، على الأقلّ، فترة راحة فعلية؛ كانت الأحقاد تُسقط البنادق من الأيدي، وتهيم في شعاب الوديان مستكينة هادئة، قانعة بتناوُل الخبز والجبن، ومتناسية

ما توحي به ثيابها العسكرية من معنى الحرب، حتّى لقد يتحوّل أصحابها إلى حرّاثين مسالمين. أما في هذا العالم، وقد أصبحت هناك كتائب هائجة تصرخ وتلوح بالسلاح، فقد ظلّت متجمّعة، وقد تتلقى أمراً من القائد بالانصراف، ثمّ إذا هي تعود صفّاً أكثر تلاصقاً وإنذاراً بالخطر، ممّا كانت من قبل.

عزف موسيقي، وطلقات مسدّسات، وقرع أجراس وترانيم "اللهمّ، نمدحكَ"(*) عند الوصول؛ وهذا حسن كله، أما بعد ذلك! فالثورة البورجوازية التي تصعد على سلّم منزله في فراك السّيّد كالوجيرو، وجمال أنجيليكا الذي يكسف جمال ابنته كونشيتا الخجول، وتانكريدي المرتقب، والذي تزيّن له أحاسيسه الجنسية دوافع التّطوّر الواقعية. الوسواس، وإشاعات الاستفتاء الشعبي، وألوف المنغّصات التي كان عليه أن يذعن لها هو نفسه. الفهد الذي اعتاد لسنين عديدة أن يزيل الصعوبات من طريقه، بدَفْشة من قَدَمه.

كان تانكريدي قد سافر منذ أكثر من شهر، وهو الآن في (كازيرتا) يقيم في شقّة عاهله الجديد؛ ومن هناك، كان يبعث من حين إلى آخر رسائل إلى دون فابريتسيو، فكان يقرؤها والتّجهّم والابتسام يتعاقبان على ملامحه، ثمّ يضعها في أقرب درج من المنضدة. ولم يكتب إلى كونشيتا أبداً، غير أنه لم يكن ينسى أن يبعث إليها بسلامه، بخبثه العاطفي المعهود، حتّى لقد كتب في إحدى المرّات، يقول: "أقبّل أيدي جميع الأوانس "الفهدات"، ولاسيما يد كونشيتا"، وقد أخضع الأمير هذه العبارة لمراقبة حكمته الأبوية حينما قرأ الرسالة على الأسرة في أثناء اجتماعها. وكان أنجيليكا تتردّد على

*) ترنيمة كاثوليكية للشُّكر. (المترجم).

الأسرة كل يوم تقريباً، وفتنتها تزداد يوماً عن يوم، وكان يرافقها أبوها أو خادمة ذات عين شرّيرة: كانت الزيارات في مظهرها الرسمي للصديقات، بنت الأسرة، أما في الواقع، فقد كانت العلّة الحقيقية تبدو واضحة حينما كانت تسأل دون مبالاة: "هل جاءتكم أخبار من الأمير؟" ولم تكن لفظة "الأمير" من فم أنجيليكا الحلو تعنيه هو، دون فابريتسيو، بل كانت هي اللفظة التي تستعملها لتعني بها "الكابتن" الغاريبالديّ الحبيب. وكان هذا يُثير في أسرة سالينا شعوراً من الاستهجان، منسوجاً بقطن الحسد الجنسي، وبحرير الابتهاج بنجاح العزيز تانكريدي؛ وهو شعور غير مُستحَبّ في الواقع. وكان هو يجيب دائماً على سؤالها، وبصيغة موزونة جدّاً، بقدر ما تبلغ إليه حكمته، كان يحرص على أن يقدّم لها نبتة من أخبار تانكريدي، يحرص على تشذيبها بمقراض حذر، ينزع عنها الأشواك (كان يروي لها بعض رحلاته إلى نابولي، وإشاراته الصريحة جدّاً إلى جمال سيقان "أورا شوارتسوالد" الراقصة في سان كارول)، أو يضيف عبارة غضّة من مثل (أرجو أن توافوني بأخبار عن الآنسة أنجيليكا)، أو مثل (في مكتب الملك فرديناندو الثاني، رأيتُ صورة للعذراء من صُنع (أندريا ديل سارتو) ذكّرتْني بالآنسة سيدارا). وهكذا يرسم لتانكريدي صورة تافهة، ليس فيها من الحقيقة إلا القليل جدّاً، ولكنه بهذا كان يتحاشى أن يجعل من نفسه "مكدر أفراح" أو أيضاً "سمسار زواج". وهذه الاحتياطات الشفوية كانت تتجاوب إلى حدّ بعيد مع أحاسيسه الخاصّة فيما يتعلّق بحبّ تانكريدي المعقول، ولكنها كانت تثير حنقه، لما يتكلّفه في نسجها من مشقّة. ولم تكن هذه سوى مثال لمئات من المزعجات سواء منها ما كان عن طريق الكلام أو عن طريق التّصرّف، التي كان مُرغَماً على التفكير فيها في الآونة الأخيرة: لقد كان يستعيد في ذهنه بكثير من الحسد الحالة التي كانت قبل عام، حين

كان يقول كل ما يدور في رأسه، موقناً من أن كل حماقة يفوه بها ستكون بمثابة كلمة من الإنجيل، وكل غلطة تصدر عنه تُعدّ لا مبالاة أميرية. وهو حينما يضع قَدَمه على طريق التّأسّف على الماضي كان يندفع أحياناً، في فورات امتعاضه العنيفة، إلى مسافات بعيدة في ذلك المنحدر الخطر. وقد حدث مرّة أنه بينما كان يضع السُّكَّر في فنجان الشاي الذي قدّمتْه له أنجيليكا، أحسّ بأنه كان يحسد الإمكانات التي كانت متاحة لأمثاله من أمراء سالينا، وأمثال تانكريدي من أمراء فالكونيري، قبل ثلاثة قرون، فقد كان في وسعهم أن يقضوا رغائبهم في مضاجعة فتيات أزمنتهم، من أمثال أنجيليكا، دون أن يمرّوا أمام الكاهن، ودون أن يبالوا بمهور القرويات - وهي مهور، لم يكن لها وجود في الواقع - ومن غير ما حاجة إلى دفع أخوالهم المحترمين إلى الرقص على البَيض، لكي يبوحوا - أو لا يبوحوا - برغائبهم الخاصّة. وعامل الترف هذا لدى الجدود الأقدمين (وهو، في الحقيقة، لم يكن تَرَفاً صِرْفاً، بل كان كذلك مسلكاً شهوانياً، مبعثه الخمول) كان من البشاعة، بحيث احمرّ له خجلاً وجه هذا الرجل النبيل الذي يقارب الخمسين من عمره، والذي يبلغ أقصى حدود التّمدّن، واحمرّت له كذلك نفسه التي مرّت بتجارب وتصفيات عديدة، أوصلتْها إلى التّأثّر بهَوَس الكاتب الفرنسي (روسّو) وتقييداته. وقد بلغ من عمق خجله هذا أنه لم يعد يشعر بالقشعريرة التي يثيرها في نفسه الوسط الاجتماعي الذي ينغمس فيه الآن.

***

إحساسه بأنه سجين حالة تتطوّر بأسرع ممّا كان مقدّراً لها، كان شديداً حادّاً ذلك الصباح خاصّة، وكان في الواقع قد تلقّى في الليلة السابقة

رسالة من تانكريدي، حملها إليه في علبة صفراء كنارية اللون بريد دونا فوغاتا غير المُنتظَم والقليل العمل.

وقبل أن تُفَضّ الرسالة، كان غلافها يُشعر بأهمّيّته، فقد كانت مكتوبة على ورق فاخر صقيل، بخطٍّ أنيق، رُوعيت فيه الدّقّة في رسم الحروف "الملأى" في النزول، "والنحيفة" في الصعود. وقد تجلّى حالاً أنها كانت "النسخة الجيّدة" بعد عدّة تجارب غير موفّقة. ولم يجد فيها الأمير عبارة "خالي العظيم" التي أصبحت عزيزة عليه، لأن الغاريبالدي الفطن قد أعمل فكره في الصيغة، فجعلها هكذا: "خالي العزيز فابريتسيو"، وهي صيغة ذات مزايا وفضائل متعدّدة، منها أنها تنفي كل شكّ في المزاح منذ البداية، وأنها منذ السطر الأوّل تدلّ على أهمّيّة ما سيتلوه، وأنها تسمح بأن يطّلع على الرسالة أيّ إنسان؛ ومنها أيضاً أنها تستند إلى تقاليد دينية عريقة جدّاً قبل المسيح، وهذه التقاليد تجعل للاسم المنادَى سلطة مقيّدة بالتحديد الدقيق.

لقد علم "الخال العزيز الغالي"، إذنْ، أن "ابن الأخت العميق في محبّته وإخلاصه، كان منذ ثلاثة أشهر فريسة لأعنف غرام، بحيث لم تستطع "مخاطر الحرب" (الأصحّ أن يقال: النزهات في منتزه كازيرتا) ولا "المغريات العديدة في مدينة كبيرة" (اقرأها هكذا: مغازلات الراقصة شوارتسوالد) أن تُبعد عن ذهنه ولا عن قلبه، ولو لحظة واحدة، صورة الآنسة أنجيليكا سيدارا (وهنا موكب طويل مديد من النعوت المتلاحقة لتمجيد جمال الفتاة المحبوبة، ولطفها، وفضائلها، وذكائها)؛ ثمّ تمضي الرسالة، فتُصوّر بواسطة إشارات بارزة خاصّة من الحبر والمشاعر معاً، كيف أن تانكريدي نفسه، شعوراً منه بعدم جدارته، قد حاول كثيراً أن يخنق حرارة حبّه: ("لقد

كانت طويلة الساعات التي قضيتُها بين صخب نابولي، أو قسوة حياة رفاقي في السلاح، أحاول عَبَثاً خنق مشاعري")، وأما الآن، فقد تغلّب الحبّ على التّمنّع، وهو يجيء ملتمساً من خاله المحبوب جدّاً أن يتفضّل، ويطلب باسمه يد الآنسة أنجيليكا من "والدها الرفيع الشأن"، وهو يقول: "أنتَ تعلم، يا خالي، أنني لا أستطيع أن أقدّم للفتاة الحبيبة شيئاً سوى حبّي، وسوى اسمي وسيفي" وبعد هذه العبارة - وينبغي أن لا يغيب عن بالنا أن الوقت كان حينئذ أصيلاً شاعرياً - يمضي تانكريدي في حديث طويل عن أن من المناسب، بل من الضروري، تقوية الأواصر بين أسرتي فالكونيري وسيدارا (وفي إحدى المرّات، اندفع إلى حدّ أنه تجرّأ، فقال "بيت سيدارا العريق") رغبة في نقل الدم الجديد الذي يجري فيهما إلى البيوت القديمة، ولتحقيق عملية المساواة بين الطبقات، وهي من الأهداف التي قامت لأجلها الحركة السياسية الجديدة في إيطاليا. وكان هذا هو الجزء الوحيد الذي قرأه دون فابرتسيو مغتبطاً؛ وما كان ذلك فقط لأنه يؤكّد ما كان يتوقّعه من قبل، ويخلع عليه صفة النبوءة، بل أيضاً (وقد يكون قاسياً أن نقول "على الأخصّ")، لأن الأسلوب الذي لا يخلو من تهكُّم مُقنَّع، يُعيد إلى ذهنه صورة ابن أخته، وغنّة صوته الأنفية الساخرة، وعينَيْه اللتَيْن تفيضان بالزرقة الخبيثة، وضحكاته المهذّبة. ثمّ لمّا انتبه إلى هذه الثغرة الثوروية كانت حبيسة في ورقة، بحيث يمكن أن يسمح بقراءتها بعد أن يطرح منها الفصل الثوروي القصير، بلغ إعجابه بذوق تانكريدي أوجه. ثمّ بعد أن يسرد بإيجاز أحدث الشؤون الحربية، ويذكر أنه واثق من الوصول في خلال سنة واحدة إلى روما "التي اختيرت، لتكون العاصمة العظمى لإيطاليا الجديدة"، يُعرب عن شُكره الحارّ للعناية والمحبّة اللتَيْن لقيَهُما في الماضي، ثمّ يختم بالاعتذار إلى خاله عن تجرُّئه على أن يعهد

إليه بالمهمّة، والتي تقوم عليها "سعادتي المقبلة". ثمّ يسلّم عليه وحده (دون أن يُشركَ معه أحداً في السلام).

القراءة الأولى لهذا المقطع النثري غير العادي أصابت دون فابريتسيو بالدوار: فقد لاحظ من جديد سرعة التاريخ المذهلة، وإذا شئنا التعبير بعبارة عصرية، قلنا إنه وجد نفسه كَمَنْ يظنّ في أيّامنا هذه أنه يصعد على ظهر إحدى الطائرات الضخمة التي تعبر الشواطئ، بين باليرمو ونابولي، ولكنه لا يلبث أن يرى نفسه حبيساً في طائرة أسرع من الصوت، ويُدرك أنه سيصل إلى غايته قبل أن يكون لديه وقت، ليرسم إشارة الصليب. وأما الجانب الثاني من شخصيته، وهو العاطفي، فقد مضى يشقّ طريقه قُدُماً. وقد سُرّ الأمير من قرار تانكريدي الذي جاء يؤكّد له أنه سيصل به إلى إشباع جوعه الجسدي "العابر"، ويضمن لنفسه الراحة الاقتصادية "الدائمة". إلا أنه بعد ذلك لاحظ مباهاة الفتى التي لا تصدّق، فهو يعدّ رغبته هذه شيئاً مقبولاً دون تردّد لدى أنجيليكا. غير أن هذه الخواطر جميعها قد لَفَتَهَا شعور بالهوان لأن الأمير سيجد نفسه مُرغَماً على البحث مع دون كالوجيرو في أمور حميمة جدّاً، وضيق نفسي، لأنه سيضطرّ غداً إلى الجلوس معه على طاولة لأجل معاملات دقيقة، وإلى استخدام الاحتياطات والتّذرّعات التي تتنافى مع طبيعته، ومع كبرياء الأسد فيه.

وقام دون فابريتسيو بإبلاغ مضمون الرسالة إلى زوجته فقط، وكانا إذ ذاك قد وصلا إلى الفراش على الضوء الأزرق الذي يلقبه مصباح زيت مقنّع بواقية زجاجية. ولم تقلْ ماريا ستيلا في أوّل الأمر شيئاً، ولكنها راحت ترسم إشارات صليب متعدّدة، ثمّ قالت إنه كان عليها أن ترسم إشارة الصليب بيدها اليسرى بدلاً من اليمنى. وبعد هذه العبارة الدّالّة على بالغ

تعجّبها. أخذت تتفجّر صواعق بلاغتها. كانت جالسة في السرير، وأصابعها تعبث بالملاءة حانقة، بينما تمضي كلماتها تسحب في منطقة الضوء من تلك الغرفة المغلقة سطوراً حمراء كالشموع الحانقة: "وأنا التي كانت تأمل أن يتزوّج كونشيتا! خائن هو، كجميع التّحرّريّين أمثاله؛ لقد خان الملك أوّلاً، والآن يخوننا نحن! هو، بوجهه الشائه، وألفاظه المملوءة عسلاً، بينما أعماله مُثقَلة بالسّمّ! هذا ما يقع عندما تُدخِل إلى بيتكَ أناساً من غير دمكَ!". وهنا تخلّت عن الغيرة على مواقف الفروسية في حياة الأسرة، وقالت: "لقد قلتُ هذا دائماً! ولكنْ، لم يصغ إليّ أحد. إنني لم أستطع قطّ أن أطيق ذلك الفتى المتبرّج. أنت وحدكَ أضعتَ نفسكَ لأجله". والحقيقة أن الأميرة نفسها كانت أيضاً من المفتونات بمداعبات تانكريدي، وكانت هي أيضاً تحبّه؛ غير أن شهوة الصباح: "لقد قلت ذلك"، وهي أقوى ما يستطيع مخلوق إنساني أن يكسبه، تقلب الحقائق جميعها والأحاسيس جميعها. ثمّ أضافت: "والآن يجرؤ بوجهه الصفيق على أن يكلّفكَ أنتَ: خاله، وأمير سالينا، ووالد المخلوقة التي خدعها، بأن تتقدّم بطلبه المخزي إلى ذلك المحتال، والد تلك العاهرة! ولكنكَ لن تفعل هذا، يا فابريتسيو، يجب أن لا تفعله، لن تفعله؛ يجب أن لا تفعله!" ومضى صوتها يزداد ارتفاعاً، بينما أخذ جسمها يتشنّج. وكان دون فابريتسيو ما يزال مضطجعاً على السرير، فنظر بزاوية عينه، ليتأكّد من وجود الدواء على الخزانة. كانت الزجاجة هناك، وملعقة من الفضّة مقلوبة على صمامتها، وكانتا معاً تلمعان في شبه العتمة الزرقاء السائدة في الغرفة، فكأنها المنارة المطمئنة تنتصب رغم العواصف الهوجاء. وظلّ لحظة يهمّ بالنهوض لتناوُلهما؛ ولكنه قنع بأن يجلس هو أيضاً، وبذلك استردّ شيئاً من المهابة المفتعَلة، وقال: "يا ستيلتي الحبيبة، حسبكِ مغالاة في الحماقة، أنتِ لا تعرفين ما الذي

تقولينه، فليست أنجيليكا عاهرة، قد تصبح كذلك يوماً، أما الآن، فإنها فتاة ككل الفتيات، وهي أجمل من الأخريات، وتودّ أن تتزوّج زواجاً صالحاً، ولعلّها لا تخلو من حبّ لتانكريدي، كما يحبّه الجميع. أما هو، فسيتوافر له المال في هذه المدّة: سيكون القسم الأكبر منه من مالنا نحن، إلا أن مَنْ يشرف على رعايته بعناية مفرطة هو السّيّد كالوجيرو وتانكريدي في حاجة إلى ذلك، فهو سيّد وطموح، ويداه مثقوبتان. أما كونشيتا، فإنه لم يقل لها قطّ شيئاً، بل إنها هي نفسها التي كانت تعامله كالكلب منذ مجيئنا إلى دونا فوغاتا. ثمّ إنه ليس خائناً: إنه يسير مع الزمن، هذا كل ما في الأمر، سواء في السياسة أم في الحياة الخاصّة. وهو على كل حال، أحبُّ مَنْ عرفتهم من الشّبّان؛ وأنتِ تعرفينه كما أعرفه أنا، يا ستيلا الحبيبة". ومضت خمسة أنامل ضخمة تتحسَّس علبة جُمجمتها الصغيرة. إنها تشهق الآن؛ لقد أحسنتْ، إذ تناولتْ جرعة ماء، فتحوّلتْ نار غضبها إلى كآبة. وأخذ دون فابريتسيو يأمل في أن لا يحتاج إلى مغادرة فراشه الدافئ، ويتجشّم عبور الغرفة الباردة بقَدَمَيْن عاريَتَيْن. ولكي يطمئنّ إلى سَكِينة مقبلة، تظاهر بغضب مصطنع، وقال: "ثمّ إنني لا أريد صراخاً في منزلي، وفي غرفتي، وفي سريري! لا شيء من مثل "ستفعل" و"لن تفعل"؛ فأنا الذي يقرّر؛ وقد قرّرتُ أمري في حين كنتِ أنتِ لا تحلمين حتّى بشيء منه! كفى!".

الذي يكره الصراخ كان هو نفسه يصرخ بكل ما يستطيعه قفص صدره الهائل من مقدرة على التّنفّس، وكأنما خُيّل إليه أن أمامه طاولة، فضرب ركبته بجمع يده ضربة آلمته، فَصَمَتَ هو بدوره.

وخافت الأميرة، فجعلت تهرّ بصوت منخفض كجرو مهدَّد. وقال لها الأمير: "فلننم الآن، وغداً عليّ أن أمضي إلى الصيد، فيجب أن أنهض باكراً.

كفى! لقد تقرّر ما تقرّر. ليلة سعيدة، يا ستيلا الحبيبة!" ثمّ قبّل زوجته على جبينها أوّلاً، ثمّ على فمها، وعاد، فاستلقى على السرير، وأدار وجهه إلى جهة الحائط. وعلى صفحة الحائط، بدا ظلّ اضطجاعته كسلسلة جبال ممتدّة في زرقة الأفق.

واضطجعت كذلك ستيلا الحبيبة، وبينما راحت ساقها اليمنى تتحكّك بساق الأمير اليسرى، شعرت بالعزاء، وبالزهو، لأن يكون لها رجل في مثل قوّته واعتزازه. وماذا يهمّها من تانكريدي ... ومن كونشيتا كذلك؟

هذه الخواطر التي تشبه السير على شفرة موسى الحلاقة، أُرجئت كلها في الوقت الراهن مع غيرها من الأفكار في المتاهات العطرة من الريف، إن كان يمكن أن تُدعى كذلك تلك الأماكن التي كان موجوداً فيها للصيد في ذلك الصباح. وفي لفظة الريف ينطوي معنى الأرض التي صاغها العمل في شكل جديد، غير أن تلك الأرض الشجراء، المتكوِّمة على سفح أحد التلال، كانت ما تزال على حالتها الأصلية من التشويش العابق بالعطور، التي أوجدها عليها الفينيقيون، والدوريون، والإيونيون حينما كانوا ينزلون من البحر إلى صِقِلية، أميركة الأزمنة الغابرة.

وكان دون فابريتسيو وتوميو يصعدان، ويهبطان، وينزلقان، وقد تخدشهما الأشواك، كما كان يتعب فيها، ويتخدش أي (أركيداموس) أو (فيلوستراتوس) قبل خمسة وعشرين قرناً. لقد كانت تقع عيونهما على الأشياء عينها، وكان العَرَق يتصبّب، فيُبلّل ثيابهما، كما كان في الأزمنة القديمة، والريح البَحْرِيّة تهبّ دون توقّف ودون مبالاة، فتُحرِّك عروق الآس والرتم، وترشّ عبير الزعتر في الفضاء. وكانت وقفات الكلاب المفاجئة المترقّبة، وتوتّرها المؤثّر في تحفّزها للانقضاض على الصيدة، تماماً مثلما

كانت في الأيّام التي كان يتحفّز فها (أرتيميدس) للصيد. والحياة تبدو مقبولة الشكل حينما تتقلّص إلى هذه العناصر الأساسية، وتغسل وجهها من مساحق الشواغل والهموم. وقبل الوصول إلى قمّة التّلّ بقليل، شرع آرغوتو وتريزينا في ذلك الصباح يرقصان الرقصة الدِّينية التي ترقصها الكلاب عندما تكتشف حيوانات برّيّة: من زحف، وتحفّز، ورفع السيقان بحذر وحكمة، ونباح مكبوت؛ وبعد دقائق قليلة، برزت عجيزة ذات شَعْر رمادي من بين الحشائش، وانقضّت هجمتان في آن واحد، لتضعا نهاية لذلك التّرقّب الصامت؛ ووضع آرغوتو عند قَدَمَي الأمير حيواناً مُحتضِراً.

كان الحيوان أرنباً برّيّاً: لم يكن رداؤه الخزفيّ اللون كافياً لإنقاذه، فقد مزّقت صدره وخطمه جراح مريعة. ورأى دون فابريتسيو عينَيْن سوداوَيْن واسعَتَيْن تحدّقان إليه، سرعان ما جلّلهما غشاء بلون البحر، وكانتا تنتظران إليه دون تأنيب، غير أنهما كانتا طافحَتَيْن بألم ذاهل مبهور، ناقم على نظم الأشياء جميعها. وكانت أذناه المخمليّتَان قد بردتا، والساقان القويّتَان قد أخذتا تتخالفان في إيقاع، رمزاً حيّاً لهرب غير مُجد. كان الحيوان يموت وهو يتعذّب بلهفة الأمل في النجاة، مُتخيّلاً أنه ما يزال في وسعه أن يُنقذ نفسه على الرغم من المخالب المنشبة فيه، تماماً كما يفعل الكثير من بني آدم. وبينما كانت الأنامل تتلمّس الخطم التعس بحنان ورأفة، ارتعش الحيوان الصغير ارتعاشته الأخيرة، ومات؛ غير أن دون فابريتسيو، ودون شيشيو اكتفيا بما قضياه من وقت؛ بل إن الأوّل منهما نال مع التّلذّذ بالقتل لذّة أخرى، تبعث على الارتياح، وهي المشاركة في الألم.

وحينما بلغ الصّيّادان قمّة التّلّ، تراءى لهما من جديد بين الأشجار القليلة جدّاً هناك منظر صِقِلية الحقيقية، تلك التي لا تُرى في المُدُن ذات الطراز

الباروكي، وفي حدائق البرتقال سوى ألاعيب جديدة بالإهمال: منظر جفاف متماوج إلى اللانهاية في قباب كأعجاز الدواب، خائرة صامتة، لا يستطيع الذهن أن يقبض منها على الخيوط الرئيسة التي حُبل بها في لحظة هذيان الخليقة: كبحر تحجّر دفعة واحدة في اللحظة التي كانت الرياح ستُثير فيها جنون الأمواج. وكانت دونتا فوغاتا تختبئ مهمومة في منعطف غفل من الأرض، فما ترى فيها نَفْسٌ حيّةٌ، غير خطوط باهتة من الدوالي، كانت تشير إلى آثار مرور بعض الآدميّين. ومن خلف التّلّ، تبدو في إحدى الجهات بقعة البحر الزرقاء، وهي أكثر معدنية وأقلّ خصباً من الأرض. والريح الخفيفة تمرّ فوق كل شيء، فتشيع في الدنيا روائح الغائط، والجيف، ونبات المريميَّة، وتمحو كل شيء، تزيله، ثمّ تعيد تركيبه في مجراه الأصلي اللامبالي، وتجفّف قطرات الدم التي كانت كل ما بقي من آثار الأرنب؛ وفي مكان آخر بعيد، كانت هذه الريح نفسها تداعب الريش في قبّعة غاريبالدي، وفي مكان أبعد من ذلك، تثير ذرّات الغبار في عيون الجنود النابوليتانيّيْن الذين كانوا يُحصّنون على عجل حصون (غابيتا)، يدفعهم أمل خادع، لم يكن أقلّ عبَثَاً من محاولة الهرب اليائسة التي هَمَّ بها الحيوان البرّيّ.

وجلس الأمير وعازف الأرغن في ظلّ أشجار الفلّين يستريحان، ويشربان النبيذ الفاتر من أوعيتهما الخشبية، ويلتهمان معه فرخة محمّرة، أخرجها دون فابريتسيو من وعائه، والأقراص اللذيذة المخبوزة في التّنّور والمصنوعة من الدقيق الخشن التي أحرّها دون شيشيو، ويتلذّذان بحلاوة عنب (إنسوليا) ذي المنظر الكريه والطَّعْم الشهيّ جدّاً؛ ويرميان بقِطَع كبيرة من الخبز، ليسدّا بها جوع الكلبَيْن اللذَيْن لا يتزحزحان من أمامهما، كأنهما حاجبان يلحّان في تحصيل ما يستحقّان من أجر. وتحت الشمس الفاترة كاد دون فابريتسيو ودون شيشيو يستسلمان إلى النوم.

ولكنْ، إذا كانت طلقة واحدة قد قتلت الأرنب، وإذا كانت مدافع (شالديني) المصوّبة نحو أهدافها تحطّم عزائم الجنود البربون، وإذا كانت حرارة الجنوب تسلّط النعاس على البشر، فليس هنالك ما يستطيع أن يُوقِفَ النمل. لقد استدعتْها بعض بذور العنب التي كان دون شيشيو قد قذفها من فمه، فهُرعت صفوفها المتراصّة، تحثّها الرغبة في أن تنال ذلك القليل من العفن الممزوج بلعاب عازف الأرغن. كنّ يتراكضنَ بحماسة وفوضويّة، ولكنْ، بإصرار مندفع، وقد تتوقّف من حين إلى آخر ثلاث نملات أو أربع، ليتحادثنَ قليلاً، لا شكّ في أنهنّ كنّ يتحدّثنَ عن المجد الدنيوي والوفرة المقبلة في بيت النمل رَقْم (٢) تحت شجرة الفلين رَقْم (٤) في قمّة جبل (موركو)، ثمّ يتابعنَ الجري مع الأخريات نحو المستقبل الرخي، وكانت الظهور اللامعة لتلك النمال الإمبراطورية تبدو مندفعة بحماسة، وليس من شكّ في أن من فوق صفوفهنّ كانت تتطاير نوتات موسيقية لأحد الأناشيد. وكنتيجة لبعض تجمّعات الآراء التي قد لا يحسن تحديدها، فإن مرأى تلك الحشرات قد منع النوم عن عينَي الأمير، وجعله يتذكّر أيّام الاستفتاء الشعبي التي عاشها منذ مدّة قليلة في دونا فوغاتا عينها، والتي إلى جانب ما تركته من معاني العجب، تركت أيضاً ألغازاً، تحتاج إلى حل. والآن أمام هذه الطبيعة التي يبدو جلياً أنها - باستثناء النمل- نفضت يدها من كل هَمّ، قد يكون من الممكن البحث عن حلول لتلك الألغاز. لقد كان الكلبان ينامان متمدّدَيْن منبسطَيْن، كأنها صورتان مقصوصتان، وكان الأرنب معلّقاً ورأسه إلى أسفل غصن يتدلّى كخطّ الزاوية تحت هبوب الريح المتواصل، غير أن توميو كان لا يزال قادراً على أن يظلّ فاتحاً عينَيْه، يساعده غليونه على ذلك.

- "وأنتم، يا دون شيشيو، كيف أعطيتُم صوتكَ في ذلك اليوم؟".

فاضطرب المسكين؛ لقد أُخذ على غرّة، في وقت كان يجد نفسه فيه خارج سياج الحيطة الذي اعتاد أن يدور في نطاقه كأيّ فرد آخر من أبناء بلدته. فتردّد، ولم يدرِ بماذا يجيب.

وظنّ الأمير أن تردّده كان خوفاً، مع أنه لم يكن غير مباغتة، فغضب، وقال: "والحاصل، ممّنْ تخافون؟ وليس ههنا سوانا وسوى الريح والكلاب".

والواقع أن قائمة الشهود الموثوقين لم تكن سعيدة، فالريح ثرثارة على وجه التحديد، والأمير كان نصف صقلي، ولم يكن يستحقّ الصفة المطلقة غير الكلاب، ولاسيما لعدم مقدرتها على الكلام المنطوق. ولذلك تمالك دون شيشيو رابطته، وأوحت إليه المراوغة البلدية بالجواب الصحيح، أي بلا شيء، فقال: "معذرة، يا صاحب السعادة، فإن سؤالكم لا فائدة منه، إنكم لتعلمون أن جميع أهل دونا فوغاتا قد صوّتوا بـ (نعم)".

لقد كان دون فابريتسيو يعرف هذا، ولهذا لم يفعل الجواب أكثر من أنه جعل من اللغز الصغير لغزاً تاريخياً. قبل التصويت جاء إليه أشخاص عديدون، يلتمسون النصح، وقد حثّهم جميعاً بملء الإخلاص، على أن يُصوّتوا بشكل إيجابي. ولم يكن دون فابريتسيو في الواقع يتصوّر كيف يمكن أن لا يكون الأمر كذلك، سواء أمام الأمر الواقع، أم تجاه العَلَنية المسرحية الأمر الذي وقع، وهكذا نزل عند الضرورة التاريخية. وعند تقدير ما يمكن أن يتعرّض له أولئك الأشخاص المساكين من ويلات إذا ما اكتشف مسلكهم السلبي. غير أنه لاحظ أن الكثيرين لم يقتنعوا بكلامه. لقد لعبت في أذهانهم الماكيافيللية الصِّقليّة التي طالما أعزت هؤلاء الناس - الكرماء دون شكّ - بإقامة أبنية معقّدة على أسس واهية. وكما يفعل الأطبّاء القديرون الذين على الرغم من براعتهم الفائقة يثقون بتحليلات خاطئة

للدم والبول ويتهاونون في تصحيحها، كذلك الصقليون (آنذاك) ينتهون إلى قَتْل المريض، أي قَتْل أنفسهم، نتيجة لمكرهم البارع جداً الذي لم يكن يقوم قطّ على إدراك واعٍ للأمور، أو على الأقلّ، لكلام مَنْ يخاطبونهم. فلقد كان البعض ممّنْ حجّوا إلى (رحاب الأسرة الفهدية) يعدّون من المستحيل أن يُصوِّت أمير من سالينا إلى جانب الثورة - هكذا كانت تُصوِّر التّبدّلات الجديدة في تلك البلدة النائية - ولذلك يفسّرون منطقه وحججه بأنها سخرية، يُقصد بها الحصول على نتيجة عملية عكس ما يقترحه بكلامه. وقد خرج هؤلاء الحجّاج - وهم القسم الأفضل - من مكتبه خافضي الأبصار بأقصى ما يستطيعون من احترام وتهيّب، فخورين بأنهم قد نفذوا إلى أعمق معاني الكلمات الأميرية، وهم يفركون أيديهم مهنّئين أنفسهم بهذه الفطنة البارعة، في اللحظة عينها التي كانت فيها هذه الفطنة يعروها الكسوف. وهناك آخرون كانوا بعد أن يستمعوا إليه، يبتعدون عنه متألمين، ومقتنعين بأنه إمّا آبقٌ، وإمّا معتوه، ومصمّمين أكثر من أيّ وقت مضى على أن لا يأبهوا لقوله، بل يطيعوا بدلاً منه المَثَلَ القديمَ جداً الذي يدعو إلى تفضيل الشّرّ المألوف على الخير الذي لم يجرّبوه. هؤلاء كانوا يقاومون تبرير الحقيقة القومية الجديدة حتّى لأسباب شخصية: إمّا عن تديّن، وإمّا وفاء لما للعهد السابق من فضل عليهم، وإمّا لأنهم لم يستطيعوا أن يندمجوا بوعي كاف في العهد الجديد، وإمّا أخيراً لأنهم في أثناء بلبلة التحرير فقدوا بعض الديوك، أو كمّيّات من الفول، ونبتت لهم بدلاً منها أزواج من القرون، إمّا تطوّعاً حُرّاً كالكتائب الغاريبالدية، وإمّا تجنيداً إجبارياً كالجيوش البربونية. والخلاصة أن هناك نحواً من خمسة عشر شخصاً كان لديهم انطباع أليم بأنهم صوّتوا بـ(لا)، وهم أقلّيّة ضئيلة دون شكّ، غير أنها لا بأس بها في منطقة دونا فوغاتا الانتخابية الصغيرة. ثمّ لا بد من اعتبار أن الأشخاص

الذين جاؤوا إليه كانوا يمثّلون النخبة المختارة من البلدة، وأنه لابد أن يكون بين المئات من المصوِّتين الذين لم يحلموا قطّ بالظهور في القصر أشخاص آخرون غير مقتنعين. لقد حسب الأمير أن من بين المجموعة المؤيّدة في دونا فوغاتا سيشذّ نحو أربعين صوتاً مناهضاً.

كان يوم الاستفتاء عاصفاً غائماً، وفي طُرُقات البلدة كانت جماعات صغيرة من الشّبّان يتجوّلون متعبين، ومعهم أوراق صغيرة، تحمل الكثير من "نعم" مشدودة إلى شرائط قبّعاتهم. وكانوا في وسط الأوراق، والنفايات التي تتلاعب بها دوّامات الرياح، يغنّون مقاطع من "يا جوجين الحلوة" بلحن أشبه بالتناويح العربية، وهذا هو النصيب الذي يجب أن تقنع به كل أنشودة مرحّبة، يُراد لها الغناء في صِقِلية. وقد ظهر أيضاً "وجهان أو ثلاثة وجوه غريبة (أعني من جيرجنتي) في حانة (العمّ مينيكو)، حيث كانوا يتغنّون "بالحظوظ العظيمة التّقدّمية" الصِّقِليّة متجدّدة ومتّحدة مع إيطاليا المنبعثة. وكان بعض الفلاحين يقفون صامتين يستمعون إليهم، بمظاهرهم المتوحّشة التي لا تختلف بين واحد وآخر لإفراطهم في استخدام "الفؤوس الضخمة"، ولكثرة أيّام البطالة القسرية والمقرونة بالجوع. كانوا يسخرون ويبصقون في الغالب، ولكنهم لا يتكلّمون. وظلوا صامتين حتّى قرّر ذوو "الوجوه الغريبة" عند ذاك - كما قال دون فابريتسيو فيما بعد - أن يقدّموا فيما يتعلّق بالفنون الجميلة علم الحساب على سِحْر البيان.

في نحو الساعة الرابعة بعد الظهر، كان الأمير قد ذهب ليدلي بصوته، وإلى يمينه الأب بيرّونه، وإلى يساره دون أونوفريو روتولو، وكان هو يتقدّمهما مقطب الجبين، بطيء الخطى، نحو البلدية، وكثيراً ما كان يرفع يده ليقي

عينَيْه من ذلك الهواء المحمَّل بجميع القاذورات التي يجمعها من الطريق، لئلا يُسبّب له التهابات العينَيْن التي كان عرضة لها. وكان يقول للأب بيرّونه إن الهواء من غير رياح قد يكون مستنقعاً عفناً، ولكن الرياح المنعشة أيضاً كانت تجرّ معها كثيراً من الأقذار. كان يرتدي الردنغوت الأسود عينه الذي كان يرتديه قبل عامَيْن حينما ذهب إلى كازيرتا ليُقدّم الولاء والتحية لذلك الملك المسكين فرديناندو، الذي شاء له حسن الحظّ أن يموت في الوقت المناسب، لئلا يكون موجوداً في هذا اليوم العاصف، الذي تجلده الرياح القذرة، والذي مُهرت فيه غباوته. ولكنْ، هل كان في الأمر غباوة حقيقية؟ إنه إذنْ، ليصحّ القول إن الذي يُصاب بالتيفوس يموت بسبب غبائه. تذكّر ذلك الملك وهو مكبّ على وضع القواطع حول فيض الأوراق التي لا نفع منها. وبسرعة تذكّر كم كان يبدو في ذلك الوجه اللدود من عدم الاستجابة لعوامل الرأفة. وكانت هذه الخواطر مزعجة كجميع الأفكار التي تجعلنا ندرك الأشياء متأخّرين؛ وبدا الأمير أسود اللون، جادّ المظهر، كأنما هو يسير خلف عربة جنازة خفيّة، ولم يكن ينمّ عن آلامه الداخلية غير العنف الذي تتطاير به الحصى من الطريق أمام اندفاع قَدَمَيْه الغاضبتَيْن. ومن نافلة القول أن نذكر أن شريط قبّعته كان خالياً من أيّة رقعة مكتوبة، غير أن الذين يعرفونه كانوا واثقين من أنهم يرون "نعم" و"لا" تتعاقبان على صفحة لبّادها الناصعة.

وحينما وصل إلى قاعة البلدية التي يجري فيها التصويت، أدهشه أن جميع القائمين على الاستفتاء قد نهضوا عندما ملأت قامته الباب بأكمله، ونُحّي جانباً بعض القرويين الذين كانوا قد وصلوا قبلاً، وهكذا، دون أن يضطرّ إلى الانتظار، سلّم دون فابريتسيو صوته به "نعم" إلى يد دون كالوجيرو وسيدارا الوطنية. أما الأب بيرّونه، فلم يدل بأيّ صوت، فقد

كان حريصاً على أن لا يسجّل بين المقيمين في البلدة. وأما دون أوتوفريو، فإنه خضوعاً للرغبة التي عبّر له عنها الأمير قد أعلن رأيه ذا المقطع الواحد حول القضية الإيطالية المعقّدة؛ وكان هذا عملاً في الذروة من الدّقّة، قام به بالبراءة نفسها التي يشرب بها أيّ طفل شربة زيت الخروع. وبعد ذلك، دُعي الجميع إلى فوق لأجل "تناوُل كأس" في مكتب رئيس البلدية؛ غير أن الأب بيرّونه ودون أونوفريو اعتذرا عن ذلك: أحدهما بامتناعه عن الشراب، والثاني بألم في بطنه، وبقيا في القاعة تحت، واضطرّ دون فابريتسيو إلى تناوُل الشراب وحده.

خلف طاولة رئيس البلدية كانت تتوهّج صورة لغاريبالدي، وأخرى لفيكتور عمانوئيل موضوعة، لحسن الحظّ، إلى اليمين؛ الأوّل رجل جميل الشكل، والثاني دميم جدّاً، بيد أنهما مع ذلك متآخيان في غزارة شَعْرهما العجيبة التي تكاد تجعلهما يبدوان في مظهر تنكّري. وعلى طاولة صغيرة منخفضة صحن فيه أقراص بسكوت قديمة جدّاً، تقيم عليها جماعات من الذباب مناحاتها، واثنا عشر كأساً صغيرة بشعة مملوءة بشراب العنبري: أربع منها شرابها أحمر اللون، وأربع شرابها أخضر، والأربع الباقية شرابها أبيض وموضوعة في الوسط، رمزاً بدهياً صادقاً إلى الراية الجديدة، ممّا جعل الأمير يبتسم. واختار لنفسه الشراب الأبيض، لأنه ربّما كان أقلّه عسراً للهضم، وليس كما أراد البعض أن يفسّر ذلك بأنه كان تحية أخيرة للراية البربونية. وكان الشراب على اختلاف ألوانه متساوياً في وفرة سُكَّره، وفي أنه لزج وكريه المذاق. وقد فعلوا حسناً في أنهم لم يتبادلوا الأنخاب. والأفراح الكبرى، كما قال دون كالوجيرو، تكون صامتة على كل حال. وأُطْلِعَ دون فابريتسيو على رسالة من سلطات جيرجنتي، تُنبئ بمنح سكّان دونا فوغاتا النشيطين هبة مالية، مقدارها ألفا ليرة لعمل المجاري؛ وهو عمل

قد ينتهي خلال عام ١٩٦١(*)، كما أكّد ذلك رئيس البلدية متعثّراً بإحدى الزلات التي اضطرّ فرويد إلى شرح حركتها العفوية بعد عشرات السنين. ثمّ انفضّ الاجتماع.

وقبل غروب الشمس، ظهرت في الساحة العامّة العواهر الثلاث أو الأربع الموجودات في دونا فوغاتا (حتّى هناك كانت توجد بائعات هوى، ولم يكنّ متجمّعات، بل كان كل منهنّ تعمل في بيت خاصّ) وكانت ضفائرهنّ مزدانة بشرائط مثلّثة الألوان، وقد جئنَ ليُعلِنَّ احتجاجهنّ على استثناء المرأة من حقّ التصويت؛ غير أن المسكينات لم يفزنَ بغير السخرية حتّى من أكثر التّحرّريّيْن حماسة، فاضطررنَ إلى الاختفاء. ولكن هذا لم يمنع من أن تعلن (جريدة ترِيناكريا) لأهل باليرمو بعد أربعة أيّام أن "بعض كرام الممثّلات للجنس الجميل في دونا فوغاتا قد شئنَ أن يعبّرنَ عن إيمانهنّ الراسخ بهذا المصير الجديد الباهر للوطن الحبيب، ثمّ تفرّقنَ في الساحة بين التأييد العامّ من الشعب المخلص في وطنيّته".

ثمّ أُغلقت الجلسة الانتخابية، وانصرف الفارزون والمدقّقون إلى عملهم؛ وعندما حلّ الليل، أشرعت أبواب الشرفة الوسطى في البلدية، وظهر دون كالوجيرو يلفّ وسطه بالعَلَم المثلّث الألوان، وعلى جانبَيْه، خادمان، يحملان شمعَتَيْن مضاءَتَيْن في شمعدانَيْن، لم تلبث الريح أن أطفأتها حالاً؛ وأعلن للجمهور غير المنظور في قلب الظلام أن الاستفتاء في دونا فوغاتا قد أسفر عن النتيجة التالية:

(المسجّلون: ٥١٥؛ الأصوات: ٥١٢؛ ٥١٢ (نعم) – صفر (لا).

---

*) يلاحظ القارئ ما في تحديد هذا التاريخ (١٩٦١) من السخرية، إذ يعني أن العمل يحتاج إلى أكثر من مئة سنة لإنجازه! كما أن في المبلغ المقدّم سخرية أخرى، لأنه ضئيل جداً بالنسبة إلى العمل المراد إجراؤه. (المترجم).

ومن قلب الظلام المخيّم على الساحة، تعالى التصفيق والهتاف. وكانت أنجيليكا تطلّ من شرفة منزلها، ومعها خادمتها ذات المظهر الجنائزي، وتصفّق بيَدَيْها الجريئَتَيْن. وأُلقي عدد من الخطب؛ وفي كل خطاب، كانت النعوت في (صيغة التفضيل)، وكذلك الحروف الصحيحة المزدوجة الدّالّة على أعلى صيغ التفضيل(*) تتردّد في الظلام بين جدران المنازل. وتعالى إطلاق الرصاص كدويّ الرعد، تحيّة يبعث بها المجتمعون إلى الملك (الملك الجديد) وإلى الجنرال. وانطلقت بعض الرايات المثلّثة الألوان من قلب القرية، تتسلّق على أكتاف الظلام نحو السماء التي لا نجوم فيها. وفي الساعة الثامنة، انتهى كل شيء، ولم يبقَ غير الظلام، كما هي الحال دائماً في كل مساء.

***

كان كل شيء صافياً على قمّة (جبل موركو)، والنور ساطعاً كبيراً؛ غير أن ظلمة تلك الليلة العميقة ظلّت تقبض نَفَس دون فابريتسيو بشدّة. وكان قلقه يتّخذ صوراً تزداد ألماً بمقدار ما تزداد إبهاماً وغموضاً. لم يكن بأية حال قادراً على معرفة مصدر المسائل الخطيرة التي وضع الاستفتاء حلاً لها: إن المصالح الكبرى للمملكة (مملكة الصقليَّتَيْن)، ومصالح طبقته الخاصّة، ومصالحه هو الشخصية تخرج من جميع تلك الأحداث مدوسة مهشّمة، ولكنها ما تزال حيوية. وبحكم الظروف الراهنة لم يكن يجوز أن يطلب أكثر من ذلك: لم يكن الغَمّ ناجماً عن أمور سياسية، ولا بد من أن تكون له جذور أشدّ عمقاً، متأصّلة في أحد الأسباب التي ندعوها غير

*) هذا في اللغة الإيطالية التي تختلف فيها صيغ التفضيل كل الاختلاف عنها في العربية مثلاً، أو في الإنكليزية. فكلمة (amatissimo) الإيطالية يقابلها بالعربية (محبوبٌ كلّ الحبّ). وهكذا. (المترجم).

معقولة، لأنها مدفونة تحت أكداس من جهلنا لأنفسنا. لقد وُلدت إيطاليا في دونا فوغاتا في ذلك المساء العابس، وُلدت هناك بالذات، في تلك البلدة المَنسية، تماماً مثلما وُلدت في خمول باليرمو، وفي هياج نابولي؛ غير أن جنّيّة شرّيرة لا يُعرف اسمها كانت حاضرة هناك، ولكنها وُلدت على كل حال، وكان يجب أن يُرجَى لها أن تعيش على هذه الصورة لأن أيّة صورة أخرى كان من الممكن أن تكون أسوأ من هذه. لا خلاف في هذا. ومع ذلك، فإن هذا الاطمئنان الثابت كان يعني شيئاً؛ لقد كان يشعر بأن شيئاً، أو أحداً، قد مات خلال إعلان الأرقام الشديد الجفاف، وكذلك في أثناء إلقاء تلك الخطب الكثيرة الإطناب، والله وحده يعلم في أيّة جهة من البلدة قد مات، أو في أيّة طيّة من طوايا الضمير الشعبي.

وكانت البرودة قد بدّدت النعاس من عينَي دون شيشيو، وباعدت مخاوفه هيبة الأمير ذي الجثّة الضخمة، ولم يبقَ طافياً على وجه ضميره إلا الغيظ، وهو غير مجد طبعاً، ولكنه لا دناءة فيه. وكان واقفاً يتكلّم بلهجته العامّيّة، مع حركات وإشارات من يَدَيْه، كأنه أراجوز مسكين، تثير براءة حجّته الضحك، ويقول:

"لا، أنا، يا صاحب السعادة، صُوِّتُ بـ"لا"؛ مئة مرّة "لا". إنني أعرف ما قلتُمُوه لي: الضرورة، الوحدة، المناسبة. أنتم على حقّ في أنني لا أفهم شيئاً في السياسة، بل أترك تلك الأمور للآخرين؛ غير أن شيشيو تومي إنسان شهم رغم الفقر والبؤس، ورغم البنطال المتهرّئ (ثمّ يضرب على ردفَيْه في مكان الرقع الدقيقة في بنطلون الصيد الذي يرتديه). ويتابع قائلاً: "إنه لم ينسَ الإحسان الذي تلقّاه؛ وأولئك الخنازير في البلدية يزدردون رأيي، ويلوكونه ثمّ يقذفونه غائطاً بالشكل الذي يريدونه هم. أنا

قلتُ (أسود)، وهم يجعلونني قلتُ (أبيض)! في المرّة الوحيدة التي كنتُ أستطيع أن أقول فيها ما يدور في خلدي، يُلغيني مصّاص الدماء المَدعوّ سيدارا، ويعمل كأن لم يكن قطّ موجوداً، أو كأنني لا شيء، وغير ذلك صلة بأحد، أنا فرانشيسكو توميو لامانا، ابن ليوناردو، عازف الأرغن في كنيسة دونا فوغاتا الكبرى، سيّده ألف مرّة، والرجل الذي خصّص له معزوفة (ماتزوركا)، ألّفتُها بنفسي حينما وُلدت له تلك الـ..." (ثمّ عضّ أحد أصابعه، لكي يلجم لسانه) بابنته تلك المغناج!"

عند هذا الحدّ هبطت الطمأنينة على دون فابريتسيو، وأحسّ بأنه قد توصّل أخيراً إلى حلّ اللغز: لقد علم الآن مَن الذي اغتيل في دونا فوغاتا، وفي مئات الأماكن الأخرى خلال تلك الليلة الرهيبة ذات الرياح القذرة: إنها مولودة جديدة، اسمها "الأمانة"؛ تلك المخلوقة نفسها التي كان يجب أن تُحاط بكل عناية، والتي كان يمكن أن تصحّح، متى اشتدّ عودها، الكثير ممّا تمّ من أعمال التخريب اللئيمة. إن صوت دون شيشيو السلبي، وخمسين صوتاً مثله في دونا فوغاتا، ومئة ألف "لا" في المملكة كلها، ما كان يمكن أن تُغيِّر شيئاً من النتيجة، بل لعلّها ما كانت إلا لتُعطيها أهمّيّة أكبر، وتقف حائلاً دون ما أصاب بعض النفوس من نفور من جرّاء تزوير إرادتها. قبل ستّة أشهر، كان المرء يسمع صوتاً جائراً متوعّداً: "افعلْ ما أقوله لكَ، وإلا حاق بكَ الويل"، والآن أصبح المرء يعتقد بأن الوعيد قد استعيض عنه بكلام ليّن من المرابي، إذ يقول: "ولكنكَ أنتَ نفسكَ وقعتَ، ألا ترى ذلك؟ إنه لأمر واضح جدّاً؛ وعليكَ أن تفعل ما نقول لكَ، لأنكَ ترى الكمبيالة: إن إرادتكَ لهي مساوية لإرادتي".

كان دون شيشيو ما يزال يصرخ مرعداً: "أما أنتم السادة، فالأمر معكم

مختلف. قد يكون المرء غير شاكر، إذا ما حصل على حقل أو إقطاع زيادة عمّا عنده، أما لأجل كسرة من الخبز، فالعرفان فرض واجب. إن أمثال سيدارا من التّجّار يرون في الاستغلال قانوناً طبيعياً، أما نحن العامّة المساكين، فتظل الأمور لدينا على حالها. أنتم تعلمون، يا صاحب السعادة، أن المرحوم والدي كان حارس أماكن الصيد في القصر المَلَكي الريفي في سان أونوفريو، في عهد فرديناندو الرابع، حينما كان الإنجليز هنا. كانت الحياة حينذاك قاسية، غير أن اللباس المَلَكي الأخضر، والشّارة الفضّيّة كانا من مظاهر الهيبة والسلطان. ولقد كانت الملكة إيزابيلا الإسبانية، التي كانت حينئذ دوقة كالابريا، هي التي هيّأت لي وسائل الدراسة، وهي التي جعلتني مَنْ أنا الآن: عازف الأرغن في الكنيسة الكبرى، الذي يتشرّف بكرم سعادتكم. وفي أعوام الفاقة العظمى، حينما كانت والدتي تبعث بالتماس إلى البلاط المَلَكي، كانت الهبة المالية تصل محتومة كالموت، لأنهم هناك في نابولي كانوا يحبّوننا، ويعرفون أننا أناس طيّبون، وأفراد من الرعية مخلصون. وحينما كان الملك يجيء إلى هنا، كان يربت على كتف والدي، ويخاطبه بلهجة نابولي العامّيّة قائلاً: "يا دون ليونا؛ أتمنّى لو كان لديّ الكثيرون مثلكم ممّنْ يدعمون العرش، ويناصرونني شخصياً". وكان أن مساعد مدير المنطقة بعدئذ يوزّع النقود الذهبية: إنهم الآن يدعون مكارم أولئك الملوك الحقيقيّينْ "صَدَقات"؛ وهم يقولون هذا، لئلا يقدّموا هم مثلها؛ غير أنها مكافآت عادلة للإخلاص والولاء. واليوم لو نظر أولئك الملوك العادلون والملكات الجميلات من السماء، فما تراهم يقولون؟ أيقولون إن ابن دون ليوناردو توميو قد خاننا؟ من حسن الحظّ أنهم في الفردوس يعرفون الحقيقة. إنني أعرف، يا صاحب السعادة، إنني أعرف؛ أمثالكم أنتم قالوه لي، إن هذه الأمور من جانب الملوك لا تعني شيئاً،

لأنها جزء من مهنتهم. سيكون هذا صحيحاً، بل هو صحيح بالأحرى، غير أن الهبة المالية كانت حقيقية، إنها واقع، وكانت تعيننا على العيش في الشتاء. والآن وقد أصبحت قادراً على ردّ الدَّين ... لا شيء؛ أنتَ لا وجود لكَ"! وقد أصبحت "لائي" "نعم"! لقد كنتُ من قبل فرداً مخلصاً من الرعية، ولكنني الآن أصبحتُ "بربونياً مقرفاً". الآن أصبحوا كلهم أتباعاً لأسرة (سافويا)! لكن هؤلاء الأتباع "السافويّيْن"، أستطيع أن آكلهم مع القهوة!" قال هذا، وأشار بيده كأنه يمسك بسكوتة وَهْمية بين إبهامه وسبّابته، ويغمسها في فنجان، يتخيّله أمامه.

كان دون فابريتسيو يحبّ دون شيشيو، إلا أن ذلك كان شعوراً متولّداً من الرثاء الذي يوحي إلى كل إنسان بأنه في شبابه كان مخلوقاً للفنّ، وأنه في شيخوخته، بعد أن فطن إلى أنه لم يكن يملك الموهبة، يظلّ ماضياً في ممارسة النشاط عينه بدرجات أكثر انخفاضاً وهو يحمل في جيبه أحلامه الذاوية، ويرثي كذلك لوقار فقره وعوزه. غير أنه الآن يشعر أيضاً بنوع من الإعجاب به، وفي صميمه، تماماً في صميم الكبرياء من ضميره، صوت يسأل عمّا إذا لم يكن في سلوك دون شيشيو من معاني العَظَمَة وسلوك السادة أكثر ما في سلوك أمير سالينا. وآل سيدارا، جميع هؤلاء السيداريين، من ذلك القزم الذي يتصرّف بالحساب في دونا فوغاتا بعنف وشراسة، إلى أولئك الكبار في باليرمو، وفي تورينو، ألم يقترفوا جريمة بخنقهم هذه الضمائر؟! لم يكن في وسع دون فابريتسيو أن يعرف ذلك حينئذ، ولكن قسماً كبيراً من التهاون، ومن الرضا بالواقع اللذَيْن كان سكّان الجنوب يُعيِّرون بهما خلال السنوات العشر التالية، كان السبب فيه ذلك التزوير اللئيم لأوّل تعبير عن الحُرّيّة أُتيح لهؤلاء الناس أن يمارسوه.

كان دون شيشيو قد نفَّس عن صدره، وهو الآن يُدخل في شخصيّته الأصيلة النادرة -شخصية "النبيل الصارم" - الشخصية الأخرى التي كثيراً ما يمارسها، والتي لا تقلّ أصالة عن الأولى، وهي الشخصية المعروفة بالإنكليزية باسم (Snob)، فقد كان توميو ينتمي إلى فصيلة "المتعاظمين السلبيّينْ" الحيوانية، وفي فصيلة تُعدّ، ظلماً، حقيرة. ومفهوم أن كلمة (Snob) لم تكن معروفة في صِقِلية عام ١٨٦٠، ولكنْ، كما أن جرثومة السّلّ كانت موجودة قبل "كوخ"(*)، كذلك كان في ذلك العهد البعيد يوجد أناس يعدّون الطاعة، والتقليد، وعلى الأخصّ عدم الإيذاء لمَنْ يعدّونهم أرفع منهم مقاماً في المجتمع، هي الشريعة العليا للحياة. إن الـ(Snob) في الواقع هو نقيض (الحسود)؛ ولهذا كان يظهر بأسماء متعدّدة: فهو يُدعى "مخلصاً- محبّاً - أميناً"، وكان يعيش حياة سعيدة، لأن أقلّ ابتسامة عابرة من أحد العظماء كانت كافية لتغمر بالشمس نهاره كله. ولمّا كان يظهر مشفوعاً بتلك التسميات العاطفية، لذلك كانت الهبات تُغدَقُ عليه أكثر ممّا في هذا الحين.

ولقد خشي دون شيشيو، إذنْ، بما فيه من طبيعة الـ(Snob) الودودة، أن يكون قد أضجر دون فابريتسيو، فراح يبحث بسرعة عن وسيلة، يزيل بها الظلال التي ظنّ أنها بسببه قد تجمّعت على جفن الأمير الأولمبيّ؛ وكانت الوسيلة التي جاءت أدعى من سواها إلى التقدير هي أن يقترح عليه استئناف الصيد. وهكذا كان، وفُوجئت بعض الطيور التاعسة في أثناء إغفاءة الظهر، فسقطت، وسقطت معها أرانب أخرى تحت طلقات الصّيّادين التي كانت في ذلك النهار خاصّة سديدة، وغير راحمة، لأن سالينا وتوميو على السواء كان يطيب لهما أن يقارنا بين دون كالوجيرو

---

*) روبير كوخ، طبيب ألماني (١٨٤٣-١٩١٠) اكتشف مكروب السّلّ. (المترجم).

وسيدارا وتلك الحيوانات البريئة. غير أن الحزم الصغيرة من الريش والجلد التي كانت تلمع في الشمس بفعل الطلقات النارية لم تكن كافية في ذلك اليوم، لتبعث الصفاء في نَفْس الأمير، وكلّما مرّت الساعات، واقترب موعد العودة إلى دونا فوغاتا، ازداد انقباضه لاقتراب الساعة التي سيضطرّ فيها إلى مذلّة الحديث مع رئيس البلدية العامّيّ. ولم يفدْه في شيء أنه أطلق بينه وبين نَفْسه اسم "دون كالوجيرو" على طيرَيْن وأرنب ممّا اصطاده، تشفّياً به. ومع أنه كان مصمّماً على ازدراد الضفدع السّامّ الشديد القَرَف، فقد شعر بحاجته إلى الحصول على معلومات أوسع عن خصمه، أو على الأصحّ، إلى سبر غور الرأي العامّ حول الخطوة التي كان مقبلاً عليها. ولهذا فُوجئ دون شيشيو للمرّة الثانية في ذلك اليوم بسؤال محرج: "أصغِ إليّ، يا دون شيشيو؛ أنتَ تتّصل بأناس كثيرين في البلدة، فما رأي الناس الحقيقي في دون كالوجيرو، في دونا فوغاتا؟"

كان دون شيشيو، في الواقع، يعتقد أنه قد عبّر عن رأيه في رئيس البلدية بوضوح كاف، وهكذا هَمَّ بأن يجيب، غير أنه عاد، فتذكّر الهمسات المبهمة التي كان يسمعها حول حلاوة النظرات التي كان دون تانكريدي يرمق بها أنجيليكا. فداخله غَمّ، لأنه انساق إلى التشهير برئيس الشعب بكلام ستؤذي رائحته أنف الأمير، إذا كان ما يجري صحيحاً. هذا بينما كان في جانب آخر من عقله مسروراً، لأنه لم يقلْ شيئاً إيجابياً ضدّ أنجيليكا؛ وهكذا كان حتّى الألم الخفيف الذي لا يزال يحسّه في سبّابته اليسرى باعثاً على ارتياحه. فقال:

"على كل حال، يا صاحب السعادة، ليس دون كالوجيرو سيدارا أسوأ من كثيرين غيره ممّنْ برزوا في هذه الأيّام الأخيرة". كانت عبارة

التكريم معتدلة إلا أنها كافية لتسمحَ لدون فابريتسيو بأن يستأنف كلامه قائلاً بإصرار: "يهمّني كثيراً، يا دون شيشيو، أن أعرف الحقيقة عن دون كالوجيرو وأسرته".

"الحقيقة، يا صاحب السعادة، هي أن دون كالوجيرو واسع الثراء وواسع النفوذ كذلك، وأنه بخيل (حينما كانت ابنته في الكُلّيّة كان هو وزوجته يأكلان بيضة واحدة مقلية)، غير أنه عند الضرورة يعرف كيف يُنفق المال، ولمّا كان كل فلس يُنفَق لا بد له من أن ينتهي إلى جيب إنسان ما، فالذي حدث أن الكثيرون قد أصبحوا الآن من أتباعه ورجاله، ثمّ إنه إذا صادق أحداً كان صديقاً حقّاً، هذا لا بد من قوله، أما أرضه، فيعطيها بخمسة أضعاف السعر، وعلى الفلاحين أن يشقوا، ليدفعوا له المال، غير أنه منذ شهر، أقرض (باسكوال تريبي) خمسين أوقية من النقود، لأنه كان قد ساعده في زمن الغزوة، وكانت دون فوائد، وهذه أعظم معجزة عُرفت منذ أن أوقفت القدّيسة روزاليا الطاعون في باليرمو. وهو ذكي كالشيطان، وليتكم رأيتُمُوه، يا صاحب السعادة، في نيسان وأيّار الماضيَيْن، فقد كان يذهب ويجيء في المنطقة كلها كالديدبان: في عربة، على حصان، على بغل، على قَدَمَيْه، في المطر والصحو على السواء، وحيثما مرّ تألّفت حلقات سرّيّة، لتمهّد الطريق للقادمين. إنه لعقاب من الله، يا صاحب السعادة، عقاب من الله! ونحن حتّى الآن لم نرَ سوى البداية من مهامّ كالوجيرو، وفي خلال بضعة أشهر سيصبح نائباً في برلمان تورينو، وبعد بضع سنين، حينما تُطرح أملاك الكنيسة للبيع، سيستولي لقاء أربعة قروش على أملاك (ماركا) و(فوندا كيللو)، وسيصبح أعظم ملاك في الولاية. هذا هو دون كالوجيرو، يا صاحب السعادة، الرجل الجديد كما يجب أن يكون، ومع ذلك، فحرام أن يكون كذلك".

وتذكّر دون فابريتسيو حديثه الذي جرى منذ بضعة أشهر مع الأب بيرّونه في المرصد الذي تغمره الشمس. إن ما تنبّأ به اليسوعي حينذاك قد أصبح حقيقة. لكنْ، أمَا كان من حسن التدبير أن يندمج في الحركة الجديدة، وأن يستميلها بعض الشيء، على الأقلّ، لمصلحة أشخاص من طبقته؟

وتضاءل انقباضه من المحادثة الوشيكة مع دون كالوجيرو، وقال: "والأشخاص الآخرون في المنزل، يا دون شيشيو، الأشخاص الآخرون كيف هم حقيقة؟".

"إن زوجة دون كالوجيرو، يا صاحب السعادة، لم يرَها أحد غيري منذ سنين، فهي تخرج فقط لتذهب لحضور القدّاس الأوّل، الذي يقام في الخامسة صباحاً، حين لا يكون هناك أحد. وفي تلك الساعة، لا يكون العزف على الأرغن ضرورياً، غير أنني في إحدى المرّات نهضتُ مبكّراً، لكي أراها. ودخلت السّيّدة (باستيانا) بصحبة الخادمة، وكنتُ مختبئاً خلف كرسيّ الاعتراف، فلم أتمكّن من رؤيتها كثيراً؛ غير أنه في نهاية القدّاس، كان الحَرّ أقوى من المرأة المسكينة، فرفعت ملاءتها السوداء. أُقسم لكَ بشرفي، يا صاحب السعادة، أنها جميلة كالشمس، ولا يمكن أن نلوم دون كالوجيرو – وهو أشبه ما يكون بالصرصور- إذا كان يحرص على إبعادها عن الآخرين. ومع ذلك، فحتّى البيوت ذات الحراسة الصارمة لا بدّ أن تتسرّب منها الأخبار: الخادمات يتكلّمنَ. ويبدو من كلامهنّ أن السّيّدة باستيانا نوع من الحيوان، فهي لا تعرف القراءة، ولا الكتابة، ولا تعرف أرقام الساعة، وتكاد لا تعرف أن تتكلّم: إنها مُهرة رائعة الجمال، شهية وغبية، وهي لا تستطيع حتّى أن تحبّ ابنتها، حلوة للفراش فقط".

وضحك دون شيشيو مسروراً، وهو الذي اعتاد أن يكون قاصر ملكات،

وتابع أمراء، كما كان شديد الحرص على خصاله الساذجة التي كان يعدّها كاملة. لقد اكتشف الطريقة التى يستطيع بها أن ينتقم لنفسه ممّنْ زيّف شخصيته وإرادته. ومضى يتابع كلامه، فقال: "وهي، على كل حال، لا تستطيع أن تكون غير ذلك. أولستُم تعرفون، يا صاحب السعادة، ابنة مَنْ هي السّيّدة باستيانا؟" ثمّ استدار ورفع قامته منتصباً على رؤوس أصابع قَدَمَيْه، وأشار بسبّابته إلى مجموعة صغيرة من الدُّور الهزيلة تبدو كأنها منزلقة عن سفح أحد التلال، ولكنها مسمّرة بجهد كبير حول جرسية تعسة: ضاحية مصلوبة على صليب الشقاء، ثمّ قال دون شيشيو: "إنها ابنة أحد المكارين الذين كنتُم تستخدمونهم للفلاحة، من (رونشي)، اسمه (بيبي جونتا)، وكان قذراً وحشياً، حتّى لقد كان الجميع يدعونه (بيبي غائط)، معذرة، يا صاحب السعادة، عن هذه اللفظة". وفي غبطة راضية، راح يلوي أذنيَ تريزينا على أحد أصابعه، ويقول متابعاً كلامه: "بعد عامَيْن من هرب دون كالوجيرو مع باستيانا وجدوه ميّتاً على الدرب المؤدّية إلى (رامبينتزيري)، وفي ظهره اثنتا عشرة طعنة. إن دون كالوجيرو محظوظ دائماً، فلقد كان ذاك قد أصبح مزعجاً ومتسلّطاً.

كان الكثير من هذه الأمور معروفاً لدى دون فابريتسيو، وقد كان لها وزنها في حسابه؛ أما لقب جدّ أنجيليكا، فلم يكن يعرفه: أنه يفتح منظراً تاريخياً عميقاً يكشف عن أكثر من هاوية أخرى، يظل دون كالوجيرو، إذا قيس بها، أشبه بحوض أزهار في حديقة. وشعر حقيقة بأن الأرض تزول من تحت قَدَمَيْه؛ وكيف استطاع تانكريدي أن يهضمَ هذا أيضاً؟ وهو نفسه: وراح رأسه يحسب أيّ صلة من القرابة، يمكن أن تربط بين أمر سالينا، خال العريس، وجدّ العروس؟ ولكنه لم يجد صلة، فليس هنالك أيّ رابط. أنجيليكا كانت هي أنجيليكا: فتاة كالزهرة، ووردة لم يكن اسم جدّها ليصلح

أكثر من سماد، ليزيد في خصبها. وأخذ يردّد باللاتينية: "لا رائحة لها ... لا تفوح رائحتها"، بل بالأحرى "إن عطر المرأة أبهج ما يفوح في بيت الزوجية".

ثمّ قال: "لقد حدّثتُموني، يا دون شيشيو، عن كل شيء: عن الأمّهات غير المتمدّنات، وعن الجدود "الملوّثين"، ولكنكم لم تحدّثوني عمّا يهمّني، أي عن الآنسة أنجيليكا".

وعلى الرغم من أن سرّ نوايا تانكريدي للزواج كان ما يزال جنيناً إلى ما قبل ساعات قليلة، فقد كان يمكن أن يشيع حتماً لولا أن الحظّ قد أسعفه بأن يختفي وراء شيء آخر. وليس من شكّ في أن زيارات الفتى المتعاقبة لمنزل دون كالوجيرو كانت معروفة، وكذلك ابتساماته المدلّهة، والعديد من علامات الاهتمام التي تكون في المدينة أموراً عادية، لا تثير اهتماماً، ولكنها أصبحت في نظر أهل دونا فوغاتا دلائل شَغَف عظيمة الأهمّيّة. والفضيحة الكبرى كانت الأولى، حين رأى الشيوخ الذين كانوا يستمتعون بدفء الشمس والأولاد الذين كانوا يتشاجرون في الغبار كل شيء، وفهموا كل شيء؛ وردّدوا كل شيء، وحملوا هدية الدّرّاقات العشر كل معاني الفحشاء والدعارة، واستشاروا في أمرها أمهر العرّافات، ورجعوا إلى الكُتُب التي تكشف الأسرار، ومنها كتاب روتيليو بيننكازا (الذي كان بمثابة أرسطو لعامّة الفلّاحين). ولحسن الحظّ، كان ذلك ظاهرة طبيعية مألوفة لدينا نسبياً: فرغبة الشّرّ طَمَسَتْ الحقيقة، وقامت في أذهان الجميع صورة (تانكريدي داعر) يشتهي أنجيليكا، ويسعى لإغوائها، ولا شيء غير هذا، أما التفكير البسيط في التهيئة لعرس بين أمير من أسرة فالكونيري، وحفيدة (بيبي غائط)، فلم يخطر في بال أحد من أولئك القرويّيْن الذين كانوا بذلك يُجلّون الإقطاعيين إجلالاً أشبه بتجديف الكافر على خالقه. ثمّ

وضع سفر تانكريدي نهاية لتلك الأوهام، فلم يعد أحد يتحدّث عنها. وفي هذا الاعتبار، لم يكن توميو يختلف عن الآخرين، ولذلك تلقّى سؤال الأمير بروح التسلية التي يتصرّف بها المتقدّمون في السّنّ حينما يتحدّثون عن شقاوات الشّبّان وعَبَثهم، فقال:

"ليس لديّ ما أقوله عن الآنسة، يا صاحب السعادة، إنها تتكلّم عن نفسها: فعيناها، وبشرتها، وعَظَمَتها، كلها أشياء واضحة تجعل الجميع يفهمونها، وأعتقد أن اللغة التي تتكلّم بها كل هذه الأشياء قد فهمها دون تانكريدي، أم تراني بلغت حدّ الوقاحة والسفاهة في هذا التفكير؟ إن لديها كل جمال أمّها، دون رائحة جدّها الكريهة، وهي ذكية كذلك! أرأيتُم كيف كانت هذه السنوات القليلة في فلورنسا كافية لتحويلها إلى إنسان جديد؟ لقد أصبحت سيّدة حقيقية". ومضى يقول دون أن يشعر بمرامي كلامه: "سيّدة كاملة. حينما عادت من الكُلّيّة استدعتْني إلى منزلها، وعزفت لي معزوفتي (الماتزوركا) القديمة: كان عزفها سيّئاً، غير أن رؤيتها كانت لذّة، بتلك الضفائر السوداء، وتينك العينَيْن، وتينك الساقَيْن، وذلك الصدر ... أوووه! خسئت الرائحة الكريهة! إن شراشف سريرها لا بد أن يكون لها عبير الجنّة!"

فتضايق الأمير: لقد بلغ من كبريائه الطَّبَقية – على الرغم من تبدّل أوضاع الطبقات الاجتماعية – أن شعر بالإهانة لذلك الثناء المفرط على سفاهة قريبته المقبلة. كيف يجرؤ دون شيشيو على التعبير بمثل هذا الشَبَق التّهكّمي نحو أميرة مقبلة من أسرة فالكونيري؟ ولكن الحقيقة أن المسكين لم يكن يعلم شيئاً، وكان يجب أن يُقال له كل شيء. وعلى كل حال، سيشيع النبأ بعد ثلاث ساعات. كذلك حزم الأمير أمره حالاً،

وابتسم لتوميو ابتسامة فهدية، ولكنها ودّية، وقال: "هدِّئوا من روعكم، يا دون شيشيو، هدِّئوا من روعكم، إن لديّ في البيت رسالة من ابن أختي، يكلّفني فيها أن أطلب له يد الآنسة أنجيليكا، ومن الآن فصاعداً ستتحدّثون عنها بما اعتدتُموه من التّكرّم والاحترام. إنكم أوّل مَنْ يعرف النبأ، ولكنكم ستدفعون ثمن هذا الامتياز، فعندما تعود إلى القصر، ستُحبسون وراء باب مغلق بالمفتاح ومعكم الكلبة تريزينا في غرفة البنادق، وسيكون لديكَ وقت كاف لتنظيفها وتزييتها كلها، وسيطلق سراحكَ فقط بعد أن تنتهي زيارة دون كالوجيرو، فلستُ أريد أن يتسرّب شيء قبل ذلك".

أمام هذه المفاجأة، تهاوت دفعة واحدة مئات الاحتياطات، ومئات المظاهر من عَظَمَة دون شيشيو الجوفاء، كأنها كومة (القلول)(*). ولم يبقَ غير إحساس قديم جدّاً.

- "هذه قذارة، يا صاحب السعادة! إن ابن أختكَ ما كان له أن يقترن بابنة أولئك الذين كانوا أعداءكم، وكانوا دائماً يحاولون الإيقاع بكم. أن يحاول إغواءها، كما كنتُ أظنّ، أمر فيه كسب وامتلاك، أما هكذا، فإن الأمر يعني الاستسلام دون شرط. إنها نهاية آل فالكونيري، وآل سالينا كذلك".

قال ذلك، وأحنى رأسه كئيباً وهو يودّ لو تنفتح الأرض تحت قَدَمَيْه. وكان الأمير قد تحوّل إلى مثل لون الأرجوان، حتّى أذناه، وكذلك حَدَقَتَا عينَيْه كانتا حمراوان كالدم. فشدّ قبضَتَيْه، وتقدّم نحو دون شيشيو. ولكنه كان رجل علْم، معتاداً، مهما يكن الأمر، على أن يرى النافع والضّارّ، وعدا ذلك، كان يخفي تحت مظهره الأسدي روح متشكّك. لقد احتمل الكثير

---

*) من لعب الأطفال، وهي كريّات صغيرة من الزجاج أو الفخّار. (المترجم).

في ذلك اليوم: نتيجة الاستفتاء الشعبي، ولقب جدّ أنجيليكا، والطعنات! وتوميو كان على حقّ، والتقاليد الخالصة هي التي تنطبق بلسانه، ولكنه، مع ذلك، كان غبياً، فلن يكون هذا الزواج نهاية لأي شيء، بل بداية لكل شيء. لقد كان يرى نفسه ضمن حدود أفضل التقاليد.

وعادت القبضتان تنفتحان، وبقيت آثار الأظافر ظاهرة في الراحَتَيْن، وقال: "لنعد إلى البيت، يا دون شيشيو، هناك أمور لا تستطيعون أن تُدركوها. نحن متّفقان كما قلنا من قبل، مفهوم؟"

وحينما راحا يهبطان التّلّ إلى الطُّرُق، كان من العسير معرفة مَنْ كان منهما (دون كيشوت)، ومَنْ كان (سانشو).

***

في الساعة الرابعة والنصف تماماً، أُعلن عن وصول دون كالوجيرو في اللحظة المحدّدة بالضبط، ولم يكن الأمير قد انتهى بعد من تزيّنه، فقال للخادم أن يرجو السّيّد رئيس البلدية أن ينتظره قليلاً في مكتبه، ومضى في تزيّنه على مهل، ودهن شَعْره بالدِّهن الإنكليزي (Line-juice) من مستحضرات (اتكنسون)، وهو محلول كثيف أبيض اللون، كان يأتيه في صناديق من لندن، واسمه يعاني من التشويه ما تعانيه الأغاني الوثنية. ورفض أن يرتدي الردنغوت الأسود، واستعاض عنه ببدلة خفيفة جدّاً لَيْلَكِيّة اللون، كانت تبدو له أكثر ملاءمة من سواها لمناسبةٍ، من المُفترَض أنّها بهيجة. توقّف قليلاً، لينزع بالملقط شَعْرة شقراء وقحة، بقيت سليمة في الصباح من أثر الحلاقة العجلى. واستدعى الأب بيرّونه. قبل أن يخرج من الغرفة تناول عن طاولة هناك كرّاسة مُنتزَعَة من (Blatter der Himmelsforschung) وملفوفة

كالأسطوانة، ورسم بها إشارة الصليب، وهذه علامةُ وَرَعٍ، لها في صِقِلية معنى غير دِيني مألوف أكثر ممّا يُظنّ.

وبينما كان يجتاز الغرفَتَيْن اللتَيْن تسبقان الوصول إلى المكتب طاف في وَهْمه أنه فهد جبّار، ناعم الشعر معطّره، يتأهّب لافتراس ثعلب جبان. ولكنه في إحدى اللحظات اللاواعية التي تتآلف فيها الأفكار التي يتعذّب بها مَنْ كان لهم مثل طبيعته، مرَّتْ في ذاكرته صورة إحدى اللوحات التاريخية الفرنسية التي يصطفّ فيها مارشالات وجنرالات نمساويون محمَّلون بالأوسمة والنياشين والريش، مستسلمين في خضوع أمام نابوليون الذي يبدو فيها مثيراً للسخرية: إنهم لأكثر منه أناقة، دون ريب، غير أن الظافر المنتصر هو الرجل القميء ذو المعطف الرمادي. وفي تلك الحالة من الشعور بالمهانة التى ابتعثتْها ذكريات (مانتوفا) و(أولما) التي جاءت في غير أوانها، كان عند دخوله إلى المكتب كالفهد الغاضب.

كان دون كالوجيرو واقفاً هناك في انتظاره، ضئيلاً، قميء الجسم، لم يُحسن حلاقة وجهه: إنه ليبدو حقّاً كالثعلب الصغير، لولا ما يشعّ من عينَيْه من بريق الذكاء. ولكن ذكاءه كان يرمي إلى هدف ماديّ عكس الهدف المُجرّد الذي يرمي إليه ذكاء الأمير، وقد بدا ذلك منه دليلاً على روح شرّيرة. ولمّا لم يكن قد خطر له ما فكّر فيه الأمير من معنى ملاءمة اللباس للمناسبة، فقد ظنّ رئيس البلدية أن يُحسِنَ صنعاً إذا ما كان لباسه في مثل سواد ملابس الحزن، ولهذا بدا في سواد ثيابه شبيهاً بالأب بيرّونه تقريباً. ولكنْ، حينما جلس الكاهن في زاوية، متّخذاً المظهر الرخامي المُجرّد الذي يظهر به الكَهَنَة حين لا يريدون أن يتدخّلوا في قرارات الآخرين أن يُثقلوا عليها، كان وجهه يعبّر عن تلهُّف نهم، يبعث على الإشفاق. وبدأت حالاً

مناوشات الألفاظ غير المهمّة التي تسبق عادة المعارك الكلامية الكبرى، وكان دون كالوجيرو هو الذي رسم خطّة الهجوم الكبير، إذ قال:

"هل تلقّى صاحب السعادة أخباراً سارّة من دون تانكريدي؟". وكانت العادة حينذاك في البلدان الصغيرة أن يقوم رئيس البلدية بمراقبة البريد بشكل غير رسمي، ويبدو أن أناقة الورقة تثير اهتمامه. وحين خطر هذا للأمير أخذ يثور غضبه، فقال:

"كلا، يا دون كالوجيرو، كلا، فقد أصبح ابن أختي مجنوناً...".

ولكنّ هناك ربّاً يحمي الأمراء، وهذا الرّبّ يُدعى "السجايا الطّيّبة"، وكثيراً ما يتدخّل ليُنقذ "الفهود" من الخطى العاثرة إلا أنه لا بد من دفع جزية كبيرة له. وكما يتدخّل (بالاد) لكبح جماح شهوات (أوديسيوس)، كذلك ظهرت سجايا دون فابريتسيو الطّيّبة لتُوقِفه عند حافّة الهاوية، وكان على الأمير أن يدفع ثمن نجاته بأن يصبح واضحاً مرّة واحدة في حياته. ومن دون تلكّؤ، وبشكل طبيعي جدّاً، أكمل عبارته قائلاً: "... مجنوناً بحبّ ابنتكم، يا دون كالوجيرو. وقد كتب إليّ بذلك أمس". فظلّ رئيس البلدية محافظاً على هدوئه المذهل. وابتسم ابتسامة، تكاد لا تظهر، وراح يفحص شريط قبّعته. وكانت عينا الأب بيرّونه على السقف، كأنه معلّم بناء مكلّف بفَحص متانته. وساء شعور الأمير، لأن صمت الرئيس والكاهن معاً قد سلبه حتّى التعزية التافهة في أن يكون قد أدهش المستمعين. ثمّ عاوده شعور بالارتياح، إذ رأى دون كالوجيرو يهمّ بالكلام، ثمّ يقول:

"لقد كنتُ أعرف هذا، يا صاحب السعادة، كنتُ أعرفه. لقد شوهدا يتعانقان يوم الثلاثاء ٢٥ أيلول، في الليلة التي سبقت سفر دون تانكريدي،

وكان ذلك في حديقتكم بجانب النبع. إن سياج الغار ليس مُحكماً كما يُظنّ؛ ولقد انتظرتُ شهراً أن يقوم ابن أختكم بهذه الخطوة، وكنتُ الآن أفكّر في أن أجيء لأسأل سعادتكم عمّا ينوي أن يفعله".

شعر دون فابريتسيو بأنّ زنابير عديدة تهاجمه، وتنهال عليه لسعاً، وأوّلها الغيرة الجسدية، كما يحدث عادة لكلّ رجل، لم يبلغ بعد سنّ الشيخوخة، ذلك لأن تانكريدي قد ذاق طعم الفراولة والقشطة اللذَيْن لا يزال هو يجهل طَعْمَهُما؛ ثمّ شعور بالصفة الاجتماعية، لأنه وجد نفسه متّهماً بدلاً من أن يكون بشير أنباء سارّة؛ والثالث، وهو احتقار شخصي، هو شعور من يتوهّم أنه يراقب الجميع، ثمّ لا يلبث أن يجد أن أموراً كثيرة تجري دون علْمه. فقال: "لا نتبادل الأوراق على الطاولة، يا دون كالوجيرو؛ تذكّروا أنني أنا الذي استدعاكم، وكنتُ أريد أن أبلغكم رسالة من ابن أختي وصلت أمس، وفيها يصرّح بحبّه لابنتكم الآنسة أنجيليكا؛ الحبّ الذي لا أزال ..." (وهنا ارتبك الأمير قليلاً، لأن الكذب يصعب في بعض الأحيان أمام عينَيْن نفّاذَتَيْن كعينَي رئيس البلدية). ثمّ تابع كلامه قائلاً: "لا أزال أجهل مدى عمقه وكثافته. وقد ختم الرسالة بأن عهد إليّ بطلب يد الآنسة أنجيليكا".

وظلّ دون كالوجيرو لا يبدو عليه أيّ أثر، بينما تحوّل الأب بيرّونه من خبير أبنية إلى فقيه، فشبك أربعة أصابع من يده اليمنى مع أربعة من يده اليسرى، وراح يدير إبهامَيْه واحداً أمام الآخر، فيتلاحقان أو يتخالفان حسبما تُصوِّر له مخيّلته من فنون الرقص. وطال الصمت، فنفد صبر الأمير، وقال: "والآن، يا دون كالوجيرو، أنا الذي ينتظر أن تبيّنوا له ما في نيّتكم".

كانت عينا رئيس البلدية على قماش مقعد الأمير الأخضر، فغطّاهما

لحظة بيده اليمنى، ثمّ عاد، فرفعهما، فبدتا صافيَتَيْن مملوءَتَيْن بمفاجأة دَهِشة، كأنما بُدِّلتا في تلك اللحظة فقط. وأجاب :

"معذرة، أيّها الأمير" (وأدرك دون فابريتسيو من إغفاله عبارة "صاحب السعادة" إن كل شيء قد تمّ بملء الرضى) "إن جمال المفاجأة قد حبس لساني عن الكلام. ومع ذلك، فأنا والدٌ عصريٌّ، ولن يكون في وسعي أن أعطيكم جواباً قاطعاً إلا بعد أن أسأل الملاك الذي هو تعزية بيتنا، ولو أنني أعرف كيف أمارس حقوق الأب المقدّسة: أنني أعرف كل ما يدور في ذهن أنجيليكا وفي قلبها، وأعتقد أن في وسعي أنْ أقول إن عاطفة دون تانكريدي، التي تُشرِّفنا كثيراً، هي عاطفة متبادلة بملء الإخلاص".

فغمر دون فابريتسيو تأثّر صادق، لقد ابتلع الضفدع السام؛ والرأس والأمعاء الممضوغة تنحدر في زوره، فلم يبقَ دون مضغ سوى السيقان، وهي غير ذات أهمّيّة بالنسبة إلى البقية؛ لقد تمّ القسم الأكبر. وما كاد يستمرئ طعم الخلاص حتّى أخذت عاطفته نحو بانكريدي تشقّ طريقها في نفسه: لقد تمثّلت له العينان الزرقاوان الضّيّقتان تشعّان بالنور وهما تقرآن الجواب السّارّ؛ وتصوّر -أو على الأصح تذكّر- الأشهر الأولى لزواج الحبّ التي تكون فيها النرفزات وبهلوانيات المشاعر ملمّعة ومحوطة بعناية جميع طبقات الملائكة، وحسنة ولو أنها مفاجئة. ثمّ ترامى خياله إلى أبعد من ذلك، فرأى الحياة الواثقة، وإمكانات النّموّ والتّطوّر في مواهب تانكريدي الذي لولا هذا الزواج، لكان نقصُ المال كافياً لقصّ جناحَيْه.

فنهض الرجل النبيل، وتقدّم خطوة نحو دون كالوجيرو الذاهل، فرفعه عن المقعد، وضمّه إلى صدره، وظلّت ساقا الرئيس القصيرتان تتأرجحان في الهواء. وفي تلك الغرفة من الإقليم الصقلّي النائي تمثّلت صورة يابانية

مطبوعة، تظهر فيها شجرة بنفسجية باسقة، تتدمّى من إحدى أوراقها ذبابة كبيرة مغطّاة بالشَّعْر. وحينما لامس دون كالوجيرو الأرض من جديد، قال الأمير في نفسه: "عليّ أن أهدي إليه موسيَي حلاقة إنكليزيَّيْن، فليس من الممكن أن يستمرّ الأمر هكذا".

وقطع الأب بيرّونه دوران إبهامَيْه، فشدّ على يد الأمير، وقال: "إنني أستمطر عناية الله على هذا العرس، يا صاحب السعادة. لقد أصبحت فرحتُكم فرحتي". ثمّ مدّ أطراف أنامله إلى دون كالوجيرو دون أن يفوه بكلمة. ثمّ حرّك بعقدة أحد أصابعه بارومتراً معلّقاً على الجدران، فهبط الزئبق فيه؛ إنه نذير بطقس سيّئ قريب. ثمّ عاد إلى الجلوس، وفتح كتاب الصلاة.

وقال الأمير: "يا دون كالوجيرو، إن حبّ هذَيْن الشّابَّيْن هو أساس كلّ شيء لديهما؛ الأساس الوحيد الذي يمكن أن تقوم عليه سعادة مستقبلهما، وكفى. هذا أمر نعرفه. غير أننا نحن الرجال المتقدّمين في السّنّ، الرجال الذين خبروا الحياة، مضطرّون إلى أن نهتمّ بأمور أخرى. ومن العَبَث أن أحدّثكم عن شهرة أسرة فالكونيري: لقد جاءت إلى صِقِلية مع (كارلو دانجو)، واستطاعت أن تظلّ مزدهرة تحت حكم الأراغونيّيْن، والإسبان، وملوك البربون (إذا كان يجوز لي أن أسمّيهم أمامكم)، وإنني لواثق من أنهم سيستمرّون في الازدهار تحت حكم الأسرة المَلَكية الجديدة القادمة من البرّ الإيطالي (رعاها الله) (ليكن من الممكن معرفة متى يتهكّم الأمير ومتى يخطئ). كانوا أمراء في المملكة، عظماء في إسبانيا، فرساناً في سانتياغو؛ وإذا عاودتْهم عادتهم السّيّئة، فشاؤوا أن يصبحوا فرساناً لمالطا، فليس عليهم إلا أن يرفعوا أحد أصابعهم، فإذا (شارع كوندوتّي) يخبز لهم شهادات الفروسية دون تململ، كما لو كانت تلك

الشهادات أقراصاً صوميّة، هذا على الأقلّ، إلى يومنا هذا، (هذا الإلحاح في التلقين لم يكن ذا فائدة على الإطلاق، فقد كان دون كالوجيرو يجهل جهلاً مطلقاً حتّى (نظام جمعية القدّيس يوحنّا الأورشليمية) - وأنا واثق من أن كريمتكَ ستزيد بجمالها زينة فرع آل فالكونيري القديم، وبفضائلها ستعرف كيف تُباري أولئك القدّيسات الأميرات؛ والأخيرة منهنّ، وهي المرحومة شقيقتي، ستُبارك من السماء هذَيْن الزوجَيْن، بكل تأكيد". وتأثّر دون فابريتسيو من جديد عند ذِكْر شقيقته جوليا العزيزة، التي كانت حياتها المهدورة تضحيات دائمة أمام حماقات والد تانكريدي الهوجاء. "أما الفتى، فأنتم تعرفونه؛ وإن لم تعرفوه، فأنا ههنا أستطيع أن أكفله لكم في كل شيء. إن لديه أطناناً من طيبة النَّفْس، ولستُ وحدي أقول هذا، أليس كذلك، يا بيرّونه؟"

وأُخرج اليسوعي الطّيّب من قراءته، ليجد نفسه فجأة أمام معضلة محيّرة. لقد كان كاهن الاعتراف لتانكريدي، وهو يعرف من هفواته أكثر من واحدة؛ وصحيح أنه ليس فيها أيّ إثم خطير، إلا أنها جديرة على كل حال بأن تُنقِص بضعة قناطير من تلك الكتلة الهائلة من طيبة القلب المقصودة بالحديث. وهي كلها فوق ذلك كفيلة – وهذا هو المقام المناسب للقول - بخيانة زوجية مؤكّدة. ولكنّ هذا ممّا لا يمكن أن يُقال، لأسباب من قدسية سرّ الزواج وكذلك للياقة الدنيوية. ومن جهة أخرى، كان الكاهن يحبّ تانكريدي، وعلى الرغم من أنه لا يحبّذ هذا الزواج في أعماق قلبه، فإنّه ما كان له أن يفوه بكلمة قد تؤدّي، لا نقول إلى منع الزواج، بل إلى عرقلة سيره. وقد وجد المخرج من مأزقه باللجوء إلى الحكمة، فهي من بين الفضائل الرئيسة أكثرها مرونة وطواعية، وأيسرها تصرّفاً، فقال: "إن عنصر الطيبة لدى تانكريدي عظيم، يا دون كالوجيرو، وهو بنعمة الله

ورعايته، وبفضل ما تتحلّى به الآنسة أنجيليكا من فضائل دنيوية، سيكون قادراً على أن يصبح يوماً زوجاً مسيحياً صالحاً". وقد مرّت هذه النبوءة الحذرة المرتَّبة بحكمة وفطنة، بيُسر ونعومة.

واستأنف الأمير كلامه، وهو يمضغ آخر غضاريف الضفدع السام، فقال: "ولكنْ، يا دون كالوجيرو، إذا كان من العَبَث أن أحدّثكَ عن الأمور القديمة في أسرة فالكونيري، فمن سوء الحظّ أن يكون من العَبَث كذلك أن أحدّثكَ عمّا تعرفونه من أن ظروف ابن أختي المالية الحاضرة ليست في مثل عَظَمَة اسمه، فإن والد دون تانكريدي، صهري فرديناندو، لم يكن ذلك الأب الذي يحسب حساب المستقبل، بل كانت مفاخره كسيّد عظيم، مضافة إلى رعونة مديري أعماله، سبباً في إضاعة أملاك ابن أختي العزيز، وقاصري سابقاً: فالأراضي الكبيرة حول (ماتسارا)، وحقل الفستق في (رافانوزا) ومزارع التوت في (أوليفيري)، وقصر باليرمو؛ ذلك كله ذهب هباء، وأنتم تعرفون ذلك، يا دون كالوجيرو".

ودون كالوجيرو يعرف ذلك حقّاً: لقد حدثت حينئذ أعظم هجرة لطيور السنونو ما تزال عالقة في ذاكرته، وما يزال ذِكْرها يُثير الرعب؛ ولكن ذلك لم يكن فيه شيء من الحكمة لجميع أهل الطبقة النبيلة في صِقِلية، بينما كان مصدر لذّة فعلاً لدى جميع آل (سيدارا).

ومضى الأمير يقول: "وفي عهد وصايتي، استطعتُ أن أُنقذ الفيلا وحدها، تلك القريبة من قصري؛ وكان ذلك بعد محاكمات قضائية عديدة، وكذلك بفضل شيء من التضحية التي قدّمتُها بملء الرضى إكراماً لروح شقيقتي القدّيسة جوليا، وعطفاً على ذلك الولد العزيز. إنها فيلا جميلة، فالرسوم التي على السّلّم من ريشة (مارفوليا)، وزخرفة قاعات الاستقبال

من صنع (سيريناريو)؛ غير أنها الآن، في أحسن حالاتها، تكاد لا تصلح لأن تكون غير حظيرة للغنم".

كانت عظام الضفدع الأخيرة، على صغرها، أَمَرَّ مذاقاً ممّا كان متوقّعاً، ولكنها، على كل حال، نزلت في جوفه هي الأخرى. والآن لا بدّ من مضمضة فمه ببعض العبارات السّارّة، والصادقة على كل حال، فقال: "ولكن نتيجة جميع هذه المصائب، يا دون كالوجيرو، وكل هذه الأمور المؤلمة، كانت "تانكريدي". ونحن ندرك هذه الأمور، ولعلّه من المستحيل أن يظفر المرء بولد له مثل مزاياه، من التّميّز، واللطف، والسِّحْر، دون أن يُبدّد نصف دزّينة من الزيجات الضخمة، الأمر هكذا في صِقِلية، على الأقلّ، وهو نوع من قانون الطبيعة، كالشرائع التي تُنظّم الزلازل والجفاف".

ثمّ سكت، إذ دخل أحد الخَدَم يحمل على صينية مصباحَيْن مضاءَيْن. وبينما كان يضعهما في المكان المخصّص لهما، ساد في المكتب صمت مثقل بالكدر مسايرةً للأمير. ثمّ عاد يقول: "إن تانكريدي ليس غلاماً كالآخرين، يا دون كالوجيرو". ثمّ استأنف كلامه: "إنه ليس مُتحليّاً بأخلاق السادة وأنيقاً فحسب، صحيح أنه لم يتلقّ من العلْم إلا القليل، ولكنه يعرف كل ما يجب معرفته؛ فهو يعرف الرجال، والنساء، والمناسبات، ولون الزمن. إنه طموح، وهو على حقّ في أن يكون كذلك. وسيذهب بعيداً، وستكون ابنتكَ، يا دون كالوجيرو، سعيدة الحظّ إذا ما شاءت أن تصعد الطريق إلى جانبه. ثمّ إن مَنْ يكون مع تانكريدي قد يغضب أحياناً، ولكنه لن يعرف السأم أبداً، وهذا شيء كثير".

قد يكون من المبالغ فيه أن نقول إن رئيس البلدية يحبّذ ما في هذا القسم من خطاب الأمير من تبجّح ومباهاة، فهو لا يزيده إلا ثباتاً في ما

يؤمن به من مكْر تانكريدي وانتهازيّته؛ وهو في حاجة إلى رجل ماكر وانتهازي في بيته، لا إلى شيء غير هذا. لقد كان يؤمن ويحسّ بأنه لا يقلّ مستوى عن أيّ إنسان آخر، حتّى إنه ليُؤلمه أن يلاحظ في ابنته ميلاً للفتى. وقال:

"هذه أمور أعرفها، أيّها الأمير، وأعرف غيرها أيضاً، ولا تهمّني في شيء". ثمّ عاد إلى عاطفيّته: "الحبّ، يا صاحب السعادة، الحبّ هو كل شيء، وأنا أستطيع أن أعرف ذلك"، ولعلّ المسكين كان صادقاً، إذا ما اتّفقنا على تعريفه المحتمل للحبّ. "غير أنني رجل دنيا، وأودّ أن أضع أنا أيضاً أوراقي على الطاولة. وقد يكون عَبَثاً أن أتحدّث عن مهر ابنتي، فهي دم قلبي، وكبد أحشائي، وليس لي إنسان آخر، أخلّف له ما أملكه، وكل مالي هو لها. ولكنْ، من العدل أن يعرف الشّابّان ما يمكنهما أن يُعوِّلا عليه حالاً. سأسجّل في عقد الزواج لابنتي إقطاع (سيتيسولي)(*)، ومساحته ٦٤٤ فدّاناً، أي (١٠١٠ هيكتارات) كما يشاؤون أن يدعوها اليوم، وكلها مزروعة حبوباً، وأرضها من أجود الأراضي، و١٨٠ فدّاناً مغروسة بالكرمة والزيتون في (جبيلدونشي). وفي يوم الزواج، سأُسلّم إلى العريس عشرين كيساً من القماش، يحتوي كل منها على عشرة آلاف أوقية من المال. فلا يبقى لي غير قصبة فارغة في يدي". ثمّ أضاف وهو مقتنع - وراغب أيضاً - في أن لا يُصدِّقه أحد: "إن البنت هي البنت. وبهذا يستطيعان أن يعيدا من جديد سلالم (ماروجيا) وجميع سطوح (سورتشيوناريو) الموجودة في الدنيا. المهمّ أن تجد أنجيليكا المنزل اللائق بها".

كانت العامّيّة الجاهلة ترشح من جميع مسامّه، وعلى الرغم من ذلك، فقد استولت الدهشة والذهول على الرجلَيْن اللذَيْن يستمعان إليه: لقد

*) أي الشموس السبع. (المترجم).

كان دون فابريتسيو في حاجة إلى كل ما يملكه من قوّة السيطرة على النَّفْس، لكي يخفي وقع المباغتة؛ فإن صفقة تانكريدي قد تجاوزت كل ما كان متوقّعاً لها من نصيب. وكاد يعاوده الإحساس بالنفور، لولا أن جمال أنجيليكا ولطف العريس كانا ما يزالان يستطيعان أن يسترا بالشعر والجمال فظاعة العقد. أما الأب بيرّونه، فقد فرقع لسانه على سقف حلقه فرقعة السوط، ثمّ شعر بالحرج، لعدم مقدرته على كبح دهشته، فراح يحاول أن يُنغّم لحناً مرتجلاً بطقطقة الكرسي وجرجرة حذائه على الأرض، بينما تُقلّب يده أوراق كتاب الصلاة بصوت مسموع، ولكنه لم يُفلح في ذلك، بل ظلّ أثر دهشته واضحاً.

ولحسن الحظّ، كانت لجاجة دون كالوجيرو الساذجة - للمرّة الوحيدة طوال الحديث - وسيلة لخروج الجميع من الحرج والارتباك، فقد قال: "أيّها الأمير، أنا أعلم أن ما سأقوله لن يترك لديكَ أثراً، لأنكم متحدّرون من غرام الإمبراطور (تيتون) والملكة (بيرينيشه)؛ ولكن آل (سيدارا) نبلاء كذلك. لقد كانوا حتّى بلغوا إليّ جنساً سيّئ الحظّ، مدفوناً في إقليم، دون تلميع؛ غير أنني أملك أوراقاً كاملة في صندوقي، وسيعرف يوماً أن ابن أختكَ قد اقترن (بالبارونة سيدارا ديل بيسكوتو)، وهو لقب ممنوح من قِبَل جلالة الملك فرديناند الرابع في مكاتب جمرك ميناء ماتزارا. إن عليّ أن أعمل المعاملة اللازمة، ولم يبقَ سوى خطوة واحدة".

قبل مئة عام، كانت حكاية الخطوات الباقية، وقصّة اللقب، وما يشبه تطابق الأسماء، عنصراً عظيم الأهمّيّة في حياة الكثير من الصقليّينْ، يضفي الحبور أو الحرمان على ألوف الأشخاص الماهرين أو الأقلّ مهارة. ولكن هذا الموضوع أخطر من أن يُعالَج خطفاً، وهنا نكتفي بأن نقول إن المَخرَج

الذي تذرّع به دون كالوجيرو أسدى إلى الأمير غبطة فنّيّة، لا تُضاهى في أن يرى نموذجاً من الناس يحقّق نفسه بجميع خصائصه، وأن تحلّي الضحكة المكتومة فمه حتّى الغثيان.

ثمّ تفرّع الحديث إلى عدّة جداول، لا فائدة منها. وتذكّر دون فابريتسيو رفيقه توميو المحبوس في الظلام في غرفة البنادق. وللمرّة التي لا عدَّ لها في حياته، شعر بالنقمة على طول الزيارات البلدية، فأطبق عليه صمتٌ غير ودّيّ. وأدرك دون كالوجيرو معنى الصمت، فوعد بأن يعود في صباح الغد حاملاً موافقة أنجيليكا التي لا شكّ فيها، ثمّ استأذن بالخروج. ورافقه الأمير حتّى اجتاز قاعتَيْن، وعانقه من جديد، ومضى يهبط الدرج والأمير منتصب كالبرج في أعلى السّلّم، يتبع بنظره تلك الكتلة الصغيرة من المكْر والملابس السيّئة التفصيل، ومن الذهب والجهل، وهي تتضاءل مبتعدة بعد أن كانت قبل قليل قد دخلت، لتصبح تقريباً جزءاً من الأسرة.

***

ثمّ مضى الأمير حاملاً بيده شمعة، ليطلق سراح توميو الذي كان مستسلماً لنصيبه في الظلام، وهو يدخّن غليونه، وقال له: "أنا آسف، يا دون شيشيو، ولكنكم ستدركون أنه كان يجب أن أفعل هذا". وقال الآخر: "أنا فاهم، يا صاحب السعادة، أنا فاهم. فهل سار كلّ شيء حسناً، على الأقلّ؟". "حسناً جدّاً؛ لم يكن ممكناً أن يجيء الأمر أحسن ممّا كان". فثرثر توميو بعض عبارات التهنئة، وشبك حبل الجِلْد في طوق عنق تريزينا التي كانت ترقد منهوكة من أثر الصيد؛ والتقط صيده عن الأرض. فقال له الأمير: "خذوا أيضاً طيوري، فهي، على كل حال، قليلة بالنسبة إلينا. إلى اللقاء، يا دون شيشيو، ودعنا نراكَ قريباً. ومعذرة عن كل شيء". وكانت اليد

القوية التي هبطت على كتفه دليلاً على الصلح، وعلى إعادة الثقة إليه. ومضى آخر رجل مخلص لبيت سالينا إلى منزله الحقير.

وحينما عاد الأمير إلى مكتبه، وجد الأب بيرّونه قد غادره، ليتملّص من المناقشة. فمضى إلى غرفة زوجته، ليُخبرها بما جرى. وكانت ضجّة خطواته القوية السريعة تسبقه بالنبأ مسافة عشرة أمتار. واجتاز غرفة جلوس الفتيات، وكانت كارولينا وكاترينا تلفّان كبّة من الصوف، فنهضتا مبتسمتَيْن لدى مروره، وخلعت مدموازيل دومبري نظّارَتَيْهَا بسرعة، وردّت على تحيّته بشيء من الارتباك، أما كونشيتا، فقد كان ظهرها إليه، وكانت تطرّز تطريزاً مقلوباً، فلم تحسّ بمروره، ولذلك لم تَلقه حتّى بالتفاتة.

٤. الزيارة الأولى وخلوات الخطيبَيْن

(نوفمبر ١٨٦٠)

من تعدّد الاتّصالات الناجم عن اتّفاق الزواج أخذ يتولّد لدى دون فابريتسيو إعجاب بمزايا سيدارا. وقد عوّدتْه الإلفة على الوجه السيّئ الحلاقة، وعلى النبرة العاميّة، والثياب المهلهلة، وعلى رائحة العَرَق الكريهة الدائمة؛ وأخذ يتبيّن ما في الرجل من ذكاء نادر، فكثير من المشاكل التي كان يبدو للأمير أنها لا يمكن حلّها كان دون كالوجيرو يحلّها بمثل السهولة التي يحلّ بها (٤ + ٤ = ٨). لقد كان الرجل حُرّاً من مئات القيود التي تفرضها الأمانة والتهذيب والثقافة العالية على الكثيرين غيره، ولذلك كان يمضي في غابة الحياة باطمئنان الفيل الذي يقتلع الأشجار، ويدوس الأوجار، ويمضي قُدُماً في خطّ مستقيم دون أن يبالي بخدش الأشواك، أو يأبه لعويل المظلومين، فقد رُبّي وعاش في أودية رهيبة، تتردّد فيها النسائم اللطيفة الهامسة بعبارات: "أرجوكَ"، "أكون شاكراً لكَ"، "إنكَ لتصنع إليّ جميلاً"، "لقد كنتَ لطيفاً جدّاً". وأما فإن الأمير حينما يأخذ في الثرثرة مع دون كالوجيرو، إنما يجد نفسه في سهل مكشوف مرتفع، تتلاعب على سطحه الرياح الجافّة، ومع أنه يظلّ في صميمه يفضّل المسارب الجبلية، فإنّه لم يكن يستطيع أن لا يُعجَب بحدّة هذا المجرى الهوائي الذي يستمدّ من أشجار السنديان والأرز في دونا فوغاتا أنغام قيثار، لم تُسمع قطّ من قبل.

وشيئاً فشيئاً، راح دون فابريتسيو - ربّما دون انتباه - يفضي إلى دون

كالوجيرو بشؤونه الخاصّة، وكانت عديدة معقّدة، ولا يعرفها حتّى هو نفسه؛ ولم يكن هذا لنقص في إدراكه، بل لشيء من اللامبالاة والازدراء لهذا النوع من الأمور التي يعدّها وضيعة؛ وهذا ناجم في الأصل عن برودة الطَّبْع، وعمّا اعتاده دائماً من سهولة التّغلّب على الخطوات العاثرة أو الشرور بمُجرّد بيع بضع مئات من ألوف الهكتارات التي يملكها.

وكانت الأعمال التي يشير بها دون كالوجيرو بعد أن يستمع إلى كلام الأمير، ثمّ يعيد وحده ترتيب علاقاتها، مناسبة جدّاً وذات تأثير عاجل مباشر؛ غير أن النتيجة النهائية لتلك المشورات التي يقرّرها دون كالوجيرو بمقدرة قاسية، ويُنفّذها دون فابريتسيو الطّيّب القلب ببطء مُتهيّب، كانت أنّ بيت سالينا اكتسب مع مرور السنين شهرة الحقّ على الأتباع، وهي شهرة لا تستحقّها الأسرة في الواقع، ولكنها، مع ذلك، دمّرت سمعتها في دونّا فوغاتا، وفي كويرشينا، ولم يكن هنالك من سبيل للحيلولة دون انهيار أملاكها هناك.

وليس من العدل في شيء أن لا نشير إلى أن مثابرة الأمير المستمرّة على هذه الاتّصالات كانت ذات أثر كذلك على سيدارا؛ فلقد كان إلى ذلك الحين لا يقابل الأرستقراطيّيْن إلا في اجتماعات مرتبطة بعمله (أي للبيع والشراء)، أو في دعوات نادرة جدّاً، وبعد تفكير طويل جدّاً جدّاً إلى بعض الحفلات؛ وفي هذَيْن النوعَيْن من المناسبات، لم يكن أبناء هذه الطبقة الاجتماعية الخاصّة جدّاً، يبدون فيها بأحسن مظاهرهم، وبمناسبة مثل هذه اللقاءات، كان قد كوّن لنفسه فكرة، اقتنع بها، وهي: أن الأرستقراطية تتألّف فقط من (الناس- النعاج)، الذين خُلقوا فقط، لكي يدعوا صفوفهم تحت رحمة مقصّه الذي لا يترك لهم أثراً من صوف،

وأما اسمهم، الذي لا يدري كيف يفسّر شهرته، فهو من نصيب ابنته. أما بمعرفته لتانكريدي بعد غزوة غاريبالدي، فقد وجد نفسه أمام نموذج غير متوقّع لشابّ شريف جافّ مثله، وقادر على أن ينجح إلى حدّ بعيد في مقايضة ابتساماته وألقابه ببشاشات الآخرين وكياستهم، مع مقدرة تامّة على أن يُلبس هذه الأعمال (السيدارية) ثياباً من اللطف والفتنة لا يملك سيدارا شيئاً منها، فهو يتحمّلها دون أن يحسّ بها، ولا يملك بأيّ حال أن يميّز أصولها. وحينما أصبح يعرف دون فابريتسيو جيّداً، بحُكْم الظروف الجديدة، عاد يلمس لديه من جديد التراخي والعجز عن الدفاع عن النَّفْس اللذَيْن يتميّز بها (الشريف - النعجة) الذي كان يتخيّله، ولكن معها أيضاً قوّة جاذبية، تختلف عن جاذبية الفتى تانكريدي صوتاً، وتشبهها رخامة، يضاف إلى ذلك أيضاً طاقة تميل إلى تجريد الفكر، واستعداد للبحث عن شكل الحياة في ما يصدر عنه هو، لا في ما يستطيع أن ينتزعه من الآخرين. وهذه الطاقة التجريدية أدهشتْه، مع أنها بدت له غير مصقولة، ولا يمكن تحويلها إلى كلام كما يحاول البعض هنا أن يفعلوا. وتبيّن له أن قسماً كبيراً من هذا السِّحْر ناجم عن دماثة الخُلُق، وعرف كيف أن الإنسان المثقّف يبعث على الرضى، لأنه في الحقيقة ليس سوى إنسان يحدّ من المظاهر المسيئة دائماً لقسم كبير من الوضع الإنساني، ويمارس نوعاً من الغيرية المفيدة (وهي عملية، تجعله أهمّيّة النعت فيها يصبر على تفاهة المنعوت). وشيئاً فشيئاً أصبح دون كالوجيرو يدرك أن العمل العامّ ليس من الضروري أن يكون إعصاراً من الضجيج والتهويش الكلامي، أو بقعاً من الصباغ، وأن أيّة محادثة يمكن بكل سهولة أن لا تكون شبيهة بمعركة بين الكلاب، وإن تقديم المرأة أمام الرجل دليل قوّة، وليس دليل ضعف، كما كان يعتقد؛ وأن المرء يستطيع أن يأخذ شيئاً أكثر ممّا يخاطبه، إذا ما

قال له: "أظنّ أنني لم أُحسن التعبير" بدلاً من "أنتَ لم تفهم شيئاً"؛ وإن استخدام مثل هذه الملاحظات، والأطعمة، والمواضيع مع النساء ومع المخاطبين، إنما يكون كسباً عظيماً لمَنْ يُحسن استخدامه.

ولعلّ من الجرأة أن نؤكّد أن دون كالوجيرو قد استفاد حالاً ممّا تعلّمه؛ لقد تعلّم منذ ذلك الحين أن يحلق وجهه جيّداً، وأن يُقلّل من الخوف من كثرة استهلاك الصابون؛ ولا شيء غير هذا؛ ولكنه منذ ذلك الحين بدأ لديه، ولدى ذويه كذلك، ذلك الرُّقي والذوق المرهف اللذان عُرِفَت بهما الطبقة الراقية، ممّا يتحوّل معه الفلاحون السّذّج في مدى ثلاثة أجيال إلى أناس راقين دون وصاية.

***

كانت الزيارة الأولى لأنجيليكا بعد خطوبتها إلى أسرة سالينا منظّمة بإخراج مُتقَن كل الإتقان؛ فقد كان سلوك الفتاة من الكمال، بحيث بدا أن تانكريدي قد لقّنها إيّاه كلمة كلمة. غير أن تطاوُل الوقت وتباطُؤه أثبتا أنه لو كان ذلك السلوك مُفتَعَلاً وطارئاً لما أمكنها الاستمرار فيه إلى النهاية؛ ولهذا كان لا بد من اللجوء إلى افتراضٍ ما، كأن يكون قد سبق الخطوبة الرسمية نفسها تدريب على هذا المسلك. غير أن هذا الافتراض مشكوك فيه حتّى لدى مَنْ يعرفون ما يلجأ إليه الأمير الشّابّ من احتياطات؛ ولكنه أيضاً لم يكن افتراضاً دون معنى.

لقد وصلت أنجيليكا الساعة السادسة مساء في ملابس بيضاء ووردية؛ وكانت ضفائرها الناعمة السوداء تُظلّلها قبّعة ما تزال صيفية، عليها عناقيد عنب اصطناعية وسنابل مذهّبة، تشير بوضوح إلى كروم (جبيلدولشي) وحقول (سيتيسولي). وتركت أباها في قاعة المدخل، وفي خفّة، صعدت

الدرجات غير القليلة في السّلّم الداخلية، في وسط موجة من حفيف تنّورتها الفضفاضة، وألقت بنفسها بين ذراعَي دون فابريتسيو، وأعطتْهُ قبلَتَيْنِ طويلَتَيْنِ جميلَتَيْنِ من خدَّيْها، وبادلتْه إيّاهما بحرارة حقيقية. ولعلّ الأمير قد أطال من تذوّق أريج الغاردينيا على الوجنَتَيْنِ اليافعَتَيْنِ أكثر ممّا يجب. وعند ذاك احمرّت أنجيليكا خجلاً، وتراجعت نصف خطوة وهي تقول. "أنا سعيدة جدّاً، جدّاً..." ثمّ اقتربت من جديد، وانتصبت على أطراف حذاءها، وهمست في أذنه: "عمّي العظيم"!: حركة رائعة جدّاً، يجعلها الإخراج أشبه ما تكون بعربة أطفال أينشتاين، وقد كان الظاهر منها والخفي سبباً في إظهار مكنون قلب الأمير البسيط، وفي جَعْله نهائياً إلى جانب الفتاة الجميلة. وفي تلك الأثناء، كان دون كالوجيرو يرتقي الدرج وهو يقول إن من المؤلم حقّاً أن لا تتمكّن زوجته من الحضور، لأنها في الليلة السابقة تعرقلت وهي تمشي في البيت، فسبّب لها ذلك انحرافاً مؤلماً جدّاً في قَدَمها اليسرى، وأضاف يقول: "إن عنق قَدَمها قد صار أشبه بالباذنجانة، أيّها الأمير". فابتهج الأمير لهذه الملاطفة الكلامية، ومن جهة أخرى، اطمأن من نتيجة حديثه السابق مع توميو إلى أن لا ضَرَرَ من أن يردّ على اللطف بمثله، فأعرب عن سروره بأن يذهب هو نفسه حالاً لزيارة السّيّدة سيدارا، فكان هذا الاقتراح مفاجأة غير متوقّعة لدى دون كالوجيرو؛ ولكي يحول دونها، اضطرّ أن ينسب إلى زوجته مرضاً آخر، كان هذه المرّة صداعاً أليماً، تضطرّ المسكينة معه إلى الانزواء وحدها في الظلام.

وعند ذاك، أعطى الأمير ذراعه لأنجيليكا، واجتازا بضعة صالونات شبه مظلمة إلا من أضواء خافتة، تلمع من سُرج زيتية، وتسمح بتلمّس الطُّرُق بصعوبة. وأما في أقصى صدر تلك القاعات، فقد كانت "قاعة ليوبولدو" تسطع بالنور، وهناك كانت بقية أفراد الأسرة؛ وكان هذا الأمير عبر الظلمة

المقفرة نحو مركز الأسرة الصميم الساطع أشبه ما يكون إيقاعاً باحتفال ماسونيّ لقبول عضو جديد.

كانت الأسرة متجمّعة في الباب؛ وقد كفّت الأميرة عن تحفّظاتها وجمودها، أمام غضب زوجها الذي لم يوقعها فحسب، بل صعقها صعقاً. فراحت تقبّل العروس المقبلة الجميلة مراراً، وتضمّها إليها بشدّة حتّى انطبع في جِلْدها البضّ أثر عقد الجواهر الشهير لدى أسرة سالينا، الذي أرادت ماريا ستيلا أن تتقلّده دلالة على أنها تعدّ ذلك اليوم عيداً بهيجاً. وكان فرانشيسكو باولو - وعمره ستّة عشر عاماً - عظيم الفرح، لأنه قد أُتيحت له فرصة استثنائية، ليقبّل هو أيضاً أنجيليكا تحت نظر والده المتسلّط الغيور. وأما كونشيتا، فقد كانت تغمرها بهجة خاصّة: كانت بهجتها غامرة إلى حدّ أنها أسالت دموعها ... وكانت أختاها الأخريان متجمّعَتَيْن حولها باديَتَي الغبطة، لأنه لم يكن لهما في الأمر شعور خاصّ. وأما الأب بيرّونه الذي لم تكن القداسة والتقوى لتحولا دون إحساسه بجمال المرأة، بل كان يجد فيه دليلاً لا يُنكَر على الطيبة الإلهية، فقد شعر بانهيار كل مقاومته ومعارضته أمام ذلك الجمال الدافئ، فراح يتمتم باللاتينية: "هلمّي، يا عروساً من لبنان"(*) (ثمّ اضطرّ إلى التّردّد لئلا يستعيد في ذهنه شيئاً غير هذا من أناشيد سليمان الأشدّ حرارة)(**). وكانت الآنسة دومبري تبكي متأثّرة - كما يجدر بالمربّيات - وتشدّ بيَدَيْها الخائبَتَيْن كتفَي الفتاة اليانعَتَيْن، وتقول بلغتها الفرنسية: "أنجيليكا، أنجيليكا! لنفكّر كم تكون فرحة تانكريد!". وكان بنديكو وحده على غير ما تقتضيه اللياقة الاجتماعية الوديعة قابعاً تحت طاولة، والتهمير يغرغر

---

*) من (نشيد الإنشاد) لسليمان الحكيم. (المترجم).

**) يقصد "الأشدّ شبقاً"، لأن في أناشيد سليمان أشياء مشحونة بالشهوة الحارّة. (المترجم).

في حنجرته، حتّى أخرجه فرانشيسكو غاضباً وشفتاه ما تزالان ترتعشان، ووضعه في مكانه.

كانت الشموع تشتعل على أربع وعشرين ذراعاً من أذرع الشمعدان الثاني والأربعين، وكل شمعة منها تبدو في نصوعها وتوهّجها معاً عذراء، يشتعل قلبها بالحبّ. وأزهار (المورانو) المزدوجة الألوان على جذوعها المصنوعة من الزجاج المعقوف ترنو إلى أسفل، وتتأمّل تلك التي تدخل إلى المنزل، وتبتسم لها ابتسامة مترقرقة سريعة الانكسار. وكان الموقد الكبير مشتعلاً دلالة على الابتهاج أكثر منه لتدفئة الجوّ الذي كان ما يزال فاتراً، ونور لهيبه يترقرق على البلاط، وينعكس على أُطُر الأثاث الذهبية، بشكل يُبهر الأنظار. لقد كان حقّاً يمثّل الموقد المنزلي، رمز البيت، واللهيب المتصاعد منه يشبه الرغائب المشتعلة، والجمر يشبه ما تكتمه القلوب من حرارة.

وراحت الأميرة - وهي ذات مقدرة عجيبة على خَفْض مشاعرها إلى حدّ القاسم المشترك الأصغر - تروي حوادث رفيعة من طفولة تانكريدي؛ وكانت تشدّد كثيراً على هذه الحوادث، بحيث يكاد المرء يوقن من أن أنجيليكا يجب أن تعدّ نفسها محظوظة لاقترانها برجل كان وهو في السادسة من عمره من رجاحة العقل، بحيث يخضع دون تمنّع لتقبّل الحُقَن الضرورية، وفي الثانية عشرة، كان من الشجاعة، بحيث تجرّأ على سرقة حفنة من الكرز. وضحكت كونشيتا على ذِكْر حادث السرقة هذا، وقالت: "إن تانكريدي لم يستطع بعد أن يتخلّص من هذا العيب"، ثمّ أضافت: "أتذكر، يا أبي، حينما مضى منذ شهرَيْن بحبّات الدّرّاق التي كنت كثير الاهتمام بها؟" ثمّ تجهّم وجهها فجأة، كما لو كانت رئيسة جمعية لزراعة الفواكه، وقد أُصيبت فواكهها بالتَّلَف.

وجاء صوت دون فابريتسيو يضع حدّاً عاجلاً لهذه الحماقات؛ ومضى يتحدّث عن تانكريدي في حاضره: الفتى اليقظ المتنبّه، والمستعدّ دائماً للمخارج التي تدهش محبّته، وتغيظ خصومه. وذكر كيف أنه في إحدى الرحلات إلى نابولي قُدِّم إلى إحدى الدوقات، وسرعان ما شغفت به، وأرادت أن تراه في منزلها صباحاً، وظهراً، ومساء، ولا يهمّ ما إذا كانت في الصالون أم في السرير، لأنه - كما قالت - لم يكن هناك إنسان له مثل مقدرته على أن يروي ما يُدعى بالفرنسية (Les petits rien) أو التفاهات الصغيرة. وعلى الرغم من أن دون فابريتسيو قد أسرع يضيف، رغبة في التحديد والدّقّة، أن تانكريدي كان حينذاك ما يزال في السادسة عشرة، والدوقة تتجاوز الخمسين، فقد لمعت عينا أنجيليكا، لأنها كانت على علْم تامّ بشبّان باليرمو، وذات بديهة قوية في ما يتعلّق بدوقات نابولي.

ويخطئ منْ يحاول أن يُنقص من بين مزايا أنجيليكا حبّها لتانكريدي، أو يشكّ فيه: لقد كانت أكثر اعتزازاً وطموحاً من أن تقوى على ذلك التّجرّد الآني عن شخصيّتها الذي لا حُبَّ من دونه؛ كما إن خبرتها الفنّيّة لم تكن بعد تسمح لها بأن تعرف مزاياه الحقيقية، وتُقدّرها، وكلها مؤلّفة من ظلال رهيفة، ولكنها على الرغم منها كانت إذ ذاك تحبّه، وهذا أمر مختلف كثيراً: لقد كانت عيناه الزرقاوان، وعاطفيّته الساخرة، وبعض النبرات الثقيلة في صوته أحياناً تُسبّب لها اضطراباً خاصّاً، حتّى حين تتذكّرها؛ ولم تكن في تلك الأيّام تشتهي أكثر من أن تطوّقها تانك اليَدَان؛ ولعلّها وهي مطوَّقة بهما قد تنساهما، وتستغني عنهما، كما حدث فعلاً؛ أما في هذه الآونة، فما يهمّها إلا أن يختلبها بيَدَيْه. وأحسّت لدى تصوّره إمكان حدوث تلك العلاقة الفروسية (غير الممكنة الآن) بنوبة من أشدّ العذابات غرابة، وهي عذاب الغيرة لحوادث سابقة.

وسرعان ما تلاشت هذه النوبة أمام امتحان بارد للمزايا الغرامية وغير الغرامية التي سيُحقّقها اقترانها بتانكريدي.

ومضى دون فابريتسيو في مديحه لتانكريدي وثنائه على مزاياه. وبدافع من حبّه له، كان يتحدّث عنه، كما لو كان يتحدّث عن ميرابو، فيقول: "لقد بدأ مبكّراً، وكانت بدايته حسنة؛ والطريق التي سيقطعها ستكون طويلة"، وكان جبين أنجيليكا الناعم ينحني بعلامة التأييد. والحقيقة أنه لم يكن يهمّها كثيراً أمر مستقبل تانكريدي السياسي، فلقد كانت واحدة من فتيات عديدات، ينظرن إلى الأحداث العامّة، كما لو كانت تجري في عالم منعزل، ولم تكن تتصوّر أن خطاباً من (كافور) يستطيع مع الزمن وعبر ألوف الدورات الدقيقة أن يؤثّر في حياتها ويبدّلها. وكانت تقول في نفسها بلهجتها الصِّقِليّة: "إن لدينا القمح، وهذا حسبنا؛ وكل طريق بعد هذا لا أهمّيّة لها!". وكانت تلك أفكاراً فتيّة، كان عليها فيما بعد أن تخلعها من جذورها حينما أصبحت مع الزمن واحدة من أعظم الأفاعي الموحيات بالرأي في مجلس البرلمان في قصر (مونتيشيتوريو) وفي قصر (كونسولتا) مجلس المستشارين.

"ثمّ إنكِ لا تعرفين بعد، يا أنجيليكا، كم يسلّي تانكريدي! إنه يعرف كل شيء، ويلبس كل شيء مظهراً غير متوقّع. وحينما يكون المرء معه وهو في مرحه يبدو الكون مضحكاً أكثر ممّا هو في العادة، وأحياناً يبدو جادّاً أكثر من حقيقته". ولقد كانت أنجيليكا تعرف أن تانكريدي مُسلٍّ، وأما أن يكون في وسعه الكشف عن عوالم جديدة، فلم تكن ترجوه فحسب، بل كان لديها أسباب للشكّ فيه منذ يوم ٢٥ أيلول الماضي، يوم القبلة العتيدة - وغير الوحيدة التي تبادلاها بشكل رسمي وهما يتواريان خلف

سياج الغبار الواشي؛ وكانت في الواقع تختلف كل الاختلاف في رقّتها ولذّة طَعْمها عن مثيلتها الأخرى الوحيدة التي أهداها إليها في (كايانو) ابن بستاني (بوجيو) قبل أكثر من عام. غير أن اهتمام أنجيليكا بمزايا خطيبها الروحية، وبذكائه كذلك، كان أقلّ كثيراً من اهتمام دون فابريتسيو العزيز، العزيز جدّاً حقّاً، ولكنه "مهتمّ جدّاً كذلك بشؤون الفكر". لقد كانت ترى في تانكريدي إمكان الحصول على مركز جميل في دنيا النبلاء في صِقِلية، الدنيا التي كانت تعدّها ملأى بدهشات، تختلف كثيراً عمّا فيها فعلاً؛ وكانت ترى فيه هو نفسه رفيق عناق ممتلئاً بالحيوية. فإذا كان إلى جانب ذلك متفوّقاً بروحه وعقله فهذا أفضل، ولكنها هي لا شأن لها به. التسلية ممكنة دائماً. وهذه، على كل حال، أفكار للمستقبل: أما الآن، فسواء أكان ذكي الفؤاد أم أحمق، فإنها تودّ لو كان ههنا، يداعب عنقها على الأقلّ من تحت الضفائر، كما فعل من قبل.

وهتفت فجأة: "يا إلهي، يا إلهي، كم أودّ لو كان هنا بيننا الآن!" وتأثّر الجميع بهذا الهتاف، لما فيه من الصدق الواضح ولجهلهم بدوافعه. وكان هو ختام هذه الزيارة الأولى السعيدة. وفعلاً، بعد قليل، استأذنت أنجيليكا وأبوها، وخرجا يتقدّمهما لفيف من المرافقين، يحملون فانوساً مضاء، راح نوره الذهبي يُشعل حمرة الأوراق الساقطة عن أشجار الدلب. وعاد الأب وابنته إلى منزلهما الذي كان بابه محرّماً على "بيبّي خراء".

***

كان من بين عادات دون فابريتسيو في أوقات صفائه عادة المطالعة المسائية. ولمّا كان الظلام في الخريف يشتدّ ويمنع من الخروج، فقد كانت الأسرة تجتمع بعد صلاة المسبحة حول الموقد في انتظار موعد العشاء،

فيأخذ الأمير يقرأ لها، واقفاً، فصولاً متقطّعة من رواية معاصرة؛ وكان الوقار والعطف ينضحان من جميع مسامّ جسده.

وتلك الأعوام كانت هي عينها الأعوام التي كانت تتألّف في خلالها، عن طريق الروايات، الخرافات الأدبية التي ما تزال إلى اليوم تسيطر على عقول الأوربيّينْ؛ أما صقلّية، فإنها بسبب امتناعها التقليدي على كل جديد، ولجهلها العام بأيّة لغة، وكذلك بسبب الرقابة البوربونية الجائرة بواسطة الجمارك، كما لابد من القول، كانت تجهل وجود (ديكنز - وجورج إليوت – وصاند - وفلوبير) وكذلك أيضاً (دوما). صحيح أن كتابَينْ من مؤلّفات بلزاك قد وصلا خلسة إلى يد دون فابريتسيو، الذي كان يفرض من نفسه رقيباً على الأسرة، وقد قرأهما ثمّ تخلّص منهما بأن أعارهما ممتعضاً إلى صديق، كان يكرهه، قائلاً إنهما كانا ثمرة عقل جبّار، دون ريب، ولكنه طائش و"به مَسّ" (ولعلّه كان يقول اليوم إنه "معتوه"). وهو حكم متسرّع، كما نرى، وإن لم يخلُ مع ذلك من بعض الحدّة. وكان مستوى المطالعة حينذاك منخفضاً دون ريب، بسبب ما يتحكّم من الحرص على "خجل العذارى" لدى الفتيات، ومن وساوس المتديّنين، وكذلك من شعور الوقار والهيبة لدى الأمير الذي قد يأبى كل الإباء أن يدع أسرته المجتمعة تسمع شيئاً ممّا يدعوه "بالقذارات".

كانوا إذ ذاك في نحو العاشر من نوفمبر، وكذلك في قرب ختام إقامتهم في دونا فوغاتا. وكان المطر ينهمر غزيراً، والرياح العاصفة الرطبة تزمجر، فيروح المطر معها يصفع النوافذ صفعات غاضبة؛ وأصوات الرعود تقصف من بعيد، ومن حين إلى آخر، تجد بعض قطرات المطر سبيلها من خلال المداخن الصِّقِلّيّة العتيدة، فتسقط على جمر الزيتون الملتهب، وتترك

فيه بقعاً سوداء. وكانت تُتلى على الأسرة قصّة (أنجولا ماريا)، وقد بلغت التلاوة منها الصفحات الأخيرة؛ وكان وصف الرحلة المرعبة التي قامت بها الفتاة عبر الثلوج في منطقة لومبارديا إبّان فصل الشتاء، يبعث القشعريرة في قلوب الآنسات الصقليات، على الرغم من المقاعد الدافئة التي يغرقنَ فيها. وفجأة سُمعت جلبة في الغرف المجاورة، ودخل (ميمي) الخادم لاهثاً، وقد فقد رابطة جأشه، وراح يصرخ: "يا أصحاب السعادة! يا أصحاب السعادة! لقد وصل السّيّد تانكريدي! إنه في الحوش، يُنزل الحقائب من العربة. أيّتها العذراء الجميلة؛ أفي هذا الوقت؟!" ثمّ ولّى خارجاً.

واستولت المفاجأة على مشاعر كونشيتا في وقت لم يعد يتجاوب مع الواقع، فهتفت تقول: "حبيبي!"، غير أن نبرات صوتها نفسها ردّتْها إلى الحاضر المؤلم؛ وطبيعي أن هذه النقلة العنيفة من طبع خفيّ حارّ إلى آخر ظاهر، ولكنه شديد البرودة، قد سبّبت لها ألماً شديداً. وحسن حظّها ضاع هتافها هذا في الانفعال العامّ، فلم يسمعه أحد.

وهُرع الجميع نحو السّلّم الخارجية، تتقدّمهم خُطى دون فابريتسيو الواسعة، واجتازوا بسرعة الصالات المظلمة، ثمّ مضوا نزولاً. كان الباب الكبير مشرعاً على السّلّم الخارجية المفضية إلى الحوش. وكانت الريح تعصف بشدّة، ترتجف لها ستائر اللوحات، وتسوق أمامها الرطوبة ورائحة الأرض. وتحت السماء المبرقة كانت أشجار الحديقة تتأرجح أغصانها، ويثور حفيفها كحفيف الأقمشة الحريرية. وكان دون فابريتسيو على وشك الوصول إلى الباب حينما ظهرت على الدرجة الأخيرة كتلة ثقيلة، لا شكل لها: كان ذاك تانكريدي ملتفّاً بمعطفه الأزرق الضخم الذي يرتديه الفرسان البييمونتيون، وهو من كثرة ما يحمل من ماء المطر يزن نحو مئة كيلو، ويبدو

أسود اللون. "احذر، يا خالي، لا تلمسْني، فأنا الآن كالإسفنجة!" وسقط نور المصباح في الصالون على وجهه، فظهر واضحاً. ثمّ دخل، وفكّ السلسلة التي تشدّ ياقة المعطف إلى عنقه، وترك المعطف يسقط ويتكوّم على الأرض بضجّة مسموعة لزجة. كانت رائحته كرائحة كلب مبلول، ولم يكن قد خلع جزمته منذ ثلاثة أيّام، ولكنه كان لدى دون فابريتسيو الذي راح يعانقه هو نفسه الفتى المفضّل حتّى على أولاده؛ كما كان لدى ماريا ستيلا الولد العزيز المُفترى عليه؛ ولدى الأب بيرّونه الخروف الضالّ دائماً، والذي لا يلبث أن يجده دائماً؛ ولدى كونشيتا شبحاً حبيباً، يشبه حبّها الضائع. حتّى المربّية مدموازيل دومبري قبّلتْه بفمها الذي لم يتعوّد المداعبات، وراحت المسكينة تصرخ قائلة بالفرنسية: "تانكريد! تانكريد! لنتصوّر كم تكون فرحة أنجيليكا!". لقد كانت أوتار قوسها قليلة جدّاً، فهي دائماً مضطرّة إلى أن تتصوّر أفراح الآخرين. وكذلك بنديكو وجد رفيق ألعابه العزيز، ذلك الذي يعرف أكثر من أيّ إنسان آخر أن ينفخ له داخل خطمه من خلال قبضته المطبقة، إلا أنه بطبيعته الكلبية راح يُعبّر عن نشوته بأن يقفز بحركات عصبية حول القاعة دون أن يقترب من المحبوب.

كانت في الواقع لحظة مثيرة مؤثّرة تلك التي تحلّقت فيها الأسرة حول الفتى العائد، العزيز على الأسرة، كما لو كان فرداً منها، والذي تملأ الغبطة نفسه، لأنه عاد ليقطف الحبّ في غمرة من شعور الاطمئنان الدائم. كانت لحظة مؤثّرة، ولكنها طويلة أيضاً. وحينما زالت قوّة المفاجأة الأولى، فطن دون فابريتسيو إلى أن عند الباب شخصَيْن آخرَيْن، يقطران هما أيضاً بالماء، ويبتسمان. وفطن تانكريدي إليهما كذلك، فجعل يضحك ويقول ملتفتاً إلى الأميرة: "سامحيني، يا خالة؛ ولكنّ فورة المشاعر جعلتْني أنسى نفسي. لقد أبحتُ لنفسي أن أجيء معي بصديق عزيز هو الكونت (كارول كافرياغي)،

وأنتم تعرفونه، فقد جاء مراراً إلى القصر حينما كان في الخدمة مع الجنرال. وذلك الآخر هو جندي من كتيبة الرماح، اسمه (موروني) وهو مساعدي". وكان الجندي يبتسم ببلاهة أمينة، وهو يقف وقفة الاستعداد العسكرية، بينما يقطر الماء من معطفه على الأرض. أما الكونت، فلم يكن في وقفة الاستعداد؛ وسرعان ما رفع قبّعته التي تفوح رائحتها، والتي لا شكل لها، وانحنى على يد الأميرة، فقبّلها، وجعل يبتسم، والفتيات يحدّقنَ مبهورات بشاربَيْه الأشقَرَيْن، وبلثغته بالراء الرخوة، وقال: "لقد قيل لي إن المطر لا ينزل عندكم هنا أبداً! يا إلهي، من يومَيْن ونحن كأننا في البحر!" ثمّ اتّخذ مظهراً جاداً، وقال: "وأخيراً، يا فالكونيري، أين هي الآنسة أنجيليكا؟ لقد جررتَني من نابولي إلى هنا، لتُريني إيّاها. إنني أرى ههنا كثيراً من الحسان، ولكنها ليست بينهنّ". والتفت إلى دون فابريتسيو، وقال: "أتدري، أيّها الأمير، إن مَنْ يسمعه يتكلّم عنها، يعتقد أنها ملكة سبأ! هيّا بنا، لنقدّم احتراماتنا حالاً لأجمل النساء وأكثرهنّ فتنة. هيا، تحرّك، يا عبيط!".

كان يتكلّم كذلك، وينقل إلى الصالون المتجهّم لغة الموائد الرسمية، بمرحه وبصفتي أزراره المزرّة التي تتدلّى أهدابها، فيثير سرور الجميع. غير أن دون فابريتسيو وتانكريدي كانا يعلمان من الأمر أكثر ممّا يعرفه هو: أنهما يعرفان دون كالوجيرو ويعرفان زوجته التي تشبه الحيوان الجميل، وما في منزل ذلك الثري الكبير من إهمال لا يصدّقه العقل؛ وهذه أمور لا تعرفها منطقة لومبارديا الناصعة.

وتدخّل دون فابريتسيو فقال: "اسمع، أيّها الكونت، لقد كنتَ تظنّ أن المطر لا ينزل في صِقلية أبداً، وها أنت ترى كيف ينزل المطر كالطوفان. ولستُ أريد أن يذهب بكَ الظنّ إلى أن صِقلية لا تعرف الأمراض الصدرية،

ثمّ لا تلبث أن ترى نفسكَ طريح الفراش وأربعون درجة من الحمّى تهزّكَ هزّاً". ثمّ نادى الخادم، وقال له: "ميمي، أشعل المواقد في غرفة السّيّد تانكريدي، وفي غرفة الضيوف الأخرى الخضراء؛ وأعِدّ الغرفة الصغيرة القريبة للجندي. وأنتَ، أيّها الكونت، اذهبْ، وتجفّفْ جيّداً، واستبدلْ ملابسكَ. وسأبعث إليكَ بشراب حارّ مع البسكوت؛ وسيكون العشاء في الساعة الثامنة، أي خلال ساعتَيْن". لقد أمضى كافرياغي في الخدمة العسكرية مدّة طويلة، لم يعد في وسعه بعدها أن لا ينصاع للصوت الآمر؛ فحيّا، وسار وراء الخادم مذعناً. وجرّ الجندي خطاه خلف الصناديق العسكرية والسيوف المعقوفة داخل أغمادها المغلّفة بقماش أخضر.

وفي تلك الأثناء، راح تانكريدي يكتب: "حبيبتي الغالية أنجيليكا؛ لقد وصلتُ، وكان وصولي لأجلكِ. إنني عاشق كالقطّ، ولكني مبلول كذلك كالضفدع، وقذر كالكلب المشرّد، وجائع كالذئب. وعدما أفرغ من تنظيف ثيابي، وأصبح في مظهر يصلح للقاء الجميلة بين الجميلات، فسأُهرع إليكِ في خلال ساعتَيْن. تحيّاتي إلى والدَيْكِ العزيزَيْن، وأما أنتِ... فلا شيء لكِ الآن". وعُرض النص على الأمير، فوافق عليه؛ هذا الذي كان دائماً شديد الإعجاب بأسلوب تانكريدي في كتابة الرسائل، قرأ الرسالة، فأيّدها تأييداً تامّاً. ولعلّ السّيّدة باستيانا لو رأتها لكان لديها الوقت كله لتخترع لنفسها علّة جديدة. وأُرسلت البطاقة حالاً إلى المنزل المقابل.

كانت غمرة اللّذّة العامّة عارمة، بحيث استطاع الشّابّان أن يتجفّفا في مدى ربع ساعة فقط، ونظّفا جَسَدَيْهما، وأبدلا بزّتَيْهما العسكريَّتَيْن، وعادا إلى قاعة (ليوبولدو) حول الموقد، وراحا يشربان الشاي والكونياك تحت الأنظار المحدّقة فيهم بإعجاب. في ذلك العهد، لم يكن ثمّة ما هو أقلّ

جندية من الأسر الأرستقراطية في صِقِلية: لم يكن يُرى أحد من الجنود البوربونيّيْن في صالونات باليرمو، والغاريبالديون القلائل الذين نفذوا إليها كان مظهرهم أشبه بمفزعات الطيور الجميلة منه بالعسكريّيْن الحقيقيّيْن. ولذلك كان ذانكِ الشّابّان الضابطان في الحقيقة أوّل مَنْ وَقَعَتْ عليه عيون فتيات أسرة سالينا عن كثب. و كان كلاهما مرتديَيْن سترة مزدوجة الصدر، وأزرار تانكريدي فضّيّة، تشير إلى كتيبة الرماح، وأزرار كارلو مذهّبة تشير إلى كتيبة المدفعية؛ وياقة الأوّل مخمليّة سوداء برتقالية الأطراف، وياقة الآخر قرمزية. وكان الاثنان يمدّان سيقانهما الملفوفة بقماش أزرق وأسود نحو الجمر، وعلى أكمامهما "أزهار" من الفضّة والذهب، تترابط في خطوط وتعاريج، لا حدّ لها: كان ذلك مدعاة فتنة لأولئك الفتيات اللواتي يعتدنَ غير رؤية (الردنغوت) العابس، و(الفراك) الجنائزي. وكانت الرواية ذات المغزى التهذيبي تجثم مقلوبة خلف أحد المقاعد.

ولم يستطع دون فابريتسيو أن يفهم جيّداً: إنه ليذكّرهما معاً بثياب حمراء مهرولة، كأنها (الجنبري). وقال: "ولكنْ، قولا لي، أنتم الغاريبالديون ألم تعودوا ترتدون القميص الأحمر!" فاستدار الاثنان معاً كأن أفعى لدغتْهما، وقال تانكريدي: "أيّ غاريبالديّيْن، يا خالي؟! لقد كنّا كذلك، وحسبنا ذاك الآن. إن كافرياغي وأنا قد أصبحنا، والحمد لله، ضابطَيْن في الجيش النظامي لجلالة ملك ساردينيا الآن، وملك إيطاليا بعد أشهر قليلة. وحينما شرح جيش غاريبالدي كان في وسعنا أن نختار إمّا العودة إلى منازلنا، وإمّا البقاء في جيش الملك؛ وهو وأنا – كالكثيرين غيرنا - انخرطنا في الجيش "الحقيقي". لم يكن من الممكن أن نستمرّ مع أولئك، أليس كذلك، يا كافرياغي؟"، وأجاب الآخر: "يا إلهي، أيّ نوع من الناس كانوا؟! أناس لا يُحسنون غير الضرب، وإطلاق الرصاص فحسب! أما الآن، فنحن بين

أناس آدميّين، إننا ضبّاط بكل معنى الكلمة" وجعل يبرم شاربَيْه بدلال صبياني ممتعض.

وأضاف تانكريدي: "لقد أنزلوا درجة من رتبنا العسكرية، يا خالي: كان تقديرهم ضئيلاً جدّاً لجدّيّة مؤهّلاتنا العسكرية؛ وقد أنزلوا رتبتي من رئيس إلى ملازم أوّل، انظرْ"، وأشار إلى النجمَتَيْن على كتفَيْه، ثمّ أضاف: "وأنزلوا رتبته من ملازم أوّل إلى ملازم ثان. ولكنّا مسرورَيْن، كما لو نلنا رتباً أعلى، لأننا نشعر بأننا محترمون بشكل مختلف عمّا قبل كل الاختلاف، ونحن الآن بثيابنا العسكرية". قاطعه كافرياغي بقوله: "يا له من فرق كبير! إن الناس لم يعودوا الآن يخشون أن نسرق دجاجاتهم!" ومضى الآخر يقول: "كان يجب أن ترانا من باليرمو إلى هنا، حينما كأننا يستوقفوننا على محطّات البريد لتبديل الخيل! كان يكفي أن نقول: لدينا أوامر عاجلة في خدمة جلالة الملك؛ فتخرج إلينا الجياد بسرعة مدهشة، بمُجرّد أن نُبرز الأوامر - التي لم تكن في الحقيقة غير حسابات الفندق في نابولي... - ملفوفة جيّداً، ومختومة!"

وبعد أن انتهى الحديث عن التّقلّبات العسكرية، انتقل الجميع إلى أحاديث أخرى أقلّ أهمّيّة. وكان كافرياغي وكونشيتا يجلسان معاً غير متلاصقَيْن، والكونت يريها الهدية التي حملها إليها من نابولي، وهي كتاب (الأناشيد) للشاعر (آلياردو آلياردي)، وقد عنّي بتجليده تجليداً فاخراً. وكان يتربّع على زرقة الغلاف الداكنة تاج أميري محفور حفراً عميقاً، وتحته الحروف الأولى من اسمها (.C.C.S)؛ وتحتها أيضاً حروف كبيرة مبعثرة بالخطّ القوطي، تتألّف منها عبارة (صمّاء دائماً). فضحكت كونشيتا مغتبطة، وقالت: (ولكنْ، لماذا كلمة (صمّاء)؟ إن الحروف (.C.C.S) وحدها تكفي". فالتهب وجه الكونت الشّابّ بغرام صبياني، وقال: "صمّاء،

نعم؛ أنتِ صمّاء، يا آنسة، صمّاء عن تنهّداتي، صمّاء عن نحيبي؛ وعمياء أيضاً، عمياء عن التّضرّعات التي ترسلها عيناي. لو تعلمين كم عانيتُ في باليرمو حينما رحلتم إلى هنا دون أن أفوز حتّى بتحية، أو حتّى بإشارة، حين كانت العربة تتوارى في الشارع؛ وتريدين أن لا أدعوكِ صمّاء؟ كان يجب أن أكتب (قاسية) أيضاً".

ولكن حرارة إثارته الأدبية اصطدمت ببرودة التّحفّظ لدى الفتاة، فقد أجابت قائلة: "إنكَ ما تزال تعباً من طول الطريق، وأعصابكَ غير مستريحة؛ فهدِّئْ من روعكَ، ودعني بدلاً من هذا أستمع إلى قصيدة جميلة".

وبينما كان العسكري يقرأ الأبيات الشعرية الفاترة بصوت كئيب، ووقفت قانطة متثبّطة، كان تانكريدي أمام الموقد يُخرج من جيبه علبة من الحرير السماوي اللون، ويقول: "هوذا الخاتم، يا خالي؛ الخاتم الذي أُقدّمه لأنجيليكا؛ أو بالأحرى الذي ستقدّمه أنتَ إليها عنّي". ثمّ فتح العلبة، فظهر في داخلها خاتم ياقوت داكن جدّاً، ذو ثماني زوايا مضغوطة، ومرصّع ترصيعاً متراصّاً جدّاً بعدد كبير من حجارة الألمان الصغيرة الناصعة. إنه حلية قاتمة بعض الشيء، ولكنه يتناسب كل التناسب مع ذوق ذلك العهد المقابريّ، وكان واضحاً أن ثمنه يساوي أكثر من المئتَي أوقية من الذهب التي أرسلها إليه خاله دون فابريتسيو. أما الحقيقة، فهو أنه اشتراه بأقلّ من ذلك؛ ففي تلك الأشهر التي شاع فيها النّهْب والسَّلْب والهرب، كان في نابولي جواهر جميلة، تُباع بثمن بخس. ومن فرق السعر ابتاع دبّوساً أهداه تذكاراً إلى الراقصة (شوارزوالد). ودُعيت كونشيتا والكونت إلى رؤية الخاتمة، ولكنهما لم يتحرّكا من مكانهما، لأن الكونت كان قد رآه من قبل، ولأن كونشيتا تُرجئ هذه اللّذّة إلى ما بعد. ودار الخاتم من يد إلى

يد، وأُعجب به الجميع، وأثنوا عليه، كما أثنوا على ذوق تانكريدي الجيّد وغير المتوقّع. وسأل دون فابريتسيو: "ولكنْ، القياس، ماذا نفعل به؟ لا بدّ من إرسال الخاتم إلى مدينة جيرجنتي لتعديل قياسه". ولمعت عينا تانكريدي بخبث، وقال: "لن نحتاج إلى ذلك، يا خالي، لأن القياس وافٍ، فقد أخذتُه من قبل". فَصَمَتَ دون فابريتسيو: لقد كان الفتى معلّماً بارعاً.

وأكملت العلبة دورتها حول الموقد، ثمّ عادت إلى يَدَي تانكريدي، وفجأة سُمع من خلف الباب صوت يقول بلهفة: "أتأذنون؟" كانت تلك أنجيليكا. لم تجد مع السرعة وفورة المشاعر ما تتّقي به المطر المنهمر غير رداء واسع من تلك الأردية الخشنة التي يستعملها الفلاحون. وكان جسدها التفّ بين طيّاته الخشنة الداكنة الزرقة يبدو نحيلاً جدّاً، وعيناها الخضراوان من تحت القُبع الناضح بماء المطر كانتا شاردَتَيْن قلقَتَيْن، تنمّان عن اللّذّة والشهوة.

وأمام هذا المنظر، وهذا التناقض بين جمال الفتاة وخشونة الرداء أحسّ تانكريدي بمثل لذعة السوط؛ فنهض وجرى نحوها دون أن يتكلّم، وقبّلها على فمها، وراحت العلبة التي يحملها بيده اليمنى تحزّ في عنقها المسترخي على يده. ثمّ فتح العلبة، وتناول الخاتم، ووضعه في بنصرها، بينما سقطت العلبة على الأرض، وقال: "خذي، يا حلوة، إنه لكِ من فتاكِ تانكريدي"، ثمّ استيقظت الدعابة والمزاح في نفسه، فتابع يقول: "واشكري، أيضاً، خالنا العظيم عليه"، ثمّ عاد يعانقها، وراحا يرتعشان تحت وطأة الشوق الجنسي: لقد كان الصالون والحاضرون جميعاً يَبدون لها بعيدين جدّاً؛ وخُيّل إليه هو أنه بتلك القُبل قد عاد يمتلك صِقلية من جديد، والأرض الجميلة العاقّة التي ظلّت أسرة فالكونيري تملكها

أجيالاً، وقد عادت إليه الآن - بعد ثورة باطلة - كما كانت ملكاً لأسرته دائماً، مصنوعة من وهج اللذائذ الجسدية، ومن جنى المحاصيل الذهبية.

***

كان من نتيجة وصول الضيوف الأعزّاء أن أُرجئ موعد العودة إلى باليرمو. وتلا ذلك أسبوعان من الفتون واللذائذ. وكانت العاصفة التي رافقت رحلة الضابطَيْن هي الأخيرة من سلسلة عواصف، عاد بعدها صيف سان مارتينو إلى الصفاء والإشراق، وهو الموسم الحقيقي للذّات في صِقِلية: جوّ صاف شديد الزرقة، وواحةُ لطف ووداعة في مسير الفصول المرّ، تدعو بطراوتها الأحاسيس إلى الإطلاق، بينما تدعو بدفئها إلى التّعرّيات الخفيّة. أما العُري الشهواني، فلم يكن في قصر دونا فوغاتا سبيل إلى الحديث عنه، غير أن هناك اثنَيْن كانت تلذعهما الشهوة المهتاجة، بمقدار ما كانا يحاولان كَبْتَهَا. كان قصر سالينا قبل ثمانين سنة ملهى لتلك اللذات المستورة التي كان يتلذّذ بها القرن الثامن عشر المحتضر، غير أنّ إدارة الأميرة كارولينا الصارمة، وتديُّن عهد الإصلاح، وطباع الأمير الحالي فابريتسيو البادي المرح، جعلت المرء ينسى أحداثه الماضية الغريبة الأطوار؛ فلقد هربت الشياطين المغبَّرة، أو لعلّها كانت موجودة في الواقع، ولكنْ، في شكل أشباح، تقضي الشتاء تحت أكداس من الغبار في مكان ما من سقوف ذلك البناء الهائل المساحة. ولقد كان دخول أنجيليكا إلى القصر سبباً في استرداد تلك الأشباح نشاطها، إلا أن وصول الشّابَّيْن العاشقَيْن هو الذي أيقظ الغرائز الكامنة في المنزل؛ إنهما الآن يظهران في كل مكان كنملتَيْن، أيقظتهما الشمس، غير مُسمَّمين، بل هما على العكس شديدا المرح والحيوية. وكانت هندسة البناء، وزخارفه عينها، بما فيها من حنايا

والتواءات، تناجي الأرداف الواسعة والنهود المنتصبة، حتّى الأبواب كان يسمع لفَتْحها مثل حفيف ستائر المخادع.

كان كافرياغي يحبّ كونشيتا، ولكنه لصِغَر سنّه، ليس في الظاهر فحسب كتانكريدي، بل في حقيقته كذلك، كان ينفّس عن حبّه بقصائد (براتي) و(آلياردي) السهلة، وبأن يحلم بنشوات حلوة في ضوء القمر دون أن يجرؤ حتّى على تأمّل النتيجة المنطقية التي تتبعها، والتي كان جمود كونشيتا يقتلها قبل أن تُولَد. ولا ندري إذا لم يكن في انفراده في غرفته الخضراء يستسلم إلى شطحات حسّيّة أكثر قوّة. ولا شكّ في أنه لم يكن يشترك في مشاهد الفروسية في خريف دونا فوغاتا ذاك إلا كما يشترك رسّام يخربش على الورق رسوماً لغيوم وآفاق متلاشية، لا كمبتدع لكتل وأشكال هندسية.

أما الفتاتان الأخريان كارولينا وكاترينا، فقد كانتا تؤدّيان دورهما ببراعة في سيمفونية الشهوات التي كانت في شهر نوفمبر ذاك تجتاح القصر كله، وتختلط بحرير الماء في الينابيع، وبترافس الخيل الشبقة وهي تمارس الحبّ في إسطبلاتها، وبقرض العثّ للأثاث القديم، ليصنع فيه أعشاشاً لزواجه. لقد كانتا شابّتَيْن لطيفَتَيْن جذّابتَيْن في ريعان الشباب الغضّ، ومع أنه لم يكن لهما عشّاق خاصّون، فقد كان يجرفهم تيّار الاستثارات العاطفية التي تصدر عن الآخرين، وكثيراً ما كانت القُبلة التي تمنعها كونشيتا عن كافرياغي، وضمّة أنجيليكا التي لم تكن تُشبع تانكريدي، تنعكسان على شخصَيْهما، وتداعبان جَسَدَيْهما دون أن يلامسهما أحد. وكانتا تحلمان دائماً أحلاماً مبلّلة بالعَرَق الغزير والتّنهّدات القصيرة. حتّى الآنسة دومبري التاعسة التي كانت تقوم بمهمّة الواقية من الرقباء، كانت أشبه بالأطبّاء

النَّفْسيّيْن الذين تنتقل إليهم العدوى، ويقعون تحت تأثير هذيان مرضاهم، فقد جرفتْها تلك الزوبعة الصاخبة الضاحكة؛ وحينما كانت تضطجع على سريرها المقفر بعد نهار من المطاردة والملاحظات الأخلاقية الحرجة، كانت تأخذ في مداعبة نهدَيْها المترهّلَيْن، وتدمدم بنداءات مبهمة هاتفة بأسماء تانكريدي، كارلو، فابريتسيو...

وكان المحور والمحرّك لهذه الفورة العاطفية، طبعاً، الثنائي (تانكريدي - أنجيليكا) وكان العرس المؤكّد - وإن لم يكن قريباً جدّاً - ينشر ظلّه المطمئن على سماء شهواتهما المتبادلة المتوقّدة. وكان الاختلاف الطَّبَقي يجعل دون كالوجيرو يعتقد أن الأحاديث الانفرادية الطويلة جدّاً عادية في البيوت العريقة، ويجعل الأميرة ماريا ستيلا تعتقد أن تكرار زيارات أنجيليكا أمر مألوف في طبقة آل سيدارا، ونوع من حُرّيّة التّصرّف ما كانت هي لترضى، بكل تأكيد، أن تراها مقبولة لدى بناتها. وهكذا راحت زيارات أنجيليكا للقصر تزداد مع الأيّام إلى أن كادت تصبح دائمة، وأصبحت في النهاية تصل مصحوبة - شكلياً فقط - بوالدها الذي ما يلبث أن ينصرف حالاً إلى إدارته، ليكتشف - أو ليحوك - خيالات خفية، أو ترافقها الخادمة التي كانت تلوذ بمخبأ، لكي تشرب القهوة وتتسترّ على الخَدَم البائسين.

وكان تانكريدي يريد أن تعرّف أنجيليكا القصر كله في مجموعه المعقّد، بما فيه من غرف للضيوف، وأجنحة للعمل الرسمي، ومطابخ، وكنائس صغيرة، ومسارح، ومعارض للصور، وأماكن للبهائم، تفوح برائحة الجلود، وإسطبلات، وجحور ضيّقة، وممرّات، وسلالم، وشرفات، وبوّابات، ولاسيما من سلسلة الأجنحة غير المأهولة والمهجورة منذ عشر سنوات، وهي تؤلّف تشويشة جهنّمية عجيبة. ولم يكن تانكريدي ينتبه (أو لعلّه كان يفطن جيّداً)

إلى أنه يجرّ الفتاة نحو المركز الخفي للدوّامة الشهوانية، وكانت أنجيليكا تريد حينئذ ما كان تانكريدي مصمّماً عليه. وكانت مشاويرهما نحو ذلك البناء غير المحدود لا حصر لها، كانا كأنما يمضيان نحو أرض مجهولة، وكانت حقّاً مجهولة، لأن الكثير من تلك الأجنحة والزوايا لم تصل إليه قَدَم قطّ، حتّى قَدَم دون فابريتسيو نفسه الذي كان ذلك من دواعي سروره، فقد اعتاد أن يقول إن القصر الذي يستطيع المرء أن يعرف كل حجراته لا يستحقّ أن يسكن فيه. وكان العاشقان يُبحران نحو (سيتيرا) في مركب مصنوع من غرف مظلمة وأخرى مشمسة، ومن أماكن فخمة أو حقيرة، خالية أو ملأى ببقايا أثاث مختلف الأجناس. كانا يسافران مصحوبَيْن بكافرياغي أو مدموازيل دومبري (كان الأب بيرّونه بحكم نظام رهبنته الحكيم يأبى أن يفعل ذلك) وأحياناً بكلَيْهما معاً: أي أن الحشمة كانت مصونة في الظاهر. غير أنه لم يكن صعباً في قصر دونا فوغاتا تضليل الرقباء: كان يكفي الزوغان في ممرّ (وكانت هناك ممرّات طويلة جدّاً، ضيّقة وملتوية، وفيها نوافذ ذات قضبان، لا يمكن النفاذ منها إلا بشقّ الأنفس)، ثمّ الانحراف إلى زاوية، وارتقاء سلّم متعرّجة، فإذا هما بعيدان عن العيون، وحيدان كجزيرة مهجورة، فلا يبقى ما يراقبهما غير صورة كالحة اللون مرسومة بقلم الرسم، وقد جاءت عمياء لقلّة خبرة الرسّام، أو صورة راعية مرسومة على سقف ممسوخ اللون، بسرعان ما تؤيّد رغبتهما. وكان كافرياغي بطبيعة الحال يتعب حالاً، فما إن يجد في طريقه مكاناً يعرفه، أو سلّماً تهبط إلى حديقة، حتّى يمضي إليها إرضاء لصديقه من جهة، ثمّ ليمضي إلى تنهّداته وهو ينظر إلى يَدَي كونشيتا الباردَتَيْن؛ أما المربّية، فكانت تقاوم مدّة أطول، ولكنْ، ليس دائماً؛ وتظلّ فترة من الوقت تتردّد نداءاتها من بعد بالفرنسية: "تانكريد! أنجيليكا! أين أنتُما؟" ثمّ يسود الصمت، فلا يعود يقطعه سوى قفزات الجرذان فوق

السقوف، أو حفيف رسالة مَنسيّة منذ مئة سنة، يتلاعب بها الهواء على أرض الغرف: تعلاّت لاصطناع الخوف، ولرعشة مريحة للأعصاب. وكانت الشهوة ترافقهما حادّة خبيثة؛ واللعبة التي تسوق إليها الخطيبَيْن كانت ملأى بالرُّقي والمصادفات، وكان الاثنان لقُربهما من عهد الطفولة يجدان لذّة في اللعب نفسه، ويغتبطان إذ يطارد أحدهما الآخر، أو حين يضيع أحدهما عن الآخر، ثمّ يعود، فيجده، فإذا ما تلاقت أحاسيسهما الثائرة بعدئذ وقفا معاً، وتشابكت أصابعه الخمسة بأصابعها في انعطاف حسيّ لذيذ غير جازم، وراحت أنامله تداعب عروق ظهرها الشاحبة، فيهتزّ لذلك كيانهما برمّته، ويحفّزهما على مداعبات أخرى أكثر تمهّلاً ولذّة.

في إحدى المرّات، كانت هي مختبئة خلف إطار كبير موضوع على الأرض، وظلّت صورة (آرتورو كوربيرا في غزوة أنطاكية) تحمي الفتاة في ترقّبها المؤمّل؛ ولكنها حينما اهتدى إليها تانكريدي، ورأى ابتسامتها تختفي تحت طبقة من نسيج العنكبوت، ويَدَيْها يغطّيهما الغبار، هاجمها، وطوّقها بشدّة، وهي تحت عناقه تردّد لفترة أطول من الأبدية: "لا، يا تانكريدي، لا"، وكان تمنّعها ذاك دعوة، لأن تانكريدي في الواقع لم يفعل أكثر من أنه ظلّ يحدّق في عينَيْها الخضراوَيْن بعينَيْه الزرقاوَيْن. وفي مرّة أخرى، في صباح يوم ساطع بارد، كانت هي ترتعش في ثيابها الصيفية؛ فجذبها إليه فوق ديوان مغطّى بقماش مهدّب، لكي يُدفئها، فراحت أنفاسه العطرة تحرّك الشَّعر فوق جبينه، وكانت لحظات انخطاف عاطفي شاقّة، تحوّلت فيها الشهوة عذاباً، وكبح جماحها لذّة.

لم تكن الغرف في الأجنحة المهجورة واضحة التقطيع، ولا كانت لها أسماء، وكان الاثنان كمُكتشفي العالم الجديد، يعمّدان الأماكن التي

يعبرانها، ويخلعان عليها أسماء الاكتشافات المشتركة؛ فهناك غرفة واسعة، يبدو في وسط ناموسيّتها شبح سرير، تزدان مظلّته ببقايا ريش نعام، ظلاً فيما بعد يذكرانها باسم "غرفة الآلام"؛ وإحدى السلالم ذات الدرجات الرخامية التالفة المهشّمة، دعاها تانكريدي "سلّم الانزلاقة السعيدة". وكثيراً ما كانا لا يعرفان في الواقع أين يوجدان، ففي غمرة التجوال، والرجوع، والمطاردة، والوقفات الطويلة التي تتخلّلها الدمدمات والملامسات، كانا يفقدان اتّجاههما، فيضطرّان إلى أن يطلاّ من إحدى النوافذ التي لا زجاج لها، ليعرفا من منظر الحوش أو الحديقة في أيّ جناح من القصر هما، وفي بعض الأحيان، لم يكونا يهتديان إلى ذلك، لأن النافذة لم تكن تطلّ على أحد الأحواش الكبيرة، بل على مكان داخلي، لم يكونا قد رأياه من قبل، وليس فيه علامة سوى جثّة قطّ، أو سوى الحفنة المألوفة من المعكرونة بالصلصة التي لا يدري أحد أبداً ما إذا كانت متقيّأ أو ملقاة على الأرض عمداً؛ ومن غرفة أخرى، كانت تراهما عينا خادمة مطرودة من عملها.

وفي أصيل أحد الأيّام، عثرا في داخل خزانة على أربع آلات موسيقية، من تلك العُلب التي كانت تلهو بها عبقرية القرن الثامن عشر المصطنعة. وكانت ثلاث منها غارقة في الغبار وفي نسيج العناكب، فهي لذلك بكماء، أما الأخيرة، وهي أحدث منها ومحفوظة في علبتها المصنوعة من الخشب الداكن، فقد راحت أسطواناتها ذات الرؤوس المدبّبة تدور، والألسنة الفولاذية الصغيرة المرتفعة تعزف قطعة موسيقية لطيفة، كلها أنغام حادّة كرنين الفضّة، هي معزوفة: "كرنفال البندقية"، وراح العاشقان يوقعان قبلاتهما على تلك الأنغام الطروبة غير الوَهْمية، وحينما تراخى عناقهما، كان مفاجأة لهما أن يفطنا إلى أن الأنغام كانت قد انقطعت منذ مدّة، وأنها في امتداد العناق لم يتبعا غير ذكرى خيال تلك الموسيقى.

وفي إحدى المرّات، كان للمفاجأة لون آخر، فقد وجدا في إحدى غرف الضيافة باباً خفياً خلف خزانة، سرعان ما رضخت إغلاقته التي مضى عليها عشرات السنين لتلك الأصابع التي راحت تتشابك وتتلهّى بمحاولة فَتْحه: كان خلفه سلّم طويلة ضيّقة، تتلوّى في تعرّجات ناعمة بدرجاتها الرخامية الوردية اللون، وفي الأعلى، باب آخر مفتوح ذو حشوة سميكة تالفة، ثمّ يلي ذلك جناح صغير جميل وغريب الشكل مؤلّف من ستّ غرف، تتجمّع حول صالون متوسّط الكِبَر، ولكلّ من الغرف والصالون نفسه أرضيّته من المرمر الناصع البياض مائلة قليلاً إلى جهة قناة جانبية صغيرة، وعلى السقوف المنخفضة أشياء ملوّنة غامضة، جعلتْها الرطوبة غير مفهومة لحسن الحظّ، وعلى الحيطان مرايا كبيرة حائرة، منخفضة جدّاً، وإحداها مصدوعة، بسبب ضربة، كانت قد أصابتْها في الوسط تقريباً، وعلى كل منها شمعدان من طراز القرن الثامن عشر. وكانت النوافذ تطل على حوش منفصل، أشبه ببئر عمياء صمّاء، يسمح بدخول نور رمادي، ولا تبدو عليه أيّة فتحة أخرى؛ وفي كل غرفة، وكذلك في الصالون، دواوين واسعة، واسعة جدّاً، على مسامرها آثار حرير ممزّق، وكلها في أماكنها غير ملموسة؛ وعلى المداخن اللطيفة قِطَع رخامية ملصقة، عارية أشبه بالمريضة المعذّبة، تبدو مقطوعة بمطرقة غاضبة. وكانت الرطوبة قد بقّعت أعلى الجدران -وربّما أسفلها كذلك - على ما يوازي عُلوّ الرجُل، وتحلّت بأشكال غريبة، وكثافات غير مألوفة، ودهانات معتمة. ولعدم اطمئنان تانكريدي لم يشأ أن تلمس أنجيليكا خزانة مصنوعة في جدار الصالون، ففتحها هو نفسه. كانت الخزانة عميقة جدّاً، ولكنها خالية إلا من لفافة قماش وسخة ملقاة في زاوية، وفي داخل اللفافة حزمة من الأسواط مصنوعة من جِلْد البقر، لبعضها مقابض ملبّسة بالفضّة، والبعض الآخر مَكسوّ حتّى نصفه بحرير

أبيض جميل، ولكنه قديم جدّاً، مخطّط خطوطاً دقيقة زرقاء، وتظهر عليه ثلاثة خطوط من البقع السوداء؛ وأدوات معدنية، لا يمكن تفسيرها. فخاف تانكريدي حتّى من نفسه، وقال: "لنبتعد، يا حبيبتي، فليس ههنا شيء يهمّنا". وأغلقا الباب من جديد، وهبطا السّلّم صامتَيْن، وأعادا الخزانة إلى وضعها السابق. وطوال ذلك اليوم، ظلّت قبلات تانكريدي خفيفة جدّاً كأنما يختلسها في الحلم.

والواقع أن السوط كان - بعد الفهد - يبدو هو الشيء الأكثر تداوُلاً في دونا فاغوتا. ففي اليوم التالي لاكتشافها الشّقّة الغامضة وجد العاشقان نفسَيْهما أمام سوط صغير. ولم يكن هذا في الواقع في إحدى الشقق المجهولة، بل بالأحرى في الشّقّة المكرّمة التي تُدعى شقّة "الدوق القدّيس"، والتي كان أحد أفراد أسرة سالينا في القرن السابع عشر قد اعتكف فيها، واتّخذ منها ديراً خاصّاً له، يمارس فيه توبته وبرنامجه الذي أعدّه لرحلة السماء. كانت الغرف متراصّة، منخفضة السقف، بلاطها من صلصال حقير، وجدرانها مَطليّة بالشيد الناصع البياض أشبه بمساكن الفقراء المعوزين. وكانت الغرفة الأخيرة تفضي إلى شرفة، تطلّ ملء النظر على المنحدر الأصغر، حيث أملاكه وعقاراته يعلو بعضها بعضاً، يغمرها جميعاً نور كئيب. وعلى أحد الجدران مصلوب ضخم أكبر من الحجم الطبيعي: رأس الإله المعذّب فيه يلامس السقف، وقدماه الداميتان تلامسان الأرض، والجرح في جنبه أشبه بفم، منعتْه قسوة الظلام من أن يفوه بألفاظ الخلاص الأخيرة. وإلى جانب الجثمان الإلهي يتدلّى من مسمار هناك سوط ذو مقبض قصير، يتفرّع إلى ستّة مسارد من الجلد المقسّى، تنتهي بستّ كرات رصاصية، كل منها بحجم الجوزة. كان ذلك "وسيلة العبادة" لدى الدوق القدّيس. في تلك الحجرة كان جوزيبي كوربيرا، دوق

سالينا، يجلد نفسه وحيداً على مرأى من إله، ومن أملاكه الخاصّة، ولعلّه كان يحسب أن قطرات الدم التي تسيل من جسده إنما تمضي لتهطل على أراضيه، لتفتديها، ولعلّه في تجلّيات تقواه وعبادته كان يُخيَّل إليه أن هذه المعمودية السّرّيّة وحدها هي التي تجعل أراضيه ملكاً له حقّاً: دماً من دمه، ولحماً من لحمه، كما يقال. ومع ذلك، فإن تلك الأراضي قد طارت إلى أيد أخرى، وكثير من القِطَع التي تُرى من عَلٍ، كان يملكها آخرون، منهم دون كالوجيرو أيضاً: دون كالوجيرو، أي أنجيليكا، وبالتالي صهره المقبل. وقد أُصيب تانكريدي بمثل الدوار من جرّاء تفكيره في أن الفداء عن طريق الجمال شبيه بالفداء عن طريق الدم. وبينما كانت أنجيليكا جاثية، تلثم قَدَمَي المسيح المتدلّيَتَيْن إلى الأرض، قال لها: "انظري، إنكِ تشبهين تلك الأداة، وتصلحين للأغراض عينها" وأشار بيده إلى "آلة العبادة". فلم تدرك أنجيليكا ما يعنيه، فرفعت رأسها باسمة. كانت جميلة، ولكنها فارغة؛ فانحنى فوقها وهي جاثية كما كانت، وقبّلها قبلة فظّة، جعلتْها تدمع، لأنها جرحت شَفَتَهَا، وقشطت داخل فكّها.

كذلك كان الاثنان يمضيان أيّامهما في التجوال الحالم، وفي اكتشافات جحيمات، كان الحبّ لا يلبث أن يفتديها، وفي الاهتداء إلى فراديس، لا يلبث الحبّ نفسه أن يدنّسها. وكان خطر الاضطرار إلى تَرْك اللعب للعودة إلى الوظيفة يزداد قرباً، ويفزع كلاهما لقربه؛ وفي النهاية، لم يعودا يبحثان عن أماكن مجهولة، بل أخذا يذهبان باتّفاق سابق إلى أنأى الغرف، حيث لا يصل أيّ صراخ إلى مَسمع أحد؛ وما كان بهما حاجة إلى صراخ، بل إلى نجوى وتنهّدات خافتة، إلا أنهما كانا يمكثان هناك متلاصقَيْن بريئَيْن، يتأمّل كلّ منهما الآخر وإلهاً مدلّهاً. وكانت أكثر الغرف خطراً عليها غرف الضيوف القديمة، فقد كانت حسنة الأثاث، معتنى بها أكثر من سواها،

وفي كل منها سريرها الجميل، وعليه فرشة ملفوفة، تكفي لبسطها دَفْشة يد خفيفة ... في أحد الأيّام، كان دم تانكريدي كله، وليس عقله - إذ لا شأن لعقله في ذلك - قد صمّم على أن يُنهي الحكاية. في ذلك الصباح، كانت أنجيليكا كالأرنب البريء قد قالت له: "إنني راهبتُكَ المبتدئة"، وقد أرادت بذلك أن تُنبّهه، مع دعوة صريحة، إلى التلاقي الشهواني الذي سبق أن سرى بينهما لأوّل مرّة؛ وبينما كانت المرأة تُقدِّم نفسها مستسلمة، والذَّكَر يتهيّأ ليحلّ محلّ الإنسان، رنّ جرس الكنيسة الكبير، فكأنما ضرب قلبه الرصاصي على جَسَدَيْهما المضطجعَيْن، مضيفاً دويّه إلى الأصوات الأخرى، فانفصل الفمان المتداخلان مبتسمَيْن، ثمّ لم يلبث العاشقان أن عادا إلى العناق، وفي الغد، كان على تانكريدي أن يسافر.

كانت تلك أجمل أيّام حياة تانكريدي وحياة أنجيليكا، تينك الحياتَيْن اللتَيْن كان لا بد من أن تتلوّنا كثيراً فيما بعد، وأن تتلوّثا بالإثم في معترك الألم الذي لا بد منه. ولكنهما لم يكونا يعرفان ذلك حينئذ، وكانا يترقّبان مستقبلاً، يحسبانه أكثر تماسكاً وانسجاماً، وإن يكن فيما بعد قد بدا مصنوعاً من دخان وهواء فقط. وحينما بلغا الشيخوخة، ولم تعد تفيدهما الحكمة، كانا يتذكّران تلك الأيّام بألم عميق مقيم: لقد كانت تلك الأيّام أيّام الشهوة المستعدّة دائماً، لأنها كانت دائماً مقهورة؛ أيّام الأسرة العديدة التي كانت مهيّأة لهما، ولكنهما كانا يُعرضان عنها بدافع الشهوة الجنسية التي لم تكن حينئذ محظورة عليهما، ولكنهما، مع ذلك، كانا يترفّعان عنها في لحظات من السُّمُوّ الروحي، أو الحبّ الحقيقي. كانت تلك الأيّام استعداداً لزواجهما الذي لم يُقدَّر له النجاح، حتّى من الناحية العاطفية؛ استعداداً، ممّا يكن من أمره، فقد كان في مجموعه لذيذاً وقصيراً، كتلك السيمفونيات التي تظلّ خالدة، على الرغم من نسيان الأوبرات التي تنتمي

إليها، مع أنها تحمل في تضاعيف مرحها، وحيويّتها المقنّعة بالحياء، كل تلك المظاهر التي لم يُقدَّر لها أن تنمو في الأوبرا برشاقة وبراعة، ولذلك كان لابد من أن تؤدّي إلى فشلها.

***

حينما كان تانكريدي وأنجيليكا يعودان إلى دنيا الأحياء من منفاهما في عالم العيوب الفانية والفضائل المَنسيّة، وعلى الأخصّ عالم الشهوات الدائمة، كان الآخرون يستقبلونهما بتهكّم مرح: "أليس عيباً عليكما، أيّها الفَتَيَان، أن تذهبا وتُمرِّغا نفسَيْكما بالغبار هكذا؟ انظرْ إلى نفسكَ كيف أصبحتَ، يا تانكريدي!" ويضحك دون فابريتسيو، بينما يمضي ابن أخته يُفرشي ثيابه. ويروح كافرياغي يدخّن سيجارة فرجينيا كئيباً، وهو يجلس على الكرسي جلسة معاكسة، وينظر إلى صديقه وهو يغسل وجهه وعنقه، ويتعرّز من مرأى الماء، وهو يتحوّل إلى لون الفحم. ثمّ لا يلبث أن يقول: "أنا لا أقول لا، يا فالكونيري، فالآنسة أنجيليكا هي أجمل "نعجة" رأيتُها في حياتي، ولكن هذا لا يبرّر مظهركَ. يا الهي! اضبطْ نفسكَ؛ لا بد من "فرامل" للضبط. لقد بقيتُما وحدكما اليوم ثلاث ساعات، فإذا كنتُما مُولهين إلى هذا الحدّ، فتزوّجا حالاً، ولكنْ، لا تُثيرا ضحك الآخرين عليكما. كان جدير بكَ أن ترى كيف تحوّل وجه الأب، وهو خارج من الإدارة اليوم، حينما رآكما ما تزالان تمخران هذا المحيط الواسع من الحجرات! "فرامل"، يا صديقي العزيز، لا بد من فرامل؛ وأنتم الصقليّيْن فراملكم قليلة!"

وعرّش مغتبطاً بأنه يُزهى بحكمته على صديقه الأكبر منه سنّاً، على ابن عمّة كونشيتا "الصمّاء". ولكن تانكريدي كان غاضباً وهو يجفّف شَعره: يتّهمه بأنه ليس لديه فرامل تضبطه، مع أن لديه من الفرامل ما يضبط

قطاراً كاملاً، ومن جهة أخرى، لم يكن الحقّ كله على الجندي الطّيّب، فحتّى المظاهر لا بد من التفكير فيها، ولكن الذي علمه هذه الأخلاقيات هو الحسد وحده، فقد كان ظاهراً أن ملازمته لكونشيتا كانت عقيمة؛ أما أنجيليكا، فما كان أطيب طعم دمها الذي ذاقه اليوم حينما عضّ داخل شَفَتها! وانحناءتها الرخصة تحت العناق! ولكنْ، حقّاً، ليكنْ لذلك معنى. "سنمضي غداً لزيارة الكنيسة وبصحبتنا الأب بيرّونه والآنسة دومبري".

وفي تلك الأثناء، ذهبت أنجيليكا تُغيِّر ثيابها في غرف البنات، وبينما كانت ذات الجسد الجميل والثوب الأنيق تغسل ذراعَيْها وعنقها، قالت لها الآنسة دومبري معاتبة بلغتها الفرنسية: "كيف، بالله، يمكن، يا أنجيليكا، أن تظهري بمثل هذا المظهر؟!" وكان الماء البارد يهدِّئ من اضطرابها، فاعترفت في داخلها بأن المربّية على حقّ: ماذا كان ثمّة ممّا يستحقّ هذا التعب كله، وهذا التّعفّر بالغبار كله، وإثارة سخرية الآخرين وضحكهم؟ لماذا؟ ذلك كله كان لكي ينظر كل منّا في عينَي الآخر، ولكي أدع تلك الأنامل الناعمة تداعب جسدي، ولأكثر قليلاً من هذا ... وكانت شَفَتها ما تزال تُؤلمها؛ وقالت في نفسها: "كفى الآن؛ وسنجلس غداً في الصالون مع الآخرين". ولكنْ، في الغد كان لابد لتلك العيون أنفسها، ولتلك الأنامل أن تعود إلى شعوذاتها السابقة، ويعود الاثنان من جديد إلى عَبَثهما المجنون في الاختفاء والظهور.

وكانت النتيجة المدهشة لهذه الأعمال، متفرّقة ومجتمعة، أن العاشقَيْن كانا في المساء على مائدة العشاء أكثر الجميع صفاء، تراودهما النوايا الطّيّبة الأهمّيّة التي يُهيّئانها للغد، ويتسلّيان بالتّهكّم على مظاهر الحبّ التي يُبديها الآخرون مع أنها أقلّ وأهون شأناً ممّا يفعلانه هما. كانت

كونشيتا قد أحبطت تانكريدي: في نابولي شعر بالندم على ذلك، ولهذا سعى وراء كافرياغي، لعلّه يعوّض ابنة خاله عن تعلّقها به؛ وهكذا كان للإشفاق جانب من تحسّبه. وعلى الرغم من مكْره وخبثه، فلأنه حين وصوله كان مظهره البشوش الرقيق يكاد ينمّ عن رغبته في مشاركتها الألم على هجره إيّاها؛ وراح يدفع صديقه، ويحثّه، ولكنْ، دون طائل. فقد كانت كونشيتا قليلة الكلام كأنها في مدرسة، وتنظر إلى الكونت الشّابّ العاطفي بعينَيْن باردَتَيْن، يمكن أن يلاحظ المرء خلفهما شيئاً من الاحتقار. لقد كانت تلك الفتاة حمقاء، لا يمكن أن يخرج منها المرء شيئاً حسناً. ثمّ ماذا كانت تريد؟ لقد كان كافرياغي "فتى جميلاً، عجينة إنسانية طيّبة، وكان له اسم جميل، وله مصنع كبير للجبن في بريانتسا، والخلاصة أنه كان من الطراز الذي يقال فيه إنه "شريك ممتاز". غير أن كونشيتا تريده هو، أليس كذلك؟ وهو أيضاً كان يريدها في وقت ما؛ كانت أقلّ جمالاً من أنجيليكا، ومن حيث الثروة كانت أقلّ منها بكثير، غير أنه كان لديها شيء لا يمكن أن تملك فتاة دونا فوغاتا شيئاً مثله مطلقاً. ولكن الحياة أمر جدّيّ، لا يحتمل العَبَث !! وكان على كونشيتا أن تُدرك ذلك. ثمّ لماذا أصبحت تعامله هذه المعاملة السّيّئة؟ تلك الرحلة المشؤومة إلى دَيْر الروح القُدُس، وفي مرّات كثيرة أخرى بعدها. إنه الفهد، بكل تأكيد، الفهد (شعار الأسرة). ولكنْ، لا بد من أن تكون هناك حدود، يقف عندها ذلك الوحش المتعجرف. "لا بد من فرامل، يا ابنة الخال العزيزة، فرامل! وأنتنّ الصقليات فراملكنّ قليلة!"

أما أنجيليكا، فقد كانت في قرارة نفسها ترى كونشيتا على حقّ: إن كافرياغي يعوزه الكثير من الفلفل ... وبعد أن عرفت حُبّ تانكريدي، فإن اقترانها بكافرياغي يغدو شبيهاً بشرب الماء بعد أن ذاقت طَعْم هذا النبيذ (المارسالا) الشهي الذي يقف الآن أمامه. كونشيتا، حسناً، لقد

كانت تُفهمها من السوابق؛ أما الغبيّتان الأخريّان كارولينا وكاترينا، فقد كانتا تنظران إلى كافرياغي بعينَي سمكة ميّتة، وتذبلان مسخسختَيْن، كلّما اقترب منهما. وإذنْ! ما دام ليس لديهما من الشواغل العائلية ما يعوقهما، فإن أنجيليكا لا تفهم لماذا لا تحاول إحداهما أن تنزع الكونت الشّابّ من كونشيتا، لتفوز هي به؟ "في مثل تلك السّنّ، يكون الشباب كالأرانب الصغيرة، يكفي أن تصفّر لهما الفتاة حتّى يُهرعوا نحوها بسرعة. إنهما غبيّتان بليدتان؛ وإن الاكتفاء بالنظرات، والتّمنّع، والغطرسة، لا ندري إلى أين ينتهي بهما".

وفي الصالون الكبير، حيث كان الرجال ينصرفون بعد العشاء للتدخين، كانت الأحاديث بين تانكريدي وكافرياغي (المدخّنَين الوحيدَيْن في المنزل حينذاك، وبالتالي المعزولَيْن الوحيدَيْن لذلك) تأخذ نغماً خاصّاً. لقد انتهى الكونت الفتى إلى الاعتراف لصديقه بخيبة آماله الغرامية: "إنها كثيرة عليّ بجمالها ونقائها؛ فهي لا تحبّني؛ لقد كنتُ أخشى أن أرجو ذلك، وسأعود من هنا وقبضة الندم منشبة في قلبي، فإنها لم تُتِحْ لي فرصة، لأجرؤ على البوح بما أريده. إنني أشعر بأنني بالنسبة إليها كدودة الأرض، وهذا حقّ، وعليّ أن أبحث لي عن دودة، ترضى بي"، وتدفعه سنواته التسع عشرة إلى أن يضحك من خيبته.

فيحاول تانكريدي من علياء سعادته المضمونة أن يعزّيه، فيقول: "أتدري، إنني أعرف كونشيتا منذ الولادة؛ إنها أعزّ مخلوقة في الوجود: مرآة لجميع الفضائل، غير أنها مغلقة إلى حدّ ما، وذات وقار مفرط، وأخشى أنها تبالغ في تقدير نفسها؛ ثمّ إنها صِقِلية حتّى لبّ عظامها، ولم تخرج قطّ من هذه الأرض، ومَنْ يدري؟! فقد يُتاح لها أن تعيش حياة راضية في

ميلانو، المدينة التي يحتاج فيها المرء إلى التفكير أسبوعاً، لكي يمكنه أن يأكل صحن معكرونة!"

واستطاع مخرج تانكريدي هذا، وهو أحد المظاهر الأولى للوحدة الوطنية، أن يسري عن كافرياغي، ويجعله يبتسم، لأنه من أولئك الذين لا تستطيع الهموم والآلام أن تقف عندهم: "ولكنني مستعدٌ أن أوفّر لها صناديق من معكرونتكم! على كل حال، ما تمّ فقد تمّ، وكل ما أرجوه من أخوالكَ الطّيّبين الذين قابلوني بكل لطف وترحاب أن لا يحملوا لي كرهاً، لأنني جئتُ أصيد عندكم، فعدتُ خائباً". فطمأنه تانكريدي بكل إخلاص وأكّد له أن الجميع قد أُعجبوا به، ما عدا كونشيتا (أو لعلّ كونشيتا أيضاً أُعجبت به) لما يجتمع في روحه من مرح ومن حساسية رقيقة. ثمّ تحوّل الحديث إلى جهة أخرى، أعني إلى أنجيليكا.

"انظرْ، أنتَ، يا فالكونيري، سعيد الحظّ حقّاً! إذ استطعتَ أن تصل إلى اقتناص جوهرته كالآنسة أنجيليكا في زريبة خنازير (ومعذرة، يا عزيزي!). ما أجملها! يا إلهي، ما أجملها! وأنتَ كالعفريت، تمضي بها ساعات طوالاً إلى الزوايا النائية في هذا المنزل الذي يشبه كاتدرائيّتنا بضخامته! وهي ليست جميلة فحسب، بل ذكية ومثقّفة كذلك، وطيّبة أيضاً: إن طيبتها بادية في عينَيْها، وكذلك ذكاؤها وبراءتها".

ومضى كافرياغي يطري أنجيليكا ومزاياها الطّيّبة، وتانكريدي ينظر إليه مغتبطاً، ثمّ قال له: "الإنسان الطّيّب حقّاً في هذا كله هو أنت، يا كافرياغي" لقد أنزلت هذه العبارة دون قصد؛ ثمّ قالت الكونت: "اسمعْ؛ سنسافر بعد أيّام قليلة؛ أفلا ترى أنه قد آن الأوان، لكي تقدّمني إلى والدة البارونة الصغيرة؟".

كانت هذه هي المرّة الأولى التي يسمع فيها تانكريدي صوتاً لومبارديّاً، يخلع لقباً نبيلاً على فتاته الجميلة؛ ولذلك ظلّ لحظة لا يُدرك مَن المقصودة باللقب، ثمّ لم يلبث الأمير فيه أن تمرّد، فقال: "أيّة بارونة، يا كافرياغي! إنها فتاة جميلة وعزيزة، وأنا أحبّها، وكفى!"

ولم يكن صحيحاً قوله "كفى"، ومع ذلك فقد كان تانكريدي يتكلم مخلصاً: وبحكم عادات الجدود ذوي الأملاك الواسعة جدّاً كان يخيل إليه أن أراضي (جبلدولتشي- وسيتيسولي) وأكياس القماش كانت ملكاً له منذ عهد كارلو دانجو، أو منذ الأزل.

ثمّ أجاب: "أنا آسف، ولكنك لن تستطيع أن ترى أنجيليكا، لأنها ستسافر غداً إلى شياكا لأجل العلاج بالحمّامات، أنها مريضة جدّاً؛ مسكينة!"

ثمّ أطفأ في المنفضة عقب سيجارته الفيرجينيا، وقال: "لنذهب إلى الصالون، فقد قمنا بدور الدببة بما فيه الكفاية".

***

في أحد تلك الأيّام، تلقّى دون فابريتسيو رسالة من حاكم مدينة جيرجنتي، مكتوبة بأسلوب بالغ اللطف، تُنبئه بأن الفارس (آيمونه شيفاليه) سكرتير حاكم المنطقة سيصل إلى دونا فوغاتا، وأنه سيبحث معه في موضوع يهمّ الحكومة كثيراً. فعجب دون فابريتسيو لذلك، وفي الغد، أنفذ ابنه فرانشيسكو باولو إلى محطّة البريد لاستقبال "المبعوث الرسمي" ودعوته للإقامة في القصر، بدافع الضيافة والإشفاق الحقيقي على جسد الرجل النبيل البييمونتي من ألوف الحشرات التي قد تتعاون على لسعه وتعذيبه في لوكاندة (العمّ مينيكو) التي تشبه الكهف.

ووصلت عربة البريد عند هبوط الظلام بحرّاسها المسلّحين، وبحملها الإنساني القليل من الوجوه المغلقة. ونزل منها كذلك (شيفاليه دي مونترتسوولو) الذي كانت تسهُل معرفته حالاً من منظره المرتعب، وابتسامته الحذرة المتوجّسة. لقد وصل منذ شهر إلى صِقِلية، ونزل في أشدّ مناطق الجزيرة وطنية وجرأة، وهناك شعر بأنه قد انسلخ عن أرضه العزيزة في (مونفيرّاتو). وبحكم طبيعته الجبانة البيروقراطية لم تطبْ له الإقامة هناك. لقد امتلأ رأسه بقصص اللصوص وقطّاع الطُرُق، وهي قصص، يطيب للصقليّيْن أن يختبروا بها قوّة أعصاب القادمين الجدد إلى أرضهم؛ ومنذ شهر وهو يرى في كل آذن أو خادم في مكتبه قاتلاً، ويرى في كل أداة لقَصّ الورق على مكتبه خنجراً، ولو كانت مصنوعة من الخشب؛ يضاف إلى ذلك أن الطعام المطبوخ بالزيت طوال شهر كامل قد قلب أمعاءه. وها هو الآن هناك، في قلب الغسق، وبيده محفظة قماش رمادية اللون، ووجهه خال من أيّ تعب، يدلّ على ما تركه في نفسه نزوله من العربة في وسط الطريق. ولم يكفّ اسم (شارع فيكتور عمانوئيل) المنقوش بحروف زرقاء على أرضية بيضاء على واجهة الدار المقابلة له، لإقناعه بأنه موجود في مكان هو، في آخر الأمر، من أرض شعبه نفسه. ولم يكن يجرؤ على اللجوء إلى أحد القرويّيْن المستندين بظهورهم إلى جدران المنازل كأنهم العمدة، لأنه كان يخشى أن يتلقّى طعنة خنجر تغوص في أمعائه؛ وكانت أمعاؤه عزيزة عليه، على الرغم من أنها أصبحت مشقلبة.

وحين اقترب منه فرانشيسكو باولو، وقدّم نفسه إليه، حملقت عيناه ذعراً، لأنه ظنّ أنه قد بُوغتَ؛ غير أن مظهر الشّابّ الأشقر الوديع الأمين أعاد إليه بعض الاطمئنان، ثمّ لمّا أدرك أنه مَدعوّ إلى الإقامة في منزل أسرة سالينا، شعر بالدهشة والراحة. ومضيا يتبادلان المجاملات طوال الطريق

إلى القصر، فكأنما كانا في مباريات متواصلة بين المجاملة البيمونتية والمجاملة الصِّقليّة (وهما أشدّ المجاملات غطرسة في إيطاليا)، وكان ذلك لأجل حمل المحفظة، حتّى انتهى بها الأمر إلى أن يمسك كل من الفارسَيْن المتنافسَيْن بطرف منها، على الرغم من أنها كانت خفيفة جدّاً.

وحينما بلغا القصر، ووقعت عينا شيفاليه دي مونترنسوولو على الفلاحين ذوي الوجوه الملتحية الواقفين بأسلحتهم في الحوش الأوّل، اضطربت نفسه من جديد، بينما كانت بشاشة الأمير الذي راح يرحّب به من بعيد، والفخامة التي تتجلّى في البيئة من حوله، توحي إليه بمشاعر مغايرة، تبعث على الارتياح. إنه فرع من إحدى الأسر البيمونتية المتوسّطة التي تعيش على أرضها في شيء من البحبوحة مع الكرامة، وهذه أوّل مرّة يجد فيها نفسه ضيفاً على أسرة كبيرة، فكان هذا باعثاً على مضاعفة شعوره بالتخاذل، ولقد ظلّت الروايات الدموية التي كان يسمعها في جيرجنتي، والمنظر الوقح على غير العادة للبلد الذي حلّ فيه، و"اللصوص" - كما خُيّل إليه - الذين رآهم في الحوش، تثير في نفسه الرعب، بحيث نزل إلى العشاء نهباً للمخاوف، فِعلَ من يحلُّ في بيئة تختلف عن كل ما ألفه، أو فعل الإنسان البريء حين يقع في قبضة عصابات من اللصوص.

وعلى العشاء، أكل جيّداً للمرّة الأولى منذ أن وطئت قَدَمَاه ضفاف صِقلية، وقد اطمأنّ أمام لطف الفتيات، وبشاشة الأب بيرّونه، ومزايا دون فابريتسيو العظيمة، إلى أن قصر دونا فوغاتا ليس وكر المجرم (كابارو)، ولذلك يرجّح أنه سيخرج منه سالماً. وأكثر ما بعث في نفسه التعزية والطمأنينة هو وجود كافرياغي الذي عرف أنه يقيم هناك منذ عشرة أيّام، ولكنه يبدو مع ذلك أنه راضٍ عن إقامته كل الرضى، وأنه كذلك

صديق كبير لذلك الفتى فالكونيري، وهذه الصداقة بين الفتى الصقليّ والآخر اللومباردي قد بدت له معجزة. وبعد نهاية العشاء، اقترب من دون فابريتسيو، وطلب إليه أن يسمح له بحديث خاصّ، لأنه كان يعتزم العودة صباح الغد. فأجاب الأمير بابتسامة فهدية عظيمة: "هذا غير ممكن، يا عزيزي الفارس"، ثمّ أضاف: "أنتَ الآن في منزلي، وستظلّ رهيناً عندي ما طاب لي ذلك؛ لن تسافر غداً، ولكي أطمئنّ إلى ذلك سأمتنع عن طيب مخاطبتكَ على انفراد – في ملتقى أربعة عيون فقط - إلى العصر". هذه العبارة لو قيلت للسكرتير الطّيّب قبل ثلاث ساعات، لأفزعتْه، أما الآن، فإنها على العكس من ذلك، قد أدخلت السرور إلى نفسه. ولم تكن أنجيليكا هناك في ذلك المساء، ولذلك راحوا يلعبون (الويست) بالورق: هو، ودون فابريتسيو، وتانكريدي، والأب بيرّونه؛ ففاز مرَّتَيْن، وكسب ثلاث ليرات وخمسة وثلاثين سنتيماً، وبعد ذلك، انسحب إلى غرفته، فطابت له طراوة الشراشف، وغرق في نوم مطمئنّ هنيء.

***

وفي صباح اليوم التالي، أخذه تانكريدي وكافرياغي في جولة في الحديقة، وأرَيَاه متحف الصور، ومجموعة الأقمشة. ثمّ تجوّلا به كذلك جولة قصيرة في المدينة: لقد بدا تحت شمس نوفمبر العسلية اللون أقلّ تشاؤماً ممّا كان في الليلة الماضية، بل لقد لاحت له في جولته ابتسامات على بعض الوجوه، فأخذ شيفاليه دي مونترتسوولو يستعيد اطمئنانه، وبعض ثقته حتّى في صِقلية الخشنة البدائية. وقد لاحظ تانكريدي ذلك، وسرعان ما عاودته اللّذّة الوحيدة لأبناء تلك الجزيرة: لذّة إسماع الغرباء الحكايات المثيرة - وهي مع الأسف صحيحة في الغالب -. كانوا يمرّون آنذاك بالقرب

من قصر طريف، واجهتُهُ الأمامية مزخرفة بحجارة غير أنيقة الهندسة، فقال تانكريدي: "هذا، يا عزيزي شيفاليه، هو منزل البارون موتولو؛ إنه الآن خالٍ ومغلق، لأن الأسرة تقيم في جيرجنتي منذ أن قام اللصوص يخطف ابن البارون قبل عشر سنوات". فجعل البييمونتي يرتجف، وقال: "مساكين! مَنْ يدري كم دفعوا لأجل فديته!"

- "كلا، لم يدفعوا شيئاً، فقد كانوا في ضيق مالي، ولم يكن لديهم نقود عينية، كجميع الآخرين هنا. ومع ذلك، فقد أُعيد إليهم ابنهم، ولكنه أُعيد على أقساط".

- كيف، يا أمير؟ ماذا تريد أن تقول؟

- على أقساط، أقول مصيباً، على أقساط: قطعة قطعة؛ فأوّلاً وصل إبهام اليد اليمنى، وبعد أسبوع، وصلت الرجل اليسرى، وأخيراً وصل الرأس في سلّة جميلة تحت كومة كبيرة من التين (كان إذ ذاك شهر آب)؛ كانت عيناه زائغَتَيْن، والدم يسيل من شدقَيْه. أنا لم أره، فقد كنتُ طفلاً حينئذ، ولكنْ، قيل لي إنّ المنظر لم يكن جميلاً. لقد وُضِعت السّلّة هناك على تلك الدرجة الثانية أمام الباب، وكانت التي وضعتْها عجوز ترتدي شالاً أسود على رأسها، ولم يستطع أحد أن يعرفها.

فغامت عينا شيفاليه اشمئزازاً؛ لقد سبق أن سمع هذه الحادثة، أما الآن، وهو يرى تحت هذه الشمس الساطعة الجميلة الدرجة عينها التي وضعت فوقها الهدية المشوّهة، فإن الأمر يختلف كثيراً. وتحرّكت في داخله روح الموظّف، فقال: "ما أسوأ الشرطة التي كانت لأولئك البوربون، وما أقلّ نظامها! إن هذا كله سينتهي قريباً، حينما تصل شرطتنا إلى هنا".

- لا شكّ في هذا يا شيفاليه، لا شكّ في هذا.

ومرّوا بعدئذ أمام (نادي المَدَنيّيْن)، وكان تحت أشجار الدلب في الساحة يمارس عرضه اليومي لمقاعده الحديدية وللآدميّيْن الذين كأنهم في مأتم. وبودلت التحيات والابتسامات. وقال تانكريدي: "انظرْ إليهم جيّداً، يا شفاليه؛ اطبع المشهد في ذهنكَ: في كلّ عام يحدث مرَّتَيْن أن يظلّ أحد هؤلاء السادة مسمّراً على مقعده، برصاصة تنطلق في نور الغروب المتواري، ولا يفهم أحد مَنْ أطلقها". فأحسّ شيفاليه بحاجته إلى أن يستند إلى ذراع كافرياغي، ليشعر بدم شمالي يجري إلى جانبه. وبعد قليل، لاحت لهم على قمّة منحدر وعر، وعبر زينات متعدّدة الألوان من ملابس داخلية منشورة، كنيسة صغيرة باروكية الطراز. فقال تانكريدي: "تلك هي كنيسة (القدّيسة نينفا)، منذ خمس سنوات، قُتل كاهنها فيها وهو يصلّي القدّاس".

- يا للهول! رصاص داخل الكنيسة!- أيّ رصاص، يا شيفاليه؟! إننا أطيب كاثوليكية من أن نسلك سلوكاً غير لائق كهذا. كل ما في الأمر أنهم وضعوا ببساطة شيئاً من السّمّ في نبيذ المناولة، إن ذلك أكثر اتّزاناً، أريد أن أقول إنه أكثر انسجاماً مع الطقوس الدِّينية. ولم يعرف أحد قطّ مَن الفاعل. لقد كان الكاهن إنساناً فاضلاً جدّاً، ولم يكن له أعداء".

وكَمَنْ يستيقظ في الليل، فيرى شبحاً جالساً عند قَدَمَي سريره، وفوق ملابسه، فيحاول أن يتخلّص من الرعب بأن يشجّع نفسه على الظنّ بأن ذلك مزحة، يقوم بها أصدقاء طيّبون، كذلك لجأ شيفاليه إلى الاعتقاد بأن هذا الكلام مزاح، فقال: "هذا مُسَلّ جدّاً، أيّها الأمير؛ إنه مُسلّ حقّاً!

كان الأجدر بكَ أن تكتب روايات: إنكَ تُحسن سَرْد مثل هذه الخرافات". غير أن صوته كان في الواقع يرتجف، حتّى إن تانكريدي أشفق عليه، وعلى الرغم من أنهم مرّوا في طريق عودتهم إلى القصر على الأقلّ بثلاثة أماكن أو أربعة أخرى كهذه مثيرة للذكريات المرعبة، فقد تجنّب المضي في سَرْد الوقائع، بل راح يتحدّث عن (بيلليني) و(فيردي)، الجرعات الأبدية الشافية للجراح القومية.

***

في الساعة الرابعة عصراً، أرسل الأمير إلى شيفاليه، يُخبره بأنه في انتظاره في مكتبه. وكان المكتب غرفة صغيرة على جدرانها، تحت الزجاج، تماثيل لبعض طيور الحجَل ذات قوائم حمراء، تُعدّ نادرة؛ وحيوانات محنّطة، مَحشوَّة بالتبن، ممّا كان يصيده في الماضي. وأحد الحيطان كان مغطّى برفوف مكتبة عالية متراصّة ملأى بمجلاّت رياضية قديمة. ومن فوق الكنبة الكبيرة المخصّصة للزائرين برج في السقف مخصّص لرَسْم الأسرة: والد دون فابريتسيو الأمير باولو، ذو بشرة قاتمة وشَفَة شهوانية كالبدوي، ويرتدي بذلة البلاط السوداء المعوجة التفصيل، وعليها حبل القدّيس جنّارو؛ والأميرة كارولينا الأرملة، بشعرها الأشقر المتجمّع في تسريحة، تشبه البرج، وبعينَيْها الزرقاوَيْن الصارمَتَيْن؛ وأخت الأمير، جوليا، أميرة فالكونيري، جالسة على مقعد طويل في الحديقة، وإلى يمينها بقعة زهرية اللون لمظلّة صغيرة تركت مفتوحة على الأرض، وعلى يسارها بقعة أخرى صفراء، هي تانكريدي، وعمره ثلاث سنوات، يقدّم لها أزهاراً بريّة (هذه الصورة كان دون فابريتسيو قد وضعها في جيبه سرّاً حينما كان الحرّاس يقومون بإحصاء أثاث قصر فالكونيري، وبتسجيله). ثمّ تحت ذلك باولو،

الابن البكْر، في سراويل جلدية بيضاء أنيقة، وهو يحاول ركوب جواد عنيد، عنقه كالقوس، وعيناه يلمع منهما البريق؛ وأعمام وعمّات متعدّدون، وغير مميّزة أشخاصهم، يتباهون بما يحملون من الحلى، أو يندبون حول جثمان فقيد عزيز. غير أن في وسط البرج، على شكل نجمة قطبية، تتألّق صورة كبيرة: إنها صورة دون فابريتسيو نفسه وعمره أكثر من عشرين عاماً بقليل، وإلى جانبه زوجته الشّابّة تريح رأسها على كتفه باستسلام لذيذ: هي رمادية اللون، وهو وردي، في بزّة الحَرَس المَلَكي الزرقاء المفضّضة، يبتسم راضياً بوجهه المحاط بإطار من الشَّعْر الأشقر الناعم كزغب الطيور.

وما كاد شيفاليه يجلس حتّى عرض المهمّة التي جاء من أجلها، فقال: "بعد أن تمّ الضّمّ الموفّق السعيد، أردتُ أن أقول بعد الاتّحاد العظيم الذي تمّ بين صِقِلية ومملكة سردينيا، تفكّر حكومة تورينو في أن تمضي في تعيين مجلس شيوخ للمملكة، تختار لعضويّته بعض الصقلّيّيْن المشهورين. وقد كلّفت السلطات المحلّيّة بإعداد قائمة بأسماء الشخصيات البارزة، وتقديمها لدراسة الحكومة المركزية، وطبعاً أيضاً للاختيار المَلَكي. وكما هو بَيّن، سرعان ما فكّرت جيرجنتي باسمكم، أيّها الأمير: إنه اسم شهير بعراقة أصله، وبالشرف الشخصي لمَنْ يحمله، وبأمجاده العلْمية، وكذلك بالأعمال التّحرّرية التي قمتُم بها في الأحداث الأخيرة". لقد كان هذا الحَدَث مُعَدّاً منذ زمن، بل كان عرضة لملاحظات ظاهرة مكتوبة بالقلم على الكرّاسة الصغيرة التي تستريح الآن في الجيب الخلفي من سراويل شيفاليه. غير أن دون فابريتسيو لم يُبدِ دليلاً على الحياة: كانت جفونه الثقيلة تكاد تخفي نظراته، وكان هو جامداً لا يتحرّك، وساقه الضخمة ذات الشَّعْر الأشقر تغطّي قبّة القدّيس بطرس الرخامية التي على طاولة هناك، بأكملها.

ولقد اعتاد شيفاليه على غلظة المتكلّمين الصقلّيّيْن حينما يُعرَض

عليهم أمر ما، ولهذا لم يترك نفسه ليُقهَر، فقال: "قبل أن تُرسَل القائمة إلى تورينو، رأى رؤسائي من واجبهم أن يبلغوكَ ذلك، ويسألوكَ إن كان هذا العرض يصادق قولاً لديكَ. لقد كان طلب موافقتكَ -التي تأمل الحكومة في نيلها - هو هدف مهمّتي ههنا، وهي مهمّة أُتيح لي فيها من جهة أخرى الشرف والسرور بمعرفتكَ ومعرفة أسرتكَ، وهذا القصر الفخم، ودونّا فوغاتا الساحرة ذات المناظر الخلابة".

كانت العبارات المغرية الخادعة تتزحلق عن شخصية الأمير كما ينزلق الماء عن أوراق النيلوفر، وهذه إحدى الفوائد التي ينعم بها الرجال المَزهوّون بأنفسهم، والمعتادون، في الوقت نفسه، على مثل هذا الزهو. وكان الأمير يقول في نفسه: "الآن يتصوّر هذا أنه جاء ليخلع عليّ شرفاً عظيماً، وأنا مَنْ أنا، بل وأنا أساوي بمفردي مملكة صِقِلية، وهذا الشرف هو أن يعيّنوني عضواً في مجلس الشيوخ. صحيح أن المنح يجب أن تُقدّر بالنسبة إلى مَنْ يقدمها: فالفلاح الذي يهدي إلي خروفاً صغيراً إنما تكون هديّته أعظم من هداية أمير (لاسكَري) حينما يدعوني إلى العشاء. هذا واضح، وإنما المصيبة هي في أن الخروف يغثيني، وهكذا لا يبقى غير العرفان في القلب، وهذا شيء غير منظور، والأنف المزكوم بالانزعاج، وهذا ظاهر أكثر ممّا يجب". ولقد كان رأي دون فابريتسيو في مجلس الشيوخ الروماني: إلى الشيخ (بابيريوس) الذي كان يحطّم سطل ماء على رأس ديك غير مهذّب، أو حصان هائج، كان كاليغولا قد عيّنه شيخاً؛ إن مثل هذا الشرف قد يبدو حتّى لابنه باولو خطيراً جدّاً. وكان يزعجه كثيراً أن يتذكّر بإلحاح عنيد عبارة قالها مراراً الأب بيرّونه باللاتينية، ومعناها: "الشيوخ أناس طيّبون، أما المجلس، فحيوان شرّير". والآن كان هناك أيضاً مجلس شيوخ إمبراطورية باريس، ولكنه لم يكن سوى جمع للمستغلّين الذين

ينالون الرواتب الضخمة. وهناك - أو لعلّه كان هناك من قبل - مجلس شيوخ في باليرمو أيضاً؛ ولكنه لم يكن، في الواقع، أكثر من لجنة إداريّيْن مَدَنيّيْن، ولكنْ، أيّ إداريّيْن! أمر تافه، بالنسبة إلى رجل من أسرة سالينا.

وأراد أن يتحقّق من الأمر، فقال: "ولكن الخلاصة، أيّها الفارس، اشرحْ لي ماذا يعني فعلاً أن يكون المرء شيخاً: إن الرقابة التي كانت تفرضها الحكومة السابقة لم تكن تسمح بأن تصل إلينا أخبار عن الأساليب الدستورية في الولايات الإيطالية؛ ولم تكفِ إقامة أسبوع واحد في تورينو قبل سَنَتَيْن لإعطائي فكرة حقيقية عن هذا الموضوع. فما هو هذا؟ أهو لقب فخري بسيط؟ أم هو نوع من الأوسمة؟ أم لا بد من تأدية أعمال تشريعية وبرلمانية؟"

فبهت الرجل البييمونتي ممثّل الولاية التشريعية الوحيدة في إيطاليا، وقال: "ولكنْ، أيّها الأمير، إن مجلس الشيوخ هو المجلس الأعلى للمملكة! وفيه زهرة الرجال السياسيّيْن الإيطاليّيْن، تختارهم حكمة الملك، ليُفصحوا، ويُناقشوا، ويُقرّوا، أو يرفضوا تلك القوانين التي تعرضها الحكومة لخير البلاد، وتُقدّمها؛ وهو يقوم في وقت واحد بدور المهماز والزمام معاً: يحثّ على عمل الخير، ويمنع من عمل الشّرّ. إذا ما رضيتَ بأن تحتلّ لكَ مكاناً فيه، فستمثّل صِقِلية تمثيلاً متساوياً مع النوّاب المنتخبين، وسترفع صوت بلادكَ الجميلة هذه التي تواجه الآن منظر العالم الحديث وهي مثخنة بجراح، تحتاج إلى مداواة، ولها مطالب كثيرة عادلة، لا بد من سماعها".

وكان يود شيفاليه أن يطيل كثيراً في هذا الحديث، لولا أن بنديكو راح من خلف الباب يطلب من "حكمة الملك" أن تأذن له بالدخول. وهَمّ دون فابريتسيو بالنهوض، ليفتح له، ولكنه تباطأ كثيراً، ليُعطي البييمونتي

وقتاً كافياً، ليسمح للكلب بالدخول. وراح بنديكو يتشمّم سراويل شيفاليه متهيّباً، إلى أن تيقّن من أنه أمام إنسان طيّب، فتكعّك تحت النافذة، ونام.

- "استمعْ إليّ جيّداً، يا شيفاليه، لو كان الأمر يتعلّق بعلامة تشريف، أو بلقب يُكتَب على بطاقة الزيارة فحسب، لَقبلتُهُ بكل سرور: إنيّ أرى في هذه الفترة الحاسمة، لأجل مستقبل الدولة الإيطالية، أن من واجب كل فرد أن يعطي موافقته ورضاه، وأن تتجنّب الظهور بمظهر التنافر والتخاصم أمام الدول الأجنبية الأخرى التي تنظر إلينا بخوف، أو بأمل لا مبرّر لهما، ولكنها الآن موجودان".

- فلماذا، إذنْ، لا تقبل، أيّها الأمير؟

- اصبرْ قليلاً، يا شيفاليه، سأشرح لكَ الآن ما أريد. نحن الصقليّيْن تعوّدنا، من تعاقب سلسلة طويلة جدّاً من الحكّام الذين لم يكونوا من ديننا، ولم يكونوا يتكلّمون بلغتها، على أن نقسم الشّّعْرة إلى أربعة أجزاء. ولو لم نكن نفعل ذلك، لما استطعنا أن نعيش مع محصّلي الضرائب البيزنطيّيْن، ولا مع أمراء البرابرة، ونوّاب الملوك الأسبان. لقد اعتدنا على التّكيّف، فنحن مخلوقون كذلك. لقد قلتُ: "التماسك" ولم أقلْ "المشاركة". في هذه الأشهر السّتّة الأخيرة، منذ أن وضع زعيمكَ غاريبالدي قدّمه في (مارسالا) وقعت أمور كثيرة جدّاً، ولم تستشيرونا، فلماذا يمكن الآن أن تطلبوا إلى عضو من الطبقة القديمة الحاكمة أن يُنمّيها ويُتمّها؟ لستُ أريد الآن أن أناقش ما إذا كان ما عملتُمُوه خيراً أم شرّاً؛ وفي اعتقادي أن الكثير منه كان شرّاً، ولكنني أريد أن أقول لكَ حالاً ما ستدركه وحدكَ بعد أن تمضي سنة على إقامتكَ بيننا. في صِقِلية، لا يهمّ

أن تعمل خيراً أو شرّاً؛ فالخطيئة التي لا نغتفرها نحن الصقليّيْن هي بكل بساطة "العمل". نحن شيوخ، يا شيفاليه، طاعنون في السّنّ؛ ومنذ خمسة وعشرين قرناً، ونحن نحمل على أكتافنا عبء حضارات عظيمة متعدّدة الأجناس، كلها جاءت من الخارج، لم يبرز بُرعُمٌ واحد منها لدينا، ولا كان لنا في واحدة منها فضل الإبداع، إننا بيض البشرة مثلكَ تماماً، يا شيفاليه، ومثل ملكة بريطانيا، ومع ذلك، فإننا ما نزال مُستَعْمَرَة للآخرين منذ ألفيْن وخمسمئة سنة. ولستُ أقول هذا تذمّراً، فهذا ذنبنا نحن، ولكننا، على كل حال، أصبحنا منهوكين خائري القوى".

وشعر شيفاليه الآن باضطراب، فقال:

- "ولكن هذا قد انتهى الآن، على كل حال؛ إن صِقلية لم تعد أرضاً مَغزوَّة، بل حُرّة وجزءاً من دولة حُرّة".

- "النّيّة حسنة، يا شيفاليه، ولكنها متأخّرة. وعلى كل حال، لقد قلتُ لكَ إن الذنب ذنبنا في الغالب. لقد كنتَ تحدّثني قبل قليل عن "صِقِلية" جديدة، تتفتّح على مدهشات العالم الحديث؛ أما أنا، فأراها، على الأصحّ، عجوزاً مئوية، تُجَرّ في عربة إلى معرض لندن الدولي وهي لا تفهم شيئاً، ولا تبالي بشيء من مصانع الفولاذ في شيفيلد، ولا من معامل النسيج في مانشستر، ولا تحلم بأكثر من أن تجد أحلام يقظتها بين الوسائد المُبلّلة باللعاب، والمبولة تحت السرير".

كان لا يزال يتكلّم ببطء، غير أن قبضة يده كانت تشتدّ حول القدّيس

بطرس، ولم يلبث الصليب الصغير المرفوع فوق القبّة أن وجد بعد قليل مهشّماً. ثمّ قال:

- "الكَرَى، يا عزيزي شيفاليه، الكَرَى هو كل ما يريده الصقليون، وهم سيكرهون كل مَنْ يأتي ليوقظهم حتّى لو جاء يحمل إليهم أحسن الهدايا؛ وكلام بيننا، إن لديّ شكوكاً قوية في أن الحكومة الجديدة تحمل لنا هدايا كثيرة في حقائبها. إن التظاهرات الصِّقلِيّة كلها هي تظاهرات أحلام، حتّى ما كان منها بالغ العنف: حساسيتنا هي شهوة نسيان، وطلقات رصاصنا وطعنات خناجرنا هي شهوة موت، شهوة ركود لذيذ، أعني أيضاً أنها شهوة موت؛ وخمولنا كذلك، وشراباتنا الباردة المصنوعة من القرفة وغيرها؛ وما مظهرنا التّأمّلي غير مظهر العَدَم الذي يريد أن يحلّ ألغاز النيرفانا. ومن هنا تنشأ القوّة لدى البعض منّا، لدى أولئك الذين هم شبه أيقاظ، ومن هنا جاء تأخّرنا الشهير مدى قرن كامل في مظاهر الفنّ والفكر في صِقِلية. إن الأشياء الجديدة إنما تجتذبنا فقط حينما تموت وتصبح غير قادرة على إفساح المجال لجريان حيوات جديدة؛ ومن هذا أيضاً برزت الظاهرة التي لا يمكن تصديقها، وهي نشوء طبقات جديدة، كان يمكن أن تكون محترمة، لو كانت قديمة حقّاً، ولكنها، في الواقع، ليست سوى محاولات يائسة، لتزجّ بنفسها في ماضٍ، لا يجتذبنا إلا لأنه مات".

لم يستطع شيفاليه أن يفهم كل شيء، وعلى الأخصّ، كانت العبارة الأخيرة تبدو له غامضة. لقد سبق له أن رأى العربات المتعدّدة الألوان تجرّها جياد، يعلو رؤوسها الريش، وكان قد سمع كلاماً عن مسرح الأراجوزات البطولية، ولكنه هو أيضاً كان يظنّ ذلك تقاليد قديمة أصيلة. وقال: "ولكنْ،

ألا تظنّ أن في ما تقوله بعض المبالغة، أيّها الأمير؟ فأنا نفسي عرفتُ في تورينو بعض الصقليّينْ المهاجرين، وأذكر منهم (كريسبي) على سبيل المثال، ويبدو لي أنهم لم يكونوا خاملين على الإطلاق".

فتضايق الأمير، وأجاب: "إننا من الكثرة، بحيث لا بد أن يكون بيننا شواذّ، ولقد سبق أن أشرتُ إلى من دعَوتُهم "شبه أيقاظ". أما هذا الشّابّ كريسبي، فلن أستطيع أنا، بكل تأكيد، ولكنْ، ربّما استطعتَ أنتَ أن ترى عندما يبلغ الشيخوخة إذا كان لن يسقط في وصمتنا اللذيذة عينها: الجميع يفعلون هذا؛ ومن جهة أخرى يبدو أنني أسأتُ التعبير عمّا أريد: لقد قلتُ "الصقليون" وكان يحسن أن أضيف "صِقِلية"، البيئة، المناخ، المشهد الصقلي؛ هذه القوى مجتمعة هي التي صاغت النفوس أكثر ممّا فعلت المُسمّيات الأجنبية والنكاحات غير الملائمة: هذا المشهد الذي لا يعرف طريقاً وسطاً بين الميوعة الداعرة والصلابة المقضي عليها، والذي لا يكون ضعيفاً ذليلاً أبداً، أرض، أرض، محبّة للتّوسّع والانطلاق، كما يجب أن يكون البلد الذي خُلق ليكون مأوى لكائنات عاقلة؛ هذا البلد الذي يقوم الجميع على بُعد بضعة أميال منه في (رانداتزو)، كما يقيم الجمال كذلك في خليج (تاورمينا)، وهذا المناخ الذي يُرهقنا ستّة أشهر متواصلة بحرارة، تبلغ أربعين درجة، احسبها، يا شيفاليه، احسبها: مايو، يونيو، يوليو، أغسطس، سبتمبر، أكتوبر، ستّ مرّات ثلاثون يوم شمس ملتهبة الحرارة فوق الرؤوس!! إن صيفنا الطويل هذا شبيه في تجهّمه بالشتاء الروسي، ولكننا نخرج من مقاومته بأقلّ من حظّ الروس في النجاح. أنتَ لم تعرفه بعد، ولكنْ، من الممكن أن يقال إن السماء عندنا تُنزل ثلجاً من نار، كما كانت تفعل بالمُدُن الملعونة في التوراة، وفي كل شهر من هذه الأشهر لو شاء الصقلي أن يشتغل حقّاً، لاستنفد قوّة تكفي لثلاثة أشخاص، ثمّ تأتي

قضية الماء المفقود، أو الذي لا بد من نقله من أماكن بعيدة، بحيث يكون ثمن القطرة منه قطرة عَرَق، ثمّ تجيء الأمطار أيضاً، وهي دائماً عاصفة، تدفع السيول الجارفة إلى الجنون، فتغرق البهائم والآدميّيْن في المكان عينه الذي كان قبل أسبوعَيْن، يموت فيه الآدميون والبهائم من الظمأ. هذا العنف في المكان، وهذه القسوة في المناخ، وهذا التّوتّر المستمرّ في كل وجهة، وهذه الآثار الباقية لنا من الماضي أيضاً، وكلها عظيمة، ولكنها غير مفهومة، لأنها لم تشيَّد بأيدينا، والتي تنتصب من حولنا كأشباح صمّاء رائعة الجمال، وهذه الحكومات كلها التي نزلت على شواطئنا مدجّجة بالسلاح، لا ندري من أي الجهات، فلقيت خدمة سريعة، وكراهية سريعة أيضاً، ولكنها بقيت غير مفهومة، ولم تُفصح عن نفسها بغير الأعمال الفنّيّة التي لا تفهم أسرارها، وبغير الجباية الدقيقة المتينة لأموالنا التي لا تلبث أن تُنفق في أماكن أخرى؛ كل هذه الأشياء هي التي صنعت طبائعنا، فظلّت خاضعة لحتميّات خارجية إلى جانب الحماقة المريعة".

كان هذا الجحيم الذي أُثير في المكتب مثيراً لفزع شيفاليه أكثر من أحاديث الصباح الدموية. فأراد أن يقول شيئاً غير أن دون فابريتسيو كان من شدّة الاندفاع الثائر، بحيث لم يكن مستعدّاً للإصغاء إليه.

"لستُ أنكر أن بعض الصقلّيّيْن المنقولين إلى خارج الجزيرة قد ينجحون في جعل هِممهم تفتر؛ ومع ذلك، فلا بد من تسفيرهم إلى الخارج في سنّ مبكّرة، مبكّرة جدّاً؛ فسنّ العشرين متأخّرة جدّاً، لأن قشرتهم تكون قد صَلُبت، ولذلك سيظلّون مقتنعين بأن بلدهم ككل البلدان الأخرى، إلا أنه مَجني عليه جناية فظيعة، وإن الأغلبية المتحضّرة موجودة هنا، وحثالة الناس في الخارج، ولكنْ، معذرة، يا شيفاليه، قد أطلقتُ لنفسي العنان،

ولعليّ قد سبّبتُ لكَ امتعاضاً. فلنعد إلى موضوعنا الحقيقي: إنني أشكر الحكومة كثيراً لتفكيرها بي في صدد مجلس الشيوخ، وأرجوكَ أن تُعرب لها عن امتناني الخالص؛ غير أنني لا أستطيع القبول. إنني ممثّل للطبقة القديمة، وبالرغم منّي أنا محسوب في عداد النظام البربوني ومشدود إليه بروابط اللياقة، إن لم يكن بروابط العاطفة. إنني أنتمي إلى جيل تاعس، على جواد بين الأزمنة الغابرة والزمن الجديد، وهو برغمه موجود في كلَيْهما. وزيادة على ذلك - كما لا بد أنكَ لاحظتَ - أنا إنسان مُجرّد من الأوهام، وماذا يمكن أن يستفيد المجلس منّي، من شيخ لا خبرة له، وتعوزه المقدرة على خداع نفسه، هذا العامل الأساسي لمَنْ يشاء أن يقود الآخرين؟ نحن أبناء هذا الجيل الآفل، علينا أن نقبع في زاوية، ونتفرج من بعيد على الشقلبات والقفزات البهلوانية التي يقوم بها الشّبّان حول هذا النعش المزخرف جدّاً. إنكم الآن فعلاً في حاجة إلى الشّبّان، الشّبّان النشيطين، ذوي العقول المتفتّحة على الـ (كيف) أكثر منها على الـ (لماذا؟)، والقادرين على استعمال الأقنعة؛ أردتُ أن أقول على تكييف مصالحهم المحدّدة الخاصّة، وتغطيتها بالمثاليات الشعبية الفارغة". ثمّ صمت قليلاً، وترك القدّيس بطرس بسلام. وعاد بعد ذلك يُكمل حديثه: "هل أستطيع أن أسمح لنفسي بأن أقدّم لكَ نصيحة، تنقلها إلى رؤسائكَ؟".

- " طبعاً، أيّها الأمير، وستكون نصيحتكَ مسموعة بكل اعتبار، غير أنني ما أزال أودّ أن آمل أن تعطيني موافقة بدلاً من النصيحة".

- هنالك اسم، أودّ أن أقترحه للمجلس، وهو اسم كالوجيرو سيدارا، هو أجدر منّي بالجلوس فيه؛ أما بيته، فقد قيل لي إنه عريق، أو إنه سيصبح عريقاً؛ وهو يملك أكثر ممّا تدعوه أنتَ "المقام" إذ يملك

"المقدرة"، وإذا كانت تعوزه المؤهّلات العلْمية، فإن لديه المؤهّلات العملية الفذّة، وكان سلوكه خلال أزمة أيّار أكثر من مُرضٍ، بل كان ذا فائدة عظيمة؛ ولا أظنّ أن لديه من الأوهام أكثر ممّا لديّ، غير أن له من الذكاء والبراعة ما يجعله قادراً على أن يخلقها متى كانت لازمة. إنه الشخص الذي تريدونه، ولكنْ، عليكم أن تعملوا بسرعة، لأنني علمتُ أنه يريد أن يرشّح نفسه للمجلس النيابي".

كان قد دار كلام كثير عن سيدارا في مكتب الحاكم: كانت نشاطاته كرئيس للبلدية، وفي شؤونه الخاصّة معروفة. لذلك اضطرب شيفاليه: لقد كان إنساناً شريفاً، وكان تقديره للمجالس التشريعية معادلاً لسلامة نواياه، ولذلك رأى من المناسب أن لا يقول شيئاً، وقد أحسن فعلاً في أن لا يتعهّد بشيء، فالواقع أنه بعد عشر سنوات، كان الإنسان الممتاز دون كالوجيرو سيرتدي جبّة الشيوخ، ويصبح عضواً في المجلس. ومع أن شيفاليه كان أميناً، فإنه لم يكن غبيّاً: صحيح أنه كان يعوزه حضور البديهة الذي يقوم في صِقِلية مقام النباهة، إلا أنه كان يدرك الأمور إدراكاً صحيحاً، وإن يكن بطيئاً، ثمّ إنه لم يكن لديه ما لدى الجنوبييْن من عدم التّفهّم لمصائب الآخرين. ولقد أدرك مرارة دون فابريتسيو ويأسه، واستعاد بصره في لمحة خاطفة منظر الشقاء، والمذلّة، واللامبالاة السوداء التي شاهدها بنفسه طوال الشهر الذي أقامه في الجزيرة. لقد حسد في الساعات الماضية ثراء أسرة سالينا، ووجاهتها، وأما الآن، فإنه يتذكّر بحنين وحنان معاً كرمه الصغير، وأرض (مونترتسوولو) القريبة من (كاسالي) الصافية الحية، على الرغم من أنها قبيحة ومتوسّطة الحجم. ولقد رثى كثيراً للأمير الذي لا رجاء له كما يُرثى للأطفال الحفاة، وللنساء المصابات بالملاريا، والضحايا غير البريئة التي تتوارد جداول أسمائها صباح كل يوم إلى مكتبه: كلهم متساوون، في الحقيقة، وزملاء شقاء متفرّقون في بئر واحدة.

وأراد أن يقوم بمحاولة أخيرة، فنهض والتّأثُّر باد في وجهه، وقال: "ولكنْ، هل أنتَ جادّ، أيّها الأمير، في رفضكَ أن تعمل ما في وسعكَ للتخفيف، أو لمحاولة علاج حالة الفقر الماديّ والتعاسة الخلقية العمياء التي يتخبّط فيها هذا الذي هو شعبكَ نفسه؟ المناخ يمكن قَهْره، وذكرى الحكومات الشّرّيرة ستزول، والصقليون يريدون أن تتحسّن أحوالهم؛ فإذا انسحب الرجال الشرفاء، فستظلّ الدرب مفتوحة للذين لا أهداف لهم، ولا مطامح، أي لأمثال سيدارا، وهكذا سيعود كل شيء كما كان من قبل إلى أجيال أخرى. فأصغِ إلى صوت ضميركَ، أيّها الأمير، لا إلى الحقائق المغرورة أو العنجهيات التي ذكرتها. تعاونْ معنا".

فابتسم له دون فابرتسيو، وأخذه بيده، وأجلسه بقربه على الديوان، وقال له: "أنتَ إنسان شهم، يا شيفاليه، وأعدّ من حسن حظّي أنني عرفتُكَ. إنكَ على حقّ في كل ما ذكرتَ، ولكنكَ أخطأتَ حينما قلت "إن الصقليّيْن يريدون أن تتحسّن أحوالهم". أريد أن أروي لكَ حادثة شخصية. قبل أن ينزل غاريبالدي في باليرمو بيومَيْن أو ثلاثة، قُدّم إليّ بعض ضبّاط البَحْرية الإنكليزية العاملين على تلك السفن الراسية في المرفأ للاطلاع على الأحداث الجارية. وكان هؤلاء قد علموا، لا أدري كيف، أني أملك داراً على الشاطئ أمام البحر، وعلى سطحها شرفة، يرى الواقف عليها دائرة الجبال المحيطة بالمدينة بأسرها. فطلبوا إليّ زيارة الدار، وأن يروا ذلك المنظر الرحيب الذي يقال إن رجال غاريبالدي كانوا يتجوّلون فيه، والذي لا يمكن أن يأخذوا عنه فكرة واضحة من سفنهم. وفي الواقع، كان غاريبالدي حينئذ في (جِبِلروسّا). وجاؤوا إلى المنزل، ورافقتُهم في الصعود إلى السطح. كانوا شبّاناً أذكياء على الرغم من شواربهم الكثيفة الحمراء كالمكانس، وقد بهرهم المنظر الطبيعي، وروعة النور، ولكنهم اعترفوا بأنهم

وقفوا متحجّرين أمام مشاهد الشحوب، والرثاثة، والقذارة التي شاهدوها في الطريق قبل الدخول. ولم أشأ أن أشرح لهم أن كل شيء ناشئ عن الآخر، كما حاولتُ أن أفعل معكَ. وبعدئذ، سألني أحدهم ما الذي جاء يفعله في صِقِلية هؤلاء المتطوّعون الإيطاليون، فقلتُ له بلغته الإنجليزية: "لقد جاؤوا يُعلّموننا الأخلاق الحميدة، ولكنهم لن يُفلحوا، لأننا آلهة". وأظنّ أنهم لم يفهموا ما أردتُ، ولكنهم ضحكوا، وانصرفوا. وهكذا أجيبكَ أنتَ الآن، يا عزيزي شيفاليه. إن الصقليّينْ لن يريدوا أبداً أن تتحسّن أوضاعهم، لسبب بسيط هو أنهم يعتقدون بأنهم كاملون: إن غرورهم أقوى من تعاستهم؛ وكل تدخّل أجنبي - سواء أكان أجنبياً في أصله، أم باستقلاله الروحي إذا كان من الصقليّينْ- إنما يقلب تباهيهم بما بلغوه من الكمال، ويخشى أن يؤدّي إلى إقلاق رضاهم بانتظار العَدَم. وعلى الرغم من أن نحو عشرة شعوب مختلفة قد داستْهم، فإنهم يؤمنون بأن لهم ماضياً إمبراطورياً، يعطيهم الحقّ في جنازات حافلة. أتراكَ تظنّ فعلاً، يا شيفاليه، أنكَ أوّل مَنْ جاء يأمل أن يُسيِّر صِقِلية في مجرى تيّار التاريخ العالمي؟ مَنْ يدري كم سبقكَ من أئمّة مسلمين، وكم من فرسان الملك روجر، وكم من أدباء (الزفيف) الألمان، وكم من البارونات (الأنجويين) الفرنسيّينْ، وكم من مشرّعي (كاتوليكو) الأسبان جبلت رؤوسهم بهذا الجنون الجميل! وكم من نوّاب الملوك الأسبان، وكم من موظّفي كارلو الثالث الإصلاحيّينْ!! ومَنْ يدري أيضاً كم كان عدد غير هؤلاء؟! لقد شاءت صِقِلية أن تنام على الرغم من نداءات هؤلاء لإيقاظهم؛ ولماذا كان عليها أن تصغي إليهم ما دامت غنية، وما دامت عاقلة، متحضّرة، شريفة، ومرموقة ومحسودة من الجميع، وبكلمة واحدة، ما دامت كاملة؟

"والآن لقد شرعوا يقولون حتّى عندنا هنا، تجاوباً مع ما كتبه (برودون)

وكاتب يهودي حقير ألماني، لا أذكر اسمه، إن الذنب في سوء الأوضاع هنا وفي كل مكان آخر هو ذنب الإقطاع، وأعني ذنبي أنا بكلمة أخرى. ربّما كان كذلك، غير أن الإقطاع كان موجوداً في كل مكان، وكذلك الغزوات والفتوحات الأجنبية. ولستُ أظنّ أن أجدادكَ، يا شيفاليه، أو الفرسان الإنجليز، أو السادة الفرنسيّيْن، قد حكموا أفضل ممّا حكمت أسرة سالينا؛ ومع ذلك، فإن النتائج مختلفة، وسبب الاختلاف يجب أن يكون في ذلك المعنى من التّفوّق الذي يُبهر عيون الصقليّيْن، والذي ندعوه نحن أنفسنا "عجرفة"، وهو في الحقيقة "عمى". والآن، ولزمن طويل كذلك، ليس هناك ما يمكن عمله. إنني آسف، غير أنني لا أستطيع أن أضع إصبعاً على طريق السياسة، لأنهم سيعضّونه. إن مثل هذا الكلام لا يمكن أن يقال للصقليّيْن، وأنا نفسي، ولو كنتَ أنتَ قائل هذا الكلام، لاستأتُ منه كل الاستياء.

"لقد تأخّرنا كثيراً، يا شيفاليه، فهلمّ بنا، نذهب، لنرتدي ملابس العشاء؛ عليّ أن أقوم بضع ساعات بدور الرجل المتمدّن".

***

في صباح اليوم التالي، بكّر شيفاليه في الرحيل، وكان سهلاً على دون فابريتسيو أن يرافقه إلى محطّة البريد وهو في طريقه إلى الصيد. وكان دون شيشيو توميو معهما وهو يحمل على كتفَيْه عبئاً مزدوجاً، إذ كان يحمل بندقيّته وبندقية دون فابريتسيو، ويحمل في داخله صفراوية فضائله المهنية.

وكانت دونا فوغاتا، في بواكير الوضوح الباهتة عند الساعة الخامسة

والنصف صباحاً، تبدو خالية مهجورة، وأمام كل مَسكن بقايا الموائد البائسة تتجمّع على مدى الجدران الجرباء، والكلاب الهزيلة تلعقها بشراهة خائبة دائماً. وكانت أبواب بعض البيوت قد فتحت، فانتشرت منها إلى الطريق روائح النيام المتراكمين الكريهة؛ وفي أضواء السرج الخابية، كانت الأمّهات يفركنَ أجفان أطفالهنّ الرمداء؛ لقد كنّ جميعهنّ تقريباً في شبه مأتم، وبعضهنّ كنّ زوجات تلك الدمى الهزيلة التي يتعثّر بها المرء في منعطفات الطُرُق. وشرع الرجال يخرجون حاملين فؤوسهم، ليبحثوا عمّن يعطيهم عملاً، بإذن الله. صمت مطبق أو صرير حاقد من أصوات هستيرية؛ ومن ناحية كنيسة الروح القُدُس أخذ الفجر في لون القصدير ينفث لعابه على الغيوم الرصاصية.

وكان شيفاليه يفكّر: "هذه الأوضاع لن تدوم؟! إن إدارتنا الجديدة، النشيطة، العصرية، ستُغيّر كل شيء"، وأما الأمير، فكان يشعر بالضيق، ويقول في نفسه: " هذا كله يجب أن لا يستمرّ، ولكنه، مع ذلك، سيستمرّ إلى الأبد، إلى الأبد البشري طبعاً: قرناً واحداً، أو قرنَيْن ... وبعد ذلك، سيكون الأمر مختلفاً، ولكنه سيتغيّر إلى أسوأ. لقد كنّا نحن الفهود، والأسود؛ وسيخلفنا الثعالب، والضباع؛ وجميعنا: الفهود، والثعالب، والنعاج، سنظلّ نعتقد أننا ملح الأرض".

ثمّ تبادلا عبارات الشُكر، وحيّا كل منهما الآخر، وصعد شيفاليه إلى عربة البريد القائمة على أربع عجلات بلون القيء، وبدأ الحصان الجامح الجريح رحلته الطويلة.

كان النهار في أوّل بروزه، والضوء القليل الذي استطاع أن ينفذ عبر ستائر الغيوم، لم يلبث أن حجبتْه قذارة النوافذ التي لا تعي الذاكرة

تاريخها. وكان شيفاليه وحيداً، وبين الصدمات والارتجاجات، راح يبلّ سبّابته بلعابه، ويمسح بها الزجاج مدى اتّساع عين واحدة، وراح ينظر إلى الخارج: كان المشهد أمامه تحت النور الرمادي يقفز قفزاً، لا يمكن التّغلّب عليه.

٥. في أسرة الأب بيرّونه

(فبراير ١٨٦١)

كانت أسرة الأب بيرّونه على الفطرة: لقد وُلد في (سان كونو)، وهي بلدة صغيرة صغيرة، أصبحت الآن بفضل سيّارات الأوتوبوس، كأنها إحدى الكواكب الثابتة بالنسبة إلى باليرمو، ولكنها قبل قرن من الزمن كانت تنتمي، إذا شئنا التعبير، إلى نظام شمسيّ خاصّ، فقد كانت تبعد مسافة أربع ساعات أو خمس بالعربة عن شمس باليرمو. وكان أبو كاهننا اليسوعي "قيّماً" على قطعَتَيْن من الأراضي التي يتوهّم دَيْر القدّيس (إيليوتيريو) بأنه يمتلكها في أراضي سان كونو؛ وهي مهنة كثيرة الخطر حينئذ، سواء على صحّة النَّفْس وصحّة الجسد، لأنها كانت تضطرّ صاحبها إلى معاشرات غريبة، وإلى الاطّلاع على أمور كثيرة، يؤدّي تجمّعها إلى داء، لا يلبث المصاب به أن يسقط "فجأة" (هذه هي الكلمة الدقيقة) مُتيبّساً إلى جانب جدار هو وكل ما سُجّل في بطنه من حكايات، فلا تعود تبدو أمام عيون الفضوليّيْن العاطلين عن العمل. غير أن (غايتانو)، والد الأب بيرّونه قد نجح في تجنّب هذا الداء الملازم للمهنة بواسطة نظام صحّيّ صارم، يقوم على الاتّزان، وعلى استعمال علاجات احتياطية، ثمّ مات بسلام بالتهاب الرئة، في يوم أحد من شهر شباط، كانت الشمس فيه ساطعة والرياح تعصف بأزهار اللوز. وقد ترك أرملة وثلاثة أبناء (بنتَيْن والكاهن) في ظروف اقتصادية حسنة نسبياً. لقد كان رجلاً حكيماً، عرف كيف يقتصد من الرواتب الضئيلة إلى حدّ لا يُصدّق، التي كان ينالها من

الدَّيْر، وعند انتقاله إلى العالم الآخر، كان يملك عدداً من أشجار اللوز في قاع الوادي، وبعض الدوالي على السفوح، ومرعى كثير الحجارة في مكان أعلى من أولئك؛ ومفهوم أن هذا متاع فقراء إلا أنه يكفي ليجعل لصاحبه وزناً خاصّاً في بيئة سان كونو الاقتصادية المضغوطة. وكان أيضاً يملك بيتاً صغيراً، غرفة متداخلة دون ترتيب، أزرق من الخارج، وأبيض في الداخل، ويتألّف من أربع غرف تحت، وأربع أخرى فوق، ويقع في مدخل البلدة تماماً من جهة باليرمو.

وكان الأب بيرّونه قد غادر ذلك المنزل في السادسة عشرة من عمره، إذ كان نجاحه المتواصل في المدرسة الرعوية وطيبة قلب الرئيس (ميتراتو) رئيس دَيْر سان (إيليوتيريو) سبباً في إرساله إلى دَيْر رئاسة الأساقفة، ليصبح كاهناً، ولكنه كان يعود كل بضع سنوات إما ليبارك زواج أختَيْه، وإما ليمنح أباه المتوفىّ حلاً من ذنوبه زيادة عن اللزوم (وهو حلّ دنيوي، طبعاً)؛ وهو يعود الآن في نهاية شهر شباط عام ١٨٦١ بمناسبة الذكرى الخامسة عشرة لوفاة أبيه، وكان ذلك اليوم عاصفاً صافي الجوّ، تماماً كاليوم الذي مات فيه أبوه.

لقد قضى خمس ساعات في الطريق، كلها ارتجاج وخضخضة، وساقاه متدلّيتان خلف ذيل الحصان؛ ولكنه ما إن تغلّب على ما انتابه من غثيان، بسبب الرسوم الوطنية المدهونة على جدران العربة، والتي تمثّل غاريبالدي بلون اللهب على ذراع قدّيسة، اسمها روزاليا، لونها مثل لون البحر، حتّى أحسّ بأن ساعاته الخمس تلك كانت مهيّجة سارّة. وكان الوادي الذي يصعد من باليرمو إلى سان كونو يجمع في ذاته المنظر العامّ الرائع لمنطقة الشاطئ ومنظر الداخل الذي لا يُطاق، وتتردّد في جنباته

هبات مفاجئة، تجعل هواءه صحّيّاً، وتشتهر بأنها قادرة على إطاشة طلقات الرصاص، مهما تكن محكمة التصويب، حتّى لقد كان الرماة يفضّلون التّمرّن على الإطلاق في أماكن أخرى، بسبب ما يلاقونه هناك من مشاكل في إطلاق القذائف الحربية. ثمّ إن السائق الذي كان قد عرف المتوفىّ معرفة حسنة، استرسل في سَرْد ذكرياته الطويلة عن مزاياه؛ وعلى الرغم من أن هذه الذكريات لم تكن مألوفة على السَّمْع البنوي والكَنَسي، إلا أنها كانت باعثة على رضى المسمع وراحته.

وعند وصوله، استُقبل بدموع الفرح، فعانق أمّه، وباركها، وهي عجوز، شَعْرها أبيض ناصع، وترتدي ثياب الحداد الدائمة؛ وسلّم على أختَيْه وأبنائهما، ولكنْ، من بين هؤلاء نظر شزراً إلى (كرميلو) بسبب قلّة ذوقه، لأنه زيّن قبّعته بشريط مثلّث الألوان كأنه في مهرجان. وما كاد يدخل الدار حتّى هاجت به، ككل مرّة، ذكريات الشباب عنيفة لذيذة: كلّ شيء على حاله؛ أرضية البيت المصنوعة من الفخّار الأحمر، وكذلك الأثاث البسيط. والنور يتسرّب من النوافذ الضّيّقة. وكان الكلب (روميو) ينبح نباحاً قصيراً في أحد أركان المنزل، وهو يشبه كل الشبه كلباً آخر من نوع الثعلب، كان رفيقه في ألعابه العنيفة. ومن المطبخ، كانت تتصاعد رائحة (اليخنة)، أو كما يدعونها (Raoù) التي تغلي على النار، وهي مصنوعة من البندورة، والبصل، ولحم الكبش، لتُضاف إلى طعام الـ(Anelletti) الذي يهيّأ في الحفلات الكبيرة. وكل شيء يدل على الصفاء الذي حلّ بعد الحداد الطويل على الفقيد المرحوم.

وتوجّهوا حالاً إلى الكنيسة للاستماع إلى صلاة القدّاس التذكارية. وكانت بلدة سانكونو في ذلك اليوم في أبهج مظاهرها، وتزهى في شبه معرض

باهر من مباهجها المتنوّعة. وكانت الجداء الناعمة ذات الأذناب السوداء المتلولحة، وكثير من الخنازير الصِّقِليّة الصغيرة الداكنة المتوثّبة كالمهيرات تتراكض بين جموع الناس في الدروب الوعرة. ولمّا كان الأب بيرّونه قد أصبح نوعاً من الفخر للبلدة، فقد راح كثير من النساء والأطفال ومن الشّبّان كذلك، يتزاحمون حوله، ليطلبوا بركته، أو ليتذاكروا الأيّام السالفة.

وفي غرفة الملابس الكَنَسية، رحّب به خوري الرعية؛ وبعد انتهاء القدّاس، مضوا إلى مكان القبر في كنيسة صغيرة مجاورة، وجعلت النساء يلثمنَ حجر القبر الرخامي باكيات، وأخذ الابن الكاهن يصلّي بصوت مرتفع بلغته اللاتينية غير المفهومة. وحينما عادوا إلى البيت كانت طبخة الـ (أنيليتي) جاهزة، وقد استطابها الأب بيرّونه كثيراً، لأن الأطعمة الفاخرة لدى أسرة سالينا لم تستطع أن تفسد فمه.

وعند المساء، جاء أصدقاؤه يُسلّمون عليه، واجتمعوا في غرفته. وكان مصباح نحاسي ذو ثلاثة أذرع يتدلّى من السقف، وينشر النور من فتائله المشتعلة بالزيت؛ وفي إحدى الزوايا، كان السرير يعرض فرشاته ذات الألوان المختلفة والتطريز الأحمر والأصفر المزعج، وهناك زاوية أخرى من الغرفة، يقوم عندها زنبيل عال من الخوص، يُحفَظ فيه خزين الحنطة ذات اللون العسلي التي يأخذون منها كل أسبوع إلى الطاحون لحاجات الأسرة، وعلى الجدران نقوش جرباء، بينها صورة للقدّيس أنطون، يحمل الطفل الإلهي، والقدّيسة لوشيا وعيناها مقلوبتان، والقدّيس فرنسيس سافيريو يخطب في جماعات من الهنود متفرّقة وعلى رؤوسهم الريش؛ وفي خارج المنزل، في الغسق الساطعة نجومه تصفّر الريح، وتحتفل وحدها بذكرى الفقيد على طريقتها الخاصّة. وفي وسط الغرفة تحت المصباح يجثم

كانون النار الكبير محاطاً بحزمة حطب لامع، تستند إليها قوائمه، ومن حوله مقاعد، يجلس عليها الضيوف. وكان هناك خوري الرعية، والأخوان (سكيرو) صاحبا المكان، ودون بييرترينو بائع الحشائش العجوز. لقد جاؤوا منقبضين، وظلّوا كذلك، لأنهم كانوا يتحدّثون في السياسة، بينما كانت النساء في الطابق السفلي لا يعملنَ شيئاً، وكانوا يرجون أن يسمعوا أخباراً مطمئنة من الأب بيرّونه القادم من باليرمو، والذي لا بد أنه كان يعرف الشيء الكثير، لأنه يعيش بين "السادة". وقد أشبع اليسوعي رغبتهم من الأخبار، إلا أن أملهم في الأنباء المطمئنة قد خاب؛ لأن صديقهم الكاهن، بدافع من الإخلاص من جهة، ومن جهة أخرى بدافع البراعة الحذرة، كان يُصوِّر لهم المستقبل شديد السواد. عن (غائيتا) ما يزال يرفرف عليها العَلَم البربوني المثلّث الألوان، ولكن الطوق حولها كان حديدياً، ومعامل البارود تتطاير واحداً تلو الآخر، ولم يبقَ هناك ما يمكن الحفاظ عليه غير الشرف، أعني لم يبقَ غير الشيء القليل. لقد كانت روسيا صديقة، ولكنها بعيدة، ونابوليون الثالث غير مأمون الجانب، وهو قريب؛ ولم يتحدّث اليسوعي عن ثورات (بازيليكاتا) و(أرض العمل) إلا قليلاً، لأنه كان في أعماقه يشعر بالخجل. لقد قال إن من الضروري الخضوع لحقيقة هذه الدولة الإيطالية الناشئة، وهي ملحدة ونهّابة، والإذعان لشرائع المصادرة والتجنيد التي ستمتدّ من منطقة بييمونته إلى هنا، كما تنتشر الكوليرا. "سترون" ... هكذا كانت خاتمة حديثه ... "سترون أنهم لن يتركوا لنا حتّى العيون للبكاء".

عند هذه الكلمات، اختلطت الأصوات من جوقة الندب والمناحات القروية الفطرية، وأحسّ الأخوان (سكيرو) وبائع الحشائش بقبضة حراسة الأموال الأميرية، أما الأوّلان، فقد كانت ستكلّفها إعانات غير عادية، ومبالغ إضافية، وأما الآخر، فقد كان الأمر له مفاجأة، قلبت حياته: لقد

استُدعي إلى دار البلدية، وهناك قيل له إنه إذا لم يدفع عشرين ليرة كل سنة، فلن يسمح له ببيع أشيائه البسيطة. "ولكن هذه الأعشاب والحشائش المقدّسة قد خلقها الله، وأنا أمضي لأجمعها بيدي من الجبال في أيّام المطر والصحو، في مواعيدها المحدّدة من ساعات النهار والليل! وأجفّفها في الشمس التي تمنح حرارتها للجميع، وأخلطها بتراب من عندي، في الجرن الذي كان من قبل لجدّي! فما شأنكم أنتم في ذلك، يا رجال البلدية؟ ولماذا يجب أن أدفع لكم عشرين ليرة؟ هكذا؟ لأجل جمال وجوهكم؟".

كانت الألفاظ تخرج متقطّعة من فمه الخالي من الأسنان، وعيناه تقدحان بغضب حقيقي شديد. "أأنا مخطئ؟ أم على حقّ، يا أب بيرّونه؟! قل لي أنتَ!".

لقد كان اليسوعي يحبّه؛ ويتذكّره رجلاً بالغاً، بل بالأحرى أحدبَ لكثرة الجري والتجوال لكسب عيشه، حينما كان هو لا يزال فتىً صغيراً، يطارد العصافير، ويرشقها بالحجارة؛ وكان يذكّره بالشُّكر، لأنه كان حينما يبيع للنساء طبخة من أعشابه، يقول دائماً إنه لولا كثرة صلواته "السلام عليكِ، يا مريم" و"المجد للآب" لظلّ عاطلاً عن العمل. ولكن عقله الحكيم كان فيما عدا ذلك يتجاهل ماذا في خلطاته حقّاً، وماذا يُرجى من ورائها.

"الحقّ معكم، يا دون بيترينو، مئة مرّة الحقّ معكم؛ ولِم لا؟ ولكنْ، إذا لم يأخذوا المال منكم ومن سواكم من الفقراء أمثالكم، فأين يجدونه، لكي يشنّوا الحرب على البابا، ويغتصبوا ما يملكه؟"

وراح الحديث يمتدّ ويتشعّب تحت الضوء الضئيل، المضطرب بفعل الريح القوية التي كانت تتغلّب على العوائق الموضوعة لمنعها. وراح الأب

بيرّونه يجول بحديثه حول المصادرات المنتظرة، والتي لن يصدّها شيء عن أملاك الكنيسة. إذنْ، وداعاً، يا أملاك الدَّيْر المتواضعة هنا من حولنا؛ وداعاً، أيّها الحساء الذي يوزّعه الدَّيْر في أيّام الشتاء القاسية. وحينما تجرّأ أحد الأخوَيْن (سكيرو)، وقال إن هذا ربّما ساعد بعض الفلاحين الفقراء على الجدّ لتوفير رأس مال صغير لهم، اصطدم صوته باحتقار صريح، إذ أجابه الكاهن بقوله: "سترون، يا دون أنتونيو، سترون. إن رئيس البلدية سيشتري كل شيء، وسيدفع الأقساط الأولى، ثمّ "اللي شاف شاف!"... لقد حصل مثل هذا في بيمونته".

وانتهت الجلسة، وغادر الزائرون المنزل أكثر تجهّماً وقطوباً منهم عند دخولهم، ولدى كلٍّ منهم زادٌ للثرثرة، يكفيه شهرَيْن كاملَيْن. ولم يبقَ غير بائع الحشائش الذي لم يكن يستطيع الذهاب للنوم في تلك الليلة، لأنه كان في مستهلّ شهر جديد، وكان القمر ساطعاً، وعليه أن يذهب ليجمع الحصلبان من صخور (بيتراتسي)؛ لقد أحضر معه فانوسه، وسيمضي إلى عمله حالما يخرج.

"ولكنكَ، أنتَ، يا أبتِ، تعيش بين "النبلاء"، فما رأي السادة في هذه النار العظيمة؟ ماذا يقول فيها الأمير سالينا، وهو مَنْ نعرف في عَظَمَته، وغضبه، وغطرسته؟".

إن الأب بيرّونه كثيراً ما ألقى على نفسه هذا السؤال، ولم يكن الجواب عنه سهلاً، ولاسيما أنه لم يبالِ بما كان قد قاله له دون فابريتسيو في مكتبه صباح أحد الأيّام منذ عام، بل حمله على محمل المبالغة. أما الآن، فإنه يعرفه، ولكنه لم يكن يجد وسيلة ليصوغه في قالب يستطيع أن يفهمه دون بيترينو، الذي لم يكن غبياً، ولكنه كان أكثر مقدرة على فَهْم ما يتعلّق

بعلاج البلغم، والريح، أو على معرفة ما يقوّي الباه من حشائشه وأعشابه، منه على فَهْم الأمور العقلية المُجرّدة.

"انظروا، يا دون بييترينو؛ إن "السادة"، كما تقولون أنتم، لا يَسهل فَهْمهم. إنهم يعيشون في عالم خاصّ بهم، لم يخلقه الله مباشرة، بل خلقوه هم أنفسهم خلال أجيال من تجاربهم الخاصّة جدّاً، ومن مصائبهم وأفراحهم؛ إن لهم ذاكرة جماعية متينة، ولذلك يغضبون ويفرحون لأمور، لا تهمّكم، ولا تهمّني في شيء، ولكنها بالنسبة إليهم حيوية، لأنها تقترن بحصيلة ذكرياتهم، وآمالهم، وبمخاوف طبقتهم. ولقد شاءت عناية الله أن أصبح أنا جزءاً متواضعاً من النظام المجيد لكنيسة أبدية مضمون لها الظفر النهائي الحاسم؛ أما أنتم، فإنكم في الطرف الآخر من السّلّم، ولا أقول الطرف الأسفل، بل الطرف المختلف فقط. فأنتم حينما تهتدون إلى شتلة زعتر قوية، أو إلى عشّ عصافير جميل (وأنا أعلم أنكم تبحثون عن هذا أيضاً، يا دون بييترينو) تكونون على صلة مباشرة بالطبيعة التي خلقها الله، وجعل لها إمكانات مختلفة للخير والشّرّ، ليمارس فيها الإنسان حُرّيّة الاختيار الممنوحة له؛ وحينما تستشيركم العجائز الخبيثات أو الفتيات الشهوانيات، تهبطون في هاوية الأجيال إلى العصور المظلمة التي سبقت نور (الجُلجُلة)".

كان الشيخ ينظر إليه مبهوتاً: لقد كان يريد أن يعرف ما إذا كان الأمير سالينا راضياً أم غير راض عن الأوضاع الجديدة، بينما يحدِّثه الآخر عن العصافير، وعن نور الجُلجُلة. فقال في نفسه: "مسكين! لقد جُنّ لكثرة المطالعة!"

ومضى الخوري يقول: "أما "السادة" فلا؛ إنهم ليسوا كذلك؛ إنهم يعيشون على أمور مارسوها بأنفسهم، ونحن الكَنَسيّيْن إنما نخدمهم، لكي

نُثبّتهم في العمل للحياة الأخرى، كما تخدمونهم أنتم، يا باعة الحشائش، لكي تقدّموا لهم الملينات والمهيّجات. ومع هذا، فأنا لا أريد أن أقول إنهم أشرار: على العكس تماماً؛ إنهم مختلفون؛ وربّما بدوا لنا غريبين، لأنهم بلغوا القمّة التي يسعى إليها كل مَنْ ليسوا قدّيسين، وهي إهمال شأن الأمور الأرضية بحكم العادة، ولعلّهم لهذا السبب لا يبدون اكتراثاً لبعض الأمور التي نراها نحن عظيمة الأهمّيّة. إن الواقف على الجبل لا يعبأ ببعوض السهول، والذي يعيش في مصر لا يحتاج إلى مظلّة واقية من المطر؛ ومع ذلك فإن الأوّل يخشى العواصف الثلجية، والثاني يخشى التماسيح، وهذه أمور لا تشغل بالنا كثيراً. ولقد دخلت في حياتهم مخاوف جديدة، ما نزال نحن نجهلها: فلقد رأيتُ دون فابريتسيو يكفهرّ، وهو الرجل الجادّ العاقل، بسبب ياقة قميص غير منشّاة كما يحبّ، وأعرف جيّداً أن أمير (لاسكَري) لم ينم من شدّة الغيظ ليلة كاملة، لأنهم أجلسوه خطأ في غير المقعد الذي يجب أن يجلس فيه على العشاء في دار المحافظة. والآن ألا يبدو لكم أن النوع الإنساني الذي يغتاظ بسبب الملابس فقط، أو بسبب البروتوكول، هو نوع سعيد، و بالتالي مُتفوّق؟!".

لم يعد دون بييترينو يفهم شيئاً: لقد تكاثرت عليه الغرائب، فقد خرجت له الآن ياقات القمصان والتماسيح. ولكن بقية من إحساس الفطرة ما يزال يمسكه، فقال: "لكنْ، إذا كان الأمر كذلك، يا أبتِ، فسيذهبون جميعهم إلى جهنّم!"

-ولماذا؟ سيهلك بعضهم، وينجو البعض الآخر حسب الحياة التي عاشوها ضمن عالمهم هذا المقيّد بشروط معيّنة؛ فالأمير سالينا، مثلاً، لا بد أن ينجو، لأنه يقوم بدوره قياماً حسناً، فيتبع الشرائع، ولا يغشّ.

إن الله الخالق يعاقب مَنْ يتعمّد مخالفة الشرائع السماوية التي يعرفها بملء إرادته، ومَنْ يسير مختاراً على طريق الشّرّ؛ أما الذي يسير في طريقه دون أن يُغيّر مسلكه، فهو دائماً على صواب. فأنتم مثلاً، يا دون بيترينو، لو بعتُم نباتاً سامّاً بدلاً من النعنع وأنتم تعرفون ذلك، فإنكم ستهلكون؛ ولكنكم إذا فعلتم ذلك وأنتم تعتقدون أنكم مُحِقّون فإن "السّيّدة زانا"، مثلاً، التي تشتري منكم ستموت ميتة شرفية جدّاً مثل ميتة سقراط، وتذهبون أنتم رأساً ودون التواء إلى السماء بثياب وأجنحة بيضاء ناصعة".

كان موت سقراط فوق مدى إدراك بائع الحشائش، ولذلك تعب فكره، فنام، ولاحظ الأب بيرّونه ذلك، فَسُرّ له، لأنه الآن أصبح في وسعه أن يتحدّث بحُرّيّة، دون خشية من أن لا يكون كلامه مفهوماً؛ وكان يريد أن يتكلّم، وأن يضع في عبارات دقيقة محكمة الأفكار الغامضة التي تعتلج في داخله. فقال متابعاً:

"وأنهم ليصنعون كثيراً من المعروف أيضاً؛ ولو تعلمون - على سبيل المثال - كم من الأسر المعدَمة ما كانت لتعيش لولا ما تجود به قصورهم! وهم لا يطلبون شيئاً لقاء ذلك، ولا حتّى الراحة من مضايقات اللصوص. ولا يفعلون ذلك حبّاً في الظهور، ولكنْ، لنوع من الرجوع إلى الأصل الموروث عن الجدود الذي يدفعهم دفعاً، فلا يملكون أن يفعلوا غير ذلك. وهم أقلّ أنانية من كثيرين غيرهم، وأن يكونوا يبدون كذلك. إن عَظَمَة بيوتهم وفخامة أعيادهم تحمل في نفسها شيئاً غير شخصي، شبيهاً بعَظَمَة الكنائس والطقوس الدِّينية، ومكرّساً - كما يقال باللاتينية - "Ad Maiorem Gentis Gloriam"، لمجد الناس الأعظم، وهذا يساعد كثيراً على خلاصهم. وفي مقابل كل كأس شمبانيا يشربونها يقدّمون خمسين كأساً

للآخرين، وإذا ما أساؤوا معاملة أحد الناس، كما يحدث أحياناً، فليست شخصيتهم هي التي تذنب، ولكنهم بذلك إنما يؤكّدون طبقتهم. إن الأعمال الصالحة تنمو وتزدهر. لقد حمى دون فابريتسيو، مثلاً، ابن أخته تانكريدي وربّاه؛ وهذا يعني أنه قد أنقذ يتيماً مسكيناً، كان لولاه هالكاً. ولكنكم ستقولون إنه فعل ذلك، لأن الفتى كان هو أيضاً سيّداً، وإنه ما ليضع أصبعه حتّى في الماء البارد لأجل سواه. وهذا حقّ. ولكنْ، لماذا كان عليه أن يفعل ذلك إذا كان يعتقد حقّاً، وفي سائر جذور قلبه، أن "الآخرين"، جميعهم ليسوا سوى نماذج سيّئة، أو أدوات خزفية، خرجت مشوّهة من يد الصانع، وأنه لا فائدة من عرضها للتجربة بالنار؟

"أنتم، يا دون بييترينو، لو لم تكونوا نائمين في هذه اللحظة، لقفزتُم لتقولوا لي إن السادة يُسيئون كثيراً في ازدرائهم للآخرين، وإننا كلنا خاضعون على السواء لعبودية الحبّ والموت المزدوجة، ومتساوون أمام الله؛ وليس في وسعي إلا أن أقول إنكم على حقّ؛ ولكنني أضيف أنه ليس من الحقّ أن نتّهم "السادة" وحدهم بالازدراء، لأن هذا رذيلة عامّة. فالذي يُدرّس في الجامعة يحتقر معلّم المدارس الرعوية البسيطة، حتّى لو لم يكن يعلن احتقاره هذا. وما دمتم راقدين الآن، ففي وسعي أن أقول لكم دون تهيّب، إننا نحن رجال الكنيسة نعدّ أنفسنا أسمى من المَدَنيّيْن، ونحن اليسوعيّيْن أرقى من بقية الأكليروس، كما أنكم أنتم أيضاً، بائعي الأعشاب، تحتقرون قالعي الأسنان، وهؤلاء بدورهم يسخرون منكم؛ والأطبّاء أيضاً يسخرون من قالعي الأسنان، ومن بائعي الأعشاب على السواء، ينما يكونون هم أنفسهم حميراً في نظر المرضى الذين يزعمون أنهم سيظلّون يعيشون، برغم الأورام أو الأمراض التي تفتك بقلوبهم وأكبادهم؛ والمحامون في نظر القضاة ليسوا سوى أناس مملّين، همّهم أن يُعطّلوا سير القانون، ومن جهة

أخرى، نجد الآداب تنحو بالهجاء اللاذع على الفخفخة، والتهاون؛ وأسوأ من ذلك أحياناً أنها تهجو أولئك القضاة أنفسهم. وليس هناك سوى عمّال الفؤوس والمجارف الذين هم مُحتَقَرُون حتّى في نظر أنفسهم؛ فإذا ما جاء دورهم ليسخروا من الآخرين، فستصبح الحلقة مغلقة، ولا بد عندئذ من البداية من جديد.

"هل فكّرتم قطّ، يا دون بيترينو، كم عدد المهن التي أصبحت إهانات؟ من الحمّالين، إلى الإسكافيّيْن، إلى العجّانين، إلى عمّال الإطفائيات؟ إن الناس لا يفكّرون في مزايا الحمّالين والإطفائيّيْن وفضائلهم، بل ينظرون فقط إلى عيوبهم السطحية التي على الهامش، ويدعونهم كلهم أراذل وذوي أمجاد باطلة؛ وبما أنكم لا تستطيعون أن تسمعوني، ففي وسعي أن أقول لكم إنني أعرف جيّداً المعنى الشائع بين الناس لكلمة "يسوعي".

"ثمّ إن لهؤلاء السادة النبلاء حياءهم في المصائب التي تنزل بهم: وقد رأيتُ واحداً منهم نزلت به مصيبة، فصمّم على أن يقتل نفسه في اليوم التالي، وكان يبدو مبتسماً ونشوان، كأنه طفل في الليلة التي تسبق مناولته الأولى؛ أما أنتم، يا دون بيترينو، فأنا أعرف أنكم إذا اضطررتُم إلى شرب إحدى خلطاتكَ، فستتجاوب البلدة كلها بأصوات شكواكَ وتذمّركَ. إن الغضب والمزاح من خصائص السادة، أما النَّدْب والاستعطاف، فلا، وأنا بالأحرى أريد أن أعطيكم وصفة، وهي: إذا صادفتم "سيداً" يتذمّر ويستعطف، فابحثوا عن شجرة أصله، وستجدون فيها حالاً غصناً يابساً".

"إن طبقتهم من الصعب إخضاعها، وتقليص عددها، لأنها في طبيعتها تتجدّد باستمرار، ولأنها عند الضرورة تعرف كيف تموت ميتة كريمة، أعني أنها تعرف كيف تُلقي بذرة في اللحظة النهائية. انظروا إلى فرنسا: لقد

أسلموا أنفسهم للذّبْح بترفُّع وأناقة، وها هم الآن هناك كما كانوا من قبل؛ أقول كما كانوا من قبل، لأنه ليس الأملاك الواسعة والحقوق الإقطاعية هي التي تخلق النبلاء الأشراف، ولكنه اختلافهم عن الآخرين. والآن يقولون لي إن في باريس كونتات بولنديّيْن أرغمهم الاضطهاد والجور على اللجوء إلى هناك، وعلى حياة الشقاء؛ إنهم يعملون حوذيّيْن، ولكنهم ينظرون إلى زبائنهم البورجوازيّيْن نظرات، تجعل أولئك المساكين يصعدون إلى العربة أذلاء كالكلاب في داخل الكنيسة، دون أن يعرفوا السبب في ذلك.

"وسأقول لكم، يا دون بييترينو، إذا ما قُدِّر لهذه الطبقة أن تختفي، كما حدث مراراً من قبل، فستحلّ محلّها حالاً طبقة أخرى مماثلة، لها مثل مزاياها ومثل عيوبها، وقد لا تقوم حينئذ على عراقة الدم، بل ما يُدريني ... قد تقوم على الأقدمية في المكان، أو على ادّعاء معرفتها أكثر من سواها لنصوص، تُعدّ مقدّسة".

وعند هذا سُمع وَقْع خطى الأمّ على السّلّم الخشبية. ودخلت ضاحكة، ثمّ قالت: "مع مَنْ كنتَ تتكلّم، يا ولدي؟ ألا ترى أن صديقكَ نائم؟"

فخجل الأب بيرّونه قليلاً، ولم يجبْ عن السؤال، ولكنه قال: "سأرافقه الآن إلى الخارج. مسكين، إن عليه أن يظلّ في البرد طوال الليل". ثمّ أخرج السراج من قلب الفانوس، وأشعله من لهيب مصباح البيت واقفاً على طرفيَ قَدَمَيْه، فتلوَّث ثوبه بالزيت الذي اندلق منه. ثمّ أعاده بعد اشتعاله إلى داخل الفانوس، وأطبق عليه بابه. وكان دون بييترينو يغطّ في نومه، ومن إحدى شَفَتَيْه يتدلّى خيط من اللعاب منحدراً على ياقته، وقد استغرق إيقاظه بعض الوقت، فلمّا استيقظ قال: "معذرة، يا أبتِ، ولكنكَ كنتَ تقول أشياء غريبة جدّاً ومشوّشة"، وضحك الاثنان، ونزلا السّلّم، ثمّ خرجا،

وكان الليل يغمر البيت، والبلدة، والوادي، وبصعوبة، كان يمكن رؤية الجبال القريبة والدائمة القلق. ثمّ هدأت الريح، ولكنْ، ظلّ البرد شديداً؛ وكانت النجوم تلمع بغضب، وتُنتج الألوف من درجات الحرارة دون أن تستطيع تدفئة عجوز مسكين. "مسكين دون بييترينو! أتريدون أن أمضي وأحضر لكم معطفاً آخر"؟

- " شُكراً، لقد اعتدتُ على البرد. سنلتقي غداً، وعندئذ تخبرني كيف تحمّل أمير سالينا الثورة".

- "سأقوله لكَ حالاً بإيجاز: يقول إنه ليس هناك ثورة، وإن كل شيء سيدوم كما كان من قبل".

- " يعيش الأحمق! وأنتَ ألا ترى أن هناك ثورةً في طَلَبِ رئيس البلدية منّي أن أدفعَ له عن الحشائش التي يخلقها الله، وأجمعها بنفسي؟ أم أنكَ أفسدتَ رأسكَ أنتَ أيضاً؟"

وراح نور الفانوس يبتعد على دفعات حتّى اختفى في الظلام الكثيف كاللّبّاد. وكان الأب بيرّونه يفكّر في أن الدنيا ليست سوى "دوشة" كبيرة، وتحطيم دماغ لمَنْ لا يعرف الحساب ولا اللاهوت. "يا إلهي! إن عملكَ الشامل وحده هو الذي يمكنه أن يجترح هذه التعقيدات كلها".

***

وفي صباح اليوم التالي، وقع في يده بَطل آخر لتلك التعقيدات. فحينما نزل من الغرفة مستعدّاً للذهاب لتأدية صلاة القدّاس في الكنيسة الرعوية، وجد أخته (سارينا) تقطع البصل في المطبخ، وكانت الدموع في عينَيْها تبدو أكبر ما يمكن أن يستثيره هذا العمل. فقال لها: "ماذا بكِ، يا سارينا؟ هل هناك مكروه؟ لا تذلّي نفسكِ، فإن الله يبتلي ويُؤاسي".

ولكن الصوت المؤاسي بَدَّد ما كان لدى المسكينة من بقية وجل، فشرعت تبكي بشدّة ووجهها مرتكز على طرف الطاولة، ومن بين الزفرات كانت تتردّد الكلمات عينها: "أنجيلينا، أنجيلينا ... لو علم فيشنزينو، لقتلهما معاً ... أنجيلينا! إنه يقتلكما!"

وكان الأب بيرّونه واقفاً ينظر إليها ويداه مُدخلتان في حزامه الأسود العريض وإبهاماه وحدهما بارزان من فوقه، ولم يكن صعباً عليه أن يدرك الحقيقة: لقد كانت أنجيلينا الابنة غير المتزوّجة لأخته سارينا، وفيشنزينو الذي تخشى غضبه هو والدها، أي زوج أخته، والشخص الوحيد المجهول في هذه المعادلة الحسابية كان اسم الآخر، عشيق أنجيلينا الطارئ.

وهذه كان اليسوعي قد رآها أمس فتاة بعد أن كان قد غادرها طفلة بكّاءة، عمرها سبع سنوات. لا بد أنها الآن ابنة ثماني عشرة سنة، وكانت على جانب كثير من الدمامة، ذات فم بارز كالكثير من القرويات في تلك الجهة، وعينَيْن مذعورتَيْن كَعَينَي كلب، لا ربّ له. ولقد رآها مقبلة، ولكنه في قلبه لم يعقد إلا مقارنة قليلة مشفقة بين هذه الفتاة الضئيلة كاسمها المصغّر تصغيراً شعبياً(*)، وأنجيليكا الرائعة كاسمها الشّعري الآريوستي(**) التي أقلقت أخيراً سلام بيت سالينا.

المصيبة، إذنْ، كانت عظيمة، وقد انغمس فيها بأكمله. فتذكّر ما كان يقوله دون فابريتسيو: " كلّما التقيتُ بقريب، التقيتُ بشوكة"، ثمّ عاد، فندم على أنه تذكّر ذلك. فرفع يده اليمنى وحدها من الحزام، وخلع قبّعته،

---

*) (أنجيلينا) هو تصغير للتحبّب أو للتقليل من (أنجيلا). (المترجم).

**) نسبة إلى الشاعر الإيطالي الشهير لودوفيكو آريوستو، معاصر ميكلانجاوا، وماكيافيللي، وصاحب الملحمة الشهيرة (orlando furioso) وُلد عام ١٤٧٤ وتوفي عام ١٥٣٣. (المترجم).

وجعل يربت على كتف أخته المضطربة، ويقول: "هيّا بنا، يا سالينا، لا تفعلْ هكذا! إني هاهنا لحسن الحظّ، ولن يفيدكَ البكاء شيئاً. أين هو فيشنزينو؟"

كان فيشنزينو قد خرج ليذهب إلى (ريماتو)، ليبحث عن عامل حقل الأخوَيْن (سكيرو). الأمر، إذنْ، أقلّ سوءاً. ففي وسعهما أن يتحدّثا دون أن يخشيا مباغتته. وبين الزفرات، والدموع ومخطات الأنف، خرجت القصّة الأليمة كلها، وهي أن أنجيلينا (أو على الأصحّ "نْسلينا") فرّطت ببكارتها،؛ وقد وقع الحادث في أثناء صيف سانمارتينو. لقد كانت تذهب إلى لقاء حبيبها في مَتْبَن السّيّدة نونتسياتا، وهي الآن حامل منذ ثلاثة أشهر. ولشدّة ذعرها، اعترفت لأمّها. سيبدأ بطنها في الظهور قريباً، وعند ذاك، سيقيم فيشنزينو مسلخاً "حتّى أنا سيقتلني، لأنني لم أقلْ له، إنه إنسان "حمش" صاحب شرف"!

والحقيقة أن فيشنزينو بجبهته المنخفضة، وخصلات شعره النامية بغزارة على عارضَيْه، وبتمايل مشيته، وبانتفاخ جيب بنطاله الأيسر دائماً وأبداً، كان "صاحب شرف"، أي واحداً من أولئك السَّفَلَة المتعوّدين على العنف، والقديرين على اجتراح أيّة مجزرة.

وعاودت سارينا نوبة أخرى من البكاء أقوى من الأولى، لأنها خشيت خشية بالغة من أن تخسر زوجها، ذاك الذي تعدّه مرآة للفروسية.

- "سارينا، سارينا؛ من جديد! لا تفعلي هكذا! إن الشّابّ عليه أن يتزوّجها، وسيتزوّجها؛ سأذهب إلى بيته؛ وسأتحدّث في هذا إليه وإلى ذويه، وسيُسوَّى كل شي، ولن يعلم فيشنزينو إلا بالخطبة، وبذلك سيسلم شرفه الرفيع من الأذى. ولكنْ، يجب أن أعرف مَنْ هو، فإذا كنتِ تعرفينه، قولي لي مَنْ هو".

فرفعت الأخت رأسها من جديد: في عينَيْها كان يُقرأ الآن خوف آخر، لم يعد ذلك الخوف البهيمي من الموت طعناً، بل خوف آخر أشدّ كرباً وأكثر حدّة، لم يستطع الأخ أن يتكهّن به في تلك اللحظة.

"أيّها الأب بيرّونه القدّيس، لقد كان!.. إنه ابن (توري)! وقد فعل ذلك نكاية وتشفّياً بي، بأمّنا، وبذكرى أبينا المقدّسة. إنني لم أكلّمه قطّ، وكان الجميع يقولون إنه ابن طيّب، ولكنه في الحقيقة وبش دنيء، على شاكلة أبيه السافل المنحطّ، إنه إنسان نذل. وقد تذكّرتُه فيما بعد: في تلك الأيّام من شهر نوفمبر، كنتُ أراه دائماً يمرّ من أمام هذا المكان ومعه رفيقان له، ويضع خلف أذنه قَرَنْفُلَة حمراء. يا لنار الجحيم! يا لنار الجحيم!".

فتناول اليسوعي كرسياً، وجلس إلى جانب المرأة. لقد كان واضحاً أنه سيؤجّل صلاة القدّاس وقتاً ما، لأن الأمر خطير. لقد كان (توري)، والد الفتى المعتدي سانتينو، عمّ الكاهن، والأخ الأكبر للمرحوم والده، وكان قبل عشرين سنة شريكاً له في الحراسة في الزمن الذي كان فيه العمل في أفضل حالاته. ثمّ نشبت خصومة باعدت بين الأخوَيْن؛ وهي واحدة من خصومات العائلات ذات الجذور الواحدة، التي لا يمكن علاجها، لأنه لا يتكلّم أيّ من الطّرَفَيْن بصراحة، بل يظلّ لدى كل منهما الكثير ممّا يخفيه. والذي وقع هو أنه حينما امتلك المرحوم كرم اللوز الصغير هبّ أخوه (توري) يقول إن نصف الكرم في الحقيقة من نصيبه، لأنه قدّم نصف الثمن، أو نصف التعب؛ إلا أن المُلْك سُجّل باسم المرحوم (غايتانو) وحده. فثار توري، وراح يذرع طُرُقات سان كونو والزبد يملأ شدقَيْه، وهكذا أصبحت كرامة الروح الطاهرة مضغة في الأفواه، إلى أن تدخّل بعض الأصدقاء، فمنعوا وقوع ما هو أسوأ؛ وظلّ كرم اللوز باسم غايتانو، غير أن الهاوية التي

صارت تفصل بين جذعَي أسرة بيرّونه لم يعد يمكن تسويتها، حتّى إن توري لم يحضر حتّى مراسيم دَفْن أخيه، وأصبح اسمه في بيت أخيه "النذل" فحسب. ولقد وصلت أخبار ذلك كله إلى اليسوعي في رسائل مشوّشة، كان يمليها خوري البلدة، فكوّن لنفسه آراء في "النذالة" لم يكن يجهر بها حرصاً على شرف البنوّة. وأما كرم اللوز، فقد أصبح الآن ملْكاً لسارينا.

كان كل شيء واضحاً: لم يكن للحبّ والهيام شأن في ما وقع، وإنما كان ذلك قذارة، تنتقم من قذارة أخرى. ومع ذلك، فالعلاج ممكن: ولقد شكر اليسوعي العناية الإلهية التي أرسلتْه إلى سان كونو في الوقت المناسب. "اسمعي، يا سارينا، المصيبة سأُذلّلها أنا في ساعَتَيْن، ولكنْ، عليكِ أنتِ أن تساعديني: نصف (كيبارّو) - كرم اللوز- يجب أن تقدّميه مهراً لأنجيلينا. ليس هناك علاج آخر، فلقد خرَّبتْ بيتكم هذه الحمقاء". وخطر في فكره كيف أن الخالق قد يستعين أحياناً بالكلبات الصغيرات الملتهبات بالشهوة، لكي يحقّق عدالته.

فصاحت سارينا كالملسوعة: "نصف كيبارّو! لبذرة الأنذال هذا! مستحيل! الموت أفضل من هذا!"

- "حسناً، إذنْ، سأمضي بعد القدّاس، لأحدّث فيشنزينو بالأمر. لا تخافي، سأعمل ما في وسعي لتهدئته"، وأعاد وضع القبّعة على رأسه ويَدَيْه في حزامه العريض، وجعل ينتظر بصبر، واثقاً من نفسه.

إن طبعة جديدة من غضبات فيشنزينو، مهما بلغ الأب اليسوعي من مراجعتها ومن تنقيحها، قد ظلّت تبدو للمرأة التاعسة ممتنعة عن القراءة، وراحت المرأة تبكي للمرّة الثالثة. ولكن الزفرات لم تلبث أن أخذت تخفّ شيئاً فشيئاً. ثمّ نهضت المرأة، وقالت: "لتكن مشيئة الله: فاذهبْ،

وأصْلِح الأمر، فلم تعد تُطاق الحياة هنا. ولكن ذلك الكيبارّو الجميل! إنه كله من عَرَق والدنا!" وكادت الدموع أن تنفجرَ من جديد، ولكن الأب بيرّونه كان قد انصرف.

***

وانتهت الذبيحة الإلهية، وتناول الأب اليسوعي فنجان القهوة الذي قدّمه له خوري الرعية، ثمّ توجه مباشرة نحو بيت عمّه توري. إنه لم يدخله من قبل، ولكنه كان يعرف أنه مغارة فقيرة جدّاً، تقوم في رأس القرية تماماً، على مقربة من محدّدة المعلّم (شيكّو). وقد اهتدى إليها حالاً؛ ولمّا لم يكن للبيت نوافذ، وكان الباب مفتوحاً ليسمح بدخول شيء من النور، فقد وقف على العتبة: في الظلمة داخل البيت، كانت تُرى حلوس بغال، وأخراج، وأكياس خيش؛ وكان دون توري إذ ذاك يعمل بغّالاً بمساعدة ابنه.

فصاح الأب بيرّونه قائلاً: "Doràgio"؛ وهذه الكلمة هي اختصار لكلمَتَيْن لاتينيَّتَيْن، هما "Deo Gratias" أي "الشُّكْر لله"، وكان يستعملها رجال الدِّين استئذاناً للدخول(*). فصاح صوت رجل عجوز: "مَن هذا؟" ثمّ نهض رجل من قلب الغرفة، وتقدّم نحو الباب. "إنني ابن أخيكم، الأب سافيريو بيرّونه، وأريد أن أتحدّث إليكم، إذا أذنتُم بذلك".

لم تكن المفاجأة عظيمة: كان يجب أن تكون زيارته أو زيارة بديل عنه متوقّعة منذ شهرَيْن على الأقلّ. وكان العمّ توري العجوز قويّاً مستقيم العود، تمرّس طويلاً جدّاً بتحمّل الحَرّ والثلج، وعلى وجهه سطور الشؤم التي ترسمها الأهوال على وجوه الأشخاص غير الصالحين.

(*) يقابلها عندنا عبارة (يا ساتر) التي ما تزال تُطلق بصوت مرتفع قبل دخول الرجال إلى بعض البيوت الإسلامية المحافظة، لتنبيه نساء البيت إلى الاختفاء قبل دخولهم. أما في الرواية، هي تعني التنبيه إلى وصول زائر إلى المنزل. (المترجم).

- "ادخل".

قال العمّ ذلك دون أن يبتسم، وأفسح له الطريق، ومن دون رغبة، حاول أيضاً أن يقبّل يده. وجلس الأب بيرّونه على أحد السروج الخشبية الكبيرة. لقد كان المكان فقيراً إلى أبعد حدّ: دجاجتان تقرقان في زاوية، وكل ما حوله يفوح برائحة الغائط والملابس المبلولة والشقاء الصارخ.

- "لقد مرّت أعوام عديدة دون أن نتلاقى، يا عمّي، ولكنْ، لم يكن ذلك كله ذنبي، فأنا لستُ مقيماً في البلدة، كما تعرفون، وأنتم من ناحيتكم لا تقدّمون أبداً بزيارة والدتي، زوجة أخيكم، وهذا يسوؤنا كثيراً".

- "لا أنا في تلك الدار لن أضع قَدَمي أبداً، إن معدتي تنقلب إذا ما مررتُ من أمامها. إن المعاملات السّيّئة التي يلقاها توري لا ينساها، ولا حتّى بعد عشرين سنة".

- "أكيد، شيء مفهوم، أكيد؛ ولكني آتيكَ اليوم كحمامة سفينة نوح، لكي أُطمئنكم إلى أن الطوفان قد زال، وإنني لمسرور جدّاً بأن أجدني ههنا، وكنتُ أمس سعيداً حينما أخبروني في البيت بأن (سانتينو) ابنكم قد خطب ابنة أختي أنجيلينا؟ إنهما لولدان طيّبان جدّاً، كذلك يقولون لي، وسيكون اتّحادهما عاملاً على سَدّ الثغرة الموجودة بين أسرتينا، والتي كانت دائماً –اسمحوا لي بأن أقولها - تسوؤني".

فلاحت على وجه توري مفاجأة أبرز وأكثر عمقاً من أن تكون مصطنعة، وقال: "لولا هذا الثوب المقدّس الذي ترتدونه، يا أبتِ، لقلتُ جازماً إنكم

تكذبون. ومَنْ يدري أيّة حكايات روتْ لكم بنات حوّاء في بيتكم. إن سانتينو في حياته كلها لم يكلّم أنجيلينا قطّ، فهو ابن أكثر احتراماً وطاعة من أن يعمل ضدّ إرادة أبيه".

وكان اليسوعي يتأمّل قوّة شكيمة الشيخ وعدم تأثّره أو انزعاجه من قول الكذب.

- "يبدو، يا عمّي، أنهم أساؤوا نَقْل الأخبار إليَّ؛ تصوّروا أنهم قالوا لي أيضاً إنكم اتّفقتم على المهر، وإنكم أنتم وابنكم ستجيئون اليوم إلى الدار "للاتّفاق النهائي". ما أقدر أولئك النسوة اللواتي لا عمل لهنّ إلا اختلاق الخرافات! ومع ذلك، فحتّى إذا لم تكن هذه الحكايات صحيحة، فإنها تدل على رغبات صادرة عن قلوب طيّبة. والآن، يا عمّي، لا فائدة من بقائي ههنا، وسأذهب حالاً إلى البيت لأُؤنّب شقيقتي. ومعذرة؛ لقد سعدتُ كثيراً، إذ وجدتُكم في صحّة جيّدة".

فأخذ وجه الشيخ يتكشّف عن اهتمام جشع، فقال: "مهلاً، يا أبتِ؛ امضِ في إضحاكي على حكايات بيتكم وثرثراته، وعن أيّ مهر كانت تتحدّث تلك الأخبار التافهة؟"

- "وما يُدريني، يا عمّي! يبدو أنني سمعتُ ذِكْر نصف كيبارّو! يقولون إن أنجيلينا هي بؤبؤ عيونهم، وليس في الدنيا تضحية يمكن أن تكون كثيرة في سبيل تأمين السلام بين أعضاء الأسرة".

لم يعد توري يضحك، بل نهض وجعل يصرخ: "سانتينو!" بمثل القوّة التي ينادي بها بغاله العنيدة. ولمّا لم يأت أحد، فقد جعل يصرخ بقوّة

أكثر: "سانتينو! يا دم العذراء؛ ماذا تفعل؟"، ولكنه حين رأى الأب بيرّونه يهمّ بالوقوف، أغلق فمه بحركة غير متوقّعة، تشبه الخضوع.

كان سانتينو يراقب البهائم في الحوش المحاذي، فدخل خائفاً ومَحَسّة الخيل في يده. لقد كان شابّاً في الثانية والعشرين من عمره، عالي القامة، صلب العود كوالده، وعيناه لم تذبلها الأيّام. وكان في اليوم السابق قد رأى، كما رأى الآخرون، اليسوعي يمرّ في طُرُق البلدة، وعرفه حالاً.

-"هذا هو سانتينو. وهذا ابن عمّكَ الأب سافيريو بيرّونه. اشكرْ ربّكَ، لأن الأب المحترم موجود هنا، وإلا لانتزعتُ أذنكَ. وما هو هذا التّلهّي بالحبّ دون أن أعرف ذلك، أنا والدكَ؟ إن الأبناء يكبرون لأجل آبائهم، لا لكي يجروا وراء الفساتين".

فخجل الفتى، ولعلّه لم يكن خجله بسبب عدم الطاعة، بل بالأحرى بسبب الموافقة السابقة، ولم يدر ما يقول؛ ولكي يخلّص نفسه من المأزق وضع المحسّة على الأرض، وتقدّم ليُقبّل يد الكاهن. فأبدى هذا أسنانه مبتسماً، ورفع يده ببركه سريعة قائلاً: "ليباركَ الله، يا بنيّ، ولو أنني أعتقد أنكَ لا تستحقّ ذلك".

وتابع الشيخ كلامه: "ابن عمّكَ هذا رجاني وألحّ كثيراً في الرجاء حتّى رضختُ أخيراً، وأعلنتُ موافقتي. ولكنْ، لماذا لم تخبرني بذلك من قبل؟ اذهب الآن، ونظّفْ ثيابكَ، وسنمضي حالاً إلى بيت (نسلينا)".

"لحظة، يا عمّي، لحظة". لقد فطن الأب بيرّونه أن عليه أيضاً أن يُحدّث "الرجل الحمش، صاحب الشرف" الذي لم يكن على علْم بشيء بعد. وأضاف: "لابد أنهم في الدار يرغبون في اتّخاذ الاستعدادات اللازمة؛ وقد

قالوا لي، على كل حال، إنهم سينتظرون قدومكم بعد هبوط المساء بساعة واحدة؛ فتعالوا حينذاك، وسيكون قدومكم عيداً بهيجاً"، ثمّ انصرف بعد أن عانقه الأب والابن.

***

حينما عاد الأب بيرّونه إلى المنزل وجد صهره فيشنزينو قد عاد، وهكذا لكي يُطمئن أخته، لم يستطع أن يفعل أكثر من أن يغمزها بطرف عينه من خلف كتفَي زوجها، وكان هذا كافياً ليتفاهم به شخصان صقليان. وبعد ذلك قال لصهره إنه يريد محادثته، فخرج الاثنان إلى هيكل عريشة خلف الدار، وكانت أهداب ثوب الخوري ترسم حوله شبه حدود متحرّكة، لا يجوز اختراقها، أما الرجل "صاحب الشرف"، فقد كان ردفاه يترجرجان، رمزاً دائماً لأفظع أنواع التهديد. وجاء الحديث مختلفاً كل الاختلاف عمّا كان متوقّعاً، حينما اطمأنّ الرجل إلى قرب زواج (نسلينا)، صارت نظرته إلى سلوك ابنته هادئة مسالمة، ولكنه من أوّل إشارة إلى المهر، جعلت عيناه تدوران في محجَرَيْهما، وعروق صدغَيْه انتفخت، وأصبحت تموّجات ردفَيْه هستيرية، وتدفّق من فمه سيل من الشتائم البذيئة نقمة على هذا القرار القاتل؛ وأسرعت يده، التي لم تتحرّك للدفاع عن شرف ابنته، تبحث في جيب سراويله، دليلاً على تصميمه على سفك آخر قطرة من دماء الآخرين دفاعاً عن كرم اللوز.

فتركه الأب بيرّونه يُتم هياجه، مكتفياً برسم إشارة الصليب بسرعة، كلّما بلغ هياجه الأَقذاع والشتيمة؛ ولم يأبه في الواقع للحركة التي تعني التصميم على المجزرة. وفي فترة من فترات الاستراحة، قال الكاهن: "مفهوم، يا فيشنزينو، إنني أنا أيضاً أريد أن أساهم في إعادة الأمور إلى مجاريها؛ وتلك

الورقة الخاصّة التي تؤكّد حصّتي في إرث المرحوم والدي، سأبعث بها إليكَ ممزّقة من باليرمو".

كان مفعول هذا الدواء سريعاً، فقد صَمَتَ فيشنزينو، وانصرف بفكره إلى حساب قيمة هذه الحصّة الموروثة سَلَفَاً. وفي الهواء البارد برغم الشمس الساطعة، مرّت أنغام ناشزة جداً لأغنيّة كانت تغنّيها (نسلينا) وهي تكنس غرفة خالها.

وفي المساء، جاء العمّ توري وسانتينو للزيارة، في ثياب نظيفة وقمصان ناصعة البياض. وجلس الخطيبان على كرسيَّيْن متحاذيَيْن، وبين الفينة والفينة، كانت تنطلق حناجرهما بضحكة مجلجلة دون كلام، وكل منهما ينظر في وجه الآخر. كانا مسرورَيْن حقّاً: هي لأنها "أمّنتْ نفسها" ووجدت هذا الذَّكَرَ الجميل تحت تصرّفها، وهو لأنه تبع نصائح أبيه، فأصبح له الآن خادمة ونصف كرم لوز. ولم تعد القَرَنْفُلَة الحمراء التي كان يحملها الآن وراء أذنه انعكاساً جهنّمياً في نظر أحد.

***

بعد يومَيْن، عاد الأب بيرّونه إلى باليرمو. وفي الطريق راح يرتّب انطباعاته التي لم تكن مُرضية كلها: ذلك الحبّ المشؤوم الذي أثمر في صيف سان مارتينو، ونصف كرم اللوز الذي ذهب بسبب خلوة لم يسبقها تفكير؛ ذلك كله أظهر له المظهر الهمجي البائس لأحداث أخرى كان قد شهدها أخيراً. إن السادة الكبار كانوا متحفّظين وغير مفهومين، وأما الفلاحون، فبسطاء صريحون، ولكن الشيطان يدور حول خناصرهم على السواء، ودون تمييز.

وفي فيلا سالينا، وجد الأمير في أحسن حالاته. فسأله دون فابريتسيو

عمّا إذا كان قد أمضى أيّامه الأربعة مسروراً، وإذا كان قد تذكّر أن ينقل تحيّاته إلى الوالدة. لقد كان يعرفها فعلاً منذ ستّ سنوات، كانت قد حلّت ضيفة في القصر، أُعجب أصحابه بصفائها رغم أنها أرملة. ولكن اليسوعي كان قد نسي التحيّات، فصمت. ثمّ لم يلبث أن قال إن أمّه وأخته قد أوصتاه بأن يُسلّم على سعادته؛ وكان قوله هذا حكاية مختلقة، ولكنها ألذّ من أن تُعدّ كذبة. ثمّ أضاف: "يا صاحب السعادة؛ كنتُ أودّ أن أسألكَ إذا كان يمكن أن تأمروا غداً بإعطائي عربة؛ إن عليّ أن أذهب إلى مقرّ رئيس الأساقفة، لأستأذنه في منحي إجازة لحضور عرس، لأن إحدى بنات أختي قد خُطبت إلى ابن عمّي".

-"بكل تأكيد، يا أب بيرّونه، بكل تأكيد، إذا أردتُم ذلك. ولكنْ، عليّ أنا أيضاً أن أذهب بعد غد إلى باليرمو، وفي وسعكم أن تجيئوا معي. أمن الضروري أن يكون الأمر بكل هذا التصميم العاجل؟".

٦. الرقص

(نوفمبر ١٨٦٢)

صعدت الأميرة ماريا ستيلا إلى العربة، وجلست إلى الوسائد الحريرية الزرقاء، ولملمت حولها أكثر ما تستطيع طيّات ثوبها المخشخشة الهفهافة. وفي الوقت نفسه، صعدت أيضاً كونشيتا وكارولينا، وجلستا إلى الأمام، يتضوّع من ثيابهما المتشابهة عطر بنفسجي زكيّ. وبعد ذلك، مالت العربة تحت وطأة قَدَم ثقيلة جدّاً، حطّت على درجة الصعود، فتخاذلت تحتها الزنبركات العالية؛ كان دون فابريتسيو هو الذي يهمّ بالصعود حينئذ. وامتلأت العربة كالبيضة، وراحت تموّجات حرير التنانير الثلاثة تتراكب، وتتدافع، ويتداخل بعضها في بعض وهي تكاد ترتفع إلى علو الرؤوس، وفي قاع العربة كان خليط من الأحذية المختلفة: أحذية الفتاتين الحريرية، وحذاء الأميرة الـ(Mordorè)، وحذاء الأمير اللّمّيع الضخم؛ وكان كل منهم يتضايق من أقدام الآخرين ويكاد لا يميّز قَدَمَيْه من بينها.

ورفعت درجتا الصعود، وأغلق باب العربة، وتلقّى الخادم الأمر: "إلى قصر (بونتيليوني)"، فصعد إلى مقدّمة العربة، وفكّ الفرامل التي تمنع العجلات من الحركة، وتحرّك الحوذي في مكان القيادة مهيب بالجياد، وانطلقت العربة تنساب بخفّة.

لقد كانوا ذاهبين إلى الحفلة الراقصة.

كانت باليرمو حينذاك تجتاز أزمة متقطّعة من الحفلات الاجتماعية،

وكانت حفلات الرقص صاخبة؛ فبعد مجيء البييمونتيّين، وبعد حادثة (أسبرومونته)، وابتعاد أشباح المصادرة والعنف، أصبح الأشخاص المئتان الذين يتألّف منهم ذلك "العالم" لا يملّون من التلاقي دائماً هم أنفسهم، ليهنئوا أنفسهم بأنهم ما يزالون أحياء.

كانت أعيادهم المختلفة، برغم تشابهها، عديدة متلاحقة، بحيث اضطرّ أمراء سالينا أن يجيئوا ليُقيموا ثلاثة أسابيع في قصرهم في مدينة باليرمو، لئلا يضطرّوا كل مساء تقريباً إلى قَطْع المسافة الطويلة من سان لورنزو إلى هنا. وكانت ملابس النساء تصل من نابولي في صناديق طويلة سوداء أشبه بالتوابيت، واستمرّ الذهاب والإياب دون انقطاع من قبل صانعات الماكياج، والماشطات، وصانعي الأحذية؛ وأوصل الخَدَم المنهكون لكثرة التّنقّل أوراقاً نقدية كثيرة مملّة إلى الخيّاطات. لقد كان متوقّعاً أن تكون حفلة آل بونتيليوني الراقصة أهمّ حفلات ذلك الموسم القصير؛ وهي مهمّة للجميع بسبب فخامة القصر وعَظَمَة الأسرة، ولعدد المَدعوّين الكبير؛ وهي أهمّ من ذلك لدى آل سالينا، لأنهم سيقدّمون فيها إلى "المجتمع" أنجيليكا، خطيبة ابنهم تانكريدي.

كانت الساعة العاشرة والنصف فقط حينذاك، وهذا وقت مبكّر بعض الشيء لظهور في حفلة رقص لمَنْ كان مثل أمر سالينا، الذي يجدر به أن يجيء دائماً حين تكون الحفلة قد استنفدت كل حرارتها. غير أنه في هذه المرّة لم يكن من الممكن أن يفعل غير هذا إذا كان يريد أن يكون موجوداً حينما تصل أسرة سيدارا، التي كانت ببساطة تامّة، تأخذ ما هو مكتوب على طبقة الدعوة اللامعة بحرفيّته. ولم يتمّ بسهولة إقناع أرباب القصر بتوجيه إحدى تلك البطاقات إلى هذه الأسرة، فلم يكن يعرفهم

أحد، ممّا اضطرّ الأميرة ستيلا إلى أن تتجشّم منذ عشرة أيّام مشقّة زيارة مرغريتا بونتيليوني؛ وسار كل شيء بسهولة طبعاً، ومع ذلك، فقد كانت هذه إحدى الأشواك الحادّة التي أدخلتْها خطوبة تانكريدي في قَدَمَي الفهد المرفَّهَتَيْن.

كانت الرحلة القصيرة إلى قصر بونتيليوني تجري في طُرُق وأزقّة متشابكة مظلمة، ولذلك كانت تمضي على مَهْل شديد: في شارع سالينا، وشارع (فالفيردي) ومنحدر (بامبيناي)، وكلها تبدو بهيجة في النهار بمتاجرها الملأى بالدمى المصنوعة من الشمع، ولكنها مظلمة في الليل. وكان وقع حوافر الجياد يرنّ بتؤدة بين البيوت النائمة أو المتظاهرة بالنوم.

وكانت الفتيات، هؤلاء الكائنات العجيبة غير المفهومة التي ترى في الرقص عيداً بهيجاً لا واجباً دنيوياً مملاً، يثرثرنَ مغتبطات بأصوات منخفضة، وكانت الأميرة ماريا ستيلا تجسّ محفظتها، لتطمئن إلى وجود زجاجة "الملْح المبخّرة" في داخلها ودون فابريتسيو يتذوّق سَلَفَاً المشاعر التي سيُثيرها جمال أنجيليكا في أولئك الناس كلهم الذين لم يكونوا يعرفونها، وما سيُثيره فيهم كذلك حسن حظّ تانكريدي الذي يعرفونه حقّ المعرفة. غير أنه كان هناك ظلّ يعكّر غبطته، وهو: كيف سيبدو الفراك على دون كالوجيرو؟ من المؤكّد أنه لن يكون كذلك الذي كان يرتديه في دونا فوغاتا، فلقد عهد بأمره إلى تانكريدي، ولا بد أن هذا قد أخذه إلى أمهر الخياطين، ولعلّه أيضاً قد أشرف على البروفات كذلك. وكان تانكريدي قد صرّح منذ أيّام بأنه راضٍ عن النتائج بشكل رسمي، ولكنه قال سرّاً: "الفراك ممتاز، ولكن والد أنجيليكا تعوزه الأناقة". لم يكن في ذلك شكّ، إلا أن تانكريدي ضمن له حلاقة كاملة، وأناقة في الحذاء، وكان هذا شيئاً ما على كل حال.

وتوقّفت العربة في المكان الذي ينفذ منه منحدر بمبيناي خلف كنيسة سان دومينيكو، فقد ترامى إلى الأسماع صوت رنين جرس خفيف، ومن أحد المنعطفات، ظهر كاهن يحمل كأساً فيها القربان المقدّس، ومن خلفه إكليريكي، يحمل فوق رأسه مظلّة بيضاء مطرّزة بخيوط ذهبية، وأمامه إكليريكي آخر، يحمل بيُسراه شمعة كبيرة مضاءة، ويهزّ باليمنى جرساً صغيراً فضّيّاً هزّاً، يوحي بأنه يستمتع بذلك كثيراً. وكان هذا دليلاً على أن في أحد تلك البيوت المغلقة إنساناً يعاني النزع الأخير، فقد كان ذلك هو الزاد المقدّس الأخير. فنزل دون فابريتسيو، وجثا على رصيف الشارع، ورسمت النساء إشارة الصليب، ثمّ توارى رنين الجرس في الأزقة الموصلة إلى (سان جاكومو)، واستأنفت العربة سيرها من جديد نحو غايتها القريبة، ونفوس راكبيها مثقلة من رؤية ذلك النذير الخلاصي.

ووصلوا أخيراً، فنزلوا في الممرّ، ومضت العربة، فتوارت في رحابة الساحة الواسعة التي كانت تتعالى فيها أصوات وقع حوافر خيل، وطقطقات عربات، كانت قد وصلت من قبل.

***

كانت درجات السّلّم مصنوعة من موادّ بسيطة إلا أن تناسُبها كان رائعاً، وعلى جوانب كل درجة أزهار بدائية، تعبق بالعبير؛ وعلى بسطة الدرج التي تفصل بين الشّقّتَيْن يقف خادمان بملابس من القطيفة الثمينة، ثابتَيْن في مكانَيْهما العابقَيْن بالطيب، يشيعان في الجوّ اللؤلؤي لوناً بهيجاً. ومن نافذَتَيْن عاليَتَيْن عليهما شريط مشبّل، كانت تتصاعد ضحكات وثرثرات صبيانية، فقد كان أبناء أسرة بونتيليوني الصغار المحجوزون عن الحفلة يتضاحكون ويمرحون ويتلهّون بالسخرية من الضيوف. كانت السّيّدات

يمهّدنَ طيّات ثيابهنّ الحريرية، ودون فابريتسيو يضع قبّعته تحت ذراعه، وعلى الرغم من أنهنّ كنّ يتقدّمنه بدرجة، فقد كان رأسه كله فوق مستوى قاماتهنّ. وعند باب الصالون الأوّل، التقوا بصاحبَي المنزل: كان الرجل (دون دييغو) أشيب الشعر منبعج الكرش، ولولا عيناه الجريئتان، لكان في مظهره من العامّة، أما المرأة، دونا مرغريتا، فقد كان وجهها يبدو من بين بريق التاج وعقد الزمرّد المثلّث متغضّناً كوجه كاهن عجوز.

"لقد وصلتُم مبكرين! هذا أفضل! ولكنْ، اطمئنّوا، فإن "مَدعوّيكم لم يصلوا بعد". كانت هذه قشّة جديدة، تؤذي مخالب الفهد الحسّاسة. "وتانكريدي أيضاً موجود هنا". وفعلاً كان في الزاوية المقابلة من الصالون ابن أخت الأمير، أسود رفيعاً كالحية، وكان في حلقة مؤلّفة من ثلاثة شبّان أو أربعة آخرين، وكان يجعلهم يغرقون في الضحك، بما يرويه من حكاياته التي لا شكّ في أنها مغامرات مختلفة، غير أن عينَيْه كانتا عالقَتَيْن بالباب طوال الوقت في كثير من القلق. وكان الرقص قد بدأ، وأنغام الأوركسترا تترامى من قاعة الرقص عبر ثلاثة صالونات أو أربعة أو خمسة.

وتابع ربّ البيت كلامه: "ونحن الآن في انتظار الكولونيل (بالا فيشينو)، الذي أحسن التّصرّف في (أسبرومونته)".

هذه العبارة من الأمير بونتيليوني كانت تبدو بسيطة، إلا أنها لم تكن كذلك في الواقع. سطحيّاً كانت مجرّد توكيد خالٍ من كل معنى سياسي، القصد منها الثناء على لطف الذوق، والرهافة، والتّأثّر، وما يشبه الرّقّة التي أُطلقَت بها القذيفة التي أصابت قَدَمَ الجنرال غاريبالدي؛ وكذلك ما رافقها من انحناءات، وخَلْع قبّعات، وركوع، وتقبيل أيد للبطل الجريح المضطجع تحت شجرة كستناء في جبال كالابريا، والذي كان هو أيضاً

يبتسم، تأثّراً، لا سخرية، كما كان يحقّ له (لأن المسكين غاريبالدي كان مُجرّداً من روح الدعابة).

في تلك الحالة النَّفْسية المتوسّطة لدى الأمير كانت العبارة ذات معنى تِقْنِيّ، ويُقصَد بها الثناء على الكولونيل، لأنه أحسن اتّخاذ استعداداته، ونظّم صفوف قوّاته، واستطاع أن يُنجز ضدّ العدوّ عينه ما كان من قبل في (لاندي) قد فشل، بشكل غير مفهوم، في إنجازه في معركة (كالاتافيمي). وفي صميم الأمير، كان الكولونيل "قد أحسن التّصرّف"، لأنه استطاع أن يُوقِف غاريبالدي، وأن يهزمه، ويجرحه، وبذلك أنقذ الاتّفاقية التي تمّت بكلّ مشقّة بين الواقع القديم والواقع الجديد.

وظهر الكولونيل في أعلى السّلّم كأنما انبعث انبعاثاً، أو كأنما خلقتْه ألفاظ الثناء الخادعة، والأفكار الأكثر منها خداعاً. وراح يتقدّم في وسط رنين الأوسمة، والقلائد المتدلّية على بزّته المزدوجة الصدر والمزرّرة بإتقان، وقبّعته المزدانة بالريش تحت ذراعه، وسيفه المعقوف على جنبه الأيسر. لقد كان رجلاً دنيوياً ذا أخلاق وطبائع خاصّة، فهو مختصّ، كما تعرفه أوروبا بأسرها، في تقبيل الأيدي ذي المعاني الكثيفة. وكانت كل سيّدة يُلامِس شارباه المعطّران أناملها في تلك الليلة، تجد نفسها في وضع تستعيد فيه، مع معرفة الأسباب، اللحظة التاريخية التي مجّدتْها الأختام الشعبية.

وبعد أن تلقّى بالافيشينو رشّاش المديح الذي صبّتْه على رأسه أسرة بونتيليوني، وبعد أن شدّ على الإصبعَيْن اللذَيْن مَدّهما إليه دون فابريتسيو، انغمس في وسط شلّة من السّيّدات عابقة بالعطور؛ وكان يتعمّد أن يُبرز رجولته وهو يتحدّث، فيرسم بيده إشارات في الهواء فوق الأكتاف الناصعة، وتصل عباراته مقطّعة وهو يقول: "لقد كنتُ أبكي، أيّتها الكونتيسة، كنتُ

أبكي كالطفل"؛ أو: "لقد كان جميلاً، صافي الطلعة كالملاك". وكانت حساسيّته الملأى بالرجولة تخلب ألباب أولئك السّيّدات اللواتي وجدنَ الطمأنينة في النيران التي كان يُطلقها جنوده.

كانت أنجيليكا ودون كالوجيرو قد تأخّر وصولهما؛ وبينما كانت أسرة سالينا تهمّ بالانصراف للجلوس في الصالونات الأخرى، إذا بتانكريدي ينهض تاركاً فريقه، وينطلق كالسهم نحو الباب: لقد وصل الذين ينتظرهم. ومن فوق هفهفة التّنّورة الوردية كانت كتفا أنجيليكا البيضاوان تميلان نحو ذراعَيْها القويَّتَيْن الحلوَتَيْن؛ ورأسها الصغير النافر ينتصب فوق عنقها الناعم البضّ المزدان باللآلئ المقصودة فيها البساطة. وحينما أخرجت من فتحة القفاز الطويلة البرّاقة يدها المكتملة غير الصغيرة، سطع بريق الخاتم (الزفير) النابوليتاني.

وكان دون كالوجيرو في إثرها، كفأر يحرس وردة ملتهبة. ولم يكن في ملابسه أناقة، ولكنه هذه المرّة محتشم؛ وكان خطؤه الوحيد أنه يحمل في عروته صليب التاج الإيطالي الذي ناله حديثاً؛ ولكن هذا لم يلبث أن اختفى في أحد الجيوب الخفية في الفراك الذي يرتديه تانكريدي.

كان الخطيب من قبل قد علّم أنجيليكا عدم التّأثّر، هذا الأساس للتّميّز عن الآخرين ("إنكِ تستطيعين أن تكوني مرحة صاخبة حينما تكونين معي وحدي، يا عزيزتي، أما مع الآخرين جميعهم، فيجب أن تكوني أميرة فالكونيري المقبلة، أرفع منزلة من الكثيرين، ومساوية في الرفعة لأيّ إنسان")؛ وهكذا كان سلامها على ربّة القصر مزيجاً ناجحاً جدّاً، لا مُفتعَلاً لتوِّه، من حشمة العذارى، ومن التّحوّل الأرستقراطي الجديد، ومن جمال الشباب.

إن الصقليّيْن هم، على كل حال، من الإيطاليّيْن، وهم لذلك ذوو حساسية كغيرهم إزاء سِحْر الجمال والمال معاً. ومن جهة أخرى، كان تانكريدي، على الرغم من جاذبيّته، يُعدّ شريكاً غير مرغوب فيه، بسبب إفلاسه المالي (وهذا خطأ، كما ظهر فيما بعد حين كان ذلك متأخّراً جدّاً)؛ ولهذا كان يجد التقدير لدى النساء المتزوّجات أكثر ممّا يجده لدى الصبايا الباحثات عن الزواج. هذه المزايا والعيوب مجتمعة، جعلت الاستقبال الحارّ الذي لقيته أنجيليكا شيئاً غير متوقّع. والحقيقة أن بعض الشّبّان قد يكونون أحسّوا بالأسف لعدم استطاعتهم دَفْن مثل هذه (الجرّة) الجميلة الملأى بالمال في الأرض كنزاً لهم، ولكن دونا فوغاتا كانت إقطاعية لدون فابريتسيو، فإذا كان قد عثر هو نفسه على هذا الكنز، وحوّله إلى ابن أخته الحبيب تانكريدي، فليس من حقّهم أن يتألّموا أكثر ممّا يتألّمون، لو أنهم عثروا في أراضيهم على منجم كبريت. لقد كانت متاعاً ممّا يملكه، فلا حقّ لأحد في الاعتراض.

حتّى هذه الاعتراضات التافهة كانت تتضاءل أمام بريق تينك العينَيْن. وفي إحدى اللحظات، كان هنالك زحام بين الشّبّان الراغبين في تقديم أنفسهم لطلَب رقصة معها، وكانت أنجيليكا تقابل كلاً منهم بابتسامة من فمها الذي يشبه الفراولة، وتقدّم لكل منهم بطاقة برنامج الحفلة بعد كل رقصة بولكا، أو ماتزوركا، أو فالس، حاملة توقيعها: (فالكونيري). وأما من جانب الأوانس، فقد انهالت عليها الطلبات أن تخاطبهنّ دون مجاملة وتعظيم، فما كادت تمضي ساعة حتّى كانت أنجيليكا تشعر بالألفة والانسجام بين أشخاص، ليس لديهم أدنى فكرة عن هَمَجِيّة أمّها أو عن وضاعة أصل أبيها.

ولم يفارقها وقارها لحظة واحدة، فلم تُرَ قطّ شاردة الرأس بين الغيوم، ولا ابتعد ذراعاها عن جسدها، أو ارتفع صوتها عن مستوى ضبط النغم (وهذا أيضاً يُعدّ عالياً بما فيه الكفاية) بالنسبة إلى غيرها من السّيّدات. ولقد قال لها تانكريدي في اليوم السابق: "انظري، يا حبيبتي، نحن (وأنتِ أيضاً الآن) نهتم كثيراً ببيوتنا وأثاثنا أكثر من كل شيء آخر؛ ولا يسوؤنا شيء أكثر من إهمال هذه الأمور أو التغاضي عنها؛ ولهذا عليكِ أن تُراعي كل شيء، وأن تمتدحي كل شيء. وعلى كل حال، فإن قصر بونتيليوني يستحقّ ثناءكِ؛ وبما أنكِ الآن لم تعودي فتاة قروية، يُدهشها كل ما تراه، فعليكِ أن تمزجي ثناءكِ دائماً بشيء من التّحفّظ؛ أبدي إعجابكِ، ولكنْ، قارني ما ترينه بشيء ممّا سبق أن رأيتِهِ من قبل، ممّا له شهرة معيّنة". وكانت الزيارات الطويلة لقصر دونا فوغاتا قد علّمت أنجيليكا الشيء الكثير؛ وهكذا فقد أبدت في تلك الليلة إعجابها بكل سجّادة أو ستارة، ولكنها قالت إن السّجّاد في قصر (بيتّي) كانت أطرافه أجمل منها؛ وامتدحت صورة للعذراء من صنع (دولشي)، ولكنها أعادت إلى الأذهان أن صورة (غراندوكا) أروع تعبيراً عن الكآبة؛ حتّى قطعة الكعك التي بادر أحد الشبان بتقديمها إليها، قالت عنها إنها ممتازة، وإنها لذيذة كالكعك الذي يصنعه (مونسو غاستون) طاهي أسرة سالينا. ولمّا كان (مونسو غاستون) يُعدّ (رفائيل) الطهاة، لذا لم يتّسع أحد أن يضحك من هذا التشبيه، بل أُعجب الجميع به كثيراً، وعدّوه ثناء طيّباً. ومنذ تلك الليلة، بدأت تكتسب شهرة بأنها مهذّبة ولطيفة، ولكنها ذات ذوق فنّيّ ممتاز. وظلّت هذه الشهرة فيما بعد ترافقها - دون حقّ - مدى الحياة.

وبينما كانت أنجيليكا تجني غار الثناء، كانت ماريا ستيلا تدردش على أحد الدواوين مع صديقَتَيْن عجوزَيْن، وكونشيتا وكارولينا تُثيران بتهيُّبهما

البرودة حتّى في أكثر الشّبّان دماثة، ودون فابريتسيو وحده يتجوّل في الابهاء: يُقبّل أيدي النساء اللائي يلتقي بهنّ، ويؤلم أكتاف الرجال الذين يصافحهم، ولكنه كان يحسّ بأن المزاج السّيّئ قد أخذ يستولي عليه شيئاً فشيئاً. إن البيت نفسه، قبل كل شيء، لا يعجبه، فأسرة بونتيليوني لم تجدّد أثاثه منذ سبعين سنة، فما يزال هناك من عهد الملكة ماريا كارولينا، ولذلك يخجل منه، لأنه يعتقد بنفسه أنه ذو ذوق عصريّ. "ولكنْ، يا الهي! كان يكفي القليل من دخل (دييغو بونتيليوني) ليتخلّص من هذا الأثاث القديم، وهذه المرايا المغطّاة بالستائر! ليصنع له أثاثاً من الخشب البرازيلي، ومن نسيج الوبر، وليعيش في شيء من البحبوحة، فلا يضطر مَدعوّوه إلى التّجوّل في هذه الدياميس. أخشى أن أضطرّ إلى أن أقول له هذا". ولكنه لم يقل شيئاً من ذلك لدييغو، لأن هذه الآراء كانت تنشأ من سوء المزاج، ومن حبّه للمعاكسة، ولهذا سرعان ما نسيها. حتّى هو نفسه لم يحاول تغيير شيء في سان لورنزو، ولا في دونا فوغاتا. وكل ما في الأمر أن هذه الأفكار كانت كافية، لتُضاعف من تضايقه وانزعاجه.

ولم تكن النساء الموجودات في الحفلة ليُعجبنه، وكانت اثنتان أو ثلاثة من المتقدّمات في السّنّ من عشيقاته سابقاً، ورؤيتهنّ الآن مثقلات بالسنين وبالكنّات تجعل من العسير عليه أن يستعيد الصورة التي كنّ عليها قبل عشرين سنة، فيغضب إذ فكّر في أنه ضيّع أفضل سني عمره في مطاردة (واصطياد) مثل هؤلاء النساء المشعثات الأشكال. حتّى الفتيات لم يكنّ شيئاً في نظره، ما عدا اثنَتَيْن منهنّ: هما دوقة بالما الصغيرة في السّنّ التي أعجبه منها العينان الرماديّتان، والعذوبة الصارمة في هيأتها؛ وكذلك (توتو لاسكَري) التي لو كان أصغر سنّاً ممّا هو الآن، لعرف كيف يعقد معها مواعيد فريدة جدّاً. أما الأخريات ... لقد كان

جميلاً جدّاً أن تخرج من ظلمات دونا فوغاتا أنجيليكا لتُري نساء باليرمو كيف تكون المرأة الجميلة.

ولم يكن من الممكن تخطئته، ففي تلك السنين، كانت كثرة التزاوج بين أبناء العمومة والخؤولة الناجمة عن الخمول الجنسي، وعن الاهتمام بالحصول على الأراضي، وكذلك ندرة البروتين في الموادّ الغذائية التي ضاعفتها وفرة النشويات؛ والنقص العامّ في الهواء النقي والحركة، كل هذه ملأت الصالونات بجماعة من الفتيات قصيرات القامة، بشكل لا يُصدّق، وزيتونيات اللون على خلاف العادة، ويلثغنَ بالحروف بشكل لا يُطاق. وهنّ يضيّعنَ الوقت متجمّعات معاً، يرشقنَ الشّبّان المتهيّبين بدعوات جماعية فقط، ويبدو أن لا شأن لهنّ إلا أن يكنّ المشهد الخلفي في الصورة للمخلوقات الثلاث أو الأربع الجميلات من أمثال الشقراء ماريا بالما، والحلوة جدّاً اليونورا جاردينيللي، اللواتي كنّ ينزلقنَ كالبجع فوق مستنقع مليء بالضفادع".

وكلّما رآهنّ ازداد غضبه؛ لقد اعتاد فكره على الخلوات الطويلة والتفكير المُجرّد، وفي لحظة معيّنة، بينما كان يمرّ في رواق طويل، كانت تجتمع فيه فئة كبيرة من تلك المخلوقات، أحسّ بمثل عشو البصر: لقد بدا له أنه حارس في حديقة حيوانات، مكلّف بمراقبة مئات من السعادين الصغيرة، وكان يتوقّع أن يراهنّ يتشعبطنَ فجأة على المصابيح، ويتدلّين منها وهنّ متعلّقات بأذنابهنّ، ليعرضنَ أعجازهنّ ويرشقنَ الزائرين المسالمين بقشور الجوز، وبزعيقهنّ وصرير أسنانهنّ.

ومن الغريب أن نذكر أن ما انتشله من هذه الرؤية الحيوانية كان إحساساً دينياً: فالواقع أن هتافاً مقدّساً كان يصدر بصوت واحد عن تلك القردات

ذوات التنانير: "يا مريم! يا مريم!" فقد كانت تلك الفتيات المسكينات لا ينقطعنَ عن هذا النداء: "يا مريم، ما أجمل هذا المنزل!"، "يا مريم! ما أجمل الكولونيل بالا فيشينو!"، "يا مريم! كم تؤلمني قَدَمَاي!"، "يا مريم! ما أشدّ جوعي!". لقد كان الهتاف باسم السّيّدة العذراء ينطلق من أفواه تلك الجوقة من العذارى، فيملأ الرواق، ويحوّل السعادين من جديد إلى نساء، ولو أنه لم ينتج عنه أن يتحوّل سكّان الغابات البرازيلية إلى الاهتداء إلى الدِّين الكاثوليكي.

وشعر الأمير بشيء من الغثيان، فعبر إلى الصالون المجاور؛ وهناك كانت تتجمّع الفئة المخالفة المعادية من الرجال. كان الشّبّان يرقصون، وأما المجتمعون هنا، فكلهم من المتقدّمين في السّنّ، وكلهم من أصدقائه. فجلس قليلاً بينهم: هناك لم يعد يسمع اسم ملكة السماء يتردّد على الألسنة باطلاً، وبدلاً من ذلك، كانت الأماكن العمومية، والأحاديث المكشوفة تكدّر الهواء.

لقد رأى دون فابريتسيو نفسه بين هذه الجماعة "معتوهاً"، فهم يعدّون اهتمامه بالحساب شرّاً وخطيئة، ولو لم يكن هو حقّاً أمير سالينا، ولولا أنهم يعرفونه فارصاً ممتازاً، وصياداً لا يعرف التعب، وزير نساء، لكانت معادلاته ومجاهره كفيلة بإيصاله إلى المنفى. إلا أنهم لم يجرؤوا على الإفصاح عن ذلك أمامه، لأن الزرقة الباردة في عينَيْه التي تتراءى من بين أجفانه الثقيلة، كانت تطير صواب مخاطبيه، فكان لذلك يحسّ غالباً بالعزلة، لا احتراماً له، كما كان يظنّ، بل خوفاً منه.

ثمّ نهض وقد تحوّلت السوداوية إلى مزاج أسود حقّاً. لقد أساء بمجيئه إلى الرقص، وكان في وسع ستيلا وأنجيليكا والابنتَيْن أن يتسلَّينَ من دونه؛

بينما يكون هو سعيداً في مكتبه المحاذي للشرفة، في شارع سالينا، يصغي إلى خرير النافورة، ويحاول أن يمسك بتلابيب الكواكب السّيّارة. "على كل حال، ها أنا الآن ههنا، والانصراف لن يكون فيه شيء من اللياقة. فلنمضِ، لنتفرّج على الراقصين".

***

كانت قاعة الرقص مَطليّة كلها بالذهب: طلاء خفيفاً ناعماً على إطارات اللوحات، ومتعرّجاً على أطر الأبواب، وفاتحاً، يكاد يشبه لون الفضّة مع فاتح قليلاً في الأبواب نفسها، وفي الدرفات التي توصد النوافذ، وتخفيها، ممّا يضفي على المكان معنى الزهو، فيكاد يبدو أشبه بعلبة الحلى، بغضّ النظر عن الخارج غير الزاهي. لم تكن من نوع الطلاء الذهبي الصارخ الوقح الذي يتفاخر به الصّنّاع اليوم، ولكنه ذهب مخلوط، شاحب كشعر بعض طفلات الشمال، القصد منه إخفاء قيمته تحت شيء من الحياء - المفقود الآن - الذي تحاول به المادّة الثمينة أن تُظهر جمالها، وتُخفي قيمتها. وهنا وهناك على أقمشة الأثاث تبدو عقد زخرفية من طراز جميل، ذات لون حائل أشبه بحمرة الحمّى، ناجم عن انعكاس أنوار المصابيح.

ذلك التنويع الشمسي، وذلك التعداد في الأضواء والظلال، جعلا قلب دون فابريتسيو يشعر بالألم، وكان إذ ذاك واقفاً في فتحة أحد الأبواب أسود متشنّجاً. لقد عاودتْه في تلك القاعة العالية بعض الصور الريفية، وكان الطابع الغالب عليها طابع المزارع التالفة حول دونا فوغاتا، التي تتضرّع من قلب الصيف تحت هَمَجِيّة الشمس المتوقّدة. وهنا في هذه القاعة، كان في أملاك الإقطاعيّيْن في منتصف آب، لقد تمّ جمع المحصول

منذ زمن، وخَزْنه في أماكن أخرى؛ وكما هو الأمر هناك، لم يبقَ منه سوى التذكار المائل في لون القصل المحترق، والذي لا نفع منه. وخُيّل إليه أن أنغام الفالس التي تترامى إلى سمعه في الهواء الحارّ لم تكن سوى إيقاع للرياح العابرة دون انقطاع، والتي تضفي حدادها على الأراضي العطشى أمس، واليوم، وغداً، ودائماً، دائماً، دائماً. وجماعة الراقصين، ومن بينهم كثير من الأشخاص القريبين إلى لحمه، إن لم يكونوا قريبين إلى قلبه، تكاد تبدو له غير حقيقية، ومؤلّفة من تلك المادّة التي تُنسَج منها ذكريات الماضي المتلاشية، والتي هي أسرع زوالاً من تلك التي تُزعج أحلامنا. وفي السقف، كانت الآلهة المتطلّعة من علٍ، إلى المقاعد المُذهّبة تنظر مبتسمة وصارمة مثل سماء الصيف. لقد كان المُعتقد أن هذه الآلهة خالدة، إلى أن جاءت قنبلة مصنوعة في بتسبورغ (بنسلفانيا)، لتثبت في عام ١٩٤٣ عكس ذلك.

"جميل، أيّها الأمير، جميل! إن مثل هذه الأشياء لا تُصنَع اليوم مع السعر الحالي للذهب البندقي". كان سيدارا على مقربة منه، وقد راحت عيناه اليقظتان تتفرّسان في المكان كله، مهتمَّتَيْن كل الاهتمام بالقيمة المالية، وغير مباليَتَيْن بالجمال.

وأحسّ دون فابريتسيو فجأة بأنه يمقته؛ إنه هو ومئات آخرين من أمثاله، ودسائسهم المظلمة، وبُخلهم الصارخ وجشعهم الذي لا حدّ له، السبب في معنى الموت الذي يخيّم الآن بكل جلاء على هذه القصور؛ وهو أمثاله، وضغائنهم، وشعورهم بالحقارة، وعدم استطاعتهم الازدهار، السبب في ما يحسّ به هو، دون فابريتسيو، الآن من أن الثياب السوداء التي يرتديها الراقصون تُذكّر بالغربان التي تحوم فوق الوديان المجهولة بحثاً عن الجيف

النتنة. وساورته الرغبة في أن يردّ عليه ردّاً سيّئاً، وأن يدعوه إلى الابتعاد عن مكان قَدَمَيْه، ولكنه لم يستطع: لقد كان الرجل ضيفاً، بل كان والد الحبيبة أنجيليكا، ولعلّه كان واحداً من التعساء كالآخرين.

"جميل، يا دون كالوجيرو، جميل؛ ولكن ما لدينا أجمل من كل شيء". وكان تانكريدي وأنجيليكا يمرّان آنئذ من أمامهما، ويده اليمنى التي تلبس القفاز تُطوِّق خصرها، وذراعاهما ممدودتان متشابكتان، وعينا كل منهما في عينَي الآخر؛ وسواد الفراك الذي يرتديه يختلط بورد الثوب الذي تلبسه هي، فتتألّف من لونَيْهما جوهرة نادرة المثال. لقد كانا أكثر من كل شيء آخر، يؤلّفان المنظر العاطفي البهيج، منظر الشّابَّيْن العاشقَيْن يرقصان معاً، وكل منهما أعمى عن عيوب الآخر، أصمّ دون تحذيرات القدر، ويتوهّمان أن طريقهما كلها ستظلّ مدى الحياة ناعمة كبلاط الصالون، وأشبه بممثّلَيْن غِرَّيْن، يعلّمهما المخرج أن يتلوا دور جولييت ودور روميو مُخفياً عنهما المغارة والسّمّ المقرّر وجودهما في نسخة الرواية. ولم يكن هذا ولا ذاك صالحَيْن، فقد كان كل منهما مملوءاً بحسابات خاصّة، وبمآرب خفية، إلا أنهما كان عزيزَيْن جدّاً ومؤثّرَيْن، أما أطماعهما غير الصافية وغير البريئة، فقد مَحَتْهَا الكلمات المرحة الناعمة التي كان تانكريدي يُلقيها في أذن أنجيليكا، وكذلك العطر العابق من شعرها، وتلاصُق جَسَدَيْهما المقدَّر لهما يوماً أن يموتا.

وابتعد الشّابّان، ومرّت في إثرهما أزواج أخرى أقلّ منهما جمالاً، ولكنها مؤثّرة مثلهما، وكل زوج منها غارق بدوره في عماه العابر. وأحسّ دون فابريتسيو بأن قلبه قد استحال شبحاً: لقد زال عنه الكَدَر، ليحلّ محلّه الإشفاق على تلك الكائنات الفانية كلها التي تبحث عن التّمتّع بالشعاع

الخادع الذي لوّح لها ما بين الظلمَتَيْن: قبل المهد، وبعد اللحد. وكيف يمكن أن يتنمّر المرء ويقسو قلبه على مَنْ لا بد له يوماً من أن يموت؟ يريد أن يقول كيف يمكن أن يكون المرء نذلاً كبائعات المسك اللواتي كنّ قبل ستّين عاماً يشتمنَ المحكومين ويحقرنّهم في ساحة السوق؟ حتّى السعادين الصغيرة في الرواق، وحتّى الشيوخ البلهاء أصدقاؤه كانوا أشقياء، لا نجاة لهم، وأعزّاء كالقطيع الذي يجأر في الليل وهو يجتاز طُرُقات المدينة مسوقاً إلى المسلخ؛ وسيصل إلى أذن كل منهم يوماً رنين جرس الجنازة الذي سمعه منذ ثلاث ساعات خلف كنيسة سان دومينيكو. لا يجوز أن يكره المرء شيئاً غير الأبدية.

ثمّ إن أولئك كلهم الذين يملؤون الصالونات، وهذه النساء الدميمات كلهنّ، وأولئك الرجال الحمقى، هذا الجنسان الباحثان عن المجد الباطل هما دم من دمه، بل هما هو نفسه؛ إنه معهم وحدهم يستطيع أن يتفاهم، وأن يكون على رضى ووئام. "قد أكون أكثر منهم ذكاء، ويقيناً أني أكثر منهم علماً وثقافة، إلا أنني من النوع عينه، ومعهم يجب أن أوثّق صلاتي".

وانتبه إلى أن دون كالوجيرو كان يتكلّم مع (جوفاني فينالي) عن الارتفاع المحتمل في أسعار الجبن، وأن عينَيْه كانتا تشعّان لذلك ببريق الأمل والجشع لهذه الفرصة الطّيّبة. إنه، إذنْ، ليستطيع أن يهرب من هذا الجوّ دون أسف.

***

حتّى تلك اللحظة كان الغضب المتراكم يمنحه العزم؛ أما الآن، فقد ساوره التراخي والتعب معاً. وكانت الساعة قد بلغت الثانية ليلاً؛ فراح يبحث عن مكان، يمكنه أن يجلس فيه هادئاً مستريحاً، بعيداً عن الناس الذين يعدّهم أحبّاء وأخوة، ولكنهم، مع ذلك، مُملّون دائماً، واهتدى إلى

المكان حالاً: إنه المكتبة، وهي صغيرة، صامتة، مضاءة وخالية. فجلس، ثمّ عاد، فنهض ليشرب ماء، كان على طاولة صغيرة هناك. "ليس هنالك شيء حسن غير الماء، كذلك قال في نفسه بدافع من صقليّته الأصيلة، ولم يمسح قطرات الماء الباقية على شَفَتَيْه. وجلس من جديد؛ لقد راقتْه المكتبة، وسرعان ما طابتْ فيها نفسه، وهي لا تعارض في امتلاكه إيّاها، لأنها لم تكن لشخص معيّن، كبقية الغرف الأخرى التي لا يطرقها أحد إلا قليلاً: لأن بونتيليوني، لم يكن من النوع الذي يضيع وقته في داخلها. وراح ينظر إلى لوحة أمامه، كانت نسخة جيّدة عن (موت الصديق) للرسّام (غروز) تمثّل رجلاً هرماً، يلفظ أنفاسه في سريره بين شراشف ناصعة البياض، ومن حوله الأبناء والأحفاد، ذكوراً وإناثاً، يرفعون أذرعهم نحو السقف. كانت الفتيات منهم جميلات وخليعات معاً، وثيابهنّ المشعّثة توحي بالخلاعة الداعرة أكثر ممّا توحي بالألم. ويدرك الناظر حالاً أنهنّ الموضوع الحقيقي للوحة. وعلى الرغم من ذلك، فقد دهش دون فابريتسيو لحظة، وتساءل لماذا يحرص (ديغو) على أن يكون هذا المشهد الكئيب أمام ناظرَيْه دائماً؟! ثمّ عاوده الهدوء، إذ فكّر أنه كان لابد له من أن يدخل إلى هذه الغرفة مرّة في العام على الأقلّ، شاء أم أبى.

وتساءل حالاً عمّا إذا كان موته سيكون شبيهاً بهذا: من المحتمل أن يكون كذلك، مع فارق واحد هو أن الشراشف ستكون أقلّ نقاء من هذه (لقد كان يعرف أن شراشف المحتضرين تكون ملوّثة دائماً باللعاب، أو البول، أو بقع الدواء ...) ولكنه يأمل أن تكون ملابس كونشيتا وكارولينا والأخريات أكثر احتشاماً؛ أما في المجموع، فواحد على كل حال. وكالعادة كان التفكير بموته يزيده صفاء، بمقدار ما يُكدِّره موت الآخرين؛ أترى كان ذلك لأنه يعتقد أن موته هو في الدرجة الأولى موت العالم بأسره؟

ومن هذا انتقل إلى التفكير في أنه كان يجدر به أن يجري بعض الإصلاحات في مقبرة الأسرة، في دَيْر الكبوشيين. من المؤسف أنه لم يعد يُسمَح بأن تُعلَّق الجثث هناك من أعناقها في المدفن، لكي يُمكن رؤيتها بعدئذٍ وهي تجفّ شيئاً فشيئاً كالمومياء: لعلّ جثّته كانت عندئذ تبدو شيئاً عظيماً على الجدار، بطولها وضخامتها، تفزع البنات من رؤية الابتسامة الجامدة في وجهه المتكمّش، وسراويله (البيكيه) البيضاء الطويلة جدّاً. ولكنْ، لا؛ لعلّهم سيلبسونه رداء فاخراً، بل ربّما ألبسوه الفراك الذي يرتديه الآن ...

وانفتح الباب. "إنكَ الليلة لذو جمال باهر، يا خالي؛ بل إنكَ في اللباس الأسود قد بلغتَ حدّ الكمال. ولكنْ، ما هذا الذي تنظر إليه؟ أتجالس الموت؟"

كان تانكريدي متأبّطاً ذراع أنجيليكا، وما يزال كلاهما تحت التأثير العاطفي للرقص، منهوك القوى. فجلست أنجيليكا، وطلبت إلى تانكريدي أن يعطيها منديلاً لتجفيف العَرَق عن عارضَيْها، ولكن دون فابريتسيو كان أسرع منه إلى تقديم منديله. وجعل الشّابّان ينظران إلى اللوحة دون اكتراث، إن فكرة الموت بالنسبة إليهما كانت شيئاً عقلياً محضاً، أو بمعنى آخر كانت بعض المعلومات الثقافية فحسب، لا تجربة خالطت لبّ عظامها. الموت موجود دون ريب، ولكنه كان شيئاً لاستعمال الآخرين. وكان دون فابريتسيو يفكّر في نفسه أن الجهل المطبق بهذه التعزية الكبرى هو الذي يجعل الشّبّان أعنف شعوراً بالألم من الشيوخ؛ لأن مخرج الأمان أقرب إلى هؤلاء منه إلى الشّبّان.

وقالت أنجيليكا: "لقد عرفنا أنكَ هنا، أيّها الأمير، فجئنا لكي نستريح،

ولكنْ، أيضاً لكي نسألكَ شيئاً، وأرجو أن لا ترفض طلبنا"، وراحت عيناها تضحكان بخبث ودهاء، ويدها تستريح على كُمّ دون فابريتسيو وهي تتابع كلامها: "كنتُ أودّ أن أطلب إليكَ أن ترقص معي رقصة المازوركا القادمة؛ قل إنكَ ستفعل ذلك، ولا تكن شرّيراً؛ إننا نعلم أنكَ كنتَ راقصاً عظيماً". فسُرّ الأمير كثيراً، وأحسّ بالزهو يملأ جوانحه. فليخسأ التفكير في مدافن الكبوشيين! واهتزّ خدّاه المحاطان بإطار من الشّعر اغتباطاً. غير أن فكرة المازوركا أفزعتْه قليلاً: هذه الرقصة العسكرية، ولكنها ضربات أقدام، ودوران، لم تعد تتناسب مع سنّه. إن الركوع أمام أنجيليكا لهو مبعث غبطة له، ولكنْ، إذا لم يقوَ بعد ذلك على النهوض بسرعة؟!

***

- "شُكراً، يا ابنتي؛ إنكِ بهذا تعيدين إليّ شبابي؛ وسأكون سعيداً بطاعتكِ، ولكنْ، المازوركا، لا؛ امنحيني أوّل فالس".

- "أرأيتَ، يا تانكريدي، ما أطيب خالكَ؟ إنه لا يختلق الأعذار مثلكَ. أتعرف، أيّها الأمير، أنه لم يكن يريد أن أطلب إليكَ هذا، لأنه غيور".

فضحك تانكريدي: "عندما يكون للمرء خال جميل وظريف مثله، فمن الحقّ أن يكون غيوراً. ولكنْ، على كل حال، لن أعترض هذه المرّة". وضحك الجميع، ولم يدرِ دون فابريتسيو ما إذا دبّر هذه الحيلة، لكي يُرضياه أم لكي يضحكا عليه. هذا لا يهمّ: لقد كانا عزيزَيْن عليه في كلتَي الحالتَيْن.

وعند الخروج، جسّت أنجيليكا قماش أحد المقاعد، وقالت: "إن هذا القماش لطيف، ولونه جميل، غير أن قماش المقاعد التي في بيتكَ، أيّها الأمير..." كانت السفينة ما تزال تجري في المجرى الذي تلقّنَتْه، غير أن

تانكريدي قاطعها قائلاً: "كفى، يا أنجيليكا. نحن الاثنَينْ نحبّكِ حتّى من دون معرفتكِ بأنواع الأثاث، فدعي المقاعد، وهلمّي بنا نرقص".

وحينما مضى دون فابريتسيو إلى قاعة الرقص وجد (سيدارا) ما يزال يتكلّم مع (جوفاني فينالي)، وطرقت سمعه الألفاظ التالية: (روسيلا)، (بريمينتيو)، (مارتزولينو): لقد كان يقارنان بين مزايا أنواع الحبوب الصالحة للبذار. فأحسّ الأمير بدعوة قريبة إلى (مارغاروسّا) الحقل الذي يعمل (فينالي) الآن على خرابه، بحجّة التجديدات الزراعية.

***

كان منظر الزوج الراقص (أنجيليكا - دون فابريتسيو) رائعاً: قَدَمَا الأمير الضخمتان تتحرّكان بلطف مدهش، بحيث لم يخشَ حذاء شريكته الحريري الصغير أدنى ملامسة؛ وذراعه الضخم يشدّ خصرها بقوّة وثبات، وذقنه يستريح على موجات شَعْرها الناعمة، ومن عنق أنجيليكا العاري يتصاعد عطر (بوكيه آلا ماريشال)، وأعذب من ذلك نكهة الجسد الفتيّ البضّ. وعادت إلى ذهنه عبارة توميو: "إن شراشفها لا بد أن يكون فيها أريج الفردوس"، وهي عبارة غير لائقة، عبارة وقحة، ولكنها، مع ذلك، صادقة. ذلك التانكريدي!..

وكانت هي تتكلّم. لقد أشبعت غرورها الطبيعي، كما حقّقت طموحها العنيد. "إنني لسعيدة جدّاً، يا عمّي العظيم؛ لقد كان الجميع طيّبين، لطفاء. أما تانكريدي، فهو لذّة وغرام؛ وأنتَ أيضاً لذة وغرام. إنيّ مدينة بهذا كله لكَ أنتَ، يا عمّي: حتّى تانكريدي، لأنكَ لو لم تشأ، لكانت النهاية معروفة".

- "أنا لا شأن لي في هذا، يا ابنتي؛ أنتِ مَدينة بهذا كله لنفسكِ وحدكِ". وكان هذا حقّاً: فليس في الدنيا "تانكريدي" يستطيع أن يقاوم الرغبة في ضمّ جمالها إلى عصمته، بل إنه ليتزوّجها، ويدوس كل شيء يعترض سبيله. وشعر بانقباض في قلبه: لقد فكّر في عينَي كونشيتا المتعجرفتَيْن المهزومتَيْن. ولكنه كان ألماً عابراً: لقد كان في كل دورة يسقط عن كتفَيْه عام من العمر، وسرعان ما أحسّ بأنه قد عاد إلى سنّ العشرين، حين كان في هذه القاعة نفسها يراقص ستيلا، وحين كان يجهل معنى الخيبة، والتعب، والراحة. وللحظة قصيرة، عاد في تلك الليلة، فبدا الموت لعينَيْه "شيئاً لاستعمال الآخرين".

كان مستغرقاً في تذكاراته المتعانقة مع إحساسه الحاضر، إلى حدّ أنه لم ينتبه إلى أنه كان في لحظة معيّنة يرقص هو وأنجيليكا وحدهما في القاعة. قد يكون تانكريدي هو الذي أوعز إلى الأزواج الأخرى بالتّوقّف، فراحوا كلهم يتفرّجون؛ حتّى الزوجان (بونتيليوني) كانا هناك يتلذّذان بالمشهد. لقد كانا متقدّمَيْن في السّنّ، ولعلّهما يدركان الموقف. وكانت ستيلا أيضاً متقدّمة في السّنّ، غير أن عينَيْها المتلصّصَتَيْن من تحت أحد الأبواب كانتا مظلمَتَيْن. وحينما توقّفت الأوركسترا لم يجرؤ أحد على التصفيق، لأن دون فابريتسيو كان منظره كمنظر الأسد، يبعث على الرهبة.

وحينما انتهى الفالس، اقترحت أنجيليكا على دون فابريتسيو أن يتعشّى على مائدتها هي وتانكريدي .. ولقد كان ذلك ممّا يسرّه، ولكنه في تلك اللحظة كانت ذكريات شبابه من شدّة الحيوية والفوران بحيث لا يمكنه أن يتجاهل كم سيكون العشاء مع خال عجوز شيئاً ثقيل الظل حينئذ، بينما لا تبعد عنه ستيلا خطوَتَيْن. إن العاشقَيْن يجب أن يظلا وحدهما، أو على الأقلّ مع أناس غرباء، أما مع شيوخ - وأسوأ من ذلك مع أقرباء - فلا.

- "شُكراً، يا أنجيليكا، لستُ أحسّ بشهوة للطعام. سأتناول شيئاً على الواقف، فاذهبي أنتِ مع تانكريدي، ولا تفكّرا فيّ".

***

وانتظر لحظة حتّى ابتعد الشّابّان، ثمّ دخل هو أيضاً إلى قاعة البوفيه. كانت في الصدر مائدة طويلة جدّاً وضيّقة، تنيرها شمعدانات الفضّة المذهّبة الاثنا عشر الشهيرة التي كان جدّ دييغو قد تلقّاها هدية من البلاط الأسباني بعد انتهاء سفارته في مدريد. كانت الشمعدانات منتصبة على قواعدها المعدنية اللامعة، ستّة منها تمثّل لاعبَيْن رياضيَّيْن والسّتّة الأخرى تمثّل ستّ نساء، متناوبات، يحملون على رؤوسهم الجذع الفضّيّ المذهّب، تُتوِّج أعلاه فتائل اثنَتَي عشرة شمعة مشتعلة، وقد استطاعت مهارة الصانع أن تُعبّر بدهاء ماكر عن السهولة الخالصة لدى الرجال، وعن العناء الشديد لدى الفتيات في رَفْع ذلك الثقل الباهظ. اثنَتَا عشرة قطعة من أحسن طراز، ولعلّ سيدارا التعس قد قال في نفسه عند رؤيتها: "مَن يدري كم قطعة من الأرض تساوي!". وتذكّر دون فابريتسيو كيف أن دييغو قد أراه مرّة العُلَب التي يضع فيها كل واحد من هذه الشمعدانات، وكانت أشبه بتلال صغيرة من الجِلْد المراكشي الأخضر، مرصوصاً على جوانبها ذَهَبُ الدرع ذات الثلاثة الأجزاء من شعار آل بونتيليوني، وذَهَبُ الحروف الأولى المتضافرة من أسماء المُهدين.

ومن تحت الشمعدانات، وتحت ارتفاع خمس شرفات، تَرفَعُ نحو السقف أهرامَ "الحلوى" التي لم يكن ممكناً استهلاكها، كانت تمتدّ الثروة الرتيبة من "سفرة الشاي" المألوفة في حفلات الرقص الكبرى: جراد البحر المسلوق حيّاً بلون العقيق، ولحوم العجل (الباردة - الحارّة) صمغيّة وبلون

الشمع، والديوك الرومية التي جعلتْها حرارة الفرن بلون الذَّهَب، ومعجون الكبد السمين الوردي تحت دروع الجيلاتين المزرّدة، والطيور المنزوعة عظامها جاثمة فوق أكداس الخبز المقلي كالعنبر، ومن حولها زخرفة من أحشائها المفرومة قطعاً صغيرة. وفي أطراف المائدة النائية وعاءان أثريّان للشوربة مصنوعان من الفضّة، يحتويان على المَرَق الصافي بلون العنبر المحروق. لا بد أن الطُّهاة في تلك المطابخ الرحيبة قد ظلّ يتصبّب عَرَقُهم منذ الليلة الماضية وهم يُهيِّئون هذا العشاء.

"يا لله، ما أكثر هذه الأنواع! إن دونا مرغريتا تُحسِن صنعَ هذه الأشياء، ولكن هذه الأشياء كلها تحتاج إلى مِعَد أخرى غير معدتي".

وأعرض عن مائدة الشراب التي كانت إلى الجهة اليمنى تلمع ببريق البلّور والفضّة، واتّجه إلى الشمال نحو مائدة الحلويات، أقراص الكعك بالجوز الهائلة حمراء - بنّيّة كجِلْد الحصان، والزلابية مرصّعة ببياض اللوز وخضرة الفستق، وتلال العوّامة بالشوكولاتة كستنائية اللون وضخمة كتراب سهل (كاتانيا) الذي جيء بها منه في الحقيقة بعد دورات طويلة، و(الجبال البيضاء) المكلّلة بثلوج من (الكريما)، و(أفراح الحلق) بلونها الأخضر المعتم من الفستق المطحون، و(عجين العذارى) غير المحتشم. من هذا الصنف الأخير وحده، طلب دون فابريتسيو قطعة، وفيما كان يمسكها في صحنه، خُيّل إليه أنها شكل كاريكاتوري شائن للقدّيسة (أغاثا)، تعرض نهدَيْها الجافَّيْن. "كيف لم يفكّر المكتب الكَنَسي المقدّس حينما كان قادراً على ذلك في أن يُحرِّم صُنع هذه الحلويات؟ "أفراح الحلق" (الحلق الفاني، مع الأسف!) و"نهود القدّيسة أغاتا" التي تبيعها الأديرة، وتتلقّفها أفواه المحتفلين بالأعياد! ماه!"

في القاعة العابقة بروائح الفانيليا، والنبيذ، والطِّيب، كان دون فابريتسيو يتجوّل باحثاً عن مكان، فرآه تانكريدي من قرب إحدى الموائد، فضرب بيده على أحد المقاعد مشيراً إلى أن هناك مكاناً لجلوسه؛ وإلى جانبه، كانت أنجيليكا تحاول أن ترى في صحن فضّيّ مقلوب أمامها إذا كانت تسريحة شَعْرها ما تزال على حالها. فهزّ دون فابريتسيو رأسه مبتسماً تعبيراً عن الرفض، ومضى يتابع بحثه، فترامى إلى سمعه من قرب إحدى الموائد صوت بالافيشينو يقول مغتبطاً: "إن أسمى انفعال في حياتي ..." وإلى جانبه مقعد خال. يا له من مُمِلّ كبير! أما كان أفضل أن يستمع إلى حديث أنجيليكا الودّي - وقد يكون الودّ مقصوداً، ولكنه باعث على المَلَل - وفكاهة تانكريدي الجافّة؟ "كلا؛ أن أتحمّل المَلَل خيرٌ من أن أُحمِّله للآخرين".

فاستأذن وجلس على مقربة من الكولونيل، فنهض هذا لقدومه، واستحقّ بنهوضه شيئاً من المودّة الفهدية. وراح دون فابريتسيو يتحدّث مع بالافيشينو، بينما هو يلتهم الخليط اللذيذ من الحلوى التي اختارها؛ وقد لاحظ أن هذا الرجل، فيما وراء العبارات السُّكَّرية التي يخاطب بها السّيّدات، كان أبعد ما يكون عن البلاهة. لقد كان هو أيضاً "سيّداً" ومذهب الارتياب الأساسي في طبقته، الذي يزول عادة في غمرات العسكرية الملتهبة، عاد الآن يطلّ برأسه، لأنه يجد نفسه في بيئة مساوية لبيئته الأصلية، بعيداً عن الأساليب البلاغية التي لا يمكن تجنّبها، والخاصّة بالثكنات العسكرية، وبالمعجبات.

"الآن يريد اليسار أن يُعلّقني على الصليب، لأنني أمرت رجالي في شهر آب بأن يطلقوا النار على الجنرال. ولكنْ، قل لي أنتَ، أيّها الأمير، ماذا كان يمكنني أن أصنع غير هذا إزاء الأوامر المكتوبة التي كُلِّفتُ بها؟ على أنه

لا بد لي من الاعتراف بأنني حينما وجدتُ نفسي هناك، في أسبرومونته، أمام تلك المئات من العُراة، وبعضهم من ذوي الوجوه المتعصّبة التي لا يمكن علاجها، والبعض الآخر وجوههم عابسة، لأنهم من الذين يمتهنون الثورات، شعرتُ بالغبطة لأن الأوامر التي أحملها مطابقة كل المطابقة لما كنتُ أنا نفسي أفكّر فيه. ولو لم آمر بإطلاق النار، لاستطاع أولئك أن يجعلوا من جنودي ومنّي دُمىً في أيديهم، وما كانت المصيبة لتكون كبيرة، ولكنها كانت عندئذ ستؤدّي إلى التّدخّل الفرنسي، والنمساوي، وهذا إزعاج دون مقدّمات، وتكون نتيجته انهيار هذه "المملكة الإيطالية" التي تألّفت بشكل عجيب، أعني أنه لا يفهم كيف تمّ تأليفها. وأقول لكَ بملء الثقة: إن النار القصيرة التي أمرتُ بإطلاقها قد أفادت، على الأخصّ ... غاريبالدي، فقد أنقذتْه من تلك التشكيلة التي أُلصقت به إلصاقاً، من أولئك الأفراد كلهم، أمثال (زامبيانكي)، الذين كانوا يستخدمونه، لا ندري لأيّة أغراض؛ وقد يكونون كرماء برغم أنهم عاجزون، أو قد يكونون أتباعاً للتويللري أو لقصر فارنيزي: كلهم أفراد يختلفون الاختلاف كله عن أولئك الذين نزلوا معه إلى البرّ في مارسالا؛ وأفضل مَنْ فيهم يظنّون أنه يمكن صُنع إيطاليا عن طريق سلسلة من "الثمانية وأربعينات". وهو، أي الجنرال، يعرف هذا، لأنه في أثناء ركعتي المشهورة شدّ على يدي بحرارة، لا أظنّ أنها يمكن أن تكون مألوفة مع مَنْ كان قبل خمس دقائق قد أمر بإنفاذ رصاصة في قَدَمه. أتدري ماذا قال لي بصوت منخفض، وكان هو الشخص النبيل الوحيد في تلك الجهة في أعلى الجبل المشؤوم؟ لقد قال لي: "شُكراً، أيّها الكولونيل". فسألتُه: "شُكراً لماذا؟ لأنني جعلتُكَ أعرج مدى الحياة؟" الواضح أنه ليس هذا، ولكن لأنني جعلتُه يلمس بيده الغَشْر والنذالات، أو ما هو أسوأ من ذلك، من أتباعه المشكوك في ولائهم".

-"ولكنْ، أرجو أن تعذرني، أيّها الكولونيل؛ أفلا تعتقد بأنكَ قد بالغتَ قليلاً في تقبيل اليدين. ورفع القبّعة، والمجاملات؟"

-"كلا، بكل إخلاص، لأن أعمال اللطف والرّقّة هذه كانت صادقة خالصة. كان يجب أن تراه، ذلك الرجل العظيم المسكين وهو ممدّد على الأرض تحت شجرة كستناء متوجّعاً بجسده، وأكثر من ذلك بروحه. مؤلم حقّاً! لقد تبدّى بوضوح ذلك الطفل الملتحي والمتغضّن الوجه، ولكنه، على كل حال، ولد مغفّل سليم القلب. لقد كان من العسير مقاومة التّأثّر لاضطرارنا إلى تخويفه بإطلاق النار، ولماذا كان يجب أن أقاوم التّأثّر؟ أنا لا أُقبّل إلا أيدي السّيّدات، وحتّى حينذاك، أيّها الأمير، إنما قبّلتُ يد "نجاة المملكة"، وهذه أيضاً سيّدة، يجب علينا نحن العسكريّيْن أن نحيّيها".

ومرّ أحد الخَدَم، فطلب إليه دون فابريتسيو أن يُحضر له قطعة من الكعك المَدعو "الجبل الأبيض"، وقدح شمبانيا.

- وأنتَ، يا كولونيل، ألا تريد شيئاً؟

- لا شيء للأكل، شُكراً. لعلّي أنا، أيضاً، أتناول قدح شمبانيا.

ثمّ عاد يستأنف حديثه، لقد كان يبدو أنه لا يستطيع الانفصال عن تلك الذكرى التي تُغري أمثاله، وتزدهيهم، لأن مبعثها قد جاء بطلقات قليلة وبراعة كثيرة. "لقد طاش صواب رجال الجنرال حينما كان رجالي يجرّدونهم من السلاح، فراحوا يقذفون الشتائم؛ ومَن الذي يشتمونه؟ يشتمونه هو، الذي دفع وحده الثمن بشخصه. شيء مقرف، ولكنه طبيعي؛ لقد رأوا تلك الشخصية الطفلة والعظيمة معاً تملص من أيديهم، وكانت هي وحدها التي تستر دسائس الكثيرين منهم المظلمة. أما مجاملاتي، فحتّى لو كانت

سطحية فارغة، فإنني، مع ذلك، مسرور بأنني فعلتُها، فنحن هنا في إيطاليا لا نعترف بالمبالغة في الشؤون العاطفية، وفي كثرة تقبيل الأيدي، فهذه هي الأمور السياسية الأكثر فعّالية لدينا".

وشرب الخمر التي حُملت إليه، ولكنْ، بدا أن ذلك قد زاد من مرارته. "ألم تزُر البرّ الإيطالي بعد تأسيس المملكة، أيّها الأمير؟ إنكَ، إذنْ، لسعيد الحظّ، فليس المشهد جميلاً. إننا لم نكن قطّ أكثر تفرّقاً منّا بعد الوحدة؛ فتورينو تأبى أن تتخلّى عن كونها عاصمة، وميلانو تجد إدارتنا دون الإدارة النمسوية، وفلورنسا تخشى أن تُنقَل منها الآثار الفنّيّة، ونابولي تبكي على الصناعات التي تخسرها، وهنا، هنا في صِقِلية توشك أن تقع كارثة غير معقولة ... أمّا الآن، وبفضل خادمكم المتواضع، فلم يعد أحد يذكر شيئاً عن القمصان الحمر، ولكنه سيعود للحديث عنها فيما بعد، ومتى اختفت تلك القمصان، فسيأتي غيرها من لون آخر، ثمّ تعود الحمر من جديد. وإلى أين ستنتهي الأمور؟ يقال إن هناك النجم الأكبر. ربّما ولكنكَ تعرف أفضل منّي، أيّها الأمير، أنه حتّى الكواكب الثابتة ليست ثابتة حقّاً". لعلّه كان يتنبّأ بفعل نشوة الشراب. وأحسّ دون فابريتسيو بقلبه ينقبض أمام هذه الاحتمالات المزعجة.

***

واستمرّ الرقص طويلاً، وبلغت الساعة السادسة صباحاً. كان الجميع مُنهكين، ولعلّهم كانوا يتمنّون أن يكونوا في الفراش منذ ثلاث ساعات على الأقلّ، ولكن الانصراف المبكر كان معناه الاحتجاج على أن الحفلة لم تكن موفّقة، وفي هذا إهانة لأصحاب البيت المساكين الذين تحمّلوا مشقّة عظيمة.

كانت وجوه السّيّدات كالحة، وثيابهنّ مجعلكة، وأنفاسهنّ ثقيلة: "يا مريم، ما هذا التعب الكثير؟! يا مريم، ما أشدّ نعاسي!" وكانت وجوه الرجال، من فوق ربطات أعناقهم غير المنتظمة صفراء متغضّنة، وأفواههم ملأى بلعاب مُرّ"، وكثر تردّدهم على غرفة مهجورة، على ارتفاع مكان الأوركسترا: في تلك الغرفة، كان نحو عشرين "أرضية" واسعة للتبويل مرتّبة ترتيباً حسناً، وكانت كلها تقريباً ممتلئة آنذاك، وبعضها كان فائضاً على الأرض. وكان الخَدَم قد استولى عليهم النعاس، فلمّا أحسّوا بقرب انتهاء الرقص، لم يعودوا يُبدلون الشموع في المصابيح، فكانت بقايا الشموع القصيرة تُلقي في الصالونات نوراً خافتاً، مدخّناً، يوحي بالشؤم. وفي قاعة البوفيه الخالية، لم يكن سوى صحون فارغة، وأقداح فيها بقايا خمر، راح الخَدَم يحتسونها بسرعة، وهم يتلفّتون من حولهم. وكان نور الفجر يتسلّل ببطء من خلال درفات الأبواب والنوافذ.

وأخذ الشمل يتفرّق، وكان من حول دونا مرغريتا فريق من الضيوف، يستأذن في الانصراف: "رائع! كان حلماً! على العادة القديمة!" وكان على تانكريدي أن يتعب في إيقاظ دون كالوجيرو الذي كان راقداً على كنبة منفردة، ورأسه مُلقى إلى الخلف؛ وكانت سراويله مرتفعة إلى ركبته، ومن فوق الجوارب الحريرية، كان يُرى طرفا كلسونه. الحقّ أنه كان من الرعاع. أما الكولونيل بالافيشينو، فكانت عيناه غائرتَيْن في محجرَيْهما هو أيضاً، ولكنه، مع ذلك، كان يعلن لمَنْ يرغب في سماعه أنه لن يذهب إلى بيته، بل سيمضي من قصر بونتيليوني مباشرة إلى ميدان العرض العسكري؛ فبهذا كانت تقضي فعلاً التقاليد الصارمة التي يتبعها العسكريون حينما يُدعون إلى حفلات الرقص.

وحينما أخذت الأسرة أماكنها في العربة (وكان الندى قد بلّل المخدّات) قال دون فابريتسيو إنه يفضّل أن يعود إلى المنزل ماشياً، فقليل من الطراوة يُنعشه، لأنه يحسّ بشيء من الصداع، والحقيقة أنه كان يريد أن يشعر بشيء من التعزية في التّمتّع بمرأى النجوم، وكان ما يزال منها الشيء القليل في أعلى السماء؛ وكالعادة كانت رؤيتها كافية لإنعاشه. لقد كانت بعيدة جدّاً، متسلّطة، وفي الوقت نفسه، وديعة أمام حساباته؛ على عكس الآدميّين تماماً، فهؤلاء قريبون دائماً، وضعاف، وهم، مع ذلك، كثيرو الخصام.

وكانت الطُّرُق قد دبّت فيها الحركة قليلاً، فهنا عربات محمّلة بركام من الزبالة أعلى من الحمار الذي يجرّها بأربع مرّات؛ وهناك نقّالة طويلة، تحمل أكداساً من الأبقار المذبوحة قبل قليل في المسلخ، وكلها مُقطّعة أرباعاً، وأعضاؤها الحميمة معروضة بكل ما في الموت من عدم الحياء، وبين الفنية والفينة، تسقط منها على الرصيف قطرة حمراء كثيفة.

ومن خلال درب جانبية ضيّقة، رأى الجانب الشرقي من السماء، هناك فوق البحر. لقد كانت فينوس هناك ملتفّة بعامة من بُخار الخريف، لقد كانت دائماً أمينة، تنتظر دون فابريتسيو في جولته الصباحية: في دونا فوغاتا قبل الصيد، والآن بعد الرقص.

وتنهّد دون فابريتسيو. متى ستقرّر أن تضرب له موعداً غير زائل، بعيداً عن الأعضاء المقطوعة وعن الدم، في منطقتها الأبدية الثابتة؟

٧. موت الأمير

(يوليو ١٨٨٣)

هذا الإحساس كان دون فابريتسيو يعرفه دائماً. منذ عشر سنوات وهو يحسّ بأن السائل الحيوي، أو سهولة البقاء، أو الحياة بمعنى أعمّ، أو لعلّها أيضاً إرادة الاستمرار في البقاء، يتسلّل منه ببطء، ولكنْ، باستمرار، كحبيبات الرمل التي تتجمّع، ثمّ تتفرّق واحدة واحدة دون إسراع ودون توقّف أمام فوهة الساعة الرملية. وفي بعض لحظات النشاط الشديد، والانتباه الكبير، كان يختفي هذا الشعور، شعور الاستسلام المتواصل، ليعود، فيظهر صبوراً جَلداً في مناسبات الصمت أو التّأمّل الباطني القصير: كالطنين المتواصل في الأذن، أو كدقّة الساعة اللذَيْن يظلان يعملان في حين يكون كل شيء عداهما صامتاً، وبذلك يؤكّدان لنا أنهما موجودان دائماً، وساهران حتّى ونحن لا نسمعهما.

في سائر اللحظات الأخرى، كان يكفيه أقلّ ما يمكن من الانتباه، لكي يحسّ بصوت حبّات الرمل وهي تتسلّل بخفّة، وبلحظات الزمن التي تتسرّب من ذهنه، وتغادره إلى الأبد. ولم يكن ذلك الإحساس من قبل ناجحاً عن أيّ مرض، بل بالأحرى إن هذا الفقدان غير المحسوس للحيوية كان الدليل، أو الشرط بمعنى آخر، لإحساس الحياة؛ وبالنسبة إليه، وهو الذي اعتاد أن يجوس فضاءات خارجية غير محدودة، ويبحث عن دركات داخلية رحيبة، لم يكن ذلك الإحساس كريهاً مطلقاً؛ كان شعوراً بالسَّحْق المتواصل الدقيق جدّاً للشخصية، مضافاً إلى تشاؤم مبهم من إمكان تكوين شخصية أقلّ

إحساساً بالواقع، ولكنها أكثر اتّساعاً، في مكان آخر. إن حبيبات الرمل تلك لم تكن تضيع سدى، لقد كانت تختفي، ولكنها تتجمّع في مكان، لا ندري أين هو، لكي تُقيم بناء شاهقاً أكثر بقاء. ولكن كلمة "بناء" حين فكّر فيها لم يجد فيها الكلمة الصحيحة المقصودة، إنها كلمة ثقيلة، وحبيبات الرمل كذلك غير وافية بالمعنى. لقد كانت أشبه بذرّات البخار المائي، ترتفع من أحد المستنقعات، لتمضي صعداً إلى السماء، فتتألّف منها الغيوم الرقيقة الحُرّة. وفي بعض الأحيان، كان يعجب من أن يكون وعاء الحياة ما يزال قادراً على الاحتفاظ بشيء في داخله بعد هذه السنوات الضائعة كلها. "ليس في وسعه ذلك حتّى لو كان كبيراً بحجم الهَرَم". وفي أحيان أخرى، وغالباً، كان يزدهيه أن يكون الوحيد تقريباً الذي يحسّ بهذا التّسرّب المستمرّ، بينما لا يبدو أن في مَنْ حوله أحداً يحسّ مثله؛ وكان ذلك سبباً في أن يزدري بالآخرين، كما يزدري الجندي القديم بزميله الحديث العهد الذي يُوهِم نفسه أن الرصاص الذي يئزّ من حوله ينسى سوى ذباب يطنّ، ولكنه لا يؤذي. إن هذه الأمور، لا ندري لماذا لا يُباح بها؟ بل يُترك للآخرين أن يحسّوا بها في داخل نفوسهم، ولكنْ، ليس في من حوله مَن استطاع أن يستنبطها؛ ولا واحدة من بناته اللواتي كنّ يحلمنَ بعالم آخر شبيه بهذه الحياة، كامل من جوانبه جميعها، بحكّامه، وطُهاته، وأديرته؛ ولا ستيلا التي كانت تلتهما الغنغرينا في مجرى البول، ولكنها كانت تتشبّث بحياة الألم هذه تشبّثاً ذليلاً. ربّما كان تانكريدي وحده هو الذي استطاع، لحظة واحدة، أن يدرك ذلك، حينما قال له بسخريته وشَغَفه بالمعاكسة: "أنتَ، يا خالي، تجالس الموت". لقد انتهت المجالسة الآن: لقد قالت الجميلة(*) كلمتها:

---

*) يعني بها الإلهة (فينوس) التي يهيم بها ويتشوّق إلى لقائها في السماء، كما رأينا في نهاية الفصل السابق. (المترجم).

"نعم"، فالهرب أصبح مقرَّراً، والاختفاء في القطار المحجوز، لأن الأمور قد أصبحت الآن مختلفة كل الاختلاف.

كان جالساً على كنبة، وساقاه الطويلتان ملفوفتان بغطاء، على شرفة فندق (تريناكريا)، وكان يحسّ بأن الحياة تخرج منه في موجات عريضة متلاحقة، وفي هدير روحي أشبه بهدير شلال الرين. كان الوقت آنذاك ظهر يوم الاثنَيْن من آخر شهر يوليو، وكان بحر باليرمو كثيفاً، زيتيّ اللون، بطيئاً، يترامى أمامه ثابت الحركة على خلاف عادته، ومنكمشاً ككلب، يحاول أن يختفي من أمام تهديد صاحبه؛ ولكن الشمس الثابتة العمودية كانت واقفة من فوقه على سيقان عريضة، تجلده بأشعّتها دون رحمة. وكان الصمت مطبقاً، فما يسمع دون فابريتسيو تحت النور الشاهق صوتاً غير الصوت الداخلي المنبعث من الحياة المتسلّلة منه.

لقد وصل هذا الصباح من نابولي، منذ ساعات قلائل، وكان قد ذهب إلى هناك لاستشارة الطبيب البروفسور (سيمّولا)، وفي رفقته ابنته كونشيتا - وعمرها أربعون سنة - وحفيده (فابريتسيتو)، وكانت رحلة شاقّة جدّاً، وبطيئة كأنها مراسم جنازة. وكانت الفوضى في الميناء عند السفر، وعند الوصول إلى نابولي، وروائح المراحيض الحادّة، والضجيج المتواصل في تلك المدينة المصابة بداء العَظَمَة، قد أغاظتْه، ولكنه كان غيظ المتشكّين الضعاف الذي جعله يحسّ بالتعب والمذلّة، ولكنه يُولّد غيظاً معاكساً هو غيظ المسيحيّيْن الصالحين الذين لا تزال في جعبتهم أعوام أخرى يعيشونها. وكان قد قرّر أن يعود بطريق البرّ، وهو قرار مفاجئ، حاول الطبيب أن يحاربه، غير أنه أصرّ على رأيه؛ وهكذا كان ما يزال ظلُّ هيبته قويّاً صارماً. وكانت النتيجة أنه اضطرّ إلى البقاء ستّاً وثلاثين ساعة

سجيناً داخل علبة مُحرقة، مُرهقاً بالدخان تحت القناطر التي تتكرّر في طريق القطار كهذيان الحمّى، والشمس تعمي عينيه في الأماكن المكشوفة الواضحة كالحقائق المحزنة، وشاعراً بالمذلّة لاضطراره إلى الاستعانة بحفيده الفزع في قضاء مئات الحاجات الوضيعة. كان القطار يجتاز مناظر طبيعية مؤذية، وسلاسل جبلية لعينة، وسهولاً تفتك بها الملاريا؛ تلك المناظر الطبيعية في (كالابريا - وبازيليكاتا) التي تبدو له بربونية، بينما هي لا تختلف في شيء عن المناظر الصِّقِليّة. ولم تكن السّكّة الحديدية قد اكتملت بعد، وفي شوطها الأخير على مقربة من (ريجيو) كانت تدور دورة عريضة نحو (ميتابونتو) عبر سواحل تحمل للسخرية أسماء أبطال رياضيّيْن وشهوانيّيْن، مثل (كروتون - وسيباري). وبعد ذلك في مسّينا؛ بعد ابتسامة المضيق الخادعة التي سرعان ما كذّبتها التلال (البيلورية) المحروقة، دار القطار في منعطف آخر طويل كالسير في قضية بطيئة ظالمة. ونزل القطار إلى (كاتانيا)، ثمّ صعد نحو (كاسترو جوفانيّ) وبدا كأن القاطرة السلحفائية وهي تتسلّق السفوح الخرافية تكاد تنفجر كحصان خائر القوى. وبعد انحدار عنيف، بلغ القطار إلى باليرمو. وعند الوصول، عادت المجاملات العائلية الزائفة، بابتسامات الابتهاج المُصطَنَعَة لعودته سالماً من السفر، أو حتّى بابتسامات التعزية من الأشخاص الذين كانوا ينتظرونه في المحطّة، وعلى وجوههم أقنعة زائفة، زائفة جدّاً، من السرور كشف له المعنى الحقيقي لتشخيص الطبيب سيمولا الذي لم يسمع منه أكثر من عبارات مطمئنة. ولكنْ، لم يسمع هدير الشلالات في داخله إلا حين نزل من القطار، وراح يعانق كنّته المدفونة في ثياب الترّمّل السوداء، وأبناءه الذين كانوا يُبدون أسنانهم ابتساماً، وتانكريدي بعينَيْه المتهيّبَتَيْن، وأنجيليكا بصدريّتها الحريرية الملتصقة بإحكام على نهدَيْها الناضجَيْن.

ومن المحتمل أن يكون قد غاب عن الوعي، لأنه لا يذكر كيف وصل إلى العربة، بل وجد نفسه ممدّداً فيها وساقاه مثنيّتان، وتانكريدي وحده إلى جانبه؛ ولم تكن العربة قد تحرّكت بعد، ومن الخارج كانت تصل إلى سمعه أحاديث الأسرة: "ليس ثمّة من شيء ... كانت الرحلة طويلة جدّاً ... بهذا الحَرّ الشديد قد يغمي علينا كلنا ... الوصول إلى الفيلا قد يُتعبه كثيراً جدّاً". لقد عاد إليه صفاء ذهنه من جديد، فلاحظ الحديث الجادّ الذي كان يدور بين كونشيتا وفرانشيسكو باولو، وأناقة تانكريدي بملابسه الكستنائية والرمادية ذات المربّعات، وقبّعته البنّيّة. ولاحظ كذلك كيف أن ابتسامة ابن أخته لم تكن قطّ مضحكة كما هي الآن، ومغلفة بانفعال كئيب، ممّا بعث في نفسه شعوراً مزيجاً من الحلاوة والمرارة بأن ابن أخته يحبّه، وجعله يعرف أنه أصبح ميؤوساً من شفائه، ذلك لأن السخرية الدائمة تزيلها الرّقّة عادة. وتحرّكت العربة، وانعطفت إلى اليمين. "ولكنْ، إلى أين نمضي، يا تانكريدي؟"

وأدهشه صوته. لقد أحسّ فيه بانعكاس الصوت المدمدم في داخله. "إننا ذاهبون إلى فندق ترينا كريا، يا خالي؛ فأنت تعب، والفيلا بعيدة؛ وستستريح ليلة، وغداً تعود إلى المنزل. ألا ترى أن هذا أفضل لكَ؟"

- "لنذهب، إذنْ، إلى منزلنا عند البحر، فهو أقرب إلينا".

ولكنّ هذا لم يكن ممكناً كذلك، فلم يكن المنزل مُعدّاً، كما كان يعرف جيّداً؛ كان يصلح لتناول وجبات آنيّة أمام البحر، ولكنْ، لم يكن فيه سرير واحد.

- "في الفندق، ستستريح أكثر، يا خالي؛ ففيه وسائل الراحة كلها".

كانوا يعاملونه كمولود جديد؛ وكان فعلاً لا يملك من القوّة أكثر ممّا يملك المولود الجديد.

كان الطبيب أوّل وسائل الراحة التي وجدها في الفندق، وكان قد استُدعي على عجل، وربّما كان ذلك في أثناء غيبوبته. ولكنه لم يكن الدكتور (كاتاليوتي) الذي كان يعالجه دائماً، والذي يرتدي ربطة عنق بيضاء تحت وجهه الضاحك ونظّاراته الذهبية الثمينة؛ كان إنساناً مسكيناً، وهو طبيب ذلك الحي البائس، ومظهره شهادة عاجزة على ألوف الاحتضارات والحشرجات التعسة. لقد كان وجهه المسكين الهزيل المحاط بشعرات بيض يتمدّد مستطيلاً فوق الردنغوت البالي، أشبه بوجه أديب واقعي جائع. وحينما أخرج من جيبه ساعته "وكانت دون سلسلة، بانت عليها بقع الصدأ التي استطاعت أن تخترق غطاءها المَطلي بالذَّهَب. هو أيضاً قِربة بالية أبلاها طول جرّ البغال لها، فنزفت آخر قطرات الزيت الذي فيها دون أن تدري بذلك. جسّ الطبيب نبضه، ثمّ كتب له قطرات من الكافور، وأبدى أسنانه النخرة بابتسامة، أراد أن يجعلها مُطَمْئِنَة، ولكنها، بدلاً من ذلك، كانت تستحقّ الرأفة، ثمّ انصرف يسير بخطى ثقيلة.

وجاءت القطرات حالاً من الصيدلية القريبة، فكانت مفيدة له. لقد شعر بأنه أقلّ ضعفاً، غير أن قوّة الزمن الذي يهرب منه لم تُقلّل من وهنه وانهيار قواه.

ونظر دون فابريتسيو في مرآة الخزانة، ولكنه استطاع أن يعرف ملابسه أكثر ممّا عرف نفسه: قامة مديدة جدّاً، وجسم نحيل، وخدّان كالحُفَر، ولحية طويلة، عمرها ثلاثة أيّام. إنه يشبه أولئك الإنجليز الذين يجوسون الكروم في كُتُب (فيران) التي كان يهديها في أعياد الميلاد إلى فابريتسيو. إنه فهد في أسوأ صورة. ترى لماذا يشاء الله أن لا يموت إنسان بوجهه الطبيعي؟ ولمَ يحدث هذا للجميع: أن يموتوا بوجوه تنكّرية؛ حتّى الشّبّان؛ حتّى ذلك

الجندي ذو الوجه الملطّخ؛ وحتّى باولو حينما رفعوه عن الرصيف، وكان وجهه مضرّجاً بالدم، بينما كان الناس يطاردون الجواد الذي ألقاه على الأرض. وإذا كان ضجيج الحياة المتسلّلة منه، وهو الشيخ الهرم، عنيفاً متسلّطاً، فكيف ترى يكون اضطراب تلك الأوعية الملأى بالحياة، والتي تفرغ كل ما فيها من حياة في لحظة خاطفة وهي بعد في ميعة الشباب؟ لقد ودّ لو يعترض بقدرته على هذا النظام غير المعقول الذي يفرض الزوال بالقوّة؛ ولكنه أحسّ بأنه لا يستطيع ذلك، وأن رفع موسى الحلاقة أصبح لديه، بالنسبة إلى الماضي، أصعب من رفع طاولة مكتبه. "لا بد من استدعاء حلاّق". قال ذلك لفرانشيسكو باولو، ولكنه عاد حالاً، ففكّر في نفسه: "كلا، إنه إحدى قواعد اللعب، وهي بغيضة، ولكنها مألوفة. سيحلقون لي فيما بعد". ثمّ قال بصوت عال: "دعه، سنفكّر في هذا فيما بعد". ولم تُزعجه فكرة هذا التسليم المطلق لجسده، والحلاق مُنحنٍ فوقه.

ودخل الخادم وبيده طشتٌ فيه ماء فاتر وإسفنجة، فنزع عنه السترة والقميص، وغسل وجهه ويَدَيْه، كما يغسل طفلاً، أو كما يغسل ميّتاً. إن أوساخ يوم ونصف اليوم في القطار قد حوّلت حتّى الماء إلى مثل لون الجنازة. وفي تلك الحجرة المنخفضة، يكاد المرء يحسّ بالاختناق: كان الحَرّ ينشر الروائح، ويذيع نتن المنسوجات الوبرية التي لم ينفض غبارها جيّداً، وظلال العشرات من الصراصير التي دِيست بالأقدام كانت تظهر بروائحها العابقة كالدواء. ومن قلب الطاولة الصغيرة هناك، تخرج في الليل تذكارات خانقة، تنبعث من البول القديم، فتجعل جوّ الغرفة قاتماً كرهاً. فطلب فتح النوافذ: كان الفندق في الظّلّ، غير أن النور المنعكس عن البحر المعدني كان يعمي البصر؛ ومع ذلك، فهذا أفضل من السجن الخانق. وقال لمَنْ حوله أن يحملوا له كنبة إلى الشرفة، وبعد أن سار تلك

المسافة القصيرة التي لا تتجاوز المترَيْن جلس وهو يحسّ بتلك الراحة التي كان يشعر بها قبلاً حين كان يستريح بعد أربع ساعات صيد في الجبال. "قلْ للجميع أن يتركوني بسلام؛ أشعر بأنني أحسن حالاً، وأريد أن أنام". كان يحسّ بالنعاس حقّاً، غير أنه وجد أن الرضوخ للكَرَى الآن كان غير معقول، تماماً كَمَنْ يتناول قطعة كعك قبل الوليمة الفاخرة المشتهاة مباشرة. فابتسم. "لقد كنتَ دائماً ذوّاقة حكيماً". وبقي هناك غارقاً في الصمت الكبير من حوله، والدويّ المريع في داخله.

واستطاع أن يدير رأسه إلى الشمال: إلى جانب جبل (بلليغرينو) كانت ترى الفجوة القائمة في حلقة الجبال، وأبعد من ذلك الرابيتان اللتان يقع منزله عند أقدامها، ولمّا كان لا يمكنه الوصول إليه، فقد بدا له بعيداً بعيداً. فشطح به تفكيره إلى غرفة المراقبة، وإلى المجهَرَيْن اللذَيْن يعلوهما الغبار منذ عشر سنوات، وإلى الأب بيرّونه المسكين الذي أصبح هو أيضاً غباراً، وإلى لوحات أراضيه، وإلى النسانيس المنحوتة للزينة، والسرير النحاسي الذي توفّيت فيه ستيلا الحبيبة؛ هذه الأشياء كلها التي تبدو له الآن حقيرة، وإن تكن نفيسة، وهذه الحلى المعدنية، والخيوط الحريرية، والأقمشة المغطّاة بالتراب وعصير الأعشاب، والتي كان يعنى بها في حياته، وعمّا قريب ستصبح في طيّات الهجر والنسيان دونما ذنب. وشعر بشيء يضغط على لبّه. لقد نسي احتضاره مفكّراً في النهاية القريبة لهذه الأشياء العزيزة، ولكنّ صفّ البيوت المتداخل من خلفه، والسّدّ القائم من الجبال، والمساحات الممتدّة تجلدها حرارة الشمس، هذه كلها كانت تحول دون تفكيره بوضوح بلدة دونا فوغاتا: كانت تبدو له داراً، ظهرت في المنام، ولم تعد ملكاً له كما يبدو؛ إن كل ما يملكه الآن هو هذا الجسد المتلاشي، وهذه الألواح الحجرية التي تحت قَدَمَيْه، وهذه المياه المتسارعة في الظلام

نحو الهاوية. لقد كان وحيداً، غريقاً على ظهر عوّامة، يتقاذفها تيّار عنيف مندفع، لا يمكن السيطرة عليه.

حقّاً، لقد كان هناك أبناؤه. الأبناء ... الوحيد الذي يشبهه، وهو جوفاني، لم يعد هناك. في كل عامَيْن، كان يرسل تحيّاته من لندن؛ إنه لم يعد يتعاطى بيع الفحم، بل كان يتاجر بالجواهر؛ وبعد وفاة ستيلا، وصلت باسمها رسالة صغيرة، وبعد ذلك بقليل، وصلت علبة صغيرة، تحتوي على سوار. إنه هو أيضاً كان "يجالس الموت" حقّاً؛ بل إنه بتخلّيه عن كل شيء قد هيّأ لنفسه نصيباً من الموت، بينما هو يواصل الحياة. أما الآخرون ... لقد كان هناك الأحفاد كذلك: فابريتسيتو، أصغر آل سالينا، إنه لجميل، مرح، وعزيز جدّاً ...

وهو أيضاً كريه، بجرعة دم (مالفيكا) المزدوجة التي تجري في عروقه، وبأعماله الفطرية المفرحة، وميوله نحو الأناقة البورجوازية. لقد كان عَبَثاً أن يُرغم نفسه على اعتقاد غير هذه الحقيقة، وهي أنه هو نفسه آخر آل سالينا، العملاق الضاوي الذي يحتضر الآن على شرفة فندق؛ ذلك لأن معنى الأسرة النبيلة يقوم كله على التقاليد، أي على الذكريات الحياتية، ولقد كان هو آخر مَنْ يمتلك ذكريات غير مألوفة، تمتاز عن ذكريات الأُسر الأخرى. أما فابريتسيتو، فقد تكون له ذكريات عامّة شبيهة بما لدى رفاق صفّه في المدرسة الإعدادية، ذكريات أكلات رخيصة، ومزحات ماكرة، يسخرون بها من معلّميهم، وجياد يشترونها، ويهتمّون بتقدير ثمنها أكثر من تقديرهم لمزاياها؛ أما ما يعنيه الاسم، فقد يتحوّل إلى فخفخة فارغة، ينغّصها لديه ما يشبه لسع ذبابة الخيل من التفكير في أن غيره قد يكونون أقدر على الظهور بأفخم من مظهره. وقد يعمد إلى اصطياد زواج غنيّ متى

أصبح هذا عادة مألوفة، لا مغامرة صيد جريئة، كما كان زواج تانكريدي. أما سجاجيد دونا فوغاتا، وكروم اللوز في (راغايتسي)، وكذلك - مَنْ يدري - ينبوع الإلهة (انفيتريتي)، فلعلّها ستصبح يوماً هزيلة الحظّ، فتتناسخ أرواحها، لتتحوّل إلى قطع صغيرة من الأرض تُبتَلَع بسرعة، أو إلى فتيات (باتاكلان) أسرع زوالاً من خضابهنّ، بعد أن عاشت عمراً طولاً. أما هو، فقد لا يبقى منه سوى ذِكْر جَدٍّ شيخ سريع الغضب، مات في أصيل يوم من أيّام يوليو، فكان موته سبباً في منع الفتى من الذهاب للاستحمام في (ليفورنو). لقد قال هو نفسه إن آل سالينا سيبقون دائماً آل سالينا، ولكنه كان مخطئاً؛ فقد كان هو آخرهم. لقد انتصر غاريبالدي، ذلك البركان ذو اللحية، لقد انتصر أخيراً.

من الحجرة المجاورة المفتوحة على الشرفة عينها، ترامى إليه صوت كونشيتا: "لم يكن في الإمكان أن نفعل غير هذا؛ كان لا بد من استدعائه؛ وما كنتُ لأعرف معنى العزاء، لو لم أستدعه". فأدرك حالاً أنها تعني الكاهن. وخطر في باله لحظة أن يمتنع، أو أن يكذب، أويصرخ قائلاً إنه أصبح معافى، وأنه لم يعد في حاجة إلى شيء، ولكنه سرعان ما عرف أن تفكيره كان مضحكاً: لقد كان هو أمير سالينا، وعليه أن يلقى الموت كأمراء سالينا، والكاهن إلى جانبه. ولقد كانت كونشيتا على حقّ. ولماذا يحاول أن يتهرّب من هذا الذي يتمنّاه ألوف من المائتَيْنْ الآخرين؟

وصمت مترقّباً أن يسمع رنين الجرس الصغير المنذر بوصول زاد المسافرين المقدّس. وسرعان ما سمعه: لقد كانت كنيسة الرحمة مقابلة للفندق تقريباً. وراح الرنين الفضّيّ البهيج يرتقي السّلّم، ثمّ يتردّد في الممرّ، وأصبح صوته حادّاً عندما فتح الباب، وتقدّم مدير الفندق السويسري

غاضباً جدّاً، لأن في مكان عمله إنساناً يوشك أن يموت، ودخل خلفه (الأب بلسامو) خوري الرعية يحمل في يده حُقّاً فيه القربان المقدّس محفوظاً داخل علبة جِلْد. فرفع تانكريدي وفابريتسيتو الكنبة، وأعاداها إلى الحجرة، وكان الآخرون جاثين على رُكبهم. وقال بالإشارة أكثر منه بصوته: "اخرجوا، اخرجوا". كان يريد أن يعترف للكاهن. إن الأمور إمّا أن تفعل وإمّا أن لا تفعل. وخرج الجميع، ولكنه عندما أراد الكلام، وجد أنه لم يكن لديه كلام كثير يقوله: لقد تذكّر عدداً قليلاً من الخطايا المحدّدة، ولكنها بدت له تافهة، بحيث لم تكن تستحقّ استدعاء كاهن كريم في ذلك اليوم الشديد الحَرّ. لم يكن معنى ذلك أنه يشعر ببراءة تامّة، بل كان آثماً طوال حياته، وليس الأمر مقتصراً على هذا الذنب أو ذاك فقط، والوقت لا يتّسع لسَرْد ذلك كله. ولا بد أن عينَيْه قد عبرتا عن كدر كثير، فَعَدّ الكاهن ذلك تعبيراً عن ندامته، وكان الواقع كذلك إلى حدّ ما، فحلّه من ذنوبه. وكان ذقنه، كما يبدو، مرتكزاً على صدره، فقد اضطرّ الكاهن أن يجثو، ليدخل القربان بين شَفَتَيْه، ثمّ انصرف بعد أن تمتم المقاطع المعتادة منذ القِدَم، والتي تُمهِّد السبيل لرحلة الأبدية.

لم تعد الكنبة إلى مكانها على الشرفة. وجلس تانكريدي وفابريتسيتو بقربه ممسكاً كل منهما بإحدى يَدَيْه؛ وكان الولد يحدِّق فيه بعينه بفضول مَنْ يرى محتضراً لأوّل مرّة في حياته، لا أكثر: إن هذا المائت ليس إنساناً؛ وإنما هو جدّ، وهذا يختلف كثيراً. وكان تانكريدي يشدّ على يده بقوّة، ويخاطبه، يتكلّم معه كلاماً كثيراً مرحاً: كان يعرض لمشاريع، يشاركه فيها، ويعلّق على الأحداث السياسية. لقد كان نائباً، ومرشّحاً لمفوضية لشبونة، وكان يعرف أموراً سرّيّة ولذيذة متعدّدة. غير أن الصوت الأنفي، واللفظة البارعة، لم يستطيعا أن يُخفّفا من شدّة تسرُّب مياه الحياة، وصخبها

المستمرّ. لقد كان الأمير مسروراً بتلك الثرثرة، فكان يشدّ يده بأقصى ما يستطيع من قوّة، ولكنْ، دون أثر ملموس. كان يُجمِّع في ذهنه خلاصة حياته، ويريد أن يلتقط من بين كومة رماد المجهول الهائلة القشّات الذهبية من لحظاته السعيدة. وها هي: أسبوعان قبل زواجه، وستّة أسابيع بعده؛ نصف ساعة بمناسبةِ مولد ابنه باولو، حين أحسّ بالزهو، لأنه زاد غصناً في شجرة بيت سالينا (وكان الزهو في غير محلّه، وهو يعرف ذلك الآن، ولكنه كان حقّاً في ذلك الحين)؛ بضع محادثات مع ابنه جوفاني قبل أن يغيبَ عن عينَيْه (وتَحرِّياً للصِّدْق نقول إنها كانت بضع محاورات فردية "منولوج"، كان يظنّ في خلالها أنه اكتشف في الصبي روحاً شبيهة بروحه)؛ ساعات عديدة في مرقبه، كان فيها مستغرقاً في حساباته المُجرّدة، وفي تعقّب ما لا يُنال. ولكن هذه الساعات ألا يمكن حسبانها مع واقع الحياة؟ ألم تكن تبذيراً مسبقاً لمباهج الموت؟ هذا لا يهمّ؛ فلقد كانت حقيقة.

ومن تحت في الطريق بين الفندق والبحر توقّف أُرغن، وراح يعزف على أمل أن يُحرِّك الرأفة في قلوب الغرباء الذين لم يكونوا موجودين في ذلك الفصل من السنة. كانت المعزوفة: "أنتَ، يا مَنْ يبسط جناحَيْه إلى الله". وفكّر ما بقي من دون فابريتسيو في كم من العلقم يمتزج في تلك اللحظة بحشرجات الاحتضار، في إيطاليا، من هذه الموسيقى الآلية. فهُرع تانكريدي بفطنته إلى طرف الشرفة، وألقى إلى أسفل بقطعة نَقْد، وطلب الكَفّ عن العزف. وساد الصمت في الخارج، ولكن الهدير الداخلي ازداد شدّة.

تانكريدي! حقّاً، إن الكثير من الواقع كان سببه تانكريدي: إدراكه الثمين بقدر ما هو تهكّمي، الغبطة الجالية في رؤيته يتصرّف بحكمة بين مصاعب

الحياة؛ العاطفية التهريجية، كما يليق بها أن تكون. ثمّ الكلاب: (فوفي) رفيقة الصبي البدينة؛ (توم) الطويل العنيف بأمانته وصداقته؛ وعينا (سفيلتو) الوديعتان؛ وبلاهة (بنديكو) اللذيذة، وسيقان (بوب) اللطيفة، كلب الصيد الذي لعلّه الآن يبحث عنه تحت الأشجار، أو تحت مقاعد الفيلا، ولكنه لن يُقدّر له أن يجده بعد الآن؛ وبعض الجياد أيضاً، وهذه الآن بعيدة وغريبة. لقد كان في الساعات الأولى من عودته إلى دونا فوغاتا، يجد معنى التقاليد والديمومة محفوراً في الحجارة، وفي الماء، ويجد الزمن متجمّداً في مكانه، وهو يذكر كيف كان يُطلق النار مغتبطاً حين يخرج للقنص، ويذكر الأرانب والطيور التي كان يذبحها مشفقاً، وبعض قهقهات (توميو)، والدقائق القليلة التي كان في الدَّيْر يتوب فيها عن ذنوبه، بين عبير الأزهار ونكهة الحلويات. وهل كان هنالك غير هذه؟ نعم، كان هنالك غيرها؛ ولكنها كلها كانت كالمعدن الخام الممزوج بالتراب: إنها لحظات الرضى التي كان يردّ فيها ردوداً مفحمة على الأغبياء؛ وشعوره بالغبطة حين تنبّه إلى أن كونشيتا كانت بجمالها وطباعها فتاة جديرة باسم سالينا؛ وبعض لحظات الفورة العاطفية؛ والمفاجأة السارّة عند تسلّمه رسالة (أراغو) التي زفّ فيها إليه تهنئته على دقّة حساباته الصعبة المتعلّقة بكوكب (هكسلي) السّيّار. ولِمَ لا؟ ثمّ التكريم العَلَني حين نال الوسام في السوربون؛ وإحساسه الرهيف ببعض ربطات العنق الحريرية، ورائحة بعض الهدايا الجلدية، والمواقف الضاحكة، والمواقف الشهوانية لبعض النساء اللواتي كان يصادفهنّ في الطريق، كتلك التي رآها أمس في محطّة كاتانيا، مختلطة بالجمهور في لباس السفر الكستنائيا، وقفّازَيْها المصنوعَيْن من الكموش، والتي كانت كأنها تبحث عن وجهها الذي ضاعت زينته. ما كان أكثر الصراخ بين تلك الجموع: "خبز سميك!... جريدة بريد الجزيرة!"... ثمّ

ضجيج القطار الواقف دون حراك لشدّة التعب ... وتلك الشمس الحادّة عد الوصول، وتلك الوجوه الكاذبة، واندفاع مياه الشلالات ...

وفي الظلّ الذي كان يتعالى، حاول أن يحصي كم كانت مرّة حياته الحقيقية. إن عقله لم يعد يطيق حتّى الحسابات البسيطة: ثلاثة أشهر، عشرون يوماً. المجموع ستّة شهور. ستّة في ثمانية: ثمانية وأربعون ... ثمانية وأربعون ألفاً ... ثمّ استرجع حسابه ٨٤٠,٠٠٠. "إن عمري الآن سبعون سنة بمجموعه، غير أن ما عشتُه حقّاً سنتان ... أو ثلاثة على الأكثر". والآلام، والسأم، كم كانت مدّتها؟ من العَبَث أن أحاول إحصاءها: إنها البقية كلها: سبعون عاماً.

وأحسّ بأن يده لم تعد تشدّ على يَدَي حفيده وابن أخته. فنهض تانكريدي مسرعاً، وخرج .... لم يَعُدْ نهراً ذلك الذي يتسلّل منه، ولكنه محيط هائج، يفور بالزّبد والأمواج الصاخبة العنيفة.

لعلّه أُصيب بغيبوبة أخرى، فقد أحسّ فجأة بأنه كان ممدّداً على السرير. وكان هناك مَنْ يمسك برسغه؛ ومن النافذة كان انعكاس البحر الصارم يعمي عينَيْه. وسمع في الغرفة صفير: كان ذلك حشرجته هو، ولكنه لم يكن يعرفها. ومن حوله جماعة صغيرة، فريق من الأشخاص الغرباء يحدّقون في عينَيْه، وفي عيونهم تعبير الخوف. واستطاع أن يعرفهم شيئاً فشيئاً: كونشيتا - فرانشيسكو باولو- كارولينا – نانكريدي - فابرينسيتو. أما الذي يمسك برسغه، فكان الدكتور (كاتاليوتي). وظنّ أنه يبتسم للطبيب مرحّباً به، ولكنْ، لم يرَ أحدٌ ابتسامته؛ وكان الجميع يبكون، ما عدا كونشيتا. حتّى تانكريدي كان يقول: "خالي! يا خالي العظيم! خالي الحبيب!"

وفجأة من بين الجمع الصغير، شقّت سيّدة شابّة طريقها إليه: نحيفة الجسم، ترتدي ثوباً كستنائياً فضفاضاً للسفر، وعليها قبّعة قشّ مزدانة بملاءة ذات كريّات، لا تخفي ما فيه وجهها من جمال ماكر. وراحت تمدّ يدها المرتدية قفّازاً من الكموش بين أكواع الباكين، وتعتذر إليهم وهي تدنو منه. لقد كانت هي عينها، المخلوقة المشتهاة أبداً، وقد جاءت لتأخذه ... غريب أن تكون شابّة هكذا، وتُسلم نفسها إليه. لا بد أن موعد سفر القطار قريب. وحين وصل وجهها إلى وجهه، رفعت الملاءة؛ وهكذا في حيائها مع استعدادها لتُسلم جسدها إليه، بدت له أجمل ممّا رآها قطّ في المرّات السابقة في فضاء الكواكب.

ثمّ سَكَنَ هدر البحر سكوناً تامّاً.

٨. الأميرات الثلاث

(مايو ١٩١٠)

الذي كان يذهب لزيارة عوانس سالينا العجائز كان دائماً يجد قبّعة كاهن واحد على الأقلّ على مقاعد الردهة الأمامية. كانت العوانس ثلاثاً، وكان قد مزّقهنّ الصراع على السيادة المنزلية، فلكل منهنّ طباعها العنيفة الخاصّة، وكل منهنّ تريد أن يكون لها كاهنها الخاصّ للاعتراف. وكما كان يجري حتّى ذلك العام ١٩١٠ كانت الاعترافات تجري في المنزل، وكانت أهواء التائبات تصرّ على أن يتكرّر الاعتراف كثيراً. وإلى تلك الزمرة من الكَهَنَة المعرّفين لا بد من أن نضيف كاهن الكنيسة الذي كان يجيء كل صباح لإقامة القدّاس في الكنيسة الخاصّة، واليسوعي الذي عُهد إليه بإدارة المنزل الروحية العامّة، والرهبان والكَهَنَة الذين كانوا يتردّدون على المنزل طلباً لإحسان، يوسّعون به عمل هذه الأبرشية أو تلك، أو يتمكّنون به من مواصلة أعمال البرّ. ومن السهل أن يدرك المرء حالاً كيف أن تردّد الكَهَنَة على المنزل لم يكن ينقطع، ولماذا كانت الردهة الأمامية في قصر سالينا تُذكّر المرء غالباً بأحد المتاجر الرومانية المنتشرة حول (ميدان مينرفا) والتي تعرض في واجهاتها الزجاجية كل أنواع القبّعات وأغطية الرأس الكنيسية التي يمكن تصوّرها، من قبّعات الكرادلة التي تشبه لون اللهب إلى تلك التي بلون الجمر والتي يستعملها كَهَنَة الريف.

في أصيل ذلك اليوم من شهر مايو ١٩١٠، اجتمعت تلك القبّعات دون سابق إنذار. وقد أعلنت عن حضور نائب الأبرشية العامّ في

باليرمو قبّعته الواسعة المصنوعة من جِلْد كلب البحر الناعم، بلونها الزهري اللذيذ، والموضوعة بعناية على مقعد منفصل، وإلى جانبه قفّاز مفرد، وهو قفّاز اليد اليمنى، مصنوع من الحرير الثمين بلون القبّعة اللذيذ عينه. وكانت قبّعة سكرتيره من وبر لامع أسود، ولها شَعر طويل، ومحاطة بقيطان بنفسجي ناعم؛ وهناك قبّعتان أخريان مهملان لكاهنَيْن يسوعيَّيْن مصنوعَتَان من لبّاد معتم رمزاً للتّقشّف والتواضع. وأما قبّعة كاهن كنيسة القصر، فقد كانت هناك على مقعد منعزل، كما يليق بالشخص المستعدّ تحت الطلب.

لم يكن اجتماع ذلك اليوم في الواقع أمراً قليل الأهمّيّة، فلقد كان الكردينال رئيس الأساقفة، استجابة للتعليمات البابوية، قد شرع في عملية تفتيش على الوعّاظ الخصوصيّيْن التابعين لأبرشيّته، ليتحقّق من فضائل الأشخاص الذين كان لديهم إذن، باستخدامهم، ومن مطابقة الأثاث والعبادة للأنظمة الكَنَسية، ومن أصالة الذخائر المقدّسة التي تحويها المعابد الخاصّة.

وكان معبد أوانس سالينا أشهر المعابد الخصوصية في المدينة، وأوّل المعابد التي قرّر نيافته زيارتها. ولهذا قام المونسنيور بزيارة قصر سالينا تمهيداً لهذه المهمّة التي كان قد تقرّر أن تبدأ صباح اليوم التالي. لقد كان يترامى إلى مقرّ رئيس الأساقفة، من بعض المصادر المختلفة، همس يزداد وضوحاً يوماً عن يوم حول ذلك المعبد المنزلي، لم يكن لذلك علاقة البتّة بفضائل صاحبات المعبد، وبحقهنّ في ممارسة شعائرهنّ الدِّينية في منزلهنّ الخاصّ، فتلك أمور خارجة عن نطاق البحث، ولا كان هنالك مجال للشكّ في انتظام عبادتهنّ واستمرارها، فقد كان كل ذلك كاملاً تقريباً

إذا ما أغضينا عن نوع من المقاومة له ما يبرّره لدى أوانس سالينا، وهو عدم سماحهنّ باشتراك أشخاص غرباء عن أسرتهنّ الخاصّة في الشعائر الدِّينية معهنّ. وقد لفت انتباه الكردينال بصورة خاصّة إلى صورة تُعيد لها الأوانس، وإلى الذخائر المقدّسة؛ عشرات الذخائر المقدّسة المعلّقة في المعبد. لقد كانت تحوم حول أصالتها الشكوك والريبة، ولذلك كان لا بد من التّثبّت من صحّتها؛ وقد نال كاهن المعبد تأنيباً صارماً، على الرغم من أنه كان كاهناً حسن الثقافة، مأمول المستقبل - لأنه لم يفتح عينَيْه على تصرّفات الأوانس، كما يجب. لقد نال على ذلك "غسلة" عنيفة، إذا جاز لنا هذا التعبير.

عُقد الاجتماع في قاعة الاستقبال المركزية في القصر، القاعة التي فيها السعادين والببغاوات. وعلى ديوان مغطّى بقماش أزرق، تتخلّله تطريزات حمراء، كان قد اشتُري منذ ثلاثين عاماً، فأصبح الآن يبدو ناشزاً جدّاً بالقياس إلى ألوان الزينات الثمينة الأخرى المضمحلّة، جلست الآنسة كونشيتا، والمونسينور النائب إلى يمينها، ومن جانبَي الديوان مقعدان مشابهان له، تجلس عليهما كارولينا وأحد اليسوعيّيْن، وهو الأب كورتي، بينما كانت الآنسة كاترينا المشلولة الساقَيْن تجلس على مقعد ذي عجلات، وقنع بقية رجال الكنيسة بالمقاعد المَكسوّة بالحرير عينه الذي كُسي به باقي أثاث القاعة، ولكنها تبدو أقلّ تميّزاً وأهمّيّة بالنسبة إلى الكنبات المحسودة.

كانت الأخوات الثلاث فوق سنّ السبعين أو دونها قليلاً، ولم تكن كونشيتا هي الكبرى، غير أن الصراع على السيادة المنزلية الذي أشرنا إليه من قبل كان قد انتهى منذ زمن بانتصارها على خصمَتَيْهَا، وهكذا لم تفكّر أيٌّ منهما قطّ في الاعتراض على ما تقوم به من أعمال السيادة المنزلية.

كان ما يزال يبدو عليه بقايا من جمال ماض، فهي بدينة ومهيبة في ثيابها السوداء، وتحمل شَعْراً ناصع البياض مرفوعاً فوق رأسها بشكل يكشف جبينها الذي يكاد يخلو من الغضون؛ وهذا، مضافاً إلى عينَيْها الغاضبتَيْن، والتقطيبة الصارمة فوق أنفها، كان يخلع عليها مظهراً من السلطة المهيبة، يشبه أن يكون إمبراطورياً، حتّى إن أحد أبناء أخيها كان قد رأى في كتاب، لم يعد يذكر اسمه، صورة إحدى القيصرات الشهيرات، فراح يُطلق عليها في أحاديثه الخاصّة لقب "كاترينا العظيمة"، وهو لقب غير مناسب، على كل حال، لأن نقاء سيرة كونشيتا، والجهل المطبق لدى ابن أخيها بمادّة التاريخ الروسي، تجعله دون معنى.

كان الحديث مستمرّاً منذ ساعة، وقد انتهى الجميع من شرب القهوة، والوقت متأخّر. فعاد المونسنيور النائب إلى موضوعه، وقال: "إن نيافته يرغب رغبة أبوية في أن تنسجم العبادات التي تمارَس في المنازل الخاصّة مع طقوس أمّنا الكنيسة المقدّسة الشديدة الطُّهْر، ولهذا السبب، عمد في الطليعة إلى معبدكنّ الخاصّ، لأنه يعلم كيف يُشرق منزلكنّ كمنارة ساطعة في مجتمع باليرمو الدنيوي، ويرغب في أن يضمن لكُنّ من الأصالة المطلقة للأشياء المقدّسة التي تكرمنها في عبادتكنّ بناء أمتن وأعظم لنفوسكنّ ولجميع الأنفس النقية".

وصمتت كونشيتا، أما كارولينا الأخت الكبرى، فقد انفجرت قائلة: "علينا الآن، إذنْ، أن نظهر أمام ضمائرنا بمظهر المتّهمات. إن مثل هذا التحقيق في معبدنا لأمر - معذرة، أيّها المونسنيور - ما كان يجوز أن يمرّ في خاطر نيافته".

فابتسم المونسنيور مغتبطاً، وقال: "أنتِ، يا آنسة، لا تستطيعين أن

تتصوّري كم يروق انفعالكِ هذا في عينَي؛ إنه لتعبير عن إيمان أصيل، مطلق، ترضى عنه الكنيسة كل الرضى، وبكل تأكيد، يرضى عنه كذلك سيّدنا يسوع المسيح؛ وإنما لكي يزدهر هذا الإيمان، ويصبح أكثر طُهراً، فقد أوصى الأب الأقدس بهذه المراجعات التي تُنفَّذ الآن منذ بضعة أشهر في كل العالم الكاثوليكي".

ولم تكن الإشارة إلى الأب الأقدس مناسبة، في الواقع، فلقد كانت كارولينا فعلاً واحدة من تلك الفئات الكاثوليكية الواثقة من أنها أعمق معرفة بالحقائق الدِّينية من البابا عينه، حتّى لقد كانت من قبل تتذمّر من بعض الأعياد الثانوية الموصى بها، والتي لم يلبث البابا بيوس العاشر أن ألغاها في ما قام به من تجديدات معتدلة. ولذلك أجابت قائلة: "هذا البابا كان عليه أن ينصرف إلى شؤونه الخاصّة، فذلك خير له". ثمّ ساورها الشكّ في أنها تمادت كثيراً فيما قالته، فرسمت إشارة الصليب، وتمتمت صلاة "المجد للآب".

وتدخّلت كونشيتا قائلة: "لا تُطلقي لنفسكِ العنان، لتقولي أشياء، لا تفكّرين فيها، يا كارولينا. أيّة فكرة سيحمل عنّا المونسنيور الحاضر هنا؟"

كان هذا في الحقيقة يبتسم أكثر من ذي قبل. لقد كان يفكّر فقط في أنه أمام طفلة هرمت على مبادئ صارمة وتصرّفات غير مستنيرة؛ ولذلك غفر لها بملء الحنان.

وأراد الأب كورتي اليسوعي أن يخفّف من حدّة التّوتّر، فقال: "إن المونسنيور يفكّر في أنه الآن أمام ثلاث نساء قدّيسات". والتفت إلى المونسنيور، وقال: "أنا، أيّها المونسنيور، واحد ممّنْ يستطيعون توكيد كلامكم أكثر من سواهم؛ لقد كان الأب بيرّونه، المكرّم ذِكْره لدى كل مَنْ

عرفوه، كثيراً ما يحدّثني، وأنا بعد مبتدئ، عن البيئة المقدّسة التي رُبِّيَتْ فيها الآنسات. ومهما يكن الأمر، فإن اسم سالينا يكفي لمعرفة ذلك كله".

وأراد المونسنيور أن يصل إلى وقائع نهائية، فقال: "إنني أفضّل الآن يا آنسة كونشيتا، بعد أن أصبح كل شيء واضحاً، أن أزور الكنيسة، إذا أذنتنّ لي بذلك، لكي أستطيع أن أهيّئ نيافة الكردينال لمعجزات الإيمان التي سيراها صباح غد".

***

لم تكن في القصر على عهد الأمير فابريتسيو كنيسة خاصّة. كانت الأسرة كلها تذهب إلى الكنيسة في الأعياد، وكذلك كان الأب بيرّونه مضطرّاً إلى قطع مسافة من الطريق، لكي يقيم قدّاسه الخاصّ، أما بعد وفاة الأمير فابريتسيو، حينما أصبح القصر، بحكم تعقيدات الإرث التي لا حاجة إلى تعدادها، ملكاً مقتصراً على الأخوات الثلاث، فقد فكّرنَ حالاً في أن تكون لهنّ كنيستهنّ الخاصّة، فاخترنَ لذلك قاعة غير مشغولة، كانت أعمدتها النصفية التي تشبه الجرانيت لاصقة بالجدران، وتثير في الذهن ذكريات لطيفة عن كاتدرائية رومانية. فأُزيلت من السقف صورة أسطورية غير ملائمة، وأُقيم هناك هيكل، وهكذا تمّ كل شيء.

حينما دخل المونسنيور، كانت الكنيسة مضاءة بأشعّة شمس الأصيل الموشكة على الرحيل، وفوق الهيكل كانت الصورة التي تتعبّد له الآنسات مغمورة بالنور بأكملها. كانت مدهونة على طراز كريمونا، وتمثّل فتاة نحيلة، لطيفة الشكل، عيناها نحو السماء، وكثير من شَعْرها البنّي متناثر على كتفَيْها شبه العاريَتَيْن في فوضى جميلة، وفي يمناها رسالة مفتوحة. كانت تعبيراً راعشاً عن انتظار، ينمّ عن نوع من الغبطة، يلتمع في عينَيْها

الشديدَتيَ الصفاء. وفي أرض الصورة، مشهد لومباردي متواضع. لم يكن فيه أطفال يرمزون إلى المسيح، ولا أكاليل، ولا أفاع، ولا نجوم، ولا شيء من تلك الرموز التي ترافق عادة صور مريم العذراء. لا بد أن يكون الرسّام قد اكتفى بالتعبير العذراويّ للدلالة على أنها العذراء مريم. فاقترب المونسنيور، وصعد إحدى درجات الهيكل، ودون أن يرسم إشارة الصليب لبث هنيهة يتأمّل اللوحة، معبّراً عن إعجاب ضاحك، كما لو كان ناقداً فنّيّاً، ومن خلفه الأخوات يرسمنَ إشارة الصليب، ويُدمدمنَ بصلاة "السلام عليكِ، يا مريم".

ثمّ نزل الحبْر الجليل عن الدرجة، والتفت نحو الفتيات، وقال: "صورة جميلة، معبّرة جدّاً".

فقالت كاترينا، المسكينة المريضة، وهي تميل نحوه من آلة عذابها المتحرّكة: "إنها لصورة أعجوبية، أيّها المونسنيور، كثيرة العجائب. لقد صنعت معجزات عديدة!" وقالت كارولينا: "إنها تمثّل سيّدة الرسالة. إن العذراء فيها تكاد تسلّم الرسالة المقدّسة، وتطلب من ابنها الإلهي الحماية لشعب مسّينا؛ وقد منحت هذه الحماية بشكل مجيد، كما رأى الناس من المعجزات العديدة التي تحقّقت في مناسبة الزلزال الذي وقع قبل عامَيْن".

- "صورة جميلة، يا آنسة؛ ومهما يكن الشيء الذي تمثّله، فهي متاع جميل، ويجب العناية به". ثمّ التفت نحو الذخائر المقدّسة: كان هناك أربع وسبعون ذخيرة معلّقة، بحيث تغطّي حائطَيْن حول المذبح، وكل ذخيرة منها موضوعة داخل إطار، يحتوي كذلك على بطاقة تشير إلى الوثيقة التي تُثبت أصالتها؛ أما الوثائق نفسها، وهي في الغالب سميكة

ومثقلة بالأختام، فقد كانت موضوعة داخل صندوق مَكسوّ بقماش فاخر في إحدى زوايا المعبد. كانت هناك إطارات من فضّة محفورة، ومن فضّة ملساء، وإطارات من نحاس ومرجان، وأخرى من صدف السلحفاة؛ وكان بعضها من أخشاب ثمينة، والبعض من خشب نادر، وغيرها من مخمل أحمر أو مخمل أزرق؛ بين كبيرة وصغيرة، مثمّنة الزوايا، أو مربّعة، أو مستديرة، أو بيضوية الشكل؛ إطارات يساوي الواحد منها ميراثاً ضخماً، وأخرى مشتراة من مستودعات (بوكّوني)، وكلها متماسكة ومتساوية القيمة في تلك الأنفس التقيّة، يؤدّينَ لها التكريم والعبادة، ويحطنها بالرعاية ككنوز عجيبة غير طبيعية.

كانت كارولينا هي الخالقة الفعلية لتلك المجموعة؛ لقد كانت قد اهتدت إلى السّيّدة روزا، وهي عجوز عظيمة جدّاً، نصف راهبة، وذات صلاة مثمرة بكل الكنائس، وبجميع الأديار، بكل الجمعيات الخيرية في باليرمو وما حولها. وهذه السّيّدة روزا هي التي كانت تحمل إلى قصر سالينا، كل شهرَيْن، ذخيرة قدّيس ملفوفة بورق مجدّل، وكانت تقول إنها استطاعت أن تنتزعَها من إحدى الكنائس الفقيرة، أو من أحد البيوت النبيلة التي تدهورت. وإذا كانت لا تذكر اسم البائع، فإن ذلك كان لسبب معقول، بل لسبب حميد، لا تشاء البوح به؛ غير أنه من الجهة الأخرى كانت إثباتات أصالة الذخيرة التي تُبرزها وتسلّمها دائماً واضحة كالشمس، ومكتوبة باللغة اللاتينية، أو بحروف عجيبة، كان يقال إنها يونانية أو سريانية. وكانت كونشيتا تدفع الثمن، لأنها المديرة وأمينة الصندوق. ثمّ يتلو ذلك البحث عن الإطار المناسب، وكونشيتا التي لا تعرف المضاضة تدفع من جديد. وقد مرّت فترة من الزمن، استمرّت سَنَتَيْن، ظلّ فيها هَوَس الجمع يُقلق حتّى أحلام كارولينا وكاترينا؛ وفي الصباح، تروي كل منهما للأخرى أحلامها

العجيبة عن اكتشاف ذخائر جديدة، وترجو أن تستطيع تحقيقها، وقد كان ذلك يتحقّق أحياناً بعد أن تفضيا بأحلامها إلى السّيّدة روزا. أما ما كانت تحلم به كونشيتا، فلم يكن يعلمه أحد. ثمّ توفّيت السّيّدة روزا، وانقطع تدفّق الذخائر تماماً تقريباً؛ وعلى كل حال، كان الأمر قد تجاوز حدّ الشبع.

وألقى المونسنيور نظرة سريعة على بعض الأطر القريبة منه وقال: "كنوز! كنوز! ما أروع هذه الأطر!" ثمّ أطرى جمال الأثاث (وقد فعل ذلك بمثل لغة دانتي)، ووعد بأن يعود غداً مع صاحب النيافة قائلاً: "نعم، في الساعة التاسعة تماماً". ثمّ ركع، ورسم إشارة الصليب، واستدار نحو صورة متواضعة لسيّدة بومباي معلّقة على حائط مجاني، وخرج من المعبد. وسرعان ما ترمّلت الكراسي من القبّعات التي كانت منتشرة فوقها، وصعد رجال الدِّين إلى العربات الثلاث التابعة لرئاسة الأسقفية، والتي كانت بخيولها الدهم تنتظرهم في الساحة. وحرص المونسنيور على أن يرافقه في العربة خوري كنيسة القصر الأب (تيتا) الذي شعر بالاعتزاز لهذا التكريم. وتحرّكت العربات، وظلّ المونسنيور صامتاً؛ ومرّت العربات بقرب فيلا فالكونيري، ذات النبتة الجهنمية المنوّرة المنتشرة خلف جدار حديقتها المُعتنى بها كل العناية، وحينما بدأ الانحدار نحو باليرمو بين حدائق البرتقال، تكلّم المونسنيور، فقال: "وهكذا، يا أب تيتا، كانت لكَ كبد تطيق تأدية الذبيحة الإلهية المقدّسة سنين متواصلة أمام لوحة تلك الفتاة؟ تلك الفتاة التي تواعدت مع حبيبها، فراحت تنتظر وصوله؟ لا تقل لي إنكَ أنتَ، أيضاً، كنتَ تؤمن بأنها صورة مقدّسة".

-"إنني مخطئ، أيّها المونسنيور، أنا أعرف ذلك، ولكنه ليس من الهيّن مجابهة آنسات سالينا، والآنسة كارولينا خاصّة. هذا أمر لا تستطيع أنتَ أن تعرفه".

فتجهّم وجه المونسنيور لذكرى، مرّت بخاطره، وقال: "لقد لمستَ الجرحَ بإصبعكَ، يا ولدي، وسيكون هذا موضع اعتبار لديّ".

***

ذهبت كارولينا تنفث غضبها في رسالة إلى شقيقتها (كيارا) المتزوّجة في نابولي، أما كاترينا، فقد تعبت من طول الحديث المؤلم، فذهبت تستريح في فراشها؛ ولجأت كونشيتا إلى غرفتها وحيدة، وكانت هذه إحدى الغرف (وهي غرف عديدة، بحيث يكاد المرء يحسب أنها كلها كذلك) التي لها وجهان: أحدهما، وهو الوجه التّنكّري، الذي يبدو للزائر الجاهل ببواطن الأمور، والآخر، وهو العاري الذي يتجلّى لمَنْ يعرفون الحقيقة فقط، ولاسيما لصاحب الملك نفسه الذي يظهر له ذلك الوجه صريحاً في وجوه العابس. كانت هذه الغرفة معرّضة لنور الشمس، وتطلّ على الحديقة العميقة. وفي إحدى زواياها، سرير مرتفع، عليه أربع مخدّات (لقد كانت كونشيتا مصابة بمرض في القلب، فكانت لذلك ترقد شبه جالسة)؛ لم تكن هناك طنافس، بل أرضية بيضاء، تتخلّلها نقوش صفراء مربّعة، وصورة آلة لسكّ النقود مع عشرات من الصناديق الصغيرة المغطّاة بحجر صلد وجصّ، وكانت هناك طاولة مكتب، ومائدة وسط، والأثاث كله من طراز فخم مصنوع محلّيّاً، وعليه رسوم صيّادين، وكلاب، وحيوانات برّيّة تتلاقى كلها في نقوش على الأثاث المصنوع من خشب الورد، وهذا الأثاث كانت تعدّه قديماً أو حتّى دليلاً على سوء الذوق، ولكنه حينما بيع بالمزاد بعد وفاتها، أصبح مبعث زهو لتاجر ثريّ من أصحاب شركات الشحن حين تقدّم زوجته الكوكتيل لصديقاتها اللواتي ينظرنَ إلى هذا الأثاث بعين الحسد والغيرة. وعلى الجدران صور، ورسوم مائية، وتصاوير مقدّسة. كل شيء كان نظيفاً منظّماً. شيئان فقط ربّما كانا يبدوان غير عاديَّيْن: في الزاوية

المقابلة للسرير شبه برج مؤلّف من أربعة صناديق خشبية ضخمة مدهونة باللون الأخضر، ولكل منها قفل ضخم، وعلى الأرض أمام الصناديق كومة من الأشياء الجِلْدية التالفة. والزائر السليم النيّة قد تُغريه هذه الغرفة بالضحك، فقد كان يتجلّى فيها طيبة القلب، وعناية العانس العجوز.

كانت هذه الغرفة للمُطّلع على الحقائق - أي لكونشيتا نفسها - جحيماً من ذكريات محنّطة، فلقد كانت الصناديق الأربعة تحتوي على دزّينات من قمصان النهار والليل، والشلحات، والقماش السميك، والشراشف الصالحة والمتهرّئة: كان ذلك جهاز عرس كونشيتا الذي أعدّته عَبَثاً قبل خمسين سنة. ولم تكن تلك الأقفال تُفتح مطلقاً خشية من أن تقفز من الصناديق الشياطين السجينة؛ وبفعل الرطوبة الشديدة في باليرمو، كانت الأمتعة تصفرّ، وتتلف، وتصبح غير ذات نفع لأحد إلى الأبد. أما الصور، فقد كانت لبعض الأصدقاء الذين في حياتهم تركوا جراحاً في نفسها، ولهذا السبب وحده، لم تنسهم بعد موتهم. والرسوم المائية كانت تمثّل بيوتاً وأماكن، بِيعَ أغلبها، أو على الأصحّ، بدّدتْه أيدي الأصفاد المبذّرين. وإذا نظر المرء جيّداً إلى كومة الجلود التي يعيث فيها العثّ، رأى أذنَيْن منتصبَتَيْن، وخطماً من خشب أسود، وعينَيْن مشدوهَتَيْن من زجاج أصفر: ذلك هو الكلب بنديكو، الذي مات منذ خمس وأربعين سنة، وحنّط منذ خمسة وأربعين سنة، فأصبح عشّاً للعناكب والعثّ، تعافه حتّى أنفس الخَدَم الذين كانوا منذ عشر سنوات يطلبون أن يُطرَح مع النفايات، ولكن كونشيتا كانت تعارض في ذلك باستمرار، فقد كانت حريصة على أن لا تنفصل عن ذلك التذكار الوحيد من ماضيها الذي لا يُثير فيها المشاعر الأليمة.

غير أن مشاعر اليوم الأليمة (عندما يصل المرء إلى سنّ معيّنة، تتمثّل

له آلامه كل يوم في موعدها الدقيق) ترجع كلها إلى الحاضر. لقد كانت كونشيتا أقلّ حماسة من كارولينا، وأكثر حساسية من كاترينا، ولذلك فهمت تماماً معنى زيارة المونسنيور النائب، وأدركت عواقبها التي ستؤدّي إلى الأمر بإزالة جميع الذخائر المقدّسة، أو نحو ذلك، وبتبديل اللوحة التي فوق الهيكل، وضرورة إعادة تكريس الكنيسة. لقد كانت قليلة الإيمان بأصالة تلك الذخائر، وكانت تدفع أثمانها بنفس غير مبالية، كالوالد الذي يدفع أثمان الدمى واللعب التي لا تثير اهتمامه، ولكنها تفيد في إرضاء أولاده. وستتقبل إزالة هذه الأشياء دون مبالاة؛ والذي كان ينخسها، أو كان يضايق نهارها ذاك كأنه ذبابة الخيل، هو الموقف الذي سيبدو فيه بيت سالينا أمام السلطات الدِّينية الآن، وبعد قليل أمام المدينة بأسرها. لقد كان تحفُّظ الكنيسة ما يزال في أفضل حالاته في صِقِلية، ولكن هذا، لم يكن يعني الشيء الكثير، ففي خلال شهر أو شهرَيْن سيشيع كل شيء، كما تذيع كل الأشياء في هذه الجزيرة التي كان يجب أن تأخذ رمزاً لها بدل (ترينا كريا)(*)" أُذُن ديونيس السيراكوزي التي تجعل أضأل التنهدات يتجاوب صداه ضمن شعاع لا يقلّ مداه عن خمسين متراً. وهي حريصة دائماً على كرامة الكنيسة، أما مهابة الاسم العائلي في حدّ ذاته، فقد أخذت تتلاشى شيئاً فشيئاً، والأملاك الباقية إذا ما وُزّعت، فهي في أفضل حالاتها تساوي ما يملكه الكثير من الأسر الأقلّ شأناً، وتقل كثيراً عمّا يملكه بعض الصناعيّيْن الأثرياء. أما في الكنيسة، وفي العلاقات معها، فقد ظلّت أسرة سالينا محتفظة بمكانتها الرفيعة؛ وكان يكفي أن يرى المرء كيف كان صاحب النيافة يستقبل الأخوات الثلاث حينما كنّ يمضينَ لزيارته في عيد الميلاد! أما الآن؟!

***

---

*) تريناكريا: اسم لصقلية. (المترجم).

دخلت إحدى الخادمات تقول: "يا صاحبة السعادة، إن الأميرة قد وصلت، والسّيّارة الآن في الحوش". فنهضت كونشيتا، ورتّبت شَعْرها، ورشقت على كتفَيْها شالاً من الدنتيلا السوداء، واستعادت نظرتها الإمبراطورية وسمتها المهيبة، ووصلت إلى الردهة، بينما كانت أنجيليكا تصعد الدرجات الأخيرة على السّلّم الخارجية. لقد كانت تشكو من ارتخاء الشرايين، ولذلك كان ساقاها القصيران عادة يحملانها بصعوبة، فكانت تتوكّأ على ذراع خادمها الخاصّ الذي كانت جبّته السوداء تكنس الدَرج في صعوده.

- كونشيتا الحبيبة!

- أنجيليكتي الغالية! كم من الزمن مرّ دون أن نلتقي!

ولم يكن قد مرّ على لقائهما الأخير سوى خمسة أيّام على وجه التحديد، غير أن المودّة الحميمة بين المرأتَيْن (وهي أشبه بالمودّة التي ساقت الإيطاليّيْن والنمساويّيْن بعد خمس سنوات إلى الوقوف في خنادق متقابلة!) كانت من القوّة بحيث تبدو معها الأيّام الخمسة مدّة طويلة حقّاً.

كان الكثير من ذكريات الجمال يلوح في شخص أنجيليكا التي كانت آنئذ تناهز السبعين من عمرها، وكان الداء الذي سيحوّلها بعد ثلاث سنوات شبحاً بائساً، قد بدأ عمله في جسمها، ولكنه ما يزال مستتراً في دمها: كانت عيناها الخضراوان ما تزالان كعهدهما من قبل، لولا شيء من الذبول، سبّبه طول السنين، وكانت تجاعيد العنق تختفي تحت الضفائر السوداء الناعمة في الرداء الذي ترتديه منذ أن أصبحت أرملة قبل ثلاث سنوات، ولكنْ، ليس دون شيء من الإغراء الذي يبدو أنه حنين إلى الماضي.

وفيما كانت تسير هي وكونشيتا متماسكَتَيْن نحو أحد الصالونات، قالت لها: (ماذا تريدين؟ ماذا تريدين؟ هذه الاحتفالات والأعياد القريبة بمناسبة الذكرى الخمسين لنزول الألف(*) لم تعد تسمح للمرء بالراحة والسلام. منذ أيّام، تصوّري أنهم أبلغوني أنه قد وقع عليّ الاختيار للاشتراك في لجنة الشرف، تكريماً لذكرى تانكريدينا الحبيب طبعاً؛ ولكنْ، كم من عمل عليّ أن أقوم به، ومن تفكير في تدبير أماكن لإقامة المؤمنين بالخرافات الذين سيفدون من جميع أنحاء إيطاليا وتوزيع الدعوات، وترتيب أماكن الجلوس حسب المَدعوّين دون إساءة إلى أحد منهم، واهتمام بإرضاء جميع رؤساء بلديات الجزيرة. وعلى فكرة، يا عزيزتي، إن رئيس بلدية سالينا اكليريكي، وقد أبى أن يشترك في الاحتفال، ولهذا فكّرتُ حالاً في ابننا فابريتسيو: لقد جاء يزورني، و... تك! أمسكتُ به، فلم يستطع أن يمانع؛ وهكذا سنراه في آخر هذا الشهر ينتظم في الصّفّ بقامته الطويلة الممشوقة في شارع الحُرّيّة أمام شعار أسرة سالينا المكتوب بحروف ضخمة مربّعة. ألا ترين في ذلك ضربة موفّقة؟ أحد أبناء سالينا يحيّي ذكرى غاريبالدي. سيكون ذلك جمعاً ودَمْجاً بين صِقلية القديمة والجديدة. وقد فكّرتُ فيكِ أنتِ أيضاً، يا عزيزتي، وها هي بطاقة دعوة لتجلسي في مقعد الشرف، تماماً على يمين المقعد المَلَكي". وأخرجتْ من محفظتها الباريسية بطاقة حمراء - غاريبالدية، من لون الربطة الحريرية عينها التي كان تانكريدي يضعها حول عنقه فترة من الزمن. ثمّ أضافت تقول بلهجة اعتباطية: "ستغضب كارولينا وكاترينا، ولكنْ، لم يكن في وسعي أن أتصرّف بأكثر من مقعد واحد؛ وأنتِ، على كل حال، أحقّ منهما به، فلقد كنتِ ابنة الخال المفضّلة لدى تانكريدينا".

*) "الألف" هم الرجال الذين نزلوا مع غاريبالدي في صقلية لتحريرها ولتوحيد إيطاليا. (المترجم).

لقد تكلّمتْ كثيراً، وقالت كلاماً حسناً؛ إن أربعين سنة من الحياة في المجتمع مع تانكريدي في عِشرة عاصفة متواصلة، ولكنها طويلة بما فيه الكفاية، قد أزالت منها آخر آثار لهجة دونا فوغاتا القروية ومزاياها؛ وقد بلغ من تقليدها الدقيق لتانكريدي أنها اعتادت أن تفعل لعبة اليَدَيْن الخفيفة البارعة التي كانت من خصائصه البارزة، وهي تَصالُبُ اليَدَيْن وإدارتهما بخفّة ورشاقة. وكانت مولعة بالمطالعة، وعلى طاولتها، يتعاقب أحدث مؤلّفات فرانس وبورجيه، ومؤلّفات دانونتزيو وسيراد، وفي صالونات باليرمو، اشتهرت بأنها اختصاصية في شؤون هندسة قصور (لويرا) الفرنسية التي كثيراً ما تحدّثت عنها بإعجاب غير محدّد، مقارنة - وربّما كان ذلك دون قصد - بين صفاء طراز عهد النهضة فيها، وعدم الاستقرار الفنّيّ الباروكيّ في قصر دونا فوغاتا، الذي كانت تكنّ له خصومة، لا يستطيع أن يفسّرها إلا مَنْ يعرف طفولتها الخاضعة المهملة.

-"ولكنْ، أيّ دماغ لديّ، أيّتها العزيزة؟! لقد نسيتُ أن أقول لكِ إن الشيخ (السناتور) تاسوني سيصل بعد قليل. إنه ضيف عليّ في فيلا فالكونيري، ويودّ أن يعرفكِ. لقد كان صديقاً عظيماً للمسكين تانكريدي، ورفيقاً له في السلاح أيضاً، ويبدو أنه قد سمع منه حديثاً عنكِ. ما أعزّ ذكرى حبيبنا تانكريدي!" وخرج المنديل ذو الأهداب السوداء من محفظتها، ومسح دمعة من عينَيْها اللتَيْن ما تزالان جميلَتَيْن.

كانت كونشيتا في أثناء رنين صوت أنجيليكا المتواصل تتدخّل بعبارة هنا أو هناك، ولكنها عند ذِكْر اسم تاسوني صمتت تماماً. لقد عاد إلى ذاكرتها مشهد بعيد جدّاً، ولكنه واضح، كَمَنْ ينظر في منظار مقلوب: لقد رأت المائدة الكبيرة البيضاء محاطة بجميع أولئك الموتى؛ وكان تانكريدي

إلى جانبها - وقد زال هو الآن، كما أصبحت هي نفسها تحسّ بأنها قد زالت: قد ماتت فعلاً - والحكاية مشؤومة، والضحكة الهستيرية التي أطلقتها أنجيليكا، ودموعها هي التي لم تكن أقلّ هستيرية. من هناك انقلبت حياتها، وبدأت الطريق التي أفضت بها إلى ههنا، إلى هذه الصحراء التي لا يقيم فيها الحبّ – لأنه اضمحلّ – ولا الكآبة – لأنها انطفأت.

-"لقد علمتُ بما سبّبته، لكن الخورنيّة من مضايقات. ما أشدّ إزعاجهم! ولكنْ، لِمَ لمْ تُخبريني بذلك من قبل؟ ربّما كنتُ أستطيع أن أفعل شيئاً، فالكاردينال يحترمني. أخشى أن يكون الأمر قد فات أوانه الآن، غير أنني سأحاول جهدي. وعلى كل حال، لن يحدث شيء".

ووصل الشيخ تاسّوني حالاً. كان شيخاً أنيقاً مرحاً؛ وقد نال ثروته الكبيرة النامية عن طريق المضاربات والنزاع، وبدلاً من أن يُضعفه ذلك، فقد حافظ على حيوية كبيرة، ما يزال يقهر بها السنين، ويحيلها إلى رماد. وقد اكتسب من عمله في جيش غاريبالدي مظهراً عسكرياً لا يزول، إلى جانب ما كان يتحلّى به من دماثة، نال عن طريقها النجاح في مغامرات حلوة عديدة من قبل، وأصبح الآن، مع أعماله العديدة الناجحة، يرعب بها المجالس الإدارية للبنوك وشركات القطن. لقد كانت نصف إيطاليا وجزء كبير من البلدان البلقانية يخيط الأزرار بخيوط منسوجة في (مؤسّسة تاسّوني وشركائه).

وبينما كان يجلس إلى جانب كونشيتا على كرسيّ منخفض، يستعمله الخَدَم عادة، راح يقول لها: "يا آنسة، لقد تحقّق الآن حلم من أحلام شبابي البعيد جدّاً. كم من مرّة في الليالي الباردة التي قضيناها ونحن نستريح في العراء على (الفولتورنو) أو حول حصون (غاييتا) المحاصرة، حدّثني عنكِ عزيزنا الذي لا يُنسى، تانكريدي! لقد كان يُخيّل إليّ أنني

أعرف شخصكِ، وأنني زرتُ هذا المنزل الذي قضيتِ بين جدرانه شبابكِ الجموح، وعلى الرغم من أنني جئتُ متأخّراً جدّاً، فإنه ليسعدني أن أستطيع تقديم تحياتي على قدمي تلك التي كانت مصدر تعزية لواحد من أخلص أبطال حملتنا الفدائية".

لم تكن كونشيتا معتادة كثيراً على مخاطبة أشخاص تعرفهم منذ الطفولة، وكانت كذلك لا تحبّ المطالعة إلا قليلاً، وهكذا لم يُتَحْ لها أن تكتسبَ مناعة نفسية أمام سِحْر البيان، بل لقد كانت تتخاذل أحاسيسها أمام إغرائه. فتأثّرت كثيراً بعبارات الشيخ حتّى لقد نسيت الحادثة الحربية التي يكاد يمرّ عليها قرن من الزمن، ولم تعد ترى في تاسوني ذلك الرجل الذي دنّس الأديرة، وروّع الراهبات المتعبّدات، وسخر منهنّ، بل رأت فيه شيخاً، وصديقاً لتانكريدي مخلصاً، يتحدّث عنه بتأثّر عميق، وقد جاء يحمل إليها - إلى شبحها - رسالة من الميّت مرسلة عبر خطى الزمن التي لا يراها المتوارون إلا نادراً.

- "وماذا كان يقول لكَ عنّي ابن عمّتي الحبيب؟".

ألقتْ هذا السؤال بنصف صوت، وبخجل أعاد إلى الحياة ابنة الثمانية عشر عاماً في تلك الكتلة من الحرير الأسود والشعر الأبيض.

-"آه! أشياء كثيرة! لقد كان يتحدّث عنكِ بمقدار ما كان يتحدّث عن السّيّدة أنجيليكا تقريباً! هذه كانت له الحبّ، وأما أنتِ، فكنتِ صورة الحداثة العذبة، تلك الحداثة التي تمرّ بنا نحن العسكريّيْن سريعة".

وعادت البرودة تشدّ من جديد ذلك القلب العجوز.. وكان تاسوني قد أخذ يرفع صوته وهو يلتفت نحو أنجيليكا قائلاً: "أتذكرين، أيّتها الأميرة،

ما كان يقوله لنا قبل عشر سنين في فيينا؟" وعاد، فالتفت إلى كونشيتا، يشرح لها قائلاً: "لقد ذهبتُ إلى هناك مع الوفد الإيطالي للمعاهدة التجارية. فاستقبلني تانكريدي، واستضافني في السفارة بقلب الصديق ورفيق السلاح الوفيّ، وببشاشة السّيّد الكبير. لعلّه قد تأثّر لدى رؤية رفيق قديم في السلاح في تلك المدينة المعادية، وكم حدّثنا عن أشياء من الماضي حينئذ! وفي مقعد خلفيّ في الأوبرا، بين تبديل مشهد بآخر من مسرحية (دون جوان)، باح لنا، بسخريّته التي لا مثيل لها، بأحد ذنوبه، أحد ذنوبه التي لا تُغتَفَر كما كان يقول، وقد اقترفه نحوكِ؛ نعم، نحوكِ أنتِ، يا آنسة" وتوقّف قليلاً، لكي يمُهلها لتستعدّ للمفاجأة، ثمّ قال: "تصوّري أنه حدّثنا كيف أنه في إحدى الليالي على العشاء في دونا فوغاتا، أباح لنفسه أن يخترعَ نكتة، ويرويها لكِ، وهي عن حكاية حربية، تتعلّق بمعارك باليرمو؛ وكيف أنكِ اعتقدتِ أنها صحيحة، وشعرتِ لها بإساءة بالغة، لأنكِ رأيتِ في الفعلة نفسها شيئاً من الصفاقة حسب الرأي الذي كان سائداً قبل خمسين سنة. ولقد أنّبْتِه أنتِ على ذلك. لقد قال لنا: "كانت عزيزة جدّاً حينما راحت ترمقني شزراً بعينَيْها الغاضبتَيْن، وشفتاها الحلوتان تنتفخان بالغضب كَشَفَتَي جرو صغير. كانت حلوة، بحيث لو لم أتمالك نفسي، لاحتضنتُها هناك، أمام نحو عشرين شخصاً، وأمام خالي الرهيب". لعلّكِ قد نسيتِ ذلك، يا آنسة، ولكن تانكريدي ظلّ يذكره جيّداً. لقد كان قلبه مرهفاً جدّاً؛ وكان يذكره أيضاً، لأنه اقترف تلك الإساءة في اليوم عينه الذي التقى فيه بالسّيّدة أنجيليكا لأوّل مرّة". وأشار نحو الأميرة بإحدى إشارات التحية خافضاً يمناه في الفضاء، وهو تقليدٌ غولدونيٌّ كان خاصّاً بشيوخ المملكة فحسب.

واستمرّ الحديث فترة أخرى، ولكنْ، لا يمكن أن يُقال إن كونشيتا قد

اشتركت فيه بنصيب كبير. إن هذه الحقيقة التي انكشفت فجأة قد دخلت عقلها ببطء، ولم تشعرْ لها بألم كثير في البداية، ولكنْ، حينما استأذن الزائران، وانصرفا، وبقيت وحدها، أخذت ترى الأمر بوضوح أكثر، وتتألم لذلك كثيراً. لقد كانت أشباح الماضي قد برزت منذ سنين، ولكنها ظلت متوارية في كل شيء، وكانت هي التي تضع المرارة في الطعام، وتجعل وجود الرفاق مزعجاً؛ غير أن وجهها الحقيقي لم يكن يظهر منذ زمن طويل. أما الآن، فقد قفز خارجاً متلبّساً بالسخرية القاتلة، ومنذراً بمصائب، لا دافع لها. من المؤكّد أن ممّا لا معنى له القول إن كونشيتا ما تزال تحبّ تانكريدي، فأبدية الحبّ إنما تدوم سنين قلائل، لا خمسين سنة، ولكنها كَمَنْ شُفي من الجدري منذ خمسين سنة، وما يزال يحمل منه البقع في وجهه، على الرغم من أنه نسي عذاب الداء نفسه، فهي ما تزال تحسّ في حياتها العسيرة الحاضرة بندوب من خيبتها التي أصبحت الآن تاريخية تقريباً، تاريخية إلى حدّ أنها الآن تحتفل رسمياً بالذكرى الخمسين لمرورها. إنها اليوم حينما تستعيد في ذهنها، نادراً، ما حدث في دونا فوغاتا في ذلك الصيف البعيد، ما يزال يجتاحها معنى من معاني العذاب الذي ذاقته، والألم الذي عانته، ومن الحقد على أبيها الذي أهملَها، والشعور المدمّر نحو ذلك الآخر المتوفّى. أما الآن، فإن هذه المشاعر التي كانت تُكوِّن الهيكل الكامل لطريقتها في التفكير، قد أخذت تتبعثر هي أيضاً. لم يكن هنالك أعداء، بل عدوّة واحدة: هي نفسها. لقد قتلتْ مستقبلها بعدم فطنتها، وبما في أسرة سالينا من فورة غضوب. وفي اللحظة التي عادت فيها الذكريات حيّة الآن بعد عشر سنوات، قلّتْ تعزيتها في إمكان نسبة تعاستها إلى الآخرين، تلك التعزية التي هي آخر تصفية خادعة لدى القانطين.

إذا كان ما قاله تاسوني صحيحاً، فإن الساعات الطويلة التي قَضَتْها

في الحقد أمام صورة أبيها، وما أخفته من صور تانكريدي الفوتوغرافية، لئلا تضطرّ إلى كرهه هو أيضاً، إنما كانت حماقات، أو أسوأ من ذلك، ظلماً شنيعاً؛ وازداد ألمها حينما عادت إلى ذهنها اللهجة الحارّة، وعبارات التّضرّع التي قالها تانكريدي لخاله حينما كان يرجوه أن يأذن له بدخول الدَّيْر. لقد كانت كلمات حبٍّ لها، تلك الكلمات التي لم تُدركها، وتركتها تهرب بسبب الكبرياء، وتنسحب كالجراء المذعورة أمام مرارتها وذبولها بين سيقانها. وصعد من قلب الوجود اللازماني ألم أسود، ليلطّخها كلها أمام هذه الحقيقة التي تجلّت لها.

ولكنْ، أكانت هذه هي الحقيقة؟ ليس في الدنيا مكان كصِقِلية، عُمر الحقيقة فيه قصير. لقد جرى الحادث منذ خمس دقائق، وها هو الخيال والمصلحة قد واريا بذرته الأصيلة، وغيّرا شكله، وجعلاه، وبدّلا هيأته، وضغطاه، ولاشياه: الحياء، والخوف، والكرم، والانقباض، واللياقة، والإحسان، وكل الميول الحسنة والسّيّئة على السواء تمضي سريعة فوق الحادث، وتفعل ذلك على دفعات؛ باختصار، لقد توارى. وكانت كونشيتا التعسة تريد أن تجد حقيقة مشاعرها التي لم تُعلنها، ولكنها كانت تكتفي بالإحساس بها قبل نصف قرن! لم تعد هناك حقيقة! وتحوّل عدم الاطمئنان لديها إلى عدم شعور بالألم.

وفي تلك الأثناء، كانت أنجيليكا والسناتور يُكملان رحلتها القصيرة إلى فيلا فالكونيري، وكان تاسوني قلق البال - لقد كان له مع أنجيليكا علاقة غرامية منذ ثلاثين سنة، وكان يتذكّر بلذّة تلك المودّة التي لا تُعوّض، والتي منحته إيّاها منذ ساعات قلائل بين شراشف فراشها الخاصّ، وهما راقدان معاً - فقال: "أنجيليكا! أخشى أن أكون قد آلمت قريبتكِ بنوع ما، هل لاحظتِ كيف كانت صامتة في نهاية الزيارة؟ لشدّة ما يسوؤني ذلك،

فهي سيّدة عزيزة".

فأجابت أنجيليكا بشعور مزدوج من الغيرة الغبية: "أعتقد أنكم قد آلمتموها فعلاً، يا فيتوريو، فلقد كانت مجنونة بحبّ تانكريدي، أما هو، فلم يأبه لها قطّ".

وهكذا انهالت طبقة جديدة من التراب على قبر الحقيقة.

***

كان كاردينال باليرمو إنساناً قدّيساً حقّاً؛ والآن بعد أن قضى منذ عهد طويل ما تزال ذكريات محبّته وإيمانه حيّة في الناس، أما في حياته، فقد كان الأمر غير ذلك: لم يكن الكاردينال صقليّاً، ولا كان حتّى جنوبيّاً أو من أبناء روما، ولذلك تعب كثيراً قبل سنين عديدة، بسبب كونه من الشمال، وهو يجاهد لكي يُفلح في تخمير عجينة الروحية البطيئة الثقيلة في الجزيرة عامّة، وفي الإكليروس خاصّة. وكان يعاونه اثنان أو ثلاثة من أبناء بلده، وقد خُيّل إليه في السنوات الأولى أن في وسعه إزالة سوء التّصرّف، وإزاحة العراقيل والحجارة المتراكمة في طريقه، ولكنه لم يلبث أن عرف حالاً أنه كان كَمَنْ ينفخ في الرماد، والفجوة الضئيلة التي استطاع أن يشقّها لم تلبث أن امتلأت حالاً بألياف معقّدة، فعاد كل شيء كما كان، مزيداً عليه تكاليف قَلْع الحجارة من الطريق، والسخرية من الجهد المبذول عَبَثاً، وإفساد المادّة المراد إصلاحها. وكجميع الذين كانوا في ذلك الحين يحاولون إصلاح أيّ شيء من طباع الصقليّيْن، سرعان ما أصبح في نظر الناس "معتوهاً" (وذلك صحيح من وجهة نظر البيئة)، واضطرّ إلى أن يقنع من الجهد ببعض أعمال الرحمة المستورة، وحتّى هذه لم تنفع إلا

في تقليل شعبيّته أكثر فأكثر، ولا سيما إذا كانت تكاتف المحسن إليهم أقلّ عناء، كأن يذهبوا، مثلاً، إلى القصر الأسقفي لنيل المساعدة.

كان، إذنْ، ذلك الحبْر العجوز الذي ذهب إلى قصر سالينا صباح اليوم الرابع عشر من مايو إنساناً صالحاً، ولكنه غير مخدوع، فقد انتهى به الأمر إلى أن يمُارِس في رعيّته أعمالاً من الرحمة مهينة (وفي بعض الأحيان، كانت، فوق ذلك، ظالمة)، وكانت هذه الأعمال تدفعه إلى استخدام أساليب فظّة صارمة، ظلّت تجرّه باستمرار إلى مستنقع النقمة والنفور.

وكما نعلم، كانت الأخوات سالينا مغيظات من تفتيش كنيستهنّ، إلا أن نفوسهنّ التي تشبه نفوس الأطفال، والأنثوية بطبيعتها، لم تكن تقنع بالترضيات الثانوية، ولو أنها غير منكورة، كأن يستقبلنَ في منزلهنّ أميراً من أمراء الكنيسة، وأن يُطلعنه على عَظَمَة بيت سالينا التي ما يزلنَ يعتقدن كل الاعتقاد بأنها لم تمُسّ بسوء، وعلى الأخصّ، أن يستمعنَ إلى عباراته المختلفة الرنين والإيقاع، وإلى خشخشة الملابس الحريرية الثقيلة التي يرتديها. ولكن المسكينات حتّى في هذه الأمنيّة الأخيرة قد خاب أملهنّ، فحينما نزلنَ الدرج الخارجي، ورأينَ نيافته يخرج من السّيّارة، سرعان ما عرفنَ أنه قد جاء في مظهر بسيط، فقد كان يرتدي جبّة سوداء خشنة، عليها أزرار صغيرة أرجوانية، تدلّ على منصبه الرفيع: وعلى الرغم من وجهه الذي تبدو عليه الطّيبة المهينة، فإن هذا الكاردينال لم يكن له مثل مهابة رئيس كَهَنَة دونا فوغاتا. كان لطيفاً، ولكنه بارد، وقد بالغ كثيراً في محاولة إظهار احترامه لأسرة سالينا، ولفضائل كل واحدة من الأوانس، إلى جانب كراهيّته عدم كفاءتهنّ وتقواهنّ الشكلية. ولم يجب بكلمة على عبارات الإعجاب التي كان يُطري بها المونسنيور النائب العامّ أنواع الأثاث في القاعات التي كانوا يعبرونها، وأبى أن يتناول شيئاً من الشراب الذي قُدِّم

له، بل قال: "شُكراً، يا آنسة؛ سأشرب شيئاً من الماء فقط، فاليوم بيرمون عيد شفيعي"، ولم يشأ حتّى أن يجلس، بل مضى إلى المعبد رأساً، وهناك جثا لحظة أمام سيّدة بومبي، وفتّش بسرعة خاطفة الذخائر المقدّسة، غير أنه بارك بوداعة الراعي الرحيم ربّات المنزل الجاثيات في مدخل المعبد، وبارك خدمتهنّ، ثمّ قال لكونشيتا التي كانت تلوح على وجهها علائم ليلة مؤرّقة: "يا آنسة، لن تُقام الصلاة في هذا المعبد مدّة ثلاثة أيّام أو أربعة، ولكنني سأُعنى بنفسي بإعادة تكريسه بأقصى سرعة ممكنة؛ وفي رأيي أن صورة سيّدة بومبي ستحتلّ، بكل جدارة، مكانها فوق الهيكل، وهو هيكل، يمكن أن يضاف إلى روائع القِطَع الفنّيّة التي رأيتُها وأُعجبتُ بها في أثناء مروري بقاعات منزلكنّ إلى هنا. أما الذخائر، فسأترك هنا الأب (باكيوتيّ)، وهو سكرتيري وكاهن ذو كفاءة عظيمة؛ وسيفحص الوثائق، ويخبركنّ بما يتوصّل إليه في أمرها؛ وما يقرّره سيكون كأنني قرّرتُهُ أنا نفسي".

وأذن للجميع بتقبيل خاتمه بحنان كثير، ثمّ صعد متثاقلاً إلى العربة، وتبعتْه حاشيته الصغيرة.

وقبل أن تصل العربات إلى منعطف آل فالكونيري، كانت كارولينا قد أطبقت فكَّيْها بغضب، وراحت عيناها تُرسلان سهاماً حانقة، وقالت وهي تُنشِّق أختها كاترينا رائحة كبريتية، لتُنعشها: (إن هذا البابا غير مسيحيّ في اعتقادي). وراحت كونشيتا تتحدّث إلى الأب باكيوتي هادئة، وكان هذا قد رضي أخيراً بتناول فنجان قهوة وقطعة كعك.

ثمّ طلب الكاهن مفتاح صندوق الوثائق، واستأذن في أن يمضي إلى المعبد بعد أن تناول من حقيبته الصغيرة قدّوماً ضئيل الحجم، ومنشاراً ومفكّاً، وزجاجة مكبّرة، وزوجاً من الأقلام. لقد كان من تلاميذ مدرسة تحقيق الكُتُب والوثائق القديمة في الفاتيكان، وعدا ذلك كان بييمونتياً.

وكان عمله طويلاً ودقيقاً، وكان الخَدَم الذين يمرّون من أمام مدخل المعبد يسمعون طَرقات القدّوم، وصرير البراغي وشهقاتها. وبعد ثلاث ساعات، ظهر من جديد بجبّة مغبرّة جدّاً، ويَدَيْن سوداوَيْن، ولكنه كان بادي السرور، وعلى محياه الذي تعلوه النظّارتان إشراقة صفاء؛ وراح يعتذر عن السّلّة الخيزرانية التي يحملها بيده قائلاً: "لقد أبحتُ لنفسي أن أستخدم هذه السّلّة، لأضع فيها الأشياء المنزوعة أوراقها؛ فهل يمكنني أن أضعها ههنا؟"، ووضع في زاوية حمله المملوء بالأوراق الممزّقة، والكرتون، والعلب الصغيرة المحتوية على عظام أو آثار أخرى، وتابع قائلاً: "يسرّني أن أقول إنني قد وجدتُ خمس ذخائر أصيلة أصالة كاملة، وجديرة بأن تكون موضع تكريم وتعبّد، أما الذخائر الأخرى، فإنها هناك" وأشار إلى السّلّة. "هل تتفضّلنَ، يا آنسات، فتقلنَ لي أين يمكنني أن أُنفض الغبار عنّي، وأنظّف يَدَيّ؟"

وعاد بعد خمس دقائق، وهو ينشّف يَدَيْه بمنشفة كبيرة، على طرفها تطريز بخيوط حمراء لفهد يرقص، وقال: "نسيتُ أن أذكر أن الأُطر سليمة وموضوعة من طاولة المعبد؛ البعض منها جميل حقّاً". ثمّ استأذن بالانصراف قائلاً: "احتراماتي الشديدة، أيّها الآنسات". ولكن كاترينا أبت أن تُقبّل يده، بل سألته: "وهذا الذي في السّلّة، ماذا نصنع به؟" فأجاب: "اصنعنَ ما شئتنّ بملء الحُرّيّة، يا آنسات: احتفظنَ به، أو اطرحنَهُ في النفايات، فليس له أيّ قيمة". وأرادت كونشيتا أن تأمر بإعداد عربة لإيصاله، ولكنه قال: "لا تتعبي نفسكِ، يا آنسة، فسأتناول غدائي في الدَّيْر القريب، على بُعد خطوَتَيْن؛ لستُ بحاجة إلى أيّ شيء"، وأعاد أدواته الصغيرة إلى الحقيبة، وانصرف بخطىً خفيفة مسرعة.

***

اعتكفت كونشيتا في غرفتها، لا يخالجها أيّ شعور؛ لقد خُيّل إليها

أنها تعيش في عالم تعرفه، ولكنه غريب عنها، وقد نالت منه كل اللكزات التي يستطيعها، ولكنه يبدو في صورة زاهية. لم تعد ترى في رسم أبيها غير بضعة سنتيمترات مربّعة من القماش، والصناديق الخضر غير أمتار مكعّبة من الخشب. وبعد قليل، حُمِلت إليها رسالة. كان الغلاف مختوماً بالأسود، وعليه تاج كبير نافر، ومكتوب عليه: "عزيزتي كونشيتا؛ لقد علمتُ بزيارة نيافته، ويسرّني أن يكون قد أمكن إنقاذ بعض الذخائر. أرجو أن أنال وعداً من المونسنيور النائب بأن يجيء ليقدّس أوّل قدّاس في الكنيسة بعد إعادة تكريسها. سيسافر الشيخ تاسوني غداً، وهو سعيد بما يحمله لكِ من تذكار طيّب، وأما أنا، فسآتي قريباً جدّاً لزيارتكِ، وفي أثناء ذلك، أعانقكِ أنتِ وكارولينا وكاترينا بمودّة عميقة - أنجيليكا".

واستمرّت لا تسمع شيئاً: لقد كان الخواء كاملاً في داخلها، إلا أن ضباباً كئيباً كان يتعالى من كومة الجلود. ذلك كان ألم هذا النهار: حتّى (بنديكو) المسكين كان يوحي بذكريات مريرة.

وقرعت الجرس، وقالت: "أنيتا، لقد أصبح هذا الكلب كثير العثّ والغبار، فاحمليه، واقذفيه بعيداً". وبينما كانت الجثّة المحنّطة تُجرّ من مكانها، كانت العينان الزجاجيّتان تنظران بتأنيب الذليل المرذول، الذي يُراد إزالته، والتّخلّص منه. وبعد دقائق قليلة، ألقي بما بقي من بنديكو في ركن من الحوش، يزوره الزّبّال كل يوم. وعند قَذْفه من النافذة إلى الحوش، استعاد شكله لحظة قصيرة: كان يمكن أن يُرى راقصاً في الفضاء حيوان ذو أربعة أرجل، وشاربَيْن، يُخيّل إلى الناظر أن مقدّمته اليمنى المرفوعة تستنزل اللعنات. ثمّ خمد كله في كومة من الغبار باهتة اللون.

(انتهت)

ملاحق

ترجمة: معاوية عبد المجيد

المقطع آ

مــن المفــترض أنّ لامبيــدوزا كان ســيضيفه كمُقدّمــةٍ للفصــل الرابــع "الزيــارة الأولى وخلــوات الخطيبَــيْن"

إنّ المودّة التي يبثّها وجود الكلب قد تُعدّل المزاج حقّاً، إزاء قلقٍ عامّ وباهت، أو قلقٍ ميتافيزيقيّ - إنّ صحّ التعبير - يمرّ به صاحب الكلب. أمّا إذا كانت أسباب القلق واضحةً ومحدّدة (كتابة رسالة مؤرّقة، انتهاء صلاحيّة أحد الكمبيالات، إجراء لقاءٍ مع شخص مقيت)، فلا ينفع معها أيّ هزّة ذَنَبٍ، أو نباحٍ مستعطف. تحاول الحيوانات المسكينة، ثمّ تحاول مرّة أخرى، تسعى لوهب نفسها إلى ما لا نهاية، فلا تُفلح في شيء. لأنّ تفانيها موجّهٌ إلى مجالات أسمى من المودّة البشريّة، وأكثر منها غموضاً. لذا، فإنّ مقترحاتها حيال الأزمات الفرديّة تسقط في العَدَم؛ وإنّ كلباً يبعث على الملامسة لا يُؤاسي مَن عليه ابتلاع ضفدع.

وهكذا، فإنّ واحداً من المؤشّرات الأولى على أنّ دون فابريتسيو قد استردّ صفاء نفسه، يظهر في استعادته لعلاقاته الأخويّة مع بنديكو. فاستطاع مجدّداً أن يتلذّذ بذلك المشهد الذي يظهر فيه الإنسان الضخم، وهو يتمشّى في الحديقة، برفقه كلبه هائل الحجم. كان الكلب يأمل أن يُعلّم الإنسانَ مذاقَ النشاط المجانيّ، وأن يلقّنه بعضاً من ديناميكيّته الخاصّة. في حين قد يتمنّى الإنسان أن يُقدِّر الحيوانُ - من خلال المودّة

– متعةَ الكسل الرفيع والأكابريّ، على الأقلّ، إن لم نقل التّمعّن المتجرّد أيضاً. ومن المعروف أنّ محاولات كلَيْهما باءت بالفشل، لكنّهما كانا في غاية السعادة رغم ذلك؛ إذ إنّ السعادة تكمن في البحث عن الهدف، وليس في الوصول إليه؛ هكذا يُشاعُ على الأقلّ.

المقطع ب

(غير مُكتمل) كان من المفترض أن يجد مكانه بين الفصل السادس "الرقص" والفصل السابع "موت الأمير"

ديوان آل سالينا الشعريّ

خلال الأعوام التي تَلَتْ تشكيل المملكة الإيطاليّة مباشرةً، وقبل عام ١٨٦٦ ذاك، الذي وقعت فيه المملكة نفسها في أوّل أزمةٍ، أعقبتْها أزماتٌ كبرى، استطاعت عائلة أمير سالينا أن تتوصّل إلى مستوىً من التوازن، يعينها على متابعة هذه الحياة بانسياب.

في عام ١٨٦٣، أتمّ دون فابريستسو سنواته الخمسين، فَعَدّ نفسه – وفقاً لمعايير ذلك الزمن الصائبَة – هَرِماً ومتقاعداً حتماً. فليكن واضحاً: التقاعد في ما يخصّ التّجليّات البطوليّة والدنيويّة، والعلميّة أيضاً؛ أمّا في ما يخصّ الإمبراطوريّة العائليّة، فقد صار دوره مكثّفاً فيها بدل أن يتضاءل، وهذا، تماماً، بسبب الحصار الخانق الذي تشهده جبهة الهجوم.

وقد اقتدت الأميرة ماريا ستيلا بمثال زوجها، في هذا الأمر أيضاً؛ بل إنّها اقتدت به، لدرجة أنّها عادت ترتدي البزّة التي ترتديها النسوة العجائز في تلك الآونة؛ وكم من مرّة رأوها في ثيابٍ، يكاد يختفي فيها الحرير الرماديّ

أو البنّي تحت أحجبةٍ سوداء وفضفاضة؛ وبات وجهها - رغم تألّق عينَيْها بعنفوان الشباب - مطوّقاً على الدوام بأشرطةٍ عريضة من الكابوت، شهادة ميلادٍ، تقدّمها عارضات الأزياء، والتي كانت تساوي الراية التي تُنكّسها السفن الحربيّة، إذا منعتْها نيرانُ العدوّ عن الالتفاف.

وكان باولو، نجله ودوق كويرشيتا، يبدو أنّه هجر عائلته، من الناحية الوديّة، ليُصبح ربيباً عند خيوله. كانت أسماء الخيول تتحوّل ببطء من أسماء نورمانديّة وفروسيّة - تحت الحكم البربونيّ - إلى أسماء أخرى ذات رنّةٍ أنغلوساكسونيّة. بدأ التّحوّل بـ"روفوس"، لقبٌ إنكليزيّ ومَلَكيّ، في الآن ذاته؛ ومن بعده، تنازع "سويفتشر" و"دستروير" و"الليدي فير" على نيل محبّة الشّابّ الأرستقراطيّ. ومع أنّها غيّرت أسماءها وسراجها، ظلّت تلك الخيول على حالها، متأنّفة وجلفة الطباع، تحرن دوماً، وتكثر الشكوكُ حول أصالة دمائها، حتّى إنّها - متناسيةً عناية باولو وحنانه - كادت تُعرّض حياة أبنائها للموت أكثر من مرّة. وفي تلك الأعوام أيضاً، راح باولو يتقرّب من أحد بنات عمومته، مالفيكا، آنّينا. ولعلّ هذا التّقرّب حاز على رضى الخيول، ولكنْ، ليس على رضى دون فابريتسيو بالتأكيد، إذ أصدر الأمير في تلك المناسبة حكمه القاضي - بناءً لأصله الصقليّ - على أيّ زيجةٍ لأبنائه، وقد جاء هذا الحكم مشدّداً هذه المرّة لشدّة ما استنزف اسم مالفيكا أعصابه الأبويّة منذ زمن. وعلى الرغم من هذا، انتهى التّقرّب بالعثور على مصبّه المتعَب في قِرانٍ عُقِد بعد بضع سنوات.

وكان الفتية الآخرون يكبرون، والكبار يصبحون رجالاً، ويخاطرون في ولوج منتديات شبقةٍ ومُفزعة، في باليرمو، أو نابولي كَحَدٍّ أقصى. أمّا الآنسات، رغم أنّهنّ جميلاتُ ويانعات، فكان ذلك الرمادُ الثقيل، المشؤوم والجامد، يتراكم حولهنّ، ذلك الرماد الذي يُبشّر بالعنوسة.

بعد خطوبة طويلة، مَردّ طولها صِغَر سنّ أنجيليكا، انتهى المطاف بتانكريدي في الزواج؛ وراح مُحمّلاً بأكياس الدنانير، ومباركة مزدوجة، فَهْديّة وسيداريّة، يسافر على مدى عام كامل، مع عروسته، في أرجاء أوروبا: كلّ مَن في باريس، وبادن، والبندقيّة، ولندن، وسبا، رأوا ذلك الزوج المذهل والمسرف في إنفاقه؛ وقد أصاب جمال الأميرة الشّابّة، الاستثنائيّ حقّاً، قلوبَ الكثير من الرجال، بحُبٍّ أفلاطونيّ، بما فيها تلك القلوب التي لا يُعجبها العَجَب؛ بينما رضخت الكثير من النساء، سواءً أكنّ من الكونتيسات أم من خادمات الفنادق، لاستسلامٍ أقلّ أفلاطونيّة، أمام دهاء العريس وخبثه المميّز.

وفي تلك الأثناء، كانت فيلا فالكونيري تشهد أعمال ترميم واسعة، يديرها دون فابريتسيو، ويموّلها دون كالوجيرو؛ وعند عودة الحمامَتَيْن، وجدا عشّاً، لا تستطيع الأرائك المخمليّة وخزفيّات مينتون أن تخفي عنه نبل المظاهر الأصيلة، بل دحرت عنه أشباح الورثة والدناءة نهائيّاً بعد أن خيّمت بظلالها على ذلك المكان طويلاً. كان تانكريدي ما يزال صغير السّنّ لتوليّ مهامّ سياسيّة معيّنة، لكنّ نشاطه وأمواله الطازجة جعلت من وجوده ضروريّاً في أيّ مكان؛ كان ينشط في التفاوت الانتهازيّ من "أقصى اليسار إلى أقصى اليمين"، وثّابٌ عجيبٌ، لا بدّ من أن يسمح له باستعراض بهلوانيّاته المذهلة التي تلفت الانتباه، وتستحقّ التقدير؛ لكنّه استطاع بحكمةٍ أن يخفي غزارة نشاطه السياسيّ، وذلك بلا مبالاةٍ وخفّةٍ في التعبير تجعله قريباً من الجميع.

وجد الأب بيرّونه نفسه عالقاً في مشاكل أسرته، بالغة الخطورة والتعقيد؛ وكم يسرّنا أن نقول إنّه نجح في تجاوُز تلك العوائق بحكمة وشهامة متوقّعَتَيْن

من جانب كاهنٍ موقّر مثله؛ بل لقد استطاع أن يستخرج من تمعّنه في تلك المآسي البشريّة بعض الاستنتاجات العامّة والمهمّة.

وظلّ قصر دونا فوغاتا يبثّ البهجة الباروكيّة، من خلف ستائره وبين نوافيره، في أتعس لحظات الشقاء الصقليّ تماماً؛ تحت الإدارة المحدثة للدون كالوجيرو، كنائب وعمدة، اغتنت البلديّة بمدارس مَبنيّة فقط من الأحجار الأولى، ومن مجاري الصرف المحفورة بالمناشير.

وحصل شيفاليه دي مونترتسوولو على ترقية، فنُقِل إلى غروسيتو، بعد عام من إقامته في جرجنتي، وعامَيْن في تراباني؛ وقبل أن يغادر صِقِلية، توجّه، ليودّع الأمير، وليعبّر له عن اعترافه الشخصيّ برجاحة عقله.

وازدهر الشِّعر في هذا الجوّ من الصفاء الانتقاليّ في بيت سالينا. وفيمَ الغرابة؟ في القرن الماضي، لم يكن الإنتاج الأدبيّ - رغم رداءته، بل ربّما بسبب رداءته تحديداً - منفصلاً كأيّامنا هذه عن حشود البشر الفانين، ومحصوراً بين قلّة من روّاد المنتديات والألغاز الوَهْميّة؛ كثير من الأشخاص - بمَنْ فيهم ذوو الثقافة الضحلة - كانوا يترجمون عواطفهم إلى أشعار موزونة للغاية، تخلو من أيّ مطامح نشريّة، اللهمّ إلّا من هاجسٍ متأجّج للخلود، كما يتضّح دوماً من الطريقة الملتوية في حفْظ النصوص. وليس في نيّتنا الكتمان عن أنّ غالبيّة تلك القصائد من الفحش والبذاءة ما يصل حدّ الإعياء؛ لكنّ عيّنةً من تلك الأعمال المُغيّبة تكشف - من خلال سذاجة مثيرة للشفقة - عن مشاعر قويّة وعذبة، غالباً ما تكتنف الشكوكُ مصداقيّتها، لا سيّما إذا تعمّقنا في سيرة مؤلّفها وسماته. بقراءة بعض القصائد من هذا النوع، يتولّد لدينا انطباعٌ بأنّنا أمام روح عظيمة، يُزّج بها في سجنٍ موصدٍ، جدرانه مشيّدةٌ من الميول الواهية، وانعدام التّطبّع

بكبار الشعراء؛ بعبارةٍ أخرى: مثل نارٍ محاصرةٍ بحطبٍ رطب، تُصدِر الكثير من الدخان والقليل من اللهب، من دون أن تنزع عنها هذه الحالةَ سماتِ عنصرها النبيل التي نشأت منه؛ ذلك الانطباع نفسه الذي يراودنا حين نقرأ سوناتات ميكيل أنجلو أو مآسي ألفييري؛ أو - إذا أردنا توخّي الصواعق الأكاديميّة - حتّى الترجمات الإيطالية لأشعار ميلتون وغوته.

وكنتيجة إحدى تلك المزحات التي يقوم بها القصف الجوّيّ، إذ يزيل أغراضاً ثمينةً، لكنّه يكشف عن وجود أغراضٍ أخرى مَنسيّة؛ هكذا تمّ العثور على ملفّ من ورق أزرق وسميك، بين الأنقاض، مُغطّىً برماد الركام الحزين، وعلى غلافه عنوان مضحك - أو نأمل أن يكون كذلك: "ديوان آل سالينا الشّعريّ". كان الملفّ يحتوي على كتيّب صغير وهزيل مطبوع في باليرمو ("من مطبعة إي. بيدون لوريل - ١٨٦٣")، ويظهر على صفحته الأولى: "مديح وتمجيد لأسرة أمراء سالينا كوربيرا المعظّمة، احتفالاً بمرور خمسين عاماً على ولادة صاحب السعادة دون فابريتسيو كوربيرا، أمير سالينا إلخ، إلخ، من تأليف وإهداء الأب اليسوعيّ الجليل سافيريو بيرّونه". وبعد ذلك، يوجد عدد كبير من الأوراق متفاوتة الحجم والسماكة، تزخر جميعها بخطّ دون فابريتسيو المنمّق؛ قرابة ثلاثين سوناتا (سبع وعشرين للدقّة)؛ إضافة إلى وريقات قليلة، مكتوبة هي أيضاً بيد الأمير، معنونة بخطّ واضح بـ"عملٌ للعزيز تانكريدي".

هنا نُعيد نشر مديح الأب بيرّونه كاملاً، ليس لقيمته الأدبيّة طبعاً، بل لأنّه ملائم لإلقاء الضوء على الوسط الاجتماعيّ الذي أزهرت فيه براعم اليسوعيّ البلاغيّة، المثيرة للعواطف رغم حدود آفاقها.

من جانب آخر، يؤسفنا عدم نشر كامل سوناتات دون فابريتسيو؛

فالمصاعب التي لاقتْها مخالب الفهد في حلّ العقدة العويصة للنثر والشّعر في زمانه، بدت عَصيّة على المواجهة في أغلب الأحيان. فمعظم هذه السوناتات، التي لا بدّ من أنّها كانت شديدة الوضوح في نظر مؤلّفها، ستكون عَصيّة على الفَهْم، بالنسبة إلى قارئ من أيّامنا هذه، ففيها تكثر المشاكل النَّحْويّة والعروضيّة. وبما أنّه قد يبدو من المعيب إظهار صورة تستحقّ الاحترام لأسباب عديدة أمام سخرية جمهورٍ، لا يُفضّل الغموض في الشّعر إلّا إذا كان متعمّداً وغير ناتج، كما في هذه الحالة، عن صعوبة محزنة في التعبير؛ فضّلنا أن نجري رقابة قاسية، وأن نقدّم فقط تلك القصائد القليلة التي لم تُشوّهها النواقص؛ بهدف الكشف عن جانبٍ غير مُتوقّع من شخصيّة دون فابريتسيو، والذي نتمنّى أن يجعله عزيزاً أكثر عند القارئ الذي سبر أغوار هذه الصفحات المجدبة.

أمّا قصائد تانكريدي، فكانت قليلة، لدرجة أنّنا لم نرَ من الضروريّ إعادة نشرها؛ كما أنّ مضمونها يفتقر إلى العمق، وتُبرز إلى الظاهر جانباً جذّاباً لـ"بطل فديتنا".

نتمنّى أن يعذرنا القارئ لاضطرارنا إلى إثقال النّصّ ببعض الملاحظات الضروريّة لإيضاح الكثير من الدلالات العائليّة والشخصّية في هذه الأعمال الرديئة.

مديح وتمجيد

مديـح وتمجيـد لأسرة أمراء ســالينا كوربــيرا المعظّمة، احتفــالاً بمرور خمســين عامــاً عــلى ولادة صاحب الســعادة دون فابريتســيو كوربــيرا، أمير ســالينا، إلــخ، إلخ.

من تأليف وإهداء الأب اليسوعيّ الجليل سافيريو بيرّونه

كلّ البدايات شقيّة
على هذه الكرة الأرضيّة؛
آدمٌ يولد من الطين
والفراشة من الشرنقة.

بطرس يشقى في الماء
كان يعمل صيّاداً؛
وفي إسطبلٍ وُلد
مُخلّصُ البشريّة.

روما العظيمة والمقدّسة
جاءت بفعل حرّاثٍ دنيء
والآن يفتخر التاريخ
بأنّه حرث أوّل أخاديدها.

وفي مانريزا المتواضعة
في ظلام كهفٍ ما
أشعِل ذلك اللهب
ليعلن عن مجدٍ أبديّ(*).

هذه الولادات قادت
الزمنَ ليصبح الآن أجمل
وليخلّد فيه
مَن ولد مِن نجمة.

ذاك الذي يحكم بلاد الغال
متربّعاً على عرش الملوك المقدّسين،
إنّه من قطيعٍ سائرٍ
وما يزال مشكوكاً بأمر ولادته(**).

وأنتِ وحدكِ، يا أسرة سالينا
ممجّدة الذّرّيّة ومحبوبة
ولادتك شبه إلهيّة
من نورٍ متوّج!

تُشرفين على التاريخ
بهامةٍ مرفوعة

---

*) الشاعر يمُجّد أصوله المتواضعة في "الجماعة اليسوعيّة". وبالفعل في كهف مانريزا في إسبانيا، لمعت فكرة تنظيم الجماعة في ذهن إغناثيو دي لويولا.

**) يشير الشاعر هنا إلى مخاصمة الإكليروس لنابليون الثالث الذي سمح بضمّ جزء كبير من الولايات البابويّة إلى المملكة الإيطاليّة؛ ويُنوّه إلى افتراض أن يكون الإمبراطور قد وُلد من علاقة غير شرعيّة.

ذكرياتكِ بهيّة
وتعشقكِ المحبّات والممالك.

على هضبة البالاتين المشرّفة
لكِ من فضائل تيتوس؛
ولبرنيس الفضل
في تشكيل بذرتكِ المتألّقة(*).

حصلتِ من يهودا التقيّة
على حبّ الرّبّ الحقيقيّ؛
ومن روما نصف الإله
الشرف الراسخ والنبيل.

كان حبّاً شهيراً
ذاك الذي كان في أصولكِ؛
سيتغنّى به الصالحون
على مدى الزمان.

وقد نطق كرنيليوس الخطير
بثلاث كلمات موجزة
قائلاً أكاذيب شرّيرة
ومسبّباً أقسى المآسي(**).

---

*) في هذا المقطع وما يتلوه من أبيات، يشير الشاعر إلى العُرْف الذي يُنسب أصول آل سالينا إلى الحبّ بين الإمبراطور تيتوس والأميرة برنيس.

**) المقصود هو كرنيليوس تاسيتس، والذي بتلك "الكلمات الثلاث المختصرة" (رغمًا عنه وعنها) أوقع المأساة في ذلك الحبّ. الشاعر يمجّد الكلمات، لكنّه يعدّها "أكاذيب شرّيرة"، بما أنّها تناقض فرضيّته عن مغامرات الزواج بين ذينك العاشقين.

وذاك راسين البارع
الذي نظم القصيد في فرنسا
والذي سرّحه جانسينز
بهمّةٍ فعّالة

أخرج بقيثارته
من ذلك الحبّ الحكيم
أناشيد، يحبّها العالم
ويثني عليها، وليست دمويّة.

لكنّ الأشرار عديمو الإيمان
فالدرك الأسفل من نصيبهم
يقولون في الظلمات:
"أمَا من خوريٍّ ينقذنا؟!"

فلتعُد الأكاذيب إلى أفواههم!
ولتكنْ خيبتهم في كفرهم
وليذوقوا أشنع أنواع العذاب!

فها أنا أستثنيهم
من الحقيقة السامية
التي تثري الغار العفيف
وليحمِ الميلاد
هذه الأسرة بأسرها!

سوناتات دون فابريتسيو

تحت شمس أغسطس، تبدو مياه الخزّان
متماسكةً وملساء، كأنّها صخرة مرمر
خضراء، قابعة هناك، منزوية،
كآخر سدٍّ في وجه الرياح الشرقيّة العاتية.

ولكنْ، لا. من منفذٍ صغير
وسرّيّ، يتبدّد كلّ ما هو مكنوز؛
وينساب عَبَثاً، غبيّاً، ولا جدوى منه
تلؤلؤ الحصى في نورٍ موضوع.

وكلّما هبط المستوى ببطء،
أظهر كم من قبيح، ولزجٍ، ومميت
يبقى في قعره: وحلٌ، ديدان، وآلامُ

شمسٍ تحترق، وآلام كلّ ضعفنا
الحزين إذا برز وظهر:
ما كان في الماضي نجاةٌ، بات الآن عفونة.

***

حينما يهبط الحبّ في قلبِ عجوز
يتابع طريقه ببطء، وبين عوائق الحزن
وآمالٍ مدفونةٍ وممزوجةٍ بالبكاء
عليه أن يفتح طريقه؛ ومومياءاتٌ(*) فظيعة

من حنينٍ ذاوٍ(**) تقطع عليه دروبه.

---

*) فوق "مومياءات" المؤلّف يكتب "أشباح"، لكنّه لا يشير إلى تفضيل إحدى الصفَتَينْ عن الأخرى.

**) فوق "ذاوٍ" المؤلّف يكتب "ميّت"، لكنّه لا يشير إلى تفضيل إحدى الصفَتَينْ عن الأخرى.

وفي النهاية يستقرّ، ويخلع أثوابه:
وما في عينَيْه سوى سخرية جارحة،
ليس إلّا، كما كان له أهواء متوارية.

طاغية في صباه، سفّاحٌ في شيخوخته،
لم يعد فيه ما يدلّ على الحياة، بل على الموت
ولا يستثير سوى العذابات والرعب والعار والشجار.

إنّني أعاني، أبكي، أصرخ، وهو يستهين بي؛
يكويني بالتعذيب والأباطيل،
متغطرساً يطاردني إلى اللعنات السود.

الدكتور عيسى الناعوري*
(١٩١٨-١٩٨٥)

ولد عيسى إبراهيم الدبابنة، في قرية ناعور عام ١٩١٨، وأتم فيها دراسته الابتدائية. أما دراسته الثانوية فكانت في المدرسة الإكليريكية في القدس. عمل الناعوري في تدريس اللغة العربية وآدابها ١٥ سنة، في مدارس أهليّة في فلسطين والأردن، ثم عمل سكرتيراً ومفتشاً لإدارة مدارس الاتحاد الكاثوليكي في الأردن لثلاث سنوات، وموظّفاً في وزارة التربية والتعليم لـ ٢١ سنة، من ١٩٥٤-١٩٧٥، ولمّا أُسّس مجمع اللغة العربية الأردني عام ١٩٧٦ عمل أميناً عاماً له حتّى وفاته عام ١٩٨٥.

كانت صلته وثيقة بالعديد من أعلام الأدب العربي، والإيطالي، والمستشرقين، في أنحاء العالم. وتقديراً لجهوده الأدبية كرّمته إيطاليا بمنحه درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة باليرمو عام ١٩٧٦، وهو ثالث عربي ينالها بعد طه حسين، وحسن عثمان، وبجعله عضو شرف في مركز العلاقات الإيطالية العربية، وعضواً في أكاديمية أصدقاء أومبريار، كما منحته الأكاديمية العالمية للفنون والثقافة في تايبي في تايوان الدكتوراه الفخرية عام ١٩٨١م.

شارك الناعوري في عدد كبير من المؤتمرات العربية والدولية والاستشراقية، ونال وسامين رفيعين تقديراً لأدبه من رئيس الجمهورية

---

*) المصدر: من موقع المعرفة: marefa.org.

التونسية والجمهورية الإيطالية. ودُعي لإلقاء محاضرات عديدة بالعربية، والإيطالية، والإنكليزية، في عدّة بلدان عربية، وفي جامعات إيطاليا والاتحاد السوفيتي وإسبانيا والمجر. تُرجمت بعض أعماله الأدبية إلى الإيطالية، والإنكليزية، والروسية، والمجرية، والفرنسية، والإسبانية، وكان عضواً مراسلاً للمجمع العلمي العراقي والمجمع العلمي الهندي.

أصدر مجلّة "القلم الجديد" الأدبية الشهرية عام ١٩٥٢، واستمرت لمدّة عام فقط واستطاعت برغم قصر مدّتها وضآلة إمكانيات صاحبها ،أن تتخطّى ضفّتي الأردن لتصل إلى مختلف الأقطار العربية والكثير من أوساط الاستشراق في العالم.

مؤلفاته

في الشعر:

- الربيع الذابل ، مطبعة الآباء الفرنسيين، القدس، ١٩٣٩.
- أناشيدي، دار الرائد العربي، حماة، ١٩٥٥,
- أخي الإنسان ، دار الرائد، حلب، ١٩٦٢.
- همسات الشلال، دائرة الثقافة والفنون، عمان، ١٩٨٢ •
- أناشيد أخرى، دائرة الثقافة والفنون، عمان، ١٩٨٣.
- الفتاة ذات الصوت المخملي (للأطفال)، شقير وعكشة، عمان، ١٩٨٦.

في القصة:

- طريق الشوك، مكتبة الاستقلال، عمان، ١٩٥٥.
- خلّي السيف يقول، مكتبة الأندلس، القدس، ١٩٥٦.
- بطولات عربية في فلسطين (٤ طبعات)، د.ن، عمان، ١٩٥٦-١٩٦٢.
- عائد إلى الميدان ، دار الرائد، حلب، ١٩٦١.

- نجمة الليالي السعيدة (للأطفال)، المطبعة الوطنية، عمان، ١٩٦٢.
- أقاصيص أردنية، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٦٧.
- حكايا جديدة ، دائرة الثقافة والفنون، عمان، ١٩٧٤.
- روما.. عمان (للأطفال)، المطبعة الوطنية، عمان، ١٩٧٨.

في الرواية:

- مارس يحرق معداته، سلسلة إقرأ رقم ١٤٧، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٥.
- بيت وراء الحدود، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٥٩.
- جراح جديدة، دار السياحة، بيروت، ١٩٦٧.
- الشريط الأسود، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٣.
- ليلة في القطار، دار فيلادلفيا، عمان، ١٩٧٤.

في الدراسات:

- الجديد في الأدب العربي، دار الكشاف، بيروت، ١٩٥٠.
- إيليا أبو ماضي رسول الشعر العربي الحديث، ط١، دار الطباعة والنشر، عمان، ١٩٥١ ، ط٢، مكتبة عديدات، بيروت، ١٩٥٨.
- إلياس فرحات شاعر العروبة في المهجر، دار النشر والتوزيع والتعهدات، عمان، ١٩٥٦.
- أدب المهجر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩.
- أدباء من الشرق والغرب، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٦٧.
- نظرة إجمالية في الأدب المهجري، د.ن، عمان، د.ت.
- مهجريات ليبيا، الدار القومية للكتاب، تونس، ١٩٧٤.
- شعر المهجر، دار المعارف، مصر، ١٩٧٩.
- الحركة الشعرية في الضفة الشرقية من المملكة الأردنية الهاشمية، وزارة الثقافة والشباب، عمان، ١٩٨٠.
- نحو نقد أدبي معاصر، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، ١٩٨١.

- دراسات في الأدب الايطالي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١.
- خليل السكاكيني: أدبياً ومربياً، دار الكرمل، عمان، ١٩٨٥.

في أدب الرحلات:

- مذكرات بلغارية (رحلة)، دار فيلادلفيا، عمان، ١٩٧٤.
- في ربوع الأندلس، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، ١٩٧٨.

في المقالات:

- مع الحياة والناس، دائرة الثقافة والفنون، عمان، ١٩٨٥.

في الترجمة:

- أطفال وعجائز (قصص مترجمة) دار المعارف، القاهرة، ١٩٦١.
- فونتمارا (رواية)، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٦٣.
- مأساة الإنسان (شعر)، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٦٩.
- من القصص العالمية (قصص)، د.ن، عمان، د.ت.
- الفهد (رواية) منشورات عويدات، بيروت، ١٩٧٣.
- مختارات من الشعر الايطالي المعاصر (بالعربية والايطالية)، د.ن، دمشق، ١٩٧٨.
- بائعة الكبريت (للأطفال)، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ١٩٨١.
- خمس حبات في غلاف واحد (للأطفال)، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ١٩٨١.
- حقيقة غرف الغاز النازية، دار الكرمل، عمان، ١٩٨٣.
- الرجال والرفض دائرة الثقافة والفنون، عمان، ١٩٨٥.
- مختارات من الشعر الإيطالي المعاصر، مطابع ألف باء - الأديب، دمشق، ١٩٨٧.

فهرس المحتويات

ملاحظات الناشر ٥

مقدّمة جورجو باسّاني للطبعة الأولى عام ١٩٥٨ .... ٧

الفهد ١٣

تقديم للمستعرب الإيطالي أومبرتو ريتستانو......... ١٥

١. الأمير في أسرته وإقطاعه.......................... ٢١

٢. الرحلة إلى دوّنا فوغاتا ٦٩

٣. رحلة صيد ١١٣

٤. الزيارة الأولى وخلوات الخطيبَيْن.................... ١٦١

٥. في أسرة الأب بيرّونه ٢١٧

٦. الرقص.. ٢٤٣

٧. موت الأمير ٢٧٣

٨. الأميرات الثلاث ٢٨٩

ملاحق ٣١٥

المقطع آ.. ٣١٧

المقطع ب... ٣١٩

مديح وتمجيد... ٣٢٥

عن الدكتور عيسى الناعوري (١٩١٨-١٩٨٥) ٣٣١

من الكتاب:

.. «وانفتح الباب. «إنكَ الليلة لذو جمال باهر، يا خالي؛ بل إنكَ في اللباس الأسود قد بلغتَ حدّ الكمال. ولكنْ، ما هذا الذي تنظر إليه؟ أتجالس الموت؟»

كان تانكريدي متأبّطاً ذراع أنجيليكا، وما يزال كلاهما تحت التأثير العاطفي للرقص، منهوك القوى. فجلست أنجيليكا، وطلبت إلى تانكريدي أن يعطيها منديلاً لتجفيف العَرَق عن عارضَيْها، ولكن دون فابريتسيو كان أسرع منه إلى تقديم منديله. وجعل الشابّان ينظران إلى اللوحة دون اكتراث، إن فكرة الموت بالنسبة إليهما كانت شيئاً عقلياً محضاً، أو بمعنى آخر كانت بعض المعلومات الثقافية فحسب، لا تجربة خالطت لبّ عظامها. الموت موجود دون ريب، ولكنه كان شيئاً لاستعمال الآخرين. وكان دون فابريتسيو يفكّر في نفسه أن الجهل المطبق بهذه التعزية الكبرى هو الذي يجعل الشّبّان أعنف شعوراً بالألم من الشيوخ؛ لأن مخرج الأمان أقرب إلى هؤلاء منه إلى الشّبّان.»..

المتوسط

جوزيبِّه تومّازي دي لامبيدوزا، أمير لامبيدوزا (الجزيرة الأشهر الآن). وُلد عام ١٨٩٦. واشترك في الحرب العالمية الأولى برتبة ضابط، وبقي في الجيش حتّى عام ١٩٢٥. ثمّ عاد إلى حياته الخاصّة، وقام برحلات وإقامات طويلة في الخارج بعد أن تخرّج في الحقوق من جامعة تورينو.

أُصيب تومّازي بمرضٍ خطير في ربيع عام ١٩٥٧، وتوفّي في روما، حيث ذهب في محاولة قصوى للعلاج، في شهر تمّوز من العام نفسه. هذه روايته الوحيدة، وله أيضاً مجموعة قصصية تصدر قريبا عن المتوسط.

منشورات المتوسط

والآن يسعدني أن ألفت الانتباه إلى هذه الرواية الوحيدة التي تركها لنا لامبيدوزا. رواية مكتملة بفصولها كلها. شمول رؤيةٍ تاريخيّة ممزوجةً بنظرةٍ ثاقبة للواقع الاجتماعيّ والسياسيّ في إيطاليا المعاصرة، وفي أيّامنا هذه. موهبةٌ حميدةٌ في السخرية. طاقةٌ شعريّة هائلة وأصيلة. إخراجٌ تعبيريّ متكامل وساحر. كلّ ما في هذه الرواية، في رأيي، يجعل منها عملاً أدبيّاً استثنائيّاً. روايةٌ من تلك الروايات التي تستغرق حياةً كاملة للعمل عليها. ومثلما في «نوّاب الملك» لفيديريكو دي روبيرتو، ففي «الفهد» أيضاً، نحن أمام عائلةٍ من أعلى الطبقات الأرستقراطيّة التي تعيش في جزيرة، عائلة بصيرة باللحظة التاريخيّة التي تشهد تحوّل النظام الحاكم، وتبدّل العصور، وانقلاب الأحوال. لا وجود لأيّ تفاصيل توثيقيّة تنهك متن الرواية، لا وجود لسماتٍ طبعانيّة موضوعيّة. ترتكز الرواية كُلّيّاً على شخصيّة واحدة، الأمير فابريتسيو سالينا، الذي قد يحمل تلميحات إلى والد جدّ الكاتب، لكنّه يمثّل لوحةً ذاتيّة للكاتب نفسه أيضاً، لوحةً شاعريّة وأسطوريّة. وهذا ما يجعلنا نراه أقرب إلى كاتبٍ معاصر أكثر من دي روبيرتو. فلنقل برانكاتي مثلاً، أو أحد أدباء بريطانيا في أوائل القرن العشرين، فورستر على سبيل المثال.

جورجو باسّاني

ISBN 978-88-85771-04-8
9 788885 771048

المتوسط